

أتيلا الهوني

ملك البرابرة وسقوط روما

تأليف: جون مان
ترجمة: عمرو الملاّح



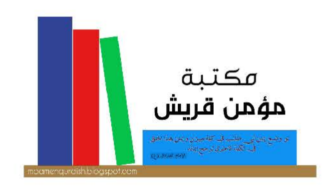
أتيلا الهوني
ملك البرابرة وسقوط روما

تأليف
جون مان

ترجمة
عمرو الملاح

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

D141 .M3612 2013
-Man, John, 1941
أتيلا الهوني: ملك البرابرة وسقوط روما / تأليف جون مان ؛ ترجمة عمرو الملاح.- ط. 1.-
أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2013.
ص. ؛ سم.
ترجمة كتاب: Attila the hun: a barbarian king and the fall of Rome.
تدمك: 6 - 240 - 17 - 9948 - 978
1. Attila, .d.453 2. الهون – تاريخ. أ. ملاح، عمرو. ب.العنوان.







الطبعة الأولى 1434هـ 2013م

أبوظبي – الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@tcaabudhabi.ae
www.tcaabudhabi.ae

أتيلا الهوني

شكر وعرفان

أودّ أن أعرب عن شكري وعرفاني لكل من: تود ديلي، أريزونا؛ وبورسو بيلا، وإيلونا، ودوري، سزار؛ ويولي درويبشيف، معهد الدراسات الشرقية ومعهد مشكلات البيئة والتطور، موسكو؛ وبيترا إنجيلندر، سيبرغ، برلين؛ وغيليغدورج إيريغزين، المتحف الوطني للتاريخ المنغولي، أولان باتور؛ وبيتر هيثر، كلية ورشيستر، أوكسفورد؛ وباري غروفس، الخبير في الرماية؛ وكوشاي لايوش، كابوسميرو، كابوسفار؛ وكورتي بيلا، تسيغيد؛ وتسيريندورج اودباتار، المتحف الوطني للتاريخ المنغولي، أولان باتور؛ وتسيغيدي أندريا، لتميزها في قيادة السيارة والترجمة؛ ود. بيتر ستادلر، متحف التاريخ الطبيعي، فيينا؛ وغراهام تايلور، بعثة قراقورم للتنقيب الأثري، أولان باتور؛ وبيتر تومكا، متحف كزانتوس يانوس، غيور؛ وكارين فيلتشكيه، متحف التاريخ الطبيعي، فيينا؛ ودوغ يونغ، وسيمون ثوروغود وزملائهما في [شركة] ترانس ورلد؛ وكما دوماً، فيليسيتي بريان.

يسرّ جون مان أن يتلقّى رسائل القراء على بريده الإلكتروني:

johngarnetman@ukonline.co.uk

المدخل

الوحش مُحاصَراً

إنه غول التاريخ، و«سوط الرب»[1]، ورمز للقوة الهدامة الغاشمة، والصيغة المبتذلة للنزوع إلى التطرّف والغلو. وما عدا ذلك، لا يعرفه إلا أولئك الذين يعكفون على دراسة انهيار الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس. حتى لدى هؤلاء، نادراً ما يكون أكثر من حيوان مفترس، بل أشد شراسة من بين أولئك البرابرة الكثر الذين مزقوا الإمبراطورية وقطعوا أوصالها وهي تتجرع كأس الموت.

بيد أنَّ وصف أتيلا بالهمجية المبتذلة لا يفيه حقه؛ فتلكم هي قصة رجل ذي طموح يبعث على الدهشة، نشر قواتٍ لم يرَ أحد نظيراً لها من قبل. وعلى رأس جيشه الهوني المؤلف من المحاربين الفرسان الذي يعزّزه عدد كبير من القبائل الحليفة وآلات الحصار، كان لمدة من الزمن بمثابة جنكيز خان أوروبا. وانطلاقاً من قاعدته في ما يسمى اليوم هنغاريا، أقام إمبراطورية امتدت رقعتها الجغرافية من بحر البلطيق إلى البلقان، ومن نهر الراين إلى البحر الأسود. لقد ضرب عميقاً في أرض الإمبراطورية الرومانية مهدّداً أسسها. وربما في وقت لاحق قيض للمحاربين الهون الذين عبروا ذات مرة منطقة البلقان في طريقهم إلى القسطنطينية أن يسقوا خيولهم من مياه نهر لوار في قلب بلاد الغال الرومانية التي تبعد عن المحيط الأطلسي مسيرة ثلاثة أيام فوق ظهور الخيل، وأن يستحمّوا في العام التالي في بو، في حملة ربما قادتهم إلى روما ذاتها. ولئن لم تسقط القسطنطينية وروما، فإن إنجازات أتيلا كانت كفيلة ببقاء اسمه حياً إلى يومنا هذا، ليس بوصفه البربري الأبرز فحسب، بل باعتباره بطلاً أيضاً.

تلك هي محاولتي في تبيان بزوغ نجم أتيلا، واللحظة الوجيزة لتألّقه، وأفوله المفاجىء، والسبب الذي يكمن وراء حضوره الدائم.

إن بناء صورة تحيط بجوانب شخصيته كافة أمر يستغرق وقتاً؛ لأنه برز وعمل في عوالم عدة، اندمجت كلها بطرق معقدة.

كان العالم الأول هو ذلك العالم الذي انبثق منه، وهو نمط الحياة الذي كان سائداً في جزء كبير من آسيا طوال ألفي عام. وذلكم هو نهج البدو رعاة قطعان الماشية، أو (البدو الرعاة) كما كان يطلق عليهم رسمياً؛ ولا سيما جانبهم العسكري، الفرسان رماة السهام. كان خطر غزو

---

(1) تعبير بات يستخدم بصورة مجازية للدلالة على البلاء العظيم، (المترجم).

مفاجئ يشنه هؤلاء البشر الأشبه بالقنطور[1] يتهدّد الثقافات خارج قلب أوراسيا من الصين إلى أوروبا، أولئك الذين لديهم القدرة على رمي السهام بدقة وقوة غير عاديتين وهم يعدون فوق ظهور خيولهم بأقصى سرعة. وهذا الكتاب في جزء منه وصف لمظهرهم الأكثر تدميراً قبل ظهور المغول بثمانمئة عام.

لكن قوم أتيلا الهون ليسوا البدو الرعاة – الفرسان الرماة – على النحو الذي كانت عليه حال أسلافهم ذات مرة. وفي اللحظة التي أصبحوا فيها معروفين لدى الغرب غدوا ضحايا نجاحهم. كانت معظم الغزوات البدوية محددة ذاتياً؛ لأن البدو الرعاة، حينما يرتحلون أو يخوضون الحرب، لا يمكنهم في الوقت ذاته ابتداع العتاد الحربي الذي يحتاجون إليه لتوسيع إمبراطورياتهم الحالية أو إقامة البنية التحتية والمهارات الإدارية الضرورية لحكم الأراضي التي استولوا عليها. وقد حدث ذلك في الصين، وفي الغرب أيضاً؛ فبالنسبة إلى البدو الرحل، كانت تتمة الغزو إما استقراراً وحياة أكثر راحة، وإما تقهقراً وتفرقاً.

تلك كانت حال الهون، فقد كانوا أشبه بموجة عارمة حين اجتاحوا الأراضي الممتدّة من المحيط الأخضر - أي أراضي المراعي في آسيا – إلى سهل هنغاريا، وما لبثت هذه الموجة أن تكسّرت على صخور العديد من العوالم الأخرى للغابات والمدن، ألا وهي روما؛ وشقيقتها الشرقية، القسطنطينية، وعدد كبير من القبائل الأخرى الذين كانوا يلجؤون جميعاً إلى المناورة في عقد التحالفات وخوض المنافسات. كان الهون المستأسدين الجدد في المنطقة، وشق الهون في إحدى المراحل طريقهم إلى السلطة وهم يمتلئون زهواً وخيلاء. لكنهم، شأنهم شأن العديد من الجماعات البدوية التي سبقتهم، غرقوا على نحو متعاظم في خضم التناقض، إذ إن الشعوب الزراعية المستقرّة تطعمهم، لكنّهم يعضون الأيدي التي أطعمتهم، بل يلحقون الدمار والخراب بها أيضاً.

تطالعنا المعضلة التي واجهها أتيلا بوصفها موضوعاً يتكرّر على نحو دوري بين دفتي هذا الكتاب، فقد كان زعيماً لشعب على أعتاب التغيير والتحوّل. وكان أسلافهم من البدو الرعاة؛ في حين كانوا هم أنفسهم بين بينين: جزء منهم بدوي، وجزء منهم مستقر، غير قادرين على العودة من حيث أتوا، وعاجزين عن الحفاظ على نمط حياتهم القديمة. وواجه أبناؤهم خياراً قاسياً: إما أن يصبحوا شركاء وغزاة لأعظم قوة عسكرية عرفها الوجود (روما)، وإما أن يندثروا ويصبحوا

(1) كائن خرافي نصفه رجل ونصفه فرس، (المترجم).

أثراً بعد عين.

كانت المشكلة التي واجهها تتمثل في أن يجد موقعاً للهون في عالم الإمبراطورية الرومانية الآخذة بالتقوض والانهيار. ولن تكون إمبراطوريته في مأمن من خطر الحرب والهزيمة المحتملة ما لم يقم بإعادة تكوين ثقافة شعبه بأكملها، ويسلك سلوكاً حسناً، ويقيم المدن، ويلتحق بركاب العالم الغربي، وذلك ما قام به خلفاؤه الهنغار بعد قرابة خمسمئة عام. كان ذلك أمراً أيسر بالنسبة إليهم، مما مردّه إلى أن أوروبا كانت بحلول ذلك الوقت قد استقرّت بعض الشيء؛ لكن على الرغم من ذلك استغرق الأمر قرناً من الزمان، لكنّ أتيلا لم يكن الحاكم القادر على إجراء تغييرات من هذا القبيل، فقد كان في نهاية المطاف قاطع طريق أكثر منه باني إمبراطورية.

وبناء عليه فإننا نتذكّره بوصفه أسوأ كابوس أرّقنا، ولا يدانيه في الذاكرة الشعبية إلا جنكيز خان. والواقع أن أتيلا في نظر الأوروبيين هو الأشد سوءاً؛ إذ إن جنكيز لم يبلغ أوروبا أبداً، على الرغم من أن ورثته فعلوا ذلك، بيد أنهم لم يتقدّموا غرباً إلى بقعة أبعد من موطن أتيلا. بينما قاد أتيلا الجيوش مسافة ثلثي الطريق خلال فرنسا وتوغل في إيطاليا. ومما لا ريب فيه أنه كان مدمراً، لكنه لم ينفرد بذلك، بل كان ثمة أنداد له؛ فقد أصبح كثير من القادة في العديد من العصور قطاع طرق وقتلة. وما زالوا يظهرون إلى يومنا هذا أمين[1] هنا، وصدام هناك. وتهدّد نزواتهم القاتلة على الدوام بتحطيم قيودنا الحضارية، كما فعلوا في ألمانيا النازية، ورواندا، والبلقان؛ وعلى نحو أقل في فيتنام، وأيرلندا الشمالية، في أي بقعة تسود فيها كراهية «الآخر» الذي نخشاه أو نحتقره. وهذه الكراهية القاتلة هي القوة التي يجسّدها أتيلا في أذهاننا. إنه الجانب المظلم لدينا، ألا وهو الغول، والسيد هايد، والوحش غريندل في ملحمة «بيولف» الذي ينتظر الظهور من مستنقع لا شعورنا وإنزال الدمار والخراب بنا جميعاً. وذلكم هو التحامل الذي أعرب عنه الكتاب المسيحيون الذين دوّنوا هجومه على عالمهم، إنه ذلك التحامل الذي اعتنقه معظمنا عن طيب خاطر منذ ذلك الحين.

ومن حسن الطالع أنه ثمة باعث إنساني مماثل لكنه مناقض: التوق إلى السلام والاستقرار والمصالحة. وكان لدى أتيلا هذا الدافع أيضاً، فراح يوظف الكتبة لتبادل الرسائل باليونانية واللاتينية، ويرسل ويستقبل السفراء بكثرة. ومع أنه لم يكن لدى الهون أي تقاليد دبلوماسية، إلاّ أنه كان في استطاعة أتيلا أن ينخرط في السلام والسياسة، وكذلك في الحرب.

وهكذا حينما تُنار الأضواء، وتتبدد الظلال، وتتلاشى الأفكار المسبقة..، نجد أنه ليس غولاً

---

(1) عيدي أمين، (المترجم).

تماماً، والواقع أنه بطل عند الهنغار. ويعلم هؤلاء جميعاً أنّ دولتهم تأسّست على يد «أرباد» الذي قاد شعبه المجر في مختلف أرجاء الكاربات في عام 896، ويمجّد هذا الحدث كل كتاب تاريخ مدرسيّ هنغاري. ومع ذلك يكمن في أعماق النفس الهنغارية شكّ ينمّ عن مكر ودهاء بأن «أرباد» كان يطالب باسترداد الأرض التي كان أتيلا قد استولى عليها قبل أربعمئة وخمسين عاماً فحسب. وتلكم هي الأسطورة التأسيسية على نحو ما تروي الحوليات التاريخية الهنغارية القروسطية الأكثر مدعاة للإعجاب. وحتى عهد قريب درجت التواريخ الهنغارية على أن تعيد تقديم مشجر نسب عائلة ملفق، ووفقاً لها فقد أعقب أتيلا أربعة أجيال، آخرهم سليله «أرباد» - حتى وإن كانت سلسلة النسب هذه تقتضي أن ينجب كل أب وريثه وقد بلغ من العمر مئة عام!. يشعر الهنغار في قرارة أنفسهم أن أتيلا كان في أعماق قلبه هنغارياً، ولذلك فهم يُجلّونه. أتيلا - في لفظ أتيلا يكون التشديد في اللغة الهنغارية على المقطع الأول، الذي يدوّر حتى يكاد يكون أو (O) أوتيلا (Ottila) - هو اسم شائع يطلقونه على أولادهم. أما الشاعر الأكثر شهرة في هنغاريا في القرن الماضي فقد كان أتيلا جوزيف (1905 - 1937)، أو بالأحرى (جوزيف أتيلا)؛ لأن الهنغار يجعلون الاسم يأتي بعد لقب الأسرة. وتحمل العديد من المدن والشوارع اسم أتيلا أو جوزيف أتيلا. ولا ريب في أنّ هذا يبدو غريباً لأي شخص قادم من أوروبا الغربية، وأشبه بإطلاق اسم (هتلر) على الأبناء والشوارع والساحات. وتلك بطبيعة الحال مسألة تتعلّق بأن الفائز يظفر بكل شيء: فبطلنا الغازي هو مضطهدكم الوحشي، في الوقت الحاضر وكما كان دوماً. والآن وقد تمت إعادة الاعتبار إلى بطل منغوليا القومي، بعدما بقي شخصاً غير مرغوب فيه في ظلّ الشيوعية طوال سبعين عاماً، يطلق المغول على أبنائهم اسم جنكيز، أما الهنغار الذين عانوا من وحشية قوات المغول في عام 1241 فلا يقومون بذلك.

لن يتمتع أتيلا في مكان آخر بالاحترام الذي يحظى به في هنغاريا، لكنه جدير بأن يكون موضع درس وبحث على نحو أكثر عمقاً. ولا يمكنني القيام بذلك متبعاً الأسلوب المعتاد الذي ينتهجه المؤرخون، أي إعادة تقويم الدليل المكتوب؛ لأن الوقوف على ذلك الدليل دونه صعوبات جّمة. ولقد فصل أميانوس ماركيلينوس[1] في تاريخه القول في الجذور التاريخية؛ أما يوردانس، وهو قوطي يفتقر للثقافة اعتنق المسيحية، فقد أنجز عملاً تاريخياً فيه كثير من الاستطراد، وهو في حاجة ماسة إلى التحرير؛ وخلّف بريسكوس، الذي كان رجل إدارة أكثر منه مؤرخاً، الوصف الوحيد لأتيلا في دياره. وبعد هؤلاء لا يتوافر لدينا إلاّ عدد قليل من المؤرخين الإخباريين المسيحيين

(1) أميانوس ماركيلينوس: مؤرخ يوناني من أبناء ما يعرف الآن بسوريا، عاش في القرن الرابع.

الذين كانوا يحتفلون بتفحص تدابير الله مع البشر أكثر من اعتنائهم بتدوين الأحداث بموضوعية، ولم نقف على أثر لمصنفات الهون أنفسهم، فالهون لم يؤلفوا الكتب، وإذاً فإن جميع المصادر الخطية وضعها غرباء لا ينطق أيّ منهم بلغة الهون، وقلة منهم عرفوا الهون على نحو مباشر، وكان جلهم حريصاً على وصف الجانب الأسوأ فحسب من موضوع بحثهم. وأفضل ما يمكنني القيام به هو توظيف علماء الآثار والمؤرخين والمختصين في علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) وأحد الرياضيين البارزين لإضافتهم إلى المصادر الأولية غير الموثوقة. وحتى مع ذلك فإن محاولة النظر إلى أتيلا أشبه بالتحديق في لوحة قديمة قذرة على ضوء شموع قليلة.

ومع ذلك فإنّ هذا الأمر جدير بالمحاولة؛ لأن الصور المترجرجة هذه تكشف عن استبصارات جديدة وبعض الأحداث المثيرة التي تساعدنا على تجاوز الأسطورة والعبارات المبتذلة. ويبقى أتيلا بحقٍّ رمزاً للظلم والعسف والسلب والنهب، إذ يمتلك العديد من السمات المشتركة بين أشباهه المزيفين: فقد كان أيضاً مراوغاً لا يرحم، وفي بعض الأحيان ساحراً، لكن لا يمكن الوثوق به أبداً، ويحسن العثور على رجال طوع بنانه حتى النهاية، ويخدع ذاته، ومن حسن الطالع أنه المدبر لتدميره الذاتي في آخر المطاف. إلاّ أن أتيلا كان من نواحٍ أخرى أحد أعظم الشخصيات المبدعة على مر التاريخ؛ إذ لم يسبق أن كان ثمة تهديد من هذا القَبيل صادر عن قائد فرد، ناهيك عن قائد هو محطّ إعجاب كبير من جانب شعبه، وشديد البراعة في تحويل الأعداء إلى حلفاء؛ ولن يجود الزمان بمثله إلى أن سطع نجم جنكيز خان الإستراتيجي البارع وباني الإمبراطورية بعد سبعمئة وخمسين عاماً.

وقد تخطّت في النهاية مقدرته حدود إدراكه على نحو واسع، ولم يكن في استطاعته أن يستولي حقاً على الإمبراطورية الرومانية. وهذا ما يجعله شخصاً مُخفقاً في نظر المؤرخين الذين ينزعون إلى اعتباره مجرد سلّاب نهّاب على نطاق واسع، والتعبير الأكثر تطرّفاً عن البربرية المناهضة للرومان. لكن ثمة أساليب أخرى لتقويم أهميته التاريخية، فعلى الرغم من أن الهون قد بادوا عن وجه الأرض ولم يبقَ منهم بقية، إلاّ أنَّ اضمحلالهم كان أشبه بالبارود، إذ أحدث انفجاراً اجتماعياً وسياسياً انبثقت عنه الدولة - الأمة في أوروبا. لقد جرى ذلك كله في حركة شديدة البطء، على مدى قرون من الزمان، وكان يمكن أن يقع كثير منها كيفما اتفق؛ لكن من الفوضى التي سادت في المرحلة ما بعد الرومانية انبثق عالم جديد نادراً ما حمل أثراً للأسباب الرئيسة وراء هذا الانفجار المدوّي، إلاّ في الذاكرة. إنّ شيئاً هائلاً قد اختفى، وأطلاله مبثوثة في كل مكان. ومنذ ذلك الحين

بحث الناس عن نقطة محورية لتبسيط هذا التحوّل العنيف وشرحه وتأويله. ويفي أتيلا بالغرض تماماً، مالئاً أدواراً عدة في وقت واحد: قوة من أجل التغيير التاريخي؛ وشخصية هيمنت على معظم أوروبا؛ ومدمّر مطلق؛ وعقاب إلهي للخاطئين المسيحيين؛ ودوماً بطل عند بعضهم.

I

الخطـر

1

العاصفة التي تسبق الزوبعة

في عام 376 بلغت الإمبراطور فالنس في القسطنطينية أنباء تبعث على القلق، فقد كان فالنس الذي يتقاسم حكم الإمبراطورية الرومانية مع أخيه على دراية كافية بالمشكلات الحاصلة على حدوده، لكن لم يسبق له أن واجه أيّ مشكلات من هذا القبيل؛ ففي أقصى الشمال، ما وراء البلقان، على طول الضفاف المستنقعية الشمالية لنهر الدانوب، أخذ اللاجئون يحتشدون بالآلاف، وهم يعانون الفاقة ويتضوّرون جوعاً، فارّين من مزارعهم وقراهم، وقد استولى عليهم الرعب، بدلاً من مواجهة – ماذا؟! كانوا لا يكادون يعلمون؛ ليس سوى ما عبر عنه المؤرخ أميانوس بقوله: «إن جنساً من البشر لا عهد لنا به من قبلُ كان قد ظهر للعيان من ركن قصيّ من الأرض، مقتلعاً ومدمّراً كل ما يصادفه في طريقه، كأنه زوبعة تهبط من الجبال العالية».

تلكم هي صورة ملائمة؛ فقد كان أولئك الغرباء فرساناً من رماة السهام يمتطون صهوات الجياد ويقتحمون ساحات القتال بخيولهم التي تسابق الريح، متحلّقين ليمطروا الأعداء بوابل من سهامهم قبل أن يبتعدوا إلى برّ الأمان. لقد كانوا فرساناً لم ير أحد نظيراً لهم من قبل، يمتطون صهوات خيولهم كأنهم مسمَّرون فوقها، ويندفعون وقد تثبتوا على سروجهم – وقد لاقى الكتاب مشقة في إيجاد وصف ملائم لهم – على نحوٍ بدا معه الرجل والمطية كأنهما شيء واحد أشبه بالقنطور القديم وقد بعثت فيه روح الحياة. لقد جاؤوا على نحو غير متوقع من المناطق المقفرة في آسيا الوسطى، يقودون السكان أمامهم كالأنعام. ولسوف يستغرق هذا «الجنس غير المعروف» بضع سنوات للظهور على نحوٍ جماعيّ، وذلك بزعامة قائدهم الأشدّ تأثيراً والأكثر تدميراً، لكن انفجارهم في ذلك الحين في أنحاء ما يعرف اليوم بسهوب روسيا الجنوبية وأوكرانيا قد ألّب القبائل بعضها على بعض، وآخرها تلك التي أحدثت الضجة على ضفتي نهر الدانوب. لقد كان ثمة خطب قادم لا محالة!

لم يكن مصدر قلق فالنس المباشر دويّ حوافر خيول أولئك الغرباء، بل حشود اللاجئين القوط، وهم أفراد قبيلة جرمانية ضخمة هاموا على وجوههم في أوروبا الشرقية وجنوب روسيا قبل قرنين من الزمان، وانقسموا الآن إلى فرعين غربي وشرقي. كان أول اللاجئين القوط الغربيين، الذين يعرفون باسم (Visi-Goths) (الحكماء)، تمييزاً لهم عن القوط الشرقيين (Ostro-Goths) (السّاطعون) الذين سرعان ما سيتبين لفالنس أنهم سائرون على خطى ونهج أقاربهم الأباعد.

كان فالنس الذي ناهز الخمسين من عمره ومخلفاً وراءه اثني عشر عاماً من الحكم، يعلم

الكثير عن القوط الغربيين الفخورين بأنفسهم والمستقلين، ولديه ما يبرّر حذره منهم ومن زعيمهم أثاناريك. ولمّا لم يعد دأبهم التنقل والترحال فقد استقروا في ما يعرف الآن باسم رومانيا، وتحولوا من بدو رحّل إلى مزارعين، ومن سلّابين نهّابين إلى خصوم منضبطين. وقبل ثلاثين عاماً كان من المفترض أن يصبحوا حلفاء للإمبراطورية، بعد أن تمَّ حثهم على إمداد جيوش روما والقسطنطينية بالجنود. لكنهم لم يبقوا في مكان واحد لا يبارحونه، وقبل عشر سنوات كان فالنس ذاته قد خاض حرباً معهم ليجعلهم حبيسي موطنهم. ولم تجرِ الأمور كما خطَّط لها؛ إذ يمكن أن يندحر القوط في المعركة، لكن لديهم هذه العادة المزعجة ألا وهي اختباؤهم في جبال ترانسيلفانيا، وبوصفهم مقاتلين يشنّون حرب عصابات فقد كانوا عصيّين على الهزيمة. وإبان تلك الحرب التي امتدت ثلاثة أعوام كان فالنس - ذي الساقين المقوّستين والبطن الضخم والعين الكسولة - في حاجة إلى تعزيز سلطته المتزعزعة بإظهار هيمنته. لكن أثاناريك قال إنه أقسم يميناً مغلّظة لوالده ألاّ تطأ قدمه أراضي الرومان؛ لذا فقد اضطر فالنس بدلاً من استدعاء خصمه للبحث في الشروط إلى أن يعقد محادثات سلام على متن قارب في وسط نهر الدانوب، وكأن الإمبراطور والزعيم البربري كانا ندّين متكافئين. وقد اتّفقا على أن السياج الجيد يجعل العلاقات طيبة، وأن يكون نهر الدانوب السياج الطبيعي بينهما، وألاّ يجتازه أي من الطرفين.

يا له من فارق أحدثته السنوات السبع! فها هم القوط الغربيون وقد تقطعت بهم سبل العيش فأوشكوا أن يتجاهلوا شروط تلك المعاهدة من خلال اجتياحهم المنطقة بعرباتهم التي تجرها الخيول، ليس بوصفهم محاربين، بل باعتبارهم أمة جميع أبنائها من طالبي اللجوء: بعائلاتهم وأطفالهم ومرضاهم ومسنّيهم. وماذا لو اتخذ فالنس موقفاً متشدداً وأكره اللاجئين على البقاء حيث كانوا ومتّع نفسه بما استولى على أثاناريك من يأس؟! بيد أن الأمر لا يمكن أن يكون بهذه البساطة؛ لأن ذلك لم يكن من صنيع أثاناريك.. إذ إن الإشاعة التي تردّدت عن الخطر الذي بات يشكله أولئك الغرباء قد حفّزت القوط الغربيين المهدّدين على شقّ عصا الطاعة، ولم يعد أثاناريك يمتلك القوة. كان قائدهم الجديد (فريتيجيرن) يلتمس الآن الحصول على إذن إمبراطوري لعبور نهر الدانوب المتضخّم بالأمطار التي هطلت عليه مدراراً، وهو يحلم بحياة جديدة لشعبه في وادي تراقيا الخصيب والمرحّب بهم.

كان الباب مفتوحاً على مصراعيه لكل الاحتمالات، ولذلك فقد اعتبر فالنس أنّ الأفضل تحويل الأزمة لمصلحته إلى حدّ ما. وكان فريتيجيرن يمتلك من الذكاء ما يكفي لتوحيد شعبه

اليائس والمثابرة على التماس الرضا من روما، فلم يعمد إلى إطلاق أي تهديد. والواقع أنه لم يكتفِ بالتعهد بالعيش بسلام فحسب، بل بأن يمدّ الجيش الإمبراطوري بالرجال أيضاً. وكان كلا الحاكمين يعلمان أن ثمة سابقة: فقبل سنوات سمح لجماعة من المهاجرين القوط بالارتحال مسافة مئة وخمسين كيلومتراً إلى الجنوب من نهر الدانوب، وأن يستوطنوا مدينة أدريانوبل (أدرنة حالياً) فأثبتوا أنهم مواطنون نموذجيون يُقتدى بهم. وقد حثّ المستشارون فالنس على ألاّ ينظر إلى خصومه السابقين بوصفهم لاجئين، بل باعتبارهم مجنّدين جدداً لجيش هذا الإمبراطور المبعثرة قواته، وقد وافق فالنس شريطة أن يتخلى القوط عن أسلحتهم. وقام الضباط بجولة في شمال البلاد، ليس لمقاومتهم، بل ليمدّوا لهم يد العون في توفير وسائل النقل والطعام وتوزيع الأراضي في المقاطعات الحدودية.

وعندما تحول ربيع عام 376 إلى صيف واصل القوط الغربيون الذين يعانون الفاقة والعوز طريقهم في تثاقل إلى الضفاف الشمالية المنخفضة، مارّين بالبحيرات الضحلة والمستنقعات، وركبوا في النهر على متن قوارب وزوارق شجرية صُنعت على عجل من جذوع الأشجار، بينما كانت الأطواف تحمل عرباتهم وخيولهم. وفي هذه البقعة تدفقت مياه النهر - وقد تحررت من العائق الذي يشكّله ممرّ البوابة الحديدية الضيق الذي يمر عبر جبال الكاربات والبلقان - على نحو انسيابي وهادئ مسافة أربعمئة كيلومتر، قبل أن تنقسم إلى فروع لتشكل دلتا الدانوب التي ينمو فيها القصب. لم يكن التحدي الذي واجهه اللاجئون يتمثل في قوة التيار، بل في اتساع الرقعة المغمورة بالمياه بفعل الأمطار التي هطلت بغزارة على امتداد كيلومترين أو ثلاثة. وحاول كثيرون السباحة وقد اجتذبهم مشهد التلال المنخفضة في الجهة المقابلة، إلا أن الجزء الأدنى من النهر قادهم ببطء إلى حتفهم في السهل المغمور بمياه الفيضان.

كم كان عدد أولئك الذين يتنقلون؟ لقد أراد الضباط الإمبراطوريون الوقوف على ذلك لحساب المؤن الغذائية وهبات الأراضي، وكان ذلك أمراً مستحيلاً. وقد استشهد أميانوس بقول فيرجيل:

«وما السعي إلى الوقوف على أعدادهم إلا أمر لا طائل من ورائه

إنه أشبه بحساب الرمال الليبية التي تذروها الرياح»

ولعلهم لم يبذلوا قصارى جهدهم، إذ لم يكن أولئك الضباط من خيرة رجال الإمبراطورية، بل كان مسلكهم تشوبه شوائب ويتّصفون بالشر والتهوّر - على حد وصف أميانوس - وكانوا

يحيكون المكائد للاستفادة من اللاجئين العزل. اشتملت إحدى الخدع التي دبّروها لهم على جمع الكلاب وتقديمها طعاماً لهم إن تسلّموا مقابله أحد القوط الغربيين بوصفه رقيقاً: وتلكم معاملة لا تكاد تشجّع على إقامة صداقة دائمة!

علاوة على ذلك لم تكن هذه الأرضَ الموعودة، إذ امتلأ ريف تراقيا بكثير من الناس دفعة واحدة، وكان يجب إبقاؤهم حيث كانوا. وتحوّلت الضفاف الجنوبية لنهر الدانوب إلى مخيم ضخم يستوعب اللاجئين الممرّغين بالوحل الذين يرتدون التنك[1]. ولقد بدا الأمر للقوط الغربيين كأنهم قد فروا من مقلاة ليقعوا في مقلاة أخرى، فراحوا يتحدّثون سراً عن القيام بعمل مباشر للاستيلاء على الأراضي التي اعتقدوا بأنهم موعودون بها. فقام القائد الإقليمي «لوبيكينوس» ذو المثالب والشرير والمتهور بطلب مزيد من القوات من بلاد الغال لقمع الفوضى.

لكن الوقت أخذ في النفاد؛ لأن أبناء العمومة الشرقيين للقوط الغربيين، وهم حشود من القوط الشرقيين الفارين أيضاً من خطر مجهول الاسم يتهددهم شرقاً، وصلوا إلى نهر الدانوب. وحين وجد هؤلاء أن السيطرة على النهر كانت ضعيفة عبروه، من دون أن ينتظروا إذناً بذلك. ولما وجد فريتيجيرن نفسه مدفوعاً ومعززاً بالتدفّق الجديد قاد شعبه مسافة مئة كيلومتر جنوباً إلى ماركيانوبوليس عاصمة المقاطعة المحلية التي تقع أنقاضها المكشوفة جزئياً قرب مدينة ديفنيا، على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً من منتجع البحر الأسود البلغاري في مدينة فارنا. وفي تلك البقعة قام لوبيكينوس - الذي يبدو أن كل ما يأتي به من أعمال يفضي إلى كارثة - بدعوة زعماء القوط الغربيين إلى عشاء فاخر للبحث ظاهرياً في رزمة من المساعدات، بينما قام الآلاف من الجنود الرومان خارج الأسوار بإبقاء جموع الهون في وضع حرج؛ فاهتاج هؤلاء وراحوا يُرغون ويُزبدون مظهرين امتعاضهم. وحين داخلت الريبة القوط الغربيين في أنّ زعيمهم نُصب له فخ ليقع فيه هاجموا وحدة من الجنود الرومان واستولوا على أسلحتهم. وعندما بلغ خبر هذه الغزوة مائدة العشاء قام لوبيكينوس بقتل عدد من مرافقي فريتيجيرن انتقاماً، ولربما كان يخطّط لقتلهم جميعاً، لكن ذلك كان بمثابة انتحار؛ إذ إن مثيري الشغب أصبحوا الآن جيشاً. وكان فريتيجيرن متقد الذهن وحاضر البديهة، فأشار إلى أنّ السبيل الوحيد لإعادة السلام يتمثّل في عودته إلى شعبه سالماً ومعافى وحراً. ولقد أدرك لوبيكينوس أنه ما من خيار آخر أمامه، فأفرج عن ضيفه الذي - على حدّ وصف أميانوس - «امتطى صهوة جواده، وانطلق به مسرعاً ليؤجج نيران الحرب».

---

(1) رداء روماني طويل يشد بحزام حول الخصر. (المترجم).

راح القوط الغربيون وقد استبد بهم الغضب يعملون سلباً ونهباً وحرقاً في موئيزيا السفلى[1]، مستولين بذلك على كثير من الأسلحة. ودارت رحى معركة ضارية انتهت بمصرع العديد من الرومان، والاستيلاء على مزيد من الأسلحة، وجثم لوبيكينوس مرتعداً من الخوف في شوارع ماركيانوبوليس المنهوبة. كانت الإمبراطورية قد تغلّبت على كوارث مماثلة، على نحو ما يستذكر أميانوس، لكنّ ذلك كان قبل أن يؤدّي التوق إلى الكسب الحرام وإقامة الولائم من أجل التباهي والتفاخر إلى تقويض الروح القديمة المتمثلة في الأخلاق العالية والتضحية بالنفس.

ولعله أضاف إلى ذلك الغباء المحض شيئاً آخر؛ إذ خشي فالنس أن ينحاز القوطي إلى ابن جلدته، فأمر المستعمرة القوطية الغربية الراسخة منذ عهد بعيد والمسالمة في أدريانوبل بالمغادرة فوراً. ولم يكن الخطر الداهم يحدق بهذه البلدة التي كانت تتحكم بالممرّ الرئيس للخروج من جبال البلقان في الطريق المؤدية إلى القسطنطينية. كان فالنس يعتزم أن يجعل تلك البقعة آمنة، إلاّ أنّه حقق عكس مبتغاه تماماً. وحينما التمس القوط التأخر مدة يومين لحزم أمتعتهم رفض القائد المحلي الاستجابة لطلبهم هذا، مما شجع السكان المحليين على إخراجهم من خلال رشقهم بالحجارة. عندئذ استشاط المستوطنون غضباً، فقتلوا عدداً من مضطهديهم، وما إن هجروا المدينة حتى ألقوا بأنفسهم في أحضان بني جلدتهم القوطيين.

وفي خريف عام 377 وصلت الجيوش المتخاصمة إلى مأزق لا مخرج منه، مع لجوء القوة الرئيسة للقوط إلى الوديان شديدة الانحدار في سلسلة جبال البلقان بحثاً عن الأمان، وتمركز الرومان في الأراضي المعشوشبة الجافة في دوبروجا التي تقع في يومنا هذا خلف ساحل البحر الأسود في رومانيا وبلغاريا. ولقد واصل القوط أعمال السلب والنهب التي كانت السبيل الوحيد المتاح للاجئين المهجرين الذين لديهم عائلات يطعمونها، ومن ثم كسروا الحصار الروماني المفروض عليهم لينتزعوا بالقوة الطريق الجنوبية المؤدية إلى ما يعرف في يومنا هذا باسم تركيا. ويرسم أميانوس مشهداً من الفوضى متوقّعاً وقوع أهوال مرعبة في البلقان في المستقبل: قتل الأطفال وهم يرضعون من أثداء أمهاتهم، واغتصاب النساء، و«استرقاق الرجال، وهم يطلقون صرخات استغاثة بأنهم عاشوا ردحاً طويلاً من الزمان ويبكون على منازلهم التي تحولت إلى رماد».

ما هي إمكانات تعزيز القدرات العسكرية في غضون ذلك؟ إنها لم تكن على خير ما يرام،

(1) شمال بلغاريا اليوم.

فعلى الرغم من أن الإمبراطورية ربما كان لديها خمسمئة ألف رجل مسلح، فإن نصف هؤلاء كانوا يتّخذون مواقعهم في الحاميات الحدودية لمراقبة ما يثيره البرابرة من متاعب، في حين أن نصفهم الآخر فحسب كانوا يشكّلون الجيوش الميدانية المتنقلة. إلى جانب ذلك فإن العديد من الجنود كانوا مرتزقة من غير الرومان، وأي إيعاز لهم بالتحرك كان يحثّهم على الفرار من الجيش. ويمكن للقوات المتمركزة على الحدود مع بلاد الغال وحدها أن تأتي بقيادة غراتيان ابن أخ فالنس الذي كان في مقتبل الشباب، وحاكماً مشاركاً، وإمبراطوراً للغرب طوال العامين المنصرمين. ولئن كان في الثامنة عشرة من عمره فإنه اكتسب سمعة متنامية بوصفه قائداً، لكنّ جلَّ ما يستطيع القيام به الحفاظ على السلم على طول نهري الراين والدانوب. وتسرّبت عبر الحدود خطة نقل القوات من بلاد الغال إلى البلقان، مما حثَّ الجرمان على شنّ غارات استدعت انتباه غراتيان طوال ذلك الشتاء، ولم يهب لنجدة عمه إلاّ في مطلع عام 378.

وإذا ما توجّهت في هذه اللحظة إلى روماني أو إغريقي بالسؤال: ما هو الخطر الداهم؟ لقيل لك: العالمان اللذان يواجه بعضهما بعضاً؛ الهمجي والمتحضّر. والواقع أننا نتعامل مع عوالم كثيرة في أوروبا الغربية والوسطى والجنوبية، إذ إن الإمبراطورية الرومانية وبلاد الغال والقسطنطينية؛ وقبائل البرابرة تتصارع فيما بينها والإمبراطورية؛ ومناطق الغابات البرية الحدودية الواقعة في الجهة الشمالية الشرقية.

كانت المناطق الخاضعة لروما تشكل لمواطنيها عالمهم، وقاعدتهم، ومفخرتهم، وحياتهم ذاتها. وبوصفها جمهورية، وفي وقت لاحق إمبراطورية، ظلّت قائمة طوال ما يزيد على سبعمئة سنة كما تنبّئنا بذلك الأبحاث الأثرية، بل لفترة أطول عند الرومان الذين كان تاريخهم متجذّراً في البدايات الأسطورية؛ فبالنسبة إليهم كان حلول عام 377م يتوافق مع ذكرى مرور ألف ومئة وثلاثين عاماً على «تأسيس مدينة روما». وما زالت الجذور الثقافية لروما تضرب أعمق من ذلك؛ لأنها كانت الوريثة لليونان القديمة. وشاء القدر الجلي لروما، بوصفها الصخرة الداعمة للحضارة والحكم الجيد، أن تبسط حكمها على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وأن يمتدّ سلطانها حتى وصل إلى نهر النيل جنوباً، وخلال جبال الألب، وبلاد الغال، ونهر الراين، وبحر الشمال وما وراءه شمالاً، بل بلغ الجزر الشمالية النائية الواقعة قبالة ساحل أوروبا، حيث فرغ هارديان من بناء سوره لمجابهة البرابرة سكان المرتفعات في عام 127. وشهد القرن الثالث تقدماً قصير الأمد خلال نهر الدانوب نحو ما يعرف في يومنا هذا باسم رومانيا، حين بدا لبرهة من الزمن أن جبال

الكاربات سوف تشكل الحدود الحقيقية في أوروبا الشرقية.

ولكن للتوسع حدوده التي أملتها الشعوب غير الرومانية والجغرافيا، فقد كانت الغابة متاخمة للجهة الشمالية الشرقية.. «الغابة»! إن الإحساس بما تثيره هذه الكلمة من الرهبة في النفس يتطلب قفزة متخيلة في الزمن إلى العصر الذي كانت فيه معظم أراضي أوروبا ما وراء نهر الراين ما تزال عبارة عن مناظر طبيعية برية، نادراً ما مست يد الإنسان غاباتها الشاسعة والمظلمة. فقد كانت عند الأشخاص الذين لا يقطنون الغابات مثالاً للخطر، ومسكناً مقيتاً ومتجهماً للأرواح الشريرة، أمّا عند الرومان فقد كانت غابات سيمينيا في إترووريا سيئة جداً؛ بيد أن الغابات الواقعة شمال جبال الألب كانت الجوهر الحقيقي للبربرية. وفي عام 98م رسم تاكيتوس صورة لهذه المناظر الطبيعية في كتابه «جرمانيا»، قائلاً إن الأرض الواقعة في ما وراء نهر الراين لا شكل لها، وقبيحة، وموحشة بكل ما تحمله الكلمة من معنى. فغابة هرسينيا كانت قد استمدّت تسميتها من مصطلح إغريقي قديم يطلق على غابة بوهيميا الواقعة في ما يعرف اليوم بجمهورية التشيك، واستطراداً المنطقة التي تغطيها الأشجار والممتدة من نهر الراين إلى جبال الألب. وزعم بليني أن أشجار السنديان الضخمة التي احتوت عليها لم يسبق لها أن قُطعت أو قُلّمت منذ بدء الخليقة. وقال الناس إن العبور من الشمال إلى الجنوب كان يستغرق تسعة أيام، وقطع رحلة لمسافة خمسمئة كيلومتر من الشرق إلى الغرب يستغرق ستين يوماً، وليس - كما قال يوليوس قيصر - «إن أي شخص في جرمانيا يمكنه القول إنه سمع عن آخر هذه الغابة». وفي هذا المكان عاشت وحوش غير معروفة في بقاع أخرى من العالم، بعضها خطير كالأيل الذي له قرنان يشبهان أغصان الأشجار، والدب البني، والذئب، والأرخص[1]، وثور البيسون الأوروبي. واسترجعت روما واليونان أساطير البساتين الأركادية، مستذكرتين عهداً كانت اليونان فيه حراجية؛ إلاّ أنها لم تكن في أي حال من الأحوال تفتقر إلى السحر والفتنة وعصية على الاختراق على نحو ما كانت عليه تلك الغابات.

وعند الرومان فقد كان سكان تلك القفار متوحّشين، ورجالاً ينحدرون من طوطم، ألا وهو تويستو الذي كان قد انبثق من الأرض مثل الشجرة. كانوا يرتدون عباءات علّقت عليها أشواك، ويقتاتون بالطرائد البرية والفاكهة والألبان. ولقد قيل إنه لم تكن ثمة مدينة واحدة في هذه المنطقة المترامية الأطراف. وكانت القرى التي تربط بينها المسالك تحتوي على بيوت وضيعة مبنيّة من الخشب، بيد أن الصورة لم تكن سيئة تماماً. وكان تاكيتوس حريصاً على الإشارة إلى أن روما

(1) ثور بري أوروبي شبه منقرض، (المترجم).

أضحت ضعيفة وفاسدة، وذلك على النقيض من البساطة الثابتة التي اتّسم بها سكان الغابات. ولو أنه كان من الأفضل لقوم متحضّرين أن يتحاشوهم، في حين أن أولئك الذين تجرؤوا على سبر أغوارهم كان يتهدّدهم مصير رهيب. وفي عام 9م قاد بوبليوس كوينتيلوس فاروس خمسة وعشرين ألف رجل نحو غابة تيوتوبورغ الواقعة شمال ألمانيا في بقعةٍ ما بين نهري الراين وفيسر، حيث تم ذبحهم على يد الرماة الشيروسكانيين الذين كمنوا لهم بين المستنقعات والأشجار. وعندما رأى فاروس ذلك الدمار هوى فوق سيفه!

أخذت الأمور مجراها الطبيعي طوال ثلاثمئة عام، إذ إن قبيلة المحاربين في زمن تاكيتوس حيث يرمز إليهم بصورة عملاق أشقر سريع الغضب يتجرّع الجعة، كانوا قد اضمحلّوا منذ ردح طويل، أو اندمجوا في وحدات أكبر، ألا وهم الساكسون والفرنجة أو الإفرنج (Franks) والألمان (Alemanni) الذين تفرّعت عنهم أمم في المستقبل. وفي ذلك الوقت كانت الغابات قد أزيلت لتحلّ محلها أراضٍ خاليةٌ من الأشجار ومزارع عائدة لاثنتي عشرة قبيلة. لكن بالمقارنة مع يومنا هذا فإنها ظلت سليمة إلى حدٍّ كبير. وذلكم كان عالماً بدائياً من السحر والقوة، ومصدراً للحياة والموت، ومسكناً للفريسة والمفترس، حيث ضلَّ الأطفال طريقهم، ووُجد العرافون والساحرات، وسكنت الأرواح الأشجار. وهو ما يذكرنا بكل من قصة (ليلى والذئب) (وهانسيل وغريتل) وسواهما من الحكايات الخرافية التي جمعها الأخوان غريم في القرن التاسع عشر، وعلى نحو ما جسدته لاحقاً شخصية ميركوود في رواية (سيد الخواتم) التي ألفها تولكين.

وإذا كانت الغابات تملي الحدود الأبعد للإمبراطورية فإن التراجع من منطقة ما وراء نهر الدانوب كان إيذاناً ببداية انهيارها، وبحلول أواخر القرن الرابع لم تكن ثمة أفكار لاسترداد داسيا الواقعة في منطقة ترانسدانوبيا وغزو الغابات الألمانية. وسرعان ما ستُهجر بريطانيا، ويُترك سور هادريان الحدودي نصباً تذكارياً فارغاً يشهد على عظمة غابرة. فهذه المناطق كلها كانت ذات يوم تحكم من روما على يد كل من الإمبراطور ومجلس الشيوخ. ولقد بات مجلس الشيوخ الآن عبارة عن قشرة، بينما كانت للجيش الهيمنة على مقدرات القوة والسلطة الحقيقية، في حين أن الإمبراطور بذل قصارى جهده من مقرّ قيادته في حملة ما، أو من مقرات إقامته في تريفيس وميلانو ورافينا.

كان السرطان الحقيقي الذي يعاني منه هذا الجسد الضخم يتمثل في المشكلة الآخذة بالانبثاق؛ وهي التقسيم. وحينما أسس قسطنطين روما الجديدة في عام 330 كان يريد لها أن

تكون قلب دينه الجديد؛ أي المسيحية، ورمزاً لوحدة جديدة. والواقع أنّه منذ ذلك الحين بدأت الإمبراطورية الغربية الناطقة باللاتينية بالانفصال عن جناحها الشرقي الناطق باليونانية، على الرغم من ثنائية اللغة في كثير من الأحيان. وكان أفول نجم روما مرآة عاكسة لصعود القسطنطينية.

ولقد أحسن قسطنطين الاختيار حينما قرّر تحويل بلدة صغيرة قديمة تقع في شبه جزيرة صخرية في البحر الأسود إلى نسخته المعدّلة الجديدة لمدينة روما. على كل حال، فقد قيل إن الرب قد هداه، على الرغم من أن الإدراك بأن شبه الجزيرة هذه كانت قاعدة أفضل من روما لتأمين الحدود الشرقية الهشّة للإمبراطورية أمر لا يتطلّب الإحاطة بكل شيء. كانت مدينة بيزنطة (بيزنتيوم) القديمة الصغيرة قد احتلت الطرف المستدق من هذا الأنف الصخري. وطوق قسطنطين خمسة أضعاف تلك المنطقة بسور يبلغ امتداده كيلومترين، وشيد داخل عاصمته الجديدة قوساً للنصر، وأولَ كنيسة مسيحية ضخمة، وساحة عامة مبنية من الرخام، وفوق العمود البالغ ارتفاعه ثلاثين متراً والمكون من حجر سماقي مجلوب من مصر هناك تمثال للإله أبولو يحمل ملامح رأس قسطنطين ذاته. جرى ربط المضمار المعدّ للمواكب والسباقات بقاعات الاستقبال والمكاتب والأماكن المخصصة للجلوس والحمامات والثكنات في القصر الإمبراطوري بوساطة سلم حلزوني. وفي غضون قرن من الزمان أقيمت مدرسة، وسيرك، ومسرحان، وثمانية حمامات عامة، ومئة وثلاثة وخمسون حماماً خاصاً، واثنان وخمسون رواقاً معمداً، وخمسة مخازن للقمح، وثمانية قنوات وخزانات، وأربع قاعات معدة لاجتماعات مجلس الشيوخ والسلطة القضائية، وأربع عشرة كنيسة، وأربعة عشر قصراً، وأربعة آلاف وثلاثمئة وثمان وثمانون منزلاً، إلى جانب تلك المنازل العائدة إلى العامة من الناس. وبحلول ذلك الوقت كانت هنالك أسوار تحيط بها تقريباً، وفي اتجاه البحر أيضاً، باستثناء المنطقة الواقعة على طول نهر القرن الذهبي، الذي كانت تحميه سلسلة هائلة لم تتحطّم إلاّ مرة واحدة فقط في عام 1203م على يد جنود الحملة الصليبية الرابعة الذين حمّلوا سفينة بالحجارة، وثبتوا أداة ضخمة للقص في مقدمة السفينة، واندفعوا بسرعة نحو السلسلة وقصوها.

أدى بهاء عاصمة قسطنطين وسرعة عمرانها إلى جعلها مفخرة مجيدة، لكنها حققت في غضون جيل واحد النقيض لما أراده مؤسسها؛ ليس الوحدة بل الانقسام، وذلك أمر أثبته الإمبراطور فالنتينيان، فقد كان شخصية مثيرة للإعجاب، فهو مصارع بطل، وجندي عظيم، ومفعم بالحيوية، وذو ضمير حي في الذود عن المملكة..، ولقد استقرّ رأيه على أن خدمة مصالح الإمبراطورية على

أفضل وجه إنما يتحقق بإقامة إمبراطوريتين فرعيتين، تستطيع كل منهما أن تنهض بأعباء الدفاع عن نفسها. وفي 364 جعل أخاه فالنس أول إمبراطور شرقي، في حين احتفظ فالنتينيان بسيطرته على الغرب. ولربما أتى هذا العمل ثماره لو أن التحديات المحدقة بالوحدة كانت قابلة للاحتواء، إلا أنها لم تكن كذلك. وعلى الرغم من أن الإمبراطورية كانت ما تزال اسمياً موحدة بفعل التاريخ والأسرة، إلا أنّها كانت قد بدأت بالانقسام إلى: عاصمتين، وعالمين، ولغتين، وعقيدتين، حيث تقاوم كل منهما العقيدتين الفرعيتين الوثنية والهرطقة.

لم يكن ذلك الانقسام أساساً متيناً لمواجهة الأعداء في الداخل والخارج؛ ففي الشرق كان هناك المنافس الإمبراطوري العظيم، أي فارس؛ ويتوضع المتمردون الموريون[1] في أفريقيا. وكان الجانب الآخر من أوروبا الشمالية وحدود آسيا الداخلية مأهولاً بالبرابرة غير الناطقين بأي من اللغتين اليونانية واللاتينية. ومع تواصل الغارات التي شنها البرابرة من خلال نهري الراين والدانوب حاولت روما يشمل هذا المصطلح في بعض الأحيان القسطنطينية وفي أحيان أخرى لا يشملها، وهذا أمر يتوقّف على السياق - الذود عن حماها متوسّلة بمجموعة من الإستراتيجيات التي تتراوح من القوة الصريحة إلى التفاوض والرشوة والزاوج والتجارة، وأخيراً، الهجرة المضبوطة. وكانت الأخيرة في نهاية المطاف السبيل الوحيد الممكن لدرء الاعتداء، ومع ذلك فقد أدّت حتماً إلى مزيد من الانحطاط. كان البرابرة مقاتلين جيدين؛ بل من المنطقي توظيفهم، مما ترتب عليه عواقب مربكة لكلا الجانبين، وأصبح الأعداء حلفاء، وغالباً ما انتهى بهم المطاف إلى قتال ذوي قرباهم. وكان السلام يأتي دوماً ثمناً للانهيار المستمر؛ فقد تعزّزت صفوف الجيش بتدفق البرابرة، لكن الضرائب ارتفعت لدفع رواتبهم؛ فانحدرت الثقة بالحكومة، وعمَّ الفساد. وبحلول أواخر القرن الرابع كانت حدود الإمبراطورية أشبه بنظام مناعة أخذ الوهن منه كل مأخذ، فتسلل بوساطته البرابرة بشكل اعتداء مباشر أو شراكة مؤقتة، في حين كان الجيش وهو صاحب القول الفصل في السلطة السياسية وحارس الحدود - أشبه بالصفائح الدموية في هذا الجسد الذي بلغ سن الشيخوخة، تندفع على الدوام لإنتاج خثرة تغلق جرحاً جديداً، لكن تعدادها لم يكن كافياً على الإطلاق.

ولم يكن كافة أعداء الإمبراطورية المتربصون بها على حدودها أو ما وراءها، فمنذ أن استقر رأي قسطنطين على اعتناق المسيحية في مطالع ذلك القرن فإن عاصمته الجديدة بعد أن كانت في

(1) البربر، (المترجم).

صميم الخلاف أصبحت تتجاوزه إلى ما هو فوق كل المهاترات السياسية المعتادة بشأن الخلافة في الحكم. وحارب المسيحيون بطبيعة الحال الوثنية، التي أثبتت مرونتها على نحو ملحوظ. علاوة على ذلك فقد تنازع المسيحيون بعضهم مع بعض، إذ شهد ذلك العهد البدايات الأولى للعقيدة الكنسية التي اتسمت بوجود خصوم يتجادلون بشدة بشأن طبيعة الله الذي كان إلى حدٍّ ما واحداً في ثالوث، وعلى نحو ما إنساناً وإلهاً في آن معاً. ولم يكن في استطاعة أحد أن يفهم هذه الأسرار، لكنّ ذلك لم يحل دون إبداء المؤمنين المتخاصمين آراء قوية، فراحوا ينافحون ويقاتلون من أجل معتقد قويم جديد، ناعتين سواهم بالمحرّفين وأصحاب الهرطقات.

أما الهرطقة الأكثر إثارة للتحدي نسبة لآريوس[1] القس السكندري، الذي زعم أن يسوعاً كان إنساناً كاملاً - ابن الله بالتبني، إذا جاز التعبير - وبالتالي ليس ذا طبيعة إلهية ضمناً، ولذلك فمكانته أدنى من مكانة أبيه. ولقد راقت هذه الفكرة للأباطرة الشرقيين، ولا سيما فالنس، ربما لأنها لم تقع موقعاً حسناً عند الأباطرة الغربيين. ولقد بلغت المسيحية القوط لأول مرة على هذا الشكل، فأضحى معتنقوها القوط من أتباع المذهب الآريوسي بصلابة.

ذلك هو الهيكل المجيد مترامي الأطراف والمريض الذي كان فالنس يعد العدة مرة أخرى للذود عنه حينما زحف من القسطنطينية نحو الشمال في مطلع صيف عام 378م، وقد عقد العزم على الانضمام إلى الإمبراطور الذي يشاطره الحكم ومنافسه، ألا وهو ابن أخيه الطموح غراتيان.

أمّا الآن فقد أطلق فالنس العنان لكبريائه الذي تلقى ضربة قاسية، فبات الموجه له. وبعدما كان قد طلب إلى غراتيان مدّ يد العون له استبدّت به الغيرة مما حقّقه ابن أخيه من نجاح، وأصبح تواقاً لإحراز نصرٍ خاصّ به. وإبان زحفه باتجاه الشمال نحو أدريانوبل في يوليو/ تموز أخبره أرصاده وعيونه أنّ الجيش القوطي كان يقترب، لكن تعداده بلغ عشرة آلاف رجل فقط، وهذا أقل من تعداد قواته بنحو خمسة عشر ألف رجل. وقد اتخذ من خارج أدريانوبل قاعدة له، وذلك قرب نقطة التقاء نهري ماريتزا وتوندزها Tundzha التي ارتفع حولها إبان الأيام القليلة المقبلة سياج من الأوتاد الخشبية وأقيم خندق. ولقد وصل آنذاك ضابط قادم من مكان ما يقع أعلى نهر الدانوب حاملاً رسالة من غراتيان يحثّ فيها عمه على عدم الإتيان بأي عمل متسرّع إلى أن تصل التعزيزات. فدعا فالنس مجلسه الحربي للانعقاد، وقد وافق بعضهم غراتيان الرأي، بينما همس بعضهم الآخر أن غراتيان يرغب بالفوز بنصيب من نصر يخصّ فالنس وحده دون سواه. ولقد راق

---

(1) كانت تعرف باسم الآريوسية، (المترجم).

ذلك لفالنس، فتواصلت الاستعدادات.

أقام فريتيجيرن معسكراً دفاعياً يحميه سياج من العربات أعلى نهر توندزها في موضع يبعد عنه مسافة ثلاثة عشر كيلومتراً، متوخياً الحيطة والحذر من أن يكون الطرف البادئ بالحرب. ولم يتحلق حوله جنوده فحسب، بل وأُسرهم بأكملها أيضاً. ولربما بلغ تعدادهم ثلاثين ألف شخص، ومعهم حشود من العربات يصعب تحريكها، وقد جرى تنظيمهم جميعاً بشكل حلقات أسرية، من المستحيل إعادة تكوينها في أقلّ من يوم واحد. ومن أجل القتال بفعالية بعيداً عن العربات التي تشكل عبئاً يثقل كاهله كان في حاجة إلى العون والمساعدة، ولذلك أرسل في طلب فرسان القوط الشرقيين المزوّدين بالدروع الثقيلة. وفي غضون ذلك راح يعمل على كسب المزيد من الوقت، فعمد إلى إرسال العيون والأرصاد ليضرموا النار في حقول القمح التي سفعتها أشعة الشمس الواقعة بين معسكره والرومان، وبعث رسولاً وصل الى المخيم الإمبراطوري حاملاً رسالة مفادها: نعم، لقد كان القادة «البرابرة» يملكون القدرة التامة على استخدام كتبة يجيدون اللاتينية ليتواصلوا مع العالم الروماني. وقد حمل هذه الرسالة الخطية قسّيس مسيحي كان من المحتمل أن يصبح عوناً للقوط الغربيين الذين يحدوهم الأمل في أن يرتدّ عن دينه. كانت الرسالة تتضمن التماساً رسمياً للعودة إلى الوضع الراهن: السلام مقابل الأرض، والحماية من الزوبعة الآخذة بالاقتراب من الشرق.

ولم يكن لدى فالنس أياً منها، وكان يرغب بالحصول على ثمار النصر: رأس فريتيجيرن حياً أو ميتاً، وترويع القوط. فرفض الرد، وطرد القسيس على الأساس المهين أنه ليس مهماً بما فيه الكفاية ليؤخذ على محمل الجد.

وفي صباح اليوم التالي، التاسع من أغسطس/ آب، كان الرومان على أهبة الاستعداد. وجرت إعادة جميع اللوازم غير الضرورية كالخيام الاحتياطية، والصناديق الكبيرة المعدّة لحفظ النفائس، والأردية الإمبراطورية إلى أدريانوبل من أجل السلامة، وانطلق الفرسان والمشاة ليجتازوا مسافة ثلاثة عشر كيلومتراً تفصلهم عن المعسكر الدفاعي الذي أقامه القوط الغربيون ويحيمه سياج من العربات. كانت تلك مسيرة قصيرة، لكنّها مرهقة، فوق حقول محروقة وتحت حرارة الشمس الحارقة، مع عدم وجود جداول ماء لإنعاش الجنود المزودين بالدروع الثقيلة.

بعد ساعتين دنا الفرسان والمشاة الرومان من معسكر القوط الغربيين والعربات المكدّسة فيه، وارتفعت من هناك صيحات حرب حماسية وهتافات في مديح أسلاف القوط. وكان الاقتراب

المرهِق قد تسبب في انتشار الرومان في غير نظام، فتقدم الجناح الأول للفرسان إلى الأمام، وتمركز المشاة خلفهم فسدوا طريق الجناح الثاني. ثم انسحبوا ببطء لينتظموا في رتل واحد، وراحو يجلجلون ويصلصلون بأسلحتهم، ويضربون تروسهم لتطغى قعقعتها على الصخب الذي يثيره البرابرة.

وقد كانت تلك المشاهد والأصوات تثير حفيظة فريتيجيرن الذي ما يزال ينتظر النجدة، فراح يعمل من جديد على كسب مزيد من الوقت، وأرسل يطلب السلام؛ فقام فالنس بطرد مبعوثيه باعتبارهم من ذوي الرتب المنخفضة جداً. ولم يكن هناك حتى الآن ما يشير إلى وصول الفرسان القوط الشرقيين. وحان الوقت لتوجيه رسالة أخرى من فريتيجيرن، تتضمن عرضاً آخر للسلام، رافعاً سقف توقعاته، ومتقدّماً باقتراح أنّه إذا ما قام فالنس بإيفاد شخص ذي مكانة رفيعة فلسوف يأتي بنفسه لإجراء المفاوضات. وفي هذه المرة وافق فالنس، وكان هناك متطوّع ملائم قادم على الطريق حينما قامت عصبة من المرافقين الرومان ربما - المتعطشين للمجد بالاندفاع بقوة نحو جناح جيش القوط الغربيين. ولقد قفل الدبلوماسي المتطوّع عائداً أدراجه بسرعة في الوقت المناسب تماماً، إذ إنه في تلك اللحظة وصل الفرسان القوط الشرقيون وهم يَعْدُون بجيادهم مسرعين في محاذاة الوادي، فتقدم الفرسان الرومان لمواجهة هذا الخطر الجديد المحدق بهم.

وذلك هو ما كان فريتيجيرن في انتظاره، فاندفع جنوده المشاة من العربات، وراحوا يطلقون السهام، ويرمون الرماح، إلى أن اشتبك الصفّان في قتال احتدمَتْ فيه الأسلحة على الجانبين حتى التحمت الدروع بعضها ببعض، وصارت الرماح والسيوف تتكسّر، وكاد الجنود ألاّ يجدوا فسحة ليرفعوا سيوفهم للطعن والضرب، أو أنهم بعدما يقومون بذلك يعمدون إلى إنزالها من جديد. وارتفع العجاج جاعلاً أرض المعركة تكتسي بضباب خانق يعمي الأبصار. وخارج ذلك العراك الصاخب لم تكن هناك حاجة إلى أن يقوم رماة السهام والرماح من القوط الغربيين بتصويب أسلحتهم: ذلك أنّ أي مقذوف يلقى أو يطلق عشوائياً كان يجتاز المسافة عبر الغبار ويصبح غير مرئي، وعليه أن يصيب هدفه.

وفي ذلك الوقت وصلت قوات الفرسان الثقيلة، ومع خلوّ الساحة من فرسان رومان يقارعونهم ويحولون دون تقدمهم راحو يدوسون على الموتى، ويشقّون بفؤوسهم خوذات ودروع الجنود المشاة الذين حلّ بهم الضعف بفعل الحرارة، وأثقلت الدروع كاهلهم، فانزلقوا على الأرض المضرجة بالدماء. وفي غضون ساعة من الزمن أخذ الأحياء يتعثّرون بعيداً عن خطوط الرومان

فوق جثث القتلى. وكتب أميانوس قائلاً: «كان بعضهم قد خرَّ صريعاً من دون أن يتبين هوية الشخص الذي ضربه، وسُحق بعضهم تحت وطأة الكثرة، وقُتل بعضهم الآخر على يد رفاقه».

عند غروب الشمس خبا ضجيج المعركة في تلك الليلة غير المقمرة التي خيم عليها السكون، وكانت جثث ثلثي الجنود الرومان - ربما عشرة آلاف رجل - ملقاة على الأرض، وقد اختلطت بجيف الجياد بغير انتظام. وامتلأت الآن الحقول المظلمة بأصوات أخرى، إذ واكبت صرخات الجرحى وتأوّهاتهم وأنينهم أولئك الذين بقوا على قيد الحياة في أثناء اجتيازهم المحاصيل المحترقة على طول طريق العودة إلى أدريانوبل.

لا أحد يعلم ما الذي حلّ بفالنس، ففي وقت ما إبان المعركة فُقد أثره، أو خذله حراسه، ووجد طريقه إلى جحافل الجيش الأكثر انضباطاً وخبرة، وصمد في آخر وقفة له في المعركة. وانطلق أحد قادة الجيش على صهوة جواده ليقوم باستدعاء بعض القوات الاحتياطية، لكنه وجدهم قد ولوا الأدبار هاربين. بعدئذ لم يحدث شيء.. قال بعضهم إن الإمبراطور لقى حتفه حين أصابه سهم بعد وقت قصير من حلول الظلام، أو لعله وجد ملاذاً له في بيت متين يقع في مزرعة مجاورة، تم تطويقها وأضرمت النار فيها، فاحترقت عن آخرها، والتهمت النيران كل من داخلها إلا رجلاً واحداً نجا بعدما فرّ هارباً من إحدى النوافذ، فراح يروي ما حدث. وعلى هذا النحو بلغت القصة أميانوس حيث لا سبيل إلى التحقق من صحة هذه الرواية، لأن جثمان الإمبراطور لم يُعثر عليه قط.

استمر العنف، ولم يكن لدى الإمبراطورية ردّ على ذلك، وعلم القوط الغربيون من الفارين من الجيش والأسرى ما كان مخبأً في أدريانوبل. ومع انبلاج الفجر تقدموا إلى ما بعد ساحة المعركة وهم يجرون في أعقاب الناجين الذين كانوا يبحثون عن ملجأ يحميهم. لكن لم يكن ثمة ملاذ آمن لهم؛ إذ إن المدافعين عن المدينة، وقد راحوا يتحرّكون بسرعة على نحو يفتقر إلى الانتظام لتهيئة أنفسهم لحصار لم يتوقّعوه أبداً، وخوفاً من أن ينال الضعف من دفاعهم، رفضوا فتح أبواب المدينة لرفاقهم الفارين. وبحلول الظهيرة كان القوط الغربيون قد طوّقوا الأسوار، وحشروا الناجين الذين استولى عليهم الرعب والفزع إلى تلك الأسوار، ومن فرط يأسهم استسلم قرابة ثلاثمئة شخص، إلا أنه تمّ ذبحهم فوراً!

ومن حسن طالع المدينة أن عاصفة رعدية أحبطت الهجوم، ممّا أجبر القوط الغربيين على العودة إلى عرباتهم مفسحين المجال أمام المدافعين كي يدعموا الأبواب بالصخور ويُهيئوا

المنجنيق وأقواس الحصار. وحين قام القوط الغربيون بالهجوم في اليوم التالي فقدوا المئات من جنودهم الذين سحقوا تحت الصخور، أو طوّقتهم سهام بحجم الرماح، ودفنوا تحت الحجارة التي تساقطت من الأعلى.

وبعدما أقلعوا عن شن هجومهم صرفوا اهتمامهم إلى أهداف أشد يسراً، وراحوا يُمعنون سلباً ونهباً على طول طريقهم إلى أبواب القسطنطينية الممتدّ على مسافة مئتي كيلومتر. وفي تلك البقعة خمد هيجانهم المدمّر وقد حال دون بلوغه خواتيمَه المنشودة مشهدُ الأسوار الضخمة، ومن ثم وقوع حادث مروع. وعندما عزّزت المدينة دفاعاتها اندفعت من الأسوار فجأة فرقة من الساراسين، وقذف أحد أولئك المحاربين الذين يدخلون الرعب في النفوس نفسه في المعركة، حاملاً سيفه ولا يرتدي سوى مئزر يستر عورته، فشطر حنجرة جندي قوطي، ثم استولى على جثته وامتص الدماء المتدفقة منها.. كان كافياً لاستنزاف ما تبقّى من شجاعة القوط، وفرض عليهم التراجع نحو الشمال.

وتواصلت الحرب ببطء على مدى أربعة أعوام، ثم وضعت أوزارها بإبرام معاهدة تضمّنت منح القوط تقريباً ما تمّ الاتفاق عليه أولاً: الأراضي الواقعة إلى الجنوب من نهر الدانوب وشبه الاستقلال، وأن يقاتل جنودهم دفاعاً عن روما بإمرة قادتهم. لكن المعاهدة لم تصمد، إذ إن القوط كانوا أمة دأبها التنقل والترحال، وكانوا الأعظم من بين كثير من هجرات البرابرة التي كان من شأنها تقويض الإمبراطورية. ولربما قيّض لأحد القوط الغربيين الذين قاتلوا في أدريانوبل أن يخوض غمار ثورة أخرى، ويتقدم ببطء في عمق الإمبراطورية، ويستولي على روما ذاتها لمدة وجيزة من الزمن في عام 410م، ويسير فوق سلسلة جبال البيرينيه، ويقفل عائداً أدراجه من خلال الجبال ذاتها ليجد السلام أخيراً في جنوب غرب فرنسا.

لقد كان السبب في هذه الفوضى كلها - بما في ذلك أزمة اللاجئين، والتمرد، والكارثة التي حلت بأدريانوبل، والهجوم على القسطنطينية، والسلام المستحيل، والتآكل البطيء على يد البرابرة - ذلك «الجنس غير المعروف» لدى الشرق الذي أطلق العنان لها. ومع ذلك فإنه لم يكن أحد في الإمبراطورية أو حتى في المناطق الأقرب التي بلغها البرابرة يعلم شيئاً عنهم.

وربما كان عليهم القيام بذلك؛ إذ إنه على نحو ما ذكر آميانوس عَرَضاً، فمن جملة الفرسان الذين هبّوا لنجدة فريتيجيرن كان ثمة فرقة من الفرسان رماة السهام ذوي التسليح الخفيف، لا يزيد عددهم على بضع مئات، ولعلهم كانوا ينهضون بمهمة مرافقة العربات لدى القوة القوطية الرئيسة.

لقد كان وصولهم في العام المنصرم هو ما أرغم الرومان على الانسحاب، وإفساح المجال لتوغّل القوط في تراقيا. ومما لا ريب فيه أنّ أمورهم كانت تسير على خير ما يرام بوصفهم قطاع طريق وعيوناً وأرصاداً، يزعجون العدو بغاراتهم المتكررة، ويقضّون مضاجعه. وإذا كانوا يخوضون غمار المعركة خارج أدريانوبل فلن يلحظَ أحد بهذه المخلوقات الفظة قليلة العدد المزودة بأدنى حد ممكن من الدروع، لكنهم شوهدوا بعد ذلك، إبان أعمال السلب والنهب، ثم تواروا عن الأنظار، لأن قلة من المدن كانت قد سقطت، والغنائم كانت هزيلة. لقد غادروا، ولكن كان في حوزتهم كنز من نوع آخر: المعلومات؛ فقد شاهدوا ما يملك الغرب أن يقدّمه. كانوا قد شهدوا أسوأ يوم عرفته روما منذ الهزيمة التي أنزلها بها هانيبعل في معركة كاناي قبل ستمئة عام. بل لعلّهم خمّنوا أن روما ستعتمد في المستقبل بشكل أكبر على قوة الفرسان الثقيلة، الذين - كما كانوا يعلمون - لا يضاهون نمط الحرب الخاصة بهم. لقد أدركوا المشكلات الأوسع نطاقاً التي تعاني منها روما، المتمثلة في: صعوبة تأمين حدود غير عصية على الاختراق، واستحالة جمع ونقل جيوش كبيرة لقتال محاربين يشنون حرب عصابات، وغطرسة «المتحضرين» حينما يواجهون «الهمجيين». في حين أن إقليم البلقان برمّته الخاضع للإمبراطورية انهار وشهد اندلاع أعمال الشغب، فاندفع رماة السهام هؤلاء الذين يتنقلون بخفّة على صهوات جيادهم عائدين أدراجهم نحو الشمال والشرق وفي حوزتهم بعض الأشياء المسروقة، وإدراكهم الأساسي: كانت الإمبراطورية غنيّة، وكانت الإمبراطورية ضعيفة!

كان أولئك الفرسان الذين يتنقلون بخفّة ورشاقة على ظهور الخيل وذوو التسليح الخفيف أول من وصل إلى أوروبا الوسطى من الهون. كان أقاربهم هم الذين أطلقوا العنان للزوبعة التي عصفت بالقوط على امتداد نهر الدانوب، وما لبثوا أن قاموا بإمرة أشدّ قادتهم قسوةً بعبور نهر الدانوب أيضاً، وقد نجم عن ذلك عواقب على الإمبراطورية الآخذة بالاضمحلال تجاوز مداها كل ما صنعه القوط.

2

الخروج من آسيا

ما من أحد يعلم من أين جاء قوم أتيلا، فقد قيل إنهم كانوا يقيمون ذات يوم في بقعة ما وراء حافة العالم المعروف، شرق مستنقعات الميوسين؛ أي بحر آزوف الضحل والممتلئ بالرواسب الطينية، في الجانب الآخر من مضيق كيرش الذي يربط هذا البحر الداخلي بالأصل المنبثق منه، ألا وهو البحر الأسود. لماذا جاؤوا إلى هناك ومتى؟ لماذا بدؤوا مسيرتهم نحو الغرب ومتى؟ كان يعتور ذلك كله ثغرات، لا يملؤها إلا التراث الشعبي (الفولكلور).

يُحكى أن القوط والهون كانا شعبين متجاورين، يفصل بينهما مضيق كيرتش. وبما أن كلاً منهما كان يقيم على أحد جانبي المضيق فقد سكن القوط في شبه جزيرة القرم على الجانب الغربي، بينما سكن الهون على طول الطريق الواقعة فوق الأراضي المنبسطة شمال جبال القوقاز، ولم يكن أيّ منهم على دراية بوجود الآخر. وذات يوم لسعت ذبابة الماشية بقرة صغيرة عائدة للهون، فانطلقت تجري من أحد جانبي مياه المستنقعات وعبرت المضيق إلى الجانب الآخر. وإبان مطاردة راعي البقر لها عبر المستنقعات وجد أرضاً، فقفل عائداً أدراجه، وروى ذلك لبقية أفراد القبيلة الذين سلكوا سبيل الحرب غرباً دونما إبطاء. إنها قصة لا تفصح عن شيء، إذ إن كثيراً من القبائل والثقافات تعرض أصلها من زاوية قيادة الحيوانات لها. وتروى منذ زمن بعيد حكاية مشابهة على نحو يدعو للريبة ويثير الشك عن آيو، وهي كاهنة تحولت إلى بقرة صغيرة على يد عشيقها زيوس، ولأنها بقرة صغيرة أُبعدت من آسيا الداخلية بوساطة لسع ذبابة الماشية لها، فعبرت هذه المضائق ذاتها، وسبحت في البحار من خلال اليونان، حيث أطلق اسمها على جزر البحر الأيوني، إلى أن انتهى بها المطاف في مصر. وبعدما اتخذ زيوس صورة ثور حَمَل يوروبا سليلة آيو لإقامة حضارة في القارة التي أطلق اسمها عليها. وهكذا فإن هذه الحكايات عن الهون لا تقنع أحداً، ومن أجل ملء الفجوة خرج الكتاب الغربيّون بأكثر من عشرة تخمينات بذات القدر من الجموح. لقد أرسل الله الهون بوصفهم ضرباً من العقاب الإلهي؛ فقد قاتلوا مع أخيل في حرب طروادة؛ وكانوا إحدى القبائل الآسيوية التي أطلق عليها المؤلفون القدماء اسم «السكيث» لأنه الخيار الأكثر شعبية، نظراً إلى أنّ هذا اللقب كان ينطبق إلى حدّ كبير على أي من قبائل البرابرة. والحقيقة أنه ما من أحد يعلم، لكن ما من أحد يرغب في الاعتراف بجهله. ومن المهم أيضاً لدى المؤلفين أن يتباهوا باطّلاعهم على الآثار الأدبية للإغريق والرومان (الكلاسيكيات)، لأن الأدب - كما يعلم كل مثقف - هو ما يميز المتحضّرين عن الهمجيين؛ فإن كنت رومانياً

وذكرت السكيث أو المساجيت فإنك على الأقل مطّلع على هيرودوت، حتى وإن كانت معرفتك بالهون معدومة!

ولم يكن الضحايا القبليّون للهون أكثر إحاطة بهم. ووفقاً للمؤرخ القوطي يوردانس كان أحد ملوك القوط قد اكتشف وجود بعض الساحرات، فرحّلهن من بلاده إلى أعماق آسيا، فتزاوجن هناك مع الأرواح الشريرة، وأنجبن قبيلة من «الأقزام الكريهين والسقيمين، الذين هم لا يكادون يكونون بشراً، ولا ينطقون بأي لغة باستثناء تلك التي لا تحمل إلاّ شبهاً ضئيلاً بلغة بني البشر». ولقد بدؤوا اهتياجهم وثورتهم حينما طارد الصيادون أنثى ظبي (ليس في روايتهم ذكر لبقرة صغيرة أو ذبابة ماشية أو راعي بقر) عبر مضيق كيرتش، وهكذا التقوا مصادفة بالقوط التعساء.

لا يروق للأكاديميّين وجود ثغرات من هذا القبيل، وبحلول عصر التنوير قام العالم الفرنسي المتخصص بالثقافة الصينية جوزيف دي غيني بمحاولة ملء الثغرات تلك. ودي غيني De[1] Guignes اسم نصادفه عادة في الحواشي الأكاديمية حيثما وجدت، بيد أنه يستحق أكثر من ذلك؛ إذ إن نظريته بشأن أصول الهون التي كانت موضوع جدل ونقاش منذ ذلك الحين عادت إلى الظهور من جديد في الوقت الحاضر، بل قد تكون صحيحة.

كان دي غيني المولود سنة 1721م ما يزال في العشرينيات من عمره عندما عُيّن «مترجماً» للغات الشرقية في المكتبة الملكية بباريس، وكانت اللغة الصينية مصدر قوته على نحو خاص. فشرع فوراً في وضع العمل الضخم الذي صنع شهرته. وذاع صيت هذا الشاب الألمعي وعبر القنال[2]. وفي عام 1751م حين بلغ التاسعة والعشرين من عمره انتخب عضواً في الجمعية الملكية بلندن ليكون أحد أصغر الأعضاء سناً، فضلاً عن كونه أجنبياً. كان يدين بهذا الشرف إلى مسودة وضعها يعرض فيها - كما يقول الاقتباس - «لكل ما يمكن للمرء أن يتوقّعه من كتاب ضخم جداً، معدّ للطباعة». حسناً، ليس تماماً. لقد احتاج الأمر إلى خمسة أعوام أخرى ليدفع بعمله هذا إلى المطبعة، وعامين آخرين حتى يفرغ من طباعته؛ وقد صدر عمله الموسوم بـ «التاريخ العام للهون والأتراك والمغول» في خمسة مجلدات بين عامي 1756 و1758. ولعل السادة أعضاء الجمعية الملكية التمسوا له العذر لتأخّره، إذ يبدو أن دي غيني كان على وشك أن يبرز بوصفه مثالاً ساطعاً للعالم التنويري. وكان لا بد أن يصبح مساهماً رئيساً في تبادل المعارف الإنسانية

(1) على نحو ما نطالع اسمه في معظم الفهارس والبيانات المصورة (الكتالوجات)، أو ديغيني (Deguines) كما كان يرسم اسمه.

(2) قناة بحر المانش، (المترجم).

والنقد عبر القنال الذي أدى إلى إنجاز ترجمة موسوعة إفرايم تشامبرز في الأربعينيات من القرن الثامن عشر، والذيل عليها بتحرير دنيس ديدرو المعنونة بـ «دائرة المعارف» التي صدر مجلدها الأول في السنة التي انتخب فيها دي غيني عضواً في الجمعية الملكية. والواقع أن دي غيني لم يفلت من قيود مكتبته إطلاقاً، ولم يماثل أبداً الروح النقدية لدى معاصريه، وكانت الفكرة العظيمة التي خرج بها إثبات أن الشعوب الشرقية كافة (الصينيون والأتراك والمغول والهون) يتحدرون من نوح فعلاً، الذي كان قد تجوّل شرقاً بعد الطوفان. وأصبح هذا هاجساً لديه، وموضوع كتابه التالي الذي استدعى جواباً سريعاً لاذعاً من جانب المؤيدين لمذهب الشك، أعقبه ردّ مضادٌّ من دي غيني غير المنفتح وغير المتقبل للوقائع. ولقد بقي كذلك حتى رحيله بعد ذلك بنحو خمسين عاماً. ولم يترجم تاريخه إلى الإنكليزية أبداً.

بيد أن أحد جوانب نظريته قد تجذّر وازدهر؛ إذ ذهب إلى القول إن قوم أتيلا الهون يتحدّرون من قبيلة تعرف على نحو مختلف باسم «هيونغ - نو» أو «زيونغ نو»، ويرسم اسمها الآن «هيونغنو»[1]، وهم قبيلة من غير الصينيين، ولعلّهم يتفرعون من أرومة تركية. وبعد قرون لم يدوّن المؤرخون أي شيء عنهم، وشهدت شنّ غارات غير ذات شأن. أقام هذا الشعب إمبراطورية بدويّة، واتخذوا مما يعرف الآن بمنغوليا مقراً لهم في عام 209 ق.م؛ أي قبل وقت طويل من ظهور المغول على الساحة، لكنه لم يحاول أن يبرهن على هذه المسألة التي أثارها، بل اكتفى بالإعلان القاطع بأن «الهيونغ - نو» هم في الحقيقة الهون. وقد استهل «الكتاب الأول» بعرض «تاريخ الهون القدماء»، وبجرة قلم غير مؤيَّدة بدليل كان قد وسّع نطاق موضوعه ليشمل عدة قرون من الزمان وعدة آلاف من الكيلومترات.

لقد كانت نظرية جذابة؛ لأن شيئاً ما على الأقل بات يُعرف عن هذا الشعب في القرن الثامن عشر، وأضيف إليه منذ ذلك الحين قدر كبير من المعلومات، والواقع أنها كانت كافية بحيث تستحقّ دراسة الهيونغنو على نحو أكثر عمقاً لنرى ما الذي كان الهون يفتقرون إليه وربما أرادوا استرداده أثناء شقهم طريقهم ببطء باتجاه الغرب سعياً وراء مصدر جديد للثروة.

كانت الهيونغنو أول قبيلة أقامت إمبراطورية خارج الحدود الداخلية للصين، وأول من استغلّ على نطاق واسع نمط حياة كانت جديدة نسبياً في تاريخ البشرية. إذ إنّنا طوال تسعين في المئة من تاريخنا بوصفنا بشراً حقيقيّين والممتد على مدى مئة ألف سنة كنا في مرحلة جمع القوت والصيد،

(1) أو ما يعرف بالهون الآسيويين، (المترجم).

ونظّم أسلوب حياتنا حول التغيرات الموسمية في البيئة، ونتبع حركة الحيوانات والازدهار الطبيعي للنباتات. بعدئذ، ومنذ قرابة عشرة آلاف سنة، انسحبت آخر الصفائح الجليدية الكبرى وبدأت الحياة الاجتماعية تتبدّل بسرعة نسبياً، ممّا أدى إلى ظهور نظامين جديدين؛ أحدهما الزراعة التي انبثقت عنها بغزارة السمات التي باتت تحدّد عالم اليوم؛ ألا وهي النمو السكاني، والثروة، والترفيه عن النفس، والمدن، والفن، والأدب، والصناعة، والحرب واسعة النطاق، والحكومة؛ أي معظم الأشياء التي تعدّها المجتمعات المدينية المستقرة والجامدة (استاتيكية) مساوية للحضارة. بيد أن الزراعة قدمت أيضاً الحيوانات الأليفة والداجنة التي بوساطتها استطاع الذين لا يزاولون الأعمال الزراعية تطوير نمط حياة آخر تماماً، قوامه الرعاة الرحل؛ أي الحياة البدوية الرعوية، كما تسمّى. وقد أغرى هؤلاء الرعاة عالم جديد: بحر من العشب، أو السهوب الواسعة، التي تمتدّ عبر أوراسيا مسافة ستة آلاف كيلومتر من منشوريا إلى هنغاريا. وكان على الرعاة معرفة أفضل السبل لاستخدام المراعي وسوق الإبل والغنم بعيداً عن المناطق الأكثر رطوبة، والبحث عن تربة كلسية من أجل الخيول، والتأكّد من وصول الماشية والخيول إلى العشب الطويل قبل الأغنام والماعز التي تلتهمها وصولاً إلى الجذور.

كان المفتاح إلى ثروة المراعي يتمثل في الحصان، الذي تمّ ترويضه واستيلاده على مدى ألف عام لإيجاد سلالات جديدة: حيوان قوي الجسم، ورشيق، وصلب، وسهل الانقياد، أصبح ذا قيمة لا تقدر بثمن لاستخدامه في النقل والرعي والصيد والحرب. فأصبح الرعاة الآن أحراراً بتجوالهم في المراعي واستغلالها في تربية الحيوانات الداجنة الأخرى (الأغنام والماعز والإبل والبقر والياك)، حيث تزودهم باللحوم، والشعر، والجلود، والروث للوقود، واللباد للملابس والخيام، ومئة وخمسين نوعاً مختلفاً من منتجات الألبان، بما في ذلك الشراب الرئيس للراعي، وهو الجعة المصنوعة من حليب الفرس المخمر باعتدال. وعلى هذا الأساس يستطيع البدو الرعاة من الناحية النظرية أن يعيشوا حياتهم المستقلة والمكتفية ذاتياً والمعتمدة على الذات على نحو غير محدود، لا أن يرتحلوا هائمين على غير هدى كما يعتقد الغرباء أحياناً، بل يستغلّون المراعي المألوفة موسماً بعد آخر.

يتّصف الرعاة الرحل بأنهم محاربون أيضاً، ولديهم سلاح يبعث على الخوف والرعب. ألا وهو القوس المركّب المنحني إلى الوراء ذو التصميم المتماثل في أنحاء أوراسيا كافة، والمصنف في مصافّ السيف الروماني والمدفع الرشاش بوصفه سلاحاً غيّر وجه العالم. وكان سكان

السهوب يمتلكون جميع العناصر الضرورية (القرون، والخشب، والوتر، والصمغ) لصنع القوس يدوياً، على الرغم من أنّهم كانوا في بعض الأحيان يصنعون أقواساً من القرون فقط. وتعلموا على مرّ الزمن كيفية الجمع بينها من أجل الحصول على فعاليتها المثلى؛ إذ يقوم القوّاس بتثبيت القرن الذي يقاوم الضغط مع الخشب، ويشكل الوجه الداخلي للقوس. وتقاوم الأوتار التمديد، وتمدّ على طول الوجه الخارجي، وتلحم العناصر الثلاثة معاً بالصمغ المغلي. ولا تقدم لنا هذه الوصفة السريعة لمحة عن المهارات اللازمة لصنع قوس جيدة، إذ يستغرق الأمر سنوات لإتقان استخدام هذه المواد، والمقاييس المناسبة لعرضها، وأطوالها، وسماكاتها، وجعلها مستدقّة الأطراف، ودرجات الحرارة، والوقت اللازم لتحديد شكلها، وعدد لا يحصى من التعديلات الطفيفة. وحينما يجري تطبيق هذه الخبرة بشكل صحيح بأناة ومهارة فالنتيجة هي قوس يتمتع بخواص رائعة[1].

وحينما يخرج بالقوة من منحناه العكسي ويزوَّد بالوتر يختزن القوس القوي طاقة تبعث على الدهشة. ويشير أول نقش مغولي معروف يعود بتاريخه إلى عام 1225م إلى أن أحد أبناء أخ جنكيز خان أطلق سهماً نحو هدف من نوع غير محدد، فأصابه عن مسافة قرابة خمسمئة متر. وباستخدام مواد حديثة وأقواس مصنوعة من مادة الكربون تمّ تصميمها خصيصاً تطلق الأقواس المركبة المحمولة باليد في يومنا هذا سهاماً يبلغ مداها قرابة ثلاثة أرباع الميل. وعلى مدى مسافة من هذا القبيل يفقد حتماً السهم المقذوف على ارتفاع عال ليتحرك بمسار منحن كثيراً من قوته. ومن مسافة قريبة - لنقل إنها تتراوح بين (50 - 100) متراً فإن النوع المناسب من نصل السهم المرسل من قوس «ثقيل» يمكن أن يتفوّق على أنواع عديدة من طلقات الرصاص من حيث قوة النفاذ، مخترقاً نصف بوصة من الخشب أو درع صدر مصنوع من الحديد.

كان للنصال تقانتها الفرعية الخاصة بها؛ فالعظم ملائم جداً بما فيه الكفاية للصيد، لكنّ الحرب كانت تتطلب رؤوس سهام مصنوعة من المعدن (البرونز أو الحديد) مزودة بزعنفتين أو ثلاث، تُقحم في شق صغير في السهم. أما طريقة الإنتاج على نطاق واسع للنصال البرونزية المجوّفة فتعتمد على استخدام القوالب الحجرية التي يُعاد استعمالها، ومن المرجّح أنه تمّ ابتكارها في السهوب قرابة عام 1000ق. م، مما يمكّن الفارس من أن يحمل العشرات من السهام ذات الحجم العادي مع مجموعة من النصال المعدنية. ومن أجل إنتاج النصال المعدنية كان لدى الجماعات

(1) يستغرق صنع قوس مركب عاماً أو أكثر.

البدوية الرعوية خبراء بالمعادن، يعلمون كيفية صهر المعادن من الصخور، وحدادون تتوافر لديهم الأدوات والمهارات لتطريق الحديد وتشكيله؛ وكان كلا الاختصاصيين اللذين يقومان بعملهما خير قيام من قواعد ثابتة في حاجة إلى العربات لنقل معداتهم وتجهيزاتهم إبان التنقل والترحال.

ومع اقتراب الألفية الأولى قبل الميلاد من نهايتها كانت البداوة الرعوية في السهوب آخذة بالتطور لتصبح نمط حياة جديدة متطورة، تقوم بأود الرعاة الذين كان بعضهم يزاول الأعمال الحرفية إلى جانب الرعي (نجارين ونساجين وحدادين) وكان جلهم - بما فيهم النساء - مقاتلين إلى جانب مزاولتهم للرعي والمهن اليدوية. وعلى النقيض من المجتمعات الزراعية المستقرّة والجامدة في جنوب الصحاري الكبرى لآسيا الوسطى وشرقها، فقد كان هؤلاء شعباً دأبه التنقل والترحال. وقد أدّت خبراتهم الواسعة بالخيول، والكلأ، والحيوانات، والأقواس، وعلم المعادن إلى بروز نمط جديد من القادة الذين يستطيعون التحكّم بتدفّق الحيوانات والوصول إلى أفضل المراعي، وبالتالي تنظيم الموارد من أجل الغزو. وحين ازدهرت اقتصادات مناطق السهوب اتَّحد هؤلاء القادة فيما بينهم مشكلين أحلافاً قبلية وجيوشاً، وأقاموا أخيراً إمبراطوريات عدة ابتداء من عام 300 ق. م على وجه التقريب. بيد أن هذا التطور أحدث نمطاً مختلفاً من المجتمع؛ إمبراطوريات تجمع الثروة وينبغي أن تدار، وهي في حاجة إلى مقر للقيادة - وهو العاصمة - وسواها من المدن الصغيرة، مشكلة جميعاً شريحة اجتماعية متمدّنة على رأس الجذور البدوية التقليدية. ومن بين تلك الإمبراطوريات كانت إمبراطورية الهيونغنو أولها، وربما أعظمها، قبل بزوغ نجم الإمبراطورية المغولية.

أقام الهيونغنو أولاً في الحلقة الشمالية الكبرى للنهر الأصفر، في المنطقة المعروفة في يومنا هذا باسم أوردوس في إقليم منغوليا الداخلية في الصين. ربما كانوا أكثر قليلاً من واحدة من العديد من ممالك البرابرة المزعجة وإنما الزائلة التي صعدت وسقطت في آسيا الداخلية لولا أنموذج أصلي لأتيلا يتّسم بالقسوة إلى حدّ استثنائي ويُدعى موتون (يرسم اسمه أيضاً مودون أو ماو - دون) الذي أشار أول المؤرخين الصينيين الكبار زو ما تشين إلى صعود نجمه في عام 209 ق.م. كان موتون قد قدّمه والده طومان[1] رهينةً إلى إحدى القبائل المجاورة، ويروي زو ما تشين في تاريخه الذي وضعه في القرن التالي ما حدث بعد ذلك، مبتعداً عن أسلوبه الرزين المعتاد، ولربما استقى معلوماته من ملحمة تأسيسية ما للهيونغنو تغنى بها شعراء البطولة لتبيان شأو أمتهم. كان طومان يحبذ وريثاً آخر ويتمنى مصرع موتون، وبناء عليه شنّ هجوماً على جيرانه، متوقعاً قتل موتون. لكن الأمير نظّم عملية هروب مثيرة، فسرق حصاناً وامتطى صهوته عائداً به إلى والده الذي استقبله بابتسامات متكلّفة وبهدية من قواته الخاصة به على نحو يلائم منزلته. وتلك كانت فرصة موتون للانتقام من والده؛ وإذ عقد العزم على إشراك كلّ رجاله بجرم اغتيال الملك، فراح يبث بذور التمرد المطلق بينهم. وأمرهم قائلاً: «أطلقوا سهامكم كلما وجدتموني أطلق سهمي ذا الرأس المدبب والنصل الحاد الذي يصدر صفيراً! ولسوف أقتل كل من يقصّر عن إطلاق سهمه!»، ثم اصطحب فرقته في رحلة صيد، وأصبح كل حيوان يصوب باتجاهه هدفاً لرجاله. بعد ذلك صوّب نحو واحد من أفضل الخيول لديه، وقد لقي الحصان مصرعه بعد تعرضه لوابل من السهام؛ لكنّ بعضهم تردّد، فتمّ تنفيذ حكم الإعدام فيهم. بعد ذلك صوب باتجاه زوجته الأثيرة لديه، فلقيت حتفها، وكذلك لقي أولئك الذين وقعوا في الحيرة مصرعهم. ومن ثم أطلق موتون سهمه باتجاه واحد من أروع الخيول لدى والده، فأُطلقت المزيد من السهام عليه فسقط ميت آخر، وفي هذه المرة لم يكن هناك أي متردّد. وبات موتون يعلم الآن أنه يستطيع أن يمحّض رجاله جميعاً ثقته. وفي آخر الأمر «وفي إحدى رحلات الصيد أطلق سهماً ذا رأس مدبب ونصل حادّ يصدر صفيراً باتجاه والده، وقام أتباعه كافة بتصويب سهامهم نحو الهدف ذاته، وأصابوا الزعيم في مقتل»، وما بقي في جسده موضع إلاّ وفيه رمية بسهم، وصار إذا أصابته سهام تكسرت النصال على النصال. وكان الهدف التالي بالتسلسل حاكماً مجاوراً، أصبحت جمجمته كأساً لموتون التي

---

(1) اسم «طومان» صادف أنه يعني باللغة المغولية «عشرة آلاف»، وبخاصة وحدة قوامها عشرة آلاف جندي. ويبدو أن الهيونغنو كانوا ينطقون بلغة أشبه ما تكون باللغة المغولية التركية البدائية قبل أن تبدأ هاتان اللغتان بالتطور كل منهما على حدة.

ترمز إلى القوة المعتادة للحكام من البدو الرحّل.

أضحى الهيونغنو يمتلكون الآن قاعدة صلبة لبناء إمبراطورية سهوب امتدت رقعتها في نهاية المطاف حتى بلغت مسافة ألف كيلومتر شمالاً، وقرابة أربعة آلاف كيلومتر غرب بحر آرال. كان الفراء يُجلب من سيبيريا، والمعادن لنصال السهام والدروع القاسية من جبال آلتاي، وتيار متدفق من النبيذ والحرير والحبوب من أسرة هان حكام شمال الصين الذين كانوا سعداء بالاتجار معهم وتقديم العطايا لهم إذا كان ذلك ما يتطلّبه الحفاظ على السلام. وعلى ذلك الأساس المتين الذي أرساه موتون إبان مدّة حكمه التي استمرت خمسة وثلاثين عاماً أوجدت نخبة الهيونغنو حياة غنية ومتنوّعة في وديان شمال منغوليا وجنوب سيبيريا. كانت إيفولغا الواقعة جنوب غرب أولان أوده إحدى بلدات الهيونغنو حسنة التحصين، ومن جملة سكانها النجارون والبناؤون والمزارعون والحدادون والصياغ. وكان في بعض المنازل نظام تدفئة تحت البلاط على الطراز الروماني. وإلى الغرب في ما يعرف اليوم باسم قانسو وسينكيانغ كان الهيونغنو يسيطرون على قرابة ثلاثين من دول المدن ذات الأسوار، وقد بلغ عدد سكان إحداها ثمانين ألف نسمة. كانت التجارة، والضرائب، والرهائن تتدفّق كلها نحو المركز - ألا وهو عاصمة موتون - الواقعة غرب أولان باتور، ليس بعيداً عن العاصمة المنغولية القديمة قراقوروم. كان ممثلو الدول وزعماء القبائل يأتون إلى هذه البقعة لحضور الاحتفالات الضخمة التي تقام ثلاث مرات كل عام، ويكتمل عقدها بتنظيم مباريات وألعاب رياضية على غرار تلك التي ينظّمها المهرجان الوطني في منغوليا في يومنا هذا.

ولإدارة هذا كله استعان موتون بموظّفين يكتبون باللغة الصينية. وقد دون المؤرخ الصيني بان كو كثيراً من رسائله. ويبدو أن موتون يوحي في إحداها بوجود مشروع زواج يلبّي مصلحة سياسية يربطه بوالدة إمبراطور الهان، وتدعى لو. فها هو ذا ينوح بأسلوب حزين زائف: «إنني حاكم أرمل حزين، ولدت وسط المستنقعات، وترعرعت في السهوب البرية. وأنتم يا صاحبة الجلالة شأنك شأني، فقد ترملت وتعيشين في عزلة، وكلانا يعيش حياة خالية من الملذّات، ولا نملك أي وسيلة نروّح بها عن أنفسنا. ويحدوني الأمل في أن نتمكن من أن نبدّل ما لدينا بما ينقصنا». فردت عليه الإمبراطورة لو بأنه لا بد من أنه يمزح، «لقد تقدّمت بي السن وحيويّتي آخذة في الضعف، وشعري وأسناني تتساقط، وإنني لا أقوى حتى على المشي بثبات. ولا بد أنه تناهت إلى سمع الشان يو[1] تقارير مبالغ فيها». فأوفد موتون مبعوثاً للاعتذار، الأمر الذي لا يستقيم معه أن يكون الهيونغنو

(1) وهو اللقب الذي كان يطلق على أباطرة الهيونغنو.

مجرد برابرة يفتقرون إلى التهذيب ولطف المعشر.

كان النجاح الذي حققه موتون جديداً في التاريخ الطويل لتعامل الصين مع البرابرة الشماليين. واستجابة لذلك، انخرط أول أباطرة الصين من سلالة جين، التي تولت الحكم ما بين عامي 221 - 206 ق.م في تشييد عدة أسوار محلية تؤلّف السور العظيم الأول الذي لم يكن الغرض منه الدفاع في وجه الغزوات بقدر ما كان لتحديد مناطق الهيمنة الصينية على الفلاحين والتجارة والعسكر. وكانت تلك إشارة صريحة للتقسيم الذي نشأ بين الرعاة والمزارعين، والرحل والمستقرين، والمتمدنين والبرابرة. والواقع أنه منذ ذلك الحين فصاعداً كان من شأن ذلك السور تحديد جوهر الثقافة الصينية في عيون الصينيين. وفي يومنا هذا ما تزال بعض بقاياه ظاهرة للعيان وتلوح في الأفق عبر شمال الصين، مخترقة الصحراء أو شاطرة حقول القمح نصفين، وغالباً ما تآكلت باستثناء سور الصين العظيم في يومنا هذا المبنيّ من الحجر في القرن السادس عشر، وهو التأكيد الأخير على التحيز القديم. وعلى حد وصف زو ما تشين، فإن من في داخل السور «هم أولئك الذين يعتمرون القلنسوة ويشدّون الحزام، أما خارجه فهم البرابرة». وكان البدو «خارج نطاق المقبول اجتماعياً» بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ألا وهو الجانب الخطأ من حسيكة[1] الحضارة.

في عام 1912 كان مهندس تعدين مغولي يدعى بالود يجري مسحاً لتلال نوين أولا المكسوة بأشجار الصنوبر التي تقع على مسافة مئة كيلومتر شمال عاصمة منغوليا أولان باتور (أو أورغا، وهو الاسم الذي اشتهرت به في زمن ما قبل الثورة)، فصادف تلة كان محفورة في وقت ما في الماضي، وقد ذهب به الظن إلى أنها كانت من صنع الباحثين عن الذهب، فقام بمزيد من الحفريات، وعثر على مقادير ضئيلة من الخشب والمعادن والقماش، وأدرك أنه لم يكتشف منجماً، بل تلال مدافن تحتوي على قبور تحت الأرض (كورغان). ولقد أرسل بعض القطع التي عثر عليها إلى المتحف في إركوتسك، ثم لم يحدث شيء طوال اثني عشر عاماً، ولم يكن ذلك مفاجئاً بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى وقيام الثورة في كل من روسيا ومنغوليا. ولقد توفي بالود؛ فبقيت اكتشافاته طيّ الإهمال والنسيان. وفي أوائل عام 1924م وصل المستكشف الروسي الشهير بيتر كوزلوف إلى أولان باتور على رأس بعثة أثرية عائدة من التيبت. وبما أن الأوقات كانت عصيبة فقد باعت أرملة بالود القطع المتبقية من ذخائر زوجها إلى كوزلوف. فأوفد بدافع من اهتمامه

(1) سياج من أوتاد خشبية قوية مستدقة، (المترجم).

أحد زملائه وهو إس. ايه. كوندراتييف لمعاينة الموقع. كان ذلك في فبراير/ شباط والأرض متجمدة، لكن عمال كوندراتييف أخذوا يُعملون معاولهم في تلة بالود، وعثروا على ممر رأسي مدعّم بخشب الأشجار الحراجية، فبدل كوزلوف خططه. وبحلول مارس/ آذار كان يعلم أنّ لديه اكتشافاً كبيراً: كانت تلك التلال عبارة عن مدفن ضخم للهيونغنو يشمل مساحة عشرة كيلومترات مربّعة، ويحتوي على مئتين واثني عشر قبراً ركامياً. وقد أظهر عدد قليل من المجسّات أنه تمّت سرقة القبور، لكن المياه غمرتها في وقت لاحق، ومن ثم تجمدت تجمّداً عميقاً، وهو أمر كان من حسن الطالع، لأن كل ما لم يأخذه اللصوص كان متجمّداً أيضاً. وأجرى فريق كوزلوف حفريات في ثمانية تلال، وبعدما أزالوا كثيراً من الصخور والأتربة التي يثقل حملها على عمق تسعة أمتار عثروا على ممرّات منحدرة تؤدي إلى حجرات يبلغ ارتفاعها مترين مبنية من خشب الصنوبر، ومكسوة بالسجاد المصنوع من الصوف أو اللباد. وفي كل منها قبر من ألواح خشب الصنوبر، وداخل كل قبر تابوت مصنوع من خشب الأرز ومزود ببطانة من الحرير. كان بناء الغرف رائعاً، وقد استخدمت فيه عوارض خشبية مكسوة بالحرير ومزينة بإتقان في الجدران الجانبية والدعامات المثبتة بمساند جيدة الصنع. وأماطت فخارية مزخرفة عثر عليها في القبر تحت الأرض (كورغان) ذي الرقم 6 اللثام عن زمان إقامة قبر واحد على الأقل: إذ سجل عليها اسم كل من الصانع والرسام، ومؤرخة في سبتمبر/ أيلول من السنة الخامسة لتشيانغ بينغ، الموافقة لعام 2 ق. م.

كانت الفوضى ضاربة أطنابها في كل قبر، وما يحتوي عليه من كنوز دفينة، بلغ مجموعها زهاء الخمسمئة، معظمها محفوظ الآن في سان بطرسبرغ، وقد تناثرت جميعها على أيدي اللصوص وسط العظام البشرية والحيوانية، فلم يبقَ هناك أيّ هيكل عظمي تام. ولا ترقى بقاياها إلى مستوى [مقبرة الملك، م] توت عنخ آمون، ذلك لأنّ معظم الذهب كان قد نهب، لكن بقي منه ما يكفي لإظهار أن أصحابها كانوا أناساً أثرياء، ولم تكن الحرب وموسم ولادات الحملان المقبل ما يشغل بالهم. وكانوا شغوفين بالمصنوعات اليدوية من ذلك الصنف المتين الذي يسهل حمله، ويتوافر لدى مجتمعهم الوقت والمهارات اللازمة لإنتاجها. وتلك هي بعض الأشياء التي أعجبوا بها: اللباد المزين بالرسوم والنقوش، والقوارير المصنوعة من الخشب المطلي باللّك، والأواني البرونزية، والملاعق المصنوعة من القرون، والسراويل الداخلية التي تصل إلى الركبة المصنوعة من الصوف والحرير، والجوارب الحريرية، والأثواب التي تشدّ إلى الوسط ذات الطرازين الصيني والمغولي، والأبازيم، والقلنسوات الحريرية، والقبعات المصنوعة من الفراء، وزينة الخيول، وزينة اللجام المصنوع من البرونز، ومنشّات الذباب، وأغطية محاور العجلات، وعيدان الحطب

(فقد كانوا يضرمون النار بوساطة احتكاك عود دائري وفركه بأي لوح)، والأواني الفخارية، والهراوات البرونزية، والمصوغات الذهبية، والأختام، والأطباق الفضية التي نقشت عليها نقوش غائرة تمثل الياك والغزلان، والسجاد المصنوع من اللباد المطرز برسوم ثابتة (موتيفات) للحيوانات، والأعلام الحريرية، وكثير من المنسوجات الجدارية المطرّزة على نحو رائع برسوم تمثل السلاحف والطيور والأسماك، وصور لوجوه الأشخاص، والأسود الصينية. وكانت النساء تضفرن شعورهن؛ لأن الضفائر كانت هناك على النحو الذي تكون عليه حينما تُقصّ ويُلقى بها أرضاً على ممرّات المداخل المنحدرة إبان طقوس الحداد.

ولعل الحصول على كثير من تلك المنتجات التي تدلّ على الرفاهية وسعة العيش قد تم باستخدام القوة، أو بالتهديد بها، حيث انبثقت هذه القوة من أوتار الأقواس وحوافر الخيل. وينبئنا زو ما تشين عن خصيّ صيني فرّ هارباً للانضمام إلى الهيونغنو حيث صارح رفاقه الريفيين السابقين بقوله: «فلتحرصوا فحسب على أن تكون المواد الخام من حرير وحبوب ذات حجم مناسب وجودة عالية، هذا كل ما في الأمر... وإذا كان هناك أي نقص فيها أو لم تكن بالجودة الكافية، وعندما يحين موسم حصاد الخريف سننطلق بجيادنا لندوس على محاصيلكم كافة». بيد أن الانتقال لم يكن يجري باتجاه واحد، فلربما كان الهيونغنو خبراء في انتزاع البيض الذهبي، لكنهم كانوا حريصين على عدم قتل الدجاجة التي تبيض ذهباً. ولقد ازدهرت التجارة؛ إذ إن الصينيين كانوا في حاجة إلى الخيول والإبل من السهوب، وفراء السمور والثعالب من غابات سيبيريا، وحجر الجاد (اليشب) والمعادن من جبال آلتاي. علاوة على ذلك لم تكن التجارة إلاّ وسيلة لضمان السلام: فقد حاول الصينيون كل شيء آخر كذلك؛ فقدموا لموتون عروساً ملكية على أمل أن يعقب ورثة ليّني الجانب. وذهب أحد المسؤولين إلى القول مخاطباً الإمبراطور: «هل سمع أحد عن حفيد حاول أن يعامل جده معاملة الأنداد؟ وبذلك سيصبح الهيونغنو على نحو تدريجي رعاياك». وكان تزويج البنات - حتى وإن كانت مهورهن ضخمة - أرخص بكثير من إعداد الجيوش، وإن كان ذلك أمراً قاسياً على الفتيات البائسات. ولقد نظمت إحدى الأميرات قصيدة تندب فيها حظها: «لقد أضحى المنزل المقبب مكان سكناي، بجدرانه المصنوعة من اللباد، وأصبحت اللحوم طعامي، مع الحليب المخمّر بوصفهما المصدر الأساسي لغذائي. وبتّ أحيا على ذكريات موطني التي لا تبارح خاطري، ويملأ الحزن قلبي.. كم أتمنى لو أنني بجعة ذهبية، فأعود إلى بلادي.

وقد اضطلعت بالدور ذاته الأسوار، والزيجات، والتجارة، والهدايا أيضاً. وفي عام 50 ق.م أهدى القصر الإمبراطوري الصيني أحد زائريه من ملوك الهيونغنو «قبعة وحزاماً وثياباً وملابس داخلية وختماً ذهبياً مزوداً بحبال صفراء، ومجموعة من السيوف المرصّعة بالأحجار الكريمة، وخنجراً يوضع في الحزام، وقوساً، وأربع مجموعات من السهام تحتوي كلّ منها على اثني عشر سهماً، وعشرة صولجانات محفوظة في صندوق، وعربة حربية، ولجاماً، وخمسة عشر جواداً، وعشرين غين من الذهب، ومئتي ألف قطعة نقدية نحاسية، وسبعة وسبعين ثوباً، وثمانية آلاف قطعة من شتى المواد، وستة آلاف غين من القطن الممزوج بالصوف». وكان هذا كله مساو لقيمة الضريبة العامة التي جباها دينجلد وحاول الإنكليز تأديتها إلى الفايكينغ كثيري المطالب؛ لكن كان القصد منها أن تقوم الرفاهية بتقويض القوة البدوية، على نحو ما حذّر مسؤول صيني منشقّ رؤساءه الجدد: «لا يتعيّن على الصين إلاّ أن تتخلّى عن عُشر ما لديها من أجل أن ينحاز الهيونغنو إلى أسرة هان.. فلتمزقوا الملابس المصنوعة من الحرير والقطن التي تحصلون عليها من الصين باندفاعكم بسرعة بين الشجيرات الشائكة لإظهار أنها أسوأ من الملابس الصوفية والجلدية»!

نوين أولا، جبل الرب: لقد جذبني هذا الاسم، وسنحت لي الفرصة لزيارته أثناء قيامي برحلة في صيف عام 2004. أتراه كان يبعد عن أولان باتور مسافة مئة كيلومتر؟ وعندما تدبّرت أمر استئجار سيارة بسائق ظننت أنها ستكون رحلة قصيرة سهلة. ولا ريب في أن من يعمل في ميدان السفر والسياحة يعلم كيف يجد مثل هذا الموقع الهام، إلا أن الأمر لم يكن كذلك لأي من الحالتين؛ فقد تلاشت الذكريات، ولم يكن نوين أولا وجهة يقصدها السياح، وقد تطالع إشارة عابرة له في دليل سياحي، لكن ذلك لا يفيدك إطلاقاً في الوصول إلى هناك.

ولقد وجدت العون في متحف أولان باتور للتاريخ المغولي على نحو غريب بعض الشيء، إذ بدا الخبير المقيم المختصّ في الهيونغنو غريباً، لأن هذا هو اسمه (أود)، والواقع أن سكان أودباتور، بل المغول أيضاً، عادة ما يختصرون أسماءهم لتقتصر على الجزء الأول. واعتقدت للوهلة الأولى أنه كان غريباً في نواحٍ أخرى أيضاً: فهو ذو بنية نحيلة على نحو غير عادي، وقسمات رقيقة ولطيفة كأنّه أحد الحيوانات ذات الفراء حيث تمّ اصطياده بعيداً عن وجاره. ولقد صافحني برقة، ومن ثم عقد يديه كأنه يبدي احتراماً، بيد أنني أخطأت من جديد؛ إذ إن تواضعه لم يكن يخفي خبرة نادرة فحسب، بل قوة تبعث على الدهشة أيضاً؛ لأنه كان يتعافى من إصابة مروعة: فبينما كان يمدّ يد العون لأحد أصدقائه في بعض أعمال البناء ارتطمت ذراعه ببعض الزجاج المكسور، فكاد

أن ينقطع وترها، ولقد أوشكت أن أنكأ جراحه من جديد!

قال لي إن نوين أولا كان واحداً فقط من عدة مكتشفات ترجع إلى زمن الهيونغنو، وكان علماء الآثار قد عثروا على ست عشرة مقبرة عائدة لهم، وما يزال فريق فرنسي - مغولي يُجري تنقيباته الأثرية منذ عام 2000 في إحداها، وهي مقبرة (غول مود) التي تقع على بعد مسافة أربعمئة وخمسين كيلومتراً غرب أولان باتور. لكن بتوجيه من أود بُعثت روح الحياة من جديد في المقبرة الملكية بنوين أولا، وهذا مردّه إلى أن المتحف يعرض صوراً لذلك الموقع، وأنموذجاً لأحد القبور، وأجزاء وقطعاً من مخلّفات الحفريات التي قام بها كوزلوف وتعرّضت للسلب والنهب، ونهايات أقواس مصنوعة من القرون، وسجادة حريرية تظهر ثور الياك يصارع النمر الأبيض، وركاباً حديدياً (ولسوف نرجع إليه لاحقاً)، ومظلة، وثلاث جدائل شعر.

استعدت قراءاتي قائلاً: «آه! نعم.. كان الناس يقصّون شعورهم في أثناء تأديتهم طقوس الحداد، أليس كذلك؟!»

«لا أعتقد بأنه الحِدَاد، لعله قَتْلٌ طقوسيّ، جديلة شعر واحدة عائدة لشخص واحد.. إنه لمن الصعب التسليم بذلك؛ لأنه لا يجري عادة دفن الضحايا مع الملك. وليس ثمة كثير من العظام، لكنّني رأيت جمجمة في غول مود تحمل ثقباً، كأن...»

«معولاً أحدثه؟»

«أجل، معول».

قلت باندفاع شديد: «أود! سأتوجه يوم غد إلى نوين أولا. هل يمكنك أن تأتي معي؟!»

استبدّ به الفضول؛ إذ لم يسبق له أن قصد تلك البقعة، ولم يكن واثقاً إن كان في إمكاننا أن نجد طريقنا. وأضاف رئيس أود عضواً آخر إلى البعثة هو إريغتس، وهو طالب دراسات عليا جعل الهيونغنو موضوعاً لرسالته الجامعية. كان يبدو كأنه نسخة مغولية لإحدى شخصيات سلسلة أفلام المغامرات إنديانا جونز: فهو ضخم الجسم، وذو وجه عريض بارز القسمات، وشعر قصير.

وفي صبيحة اليوم التالي انطلقنا باتجاه الشمال مستقلّين سيارة روسية صلبة من طراز واز 4×4. كنا ستة أشخاص: السائق، وامرأتان أوستراليتان جريئتان رافقتانا في خوض هذه التجربة، واثنان من الأكاديميين المغول، وأنا. وبعد ساعتين أصبحنا بعيدين عن كل ما يمرّ على طريق معبدة، ونسير فوق طريق مؤدية إلى وادي نهر سوجيخت، ونحن نتدحرج كأننا في زورق في

خضمّ الموج نحو قمم جبال نوين أولا التي تكسوها الغابات.

ارتفع الطريق المليء بالحفر المستنقعية في أثناء اجتياز مجموعة من شجيرات البتولا التي يصل ارتفاعها إلى الركبة، والأعشاب، والزهور الصفراء. وكما أشرت فقد كان الطريق بالياً مهترئاً على أيدي الصيادين. علا صوت إريغتس على هدير المحرك قائلاً: «إنهم الباحثون عن الذهب!». كان الرجل الذي عثر على المقابر منقّباً عن الذهب بالتأكيد، ولم يكونوا الوحيدين. لقد أصبح الطريق مستوياً ممهّداً، وكان ثمة شاحنة محملة بعلماء روس ومغول مركونة وقد غرزت عجلاتها في الشجيرات. وهؤلاء بعثة استكشافية أتوا لدراسة التعاقب النباتي في هذه المنطقة الحدودية، وأرادوا أن يعرفوا: أكانت السهوب تتحرك شمالاً، أم الغابات تتحرك جنوباً؟ وقد تكشف الإجابة عن أشياء مثيرة للاهتمام بشأن تغير المناخ، وبشأن الماضي أيضاً، إن كان في مقدورهم جمع بعض العينات من النسيج النباتي نصف المتفحّم من الأعماق، ولماذا وقع الاختيار على هذه البقعة لتكون موقع مدفن ملكي.

أين كانت تقع القبور، والتلال؟

أشار إريغتس إلى بستان من أشجار البتولا.

لم أستطع أن أرى شيئاً إلاّ الأشجار. وكان الوضع أشبه بمحاولة إظهار شخصٍ يختبئ في ثنايا لحاف.

قال إريغتس: «لم يكن ثمة أشجار سابقاً، هنالك أشجار ربما يبلغ عمرها ثلاثين عاماً، وهناك حرائق، والناس يقطعون..».

ومما أثّر في نفسي أنني أدركت حقيقة أسلوب عمل يتكرّر على مدى عقود من الزمان، وأن هذه البرية لم يكن لها من اسمها نصيب؛ إذ كانت سلسلة متقطعة من الغابات تتخللها الممرات والدروب التي يَطرقها الصيادون، والحطابون، واللصوص، وفي وقتنا هذا علماء الآثار وعلماء النبات، وربما عما قريب السواح العرضيّون. وكانت الأشجار المعمرة نادرة، ولم يكن يبدو للعيان سوى شجرة تنوب كثيرة العقد ومسودّة بفعل النار، كان قد تمّ تكريمها بقطعة من الحرير الأزرق كأن هذه الشجرة البالغة من العمر مئة سنة قديمة قِدَم متوشالح!

كانت أشجار البتولا النحيلة وغطاء من الشجيرات تخفي تلة دائرية، وفي الجانب الآخر من تلك التلة كان ثمة حفرة. بدت هذه الحفرة - وهي القبر الذي اكتشفه كوزلوف ذو الرقم 1 - كأنها

بئر مفرطة في النموّ ومهجورة، وحفرة مربّعة أقيم على طولها صفّ من الأخشاب المتهالكة. ولم يكن في استطاعة أحد إلاّ إريغتس أن ينظر عبر الغطاء النباتي ويشير إلى البقعة التي قام فيها رجال كوزلوف بقطع التلّة إلى شرائح وكشف النقاب عن المدخل، حيث كان قد تم حمل التابوت ووري الصالحون الثرى في جو مهيب، قبل أن يعيد الأرقاء دفن كل شيء، ويقيموا المدفن على التلة، ويغادروا المكان الذي عثر عليه النهابون.

كانت هناك تلال أخرى متناثرة في أرجاء الغابات كافة، وكلها غير مرئية عملياً، ولا يعلم المرء بوجودها، ولكن بعد مسيرة نصف ساعة صادفنا العشرات منها حيث كان إريغتس يعرف قرابة مئة منها، ويبلغ ارتفاع معظمها متراً أو مترين فحسب، وتبعد الواحدة عن الأخرى مسافة عشرة أمتار. كان بعضها أكبر حجماً. وكانت الحفرة ذات الرقم 24 عبارة عن وهدة لا شكّ في أنّ أعمال التنقيب فيها قد استغرقت أسابيع من الزمن، وما زال عمقها يبلغ ستة أمتار وعلى مرمى حجر، ولها مدخل يصل إلى الحدّ الذي كان فريق كوزلوف قد بلغه في الحفريات التي أجراها، وكان أشبه بزقاق غائر عتيق. لقد ووري الملك المدفون في التلة ذات الرقم 24 الثرى بطقوس باذخة.

لم تكن تلك التلال ما حملني على التفكير ملياً، إنما الموقع ذاته؛ لقد كنت فوق الجبل الذي يعتقد معظم المغول ومعظم العلماء أن جنكيز مدفون فيه. ومع أن الهيونغنو جاؤوا من شمال أولان باتور وغربها، وكان موطن المغول يقع شرقاً، ويفصل بين الثقافتين ما يزيد على ألف عام. إلاّ أنّني أراهن على وجود صلة بينهما. تقع جبال بورخان خلدون على بعد مسافة مئتي كيلومتر إلى الشرق في إقليم خنتي، وتشاطرها جبال نوين أولا القواسم المشتركة التالية: فكلاهما جبال تبعث على الدهشة والإعجاب، لكن يمكن الوصول إليها بسهولة على ظهور الخيل، إذ لا فائدة ترجى من وجود جبل مقدس ناء جداً ويصعب الوصول إليه؛ ويقعان على الشريط الحدودي بين الغابات الشمالية والسهوب الجنوبية؛ ومواقع الدفن مقامة على رأس وادي النهر وفي مكان منبسط، قبل أن يصبح اعتلاء القمة صعباً؛ وكلاهما يظهر شعوراً بالانتماء: هذا ملكنا، ونحن هنا نرقد، أبد الدهر. أهذه مصادفات؟! لا أعتقد ذلك، يبدو على الأرجح أنه عندما صعد نجم المغول ووحدوا صفوفهم ومن ثم أقاموا إمبراطوريتهم في ظل جنكيز خان عرفوا بأمر هذه المقابر، بل ربّما علموا محتوياتها، وقالوا في قرارة أنفسهم: «آها! تلك هي الطريقة التي تدفنون بها ملوككم!»..

ولكن ماذا عن صلة محتملة غرباً؟

سألت ونحن نتهيّأ للانحدار بتثاقل فوق الأرض المعشوشبة نحو الطريق لنرجع أدراجنا إلى

أولان باتور: «إريغتس! أتعتقد أن الهون كانوا الهيونغنو؟»

«نعم.. نحن نقول هون – نو». وقد نطق حرف «هـ» h مثل المقطع اللفظي الاسكتلندي «خ» kh، كما هي عليه الحال في كلمة لوخ loch (بحيرة)، وعادة ما يرسم «خ» kh. وأردف قائلاً: «كما تعلم فإننا نستخدم كلمة «خون» للدلالة على «الإنسان»، «الشخص»، وإنني أعتقد بأنهم استخدموا الكلمة ذاتها على نحو ما نفعل. لقد كانوا أعداء الصين، ولذلك أصبحت كلمة «خون» khun لدينا «هيونغ» في اللغة الصينية.» (تبدو كأنها «شونغ» shung، التي لا تختلف إلى حد كبير عن «خون» khun). «وتعني «سيئ»، ونو nu التي تعني «رقيق».. وإذاً فإن كلمة هيونغنو Xiongnu تعني الأرقاء السيئون».

وإذا كان الهيونغنو هم الهون حقاً فإنّ نوين أولا هو جزء مما خلّفه أسلاف أتيلا وراءهم. لقد نسوا أمر الجبال المقدّسة والمدافن الملكية المقامة فوق التلال، لأنهم بعد قرنين من التنقل والترحال لم يعد هناك أي معنى للانتماء إلى أي بقعة كانت، وكان عددهم قد أصبح أقل من الهيونغنو الأول. وتحولوا إلى بدو لا جذور لهم.

لم يتسرب الضعف إلى الهيونغنو طوال مئة وخمسين عاماً بفعل الكماليات الصينية، وظلوا غير مروّضين من جانب الأميرات الصينيات. وفي آخر الأمر أرهقت مطالب الهيونغنو أسرة هان، وبدأت سلسلة طويلة من الحملات لإلحاق الهزيمة بهم. ولقد انتهى المطاف بالنهضة التي شهدها الهيونغنو في القرن الأول الميلادي إلى انقسامهم إلى شطرين: شمالي وجنوبي، فانضم الجنوبيون إلى أسرة هان؛ بينما حافظ الشماليون على استقلالهم في منغوليا، ثم قامت في عام 87م مجموعة متنوعة من العشائر من منشوريا وهم زيان - بي بالإمساك بقائد الهيونغنو وسلخوا جلده وأخذوا غنيمة. وأدّت معركة نهائية دارت رحاها في عام 89م إلى تشتيت شمل الشماليين وتفريق جمعهم. وبحلول منتصف القرن الثاني كانوا قد رحلوا جميعاً، شأنهم في ذلك شأن العديد من القبائل المندحرة، واندفعوا غرباً إلى خواء آسيا الوسطى وما وراءها، سعياً وراء مصدر جديد للثروة. ومن وجهة نظر روما فقد انبثق هؤلاء من الظلمة الخارجية، وذلك استناداً إلى انقسام أوراسيا الداخلية إلى أقواس من الهمجية المتعاظمة، تفصل بينها الحدود والأنهار والقبائل والمناطق التجارية. لكن فيما يتّصل بالطبيعة فإنّ الخطوط أفقية، تحدّدها الغابات والمراعي والصحراء. وتشوّه الجبال والبحار الداخلية الروابط، وتجبر الطريق المعشوشبة أن تكون متعرّجة أو أن تنقطع لمدة وجيزة. لكنّ الهيونغنو كانوا يعرفون الطريق: على طول ممرّ

قانسو بين غوبي ومرتفعات التيبت، ثم بين الشمال والغرب حيث يمتد خط السكة الحديدية في يومنا هذا إلى أورومقي[1]، وبعيداً عن متناول الصين عبر ممرّ دزونغاريا الجبلي بين آلتاي وتيان شان. كانت تلك الرحلة تنطوي على مخاطر، إمّا من جانب قبائل أخرى أو من الطبيعة. ويشتهر عن ممرّ دزونغاريا الجبلي رياحه القاسية (البوران)[2] التي لاحظها الرحالة المتأخرون الذين واجهوا بسالة الممرّ ذاته البالغ طوله ثمانين كيلومتراً من الأراضي الوعرة المتعرّجة. وأشار الراهب ويليام من روبرك إلى ما تعرّض له من مخاطر في أثناء اجتيازه لهذا الممرّ الجبلي في طريقه للقاء خان المغول في عام 1253م. وعبره المستكشف والمؤلف الرحالة البريطاني دوغلاس كاروثرس عام 1910م، وأورد في كتابه «منغوليا المجهولة»: «سمعنا في الليل هديراً بعيداً عندما أفلتت رياح صحراء دزونغاريا الحبيسة عبر هذا الممر الجبلي الضيق، وتدافعت كتل السحب عبر «المضائق» كأنها تندفع مسرعة عبر قمع ضخم»، ويمكن للرياح الشتوية القاسية (بوران) أن تقتلع الخيام التي يستخدمها البدو من أوتادها، وتجمّد قاطنيها بفعل عامل رياح البرد القارص الذي يجعل الحرارة تهبط إلى 50 درجة مئوية تحت الصفر.

إنها رحلة قاسية، إلاّ أنّ القبائل التي تتحرك غرباً كانت تقوم بها من قبل مرات عدة، ولسوف تقوم بها من جديد قطعان الماشية وعربات القطارات على حد سواء. وعلى الجانب القصي من هذه السهوب شاهد الراهب وليام عربات المغول التي تحمل الخيام على امتداد مسافة عشرة أمتار، حيث كانت مزوّدة بمحاور عجلات أشبه بالصواري، وتجرّها مجموعات يصل عددها إلى اثنين وعشرين ثوراً، مجتازة المروج كأنها سفن شراعية ضخمة. لم يكن يتوافر لدى الهيونغنو موارد مماثلة، لكنهم كانوا على القدر ذاته من الكفاءة، ولا بد أنهم خرجوا سالمين من تلك المحنة في فصل الصيف، وقد سمنت قطعانهم جيداً من رعيها في كلأ الربيع ومراعيه، قبل أن يطلقوها لترعى في سهوب كازاخستان البالغة مساحتها ألفي كيلومتر.

لقد أشار دي غيني أنه انبثقت بعد مرور مئتي عام من أقصى آسيا الوسطى قبيلة أشد انحطاطاً من حيث المقارنة، لكن لديها نمط حياة مماثل: بدو، ويقطنون الخيام، ولديهم عربات، وفرسان رماة؛ وهم يحملون اسماً مماثلاً على نحو مبهم. وكان ذلك كافياً لـدي غيني ومن جاء بعده، وأبرزهم إدوارد غيبون في كتابه «انحدار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» حيث وجد غيبون

(1) أورومتشي، (المترجم).

(2) كثيراً ما تعني كلمة «بوران» «عاصفة ثلجية»، لكنها بالأحرى أكثر من ذلك، ولهذا السبب أصبحت الاسم الذي يحمله مكوك الفضاء السوفياتي.

في دي غيني حجة يعتد بها، إذ إن الهون الذين هدّدوا روما كانوا يتحدّرون من القبيلة التي هدّدت الصين، ومما جعلهم «يُدخلون الرعب في النفوس براعتهم منقطعة النظير في استخدام أقواسهم وخيولهم؛ وقدرتهم على الصبر؛ وطول أناتهم في تحمل قسوة الطقس؛ والسرعة التي لا تصدق لزحفهم الذي نادراً ما تكبحه السيول أو الجروف أو الأنهار الأكثر عمقاً أو الجبال الأكثر ارتفاعاً».. وقد استخدم غيبون الكلمات والعبارات لتكون مدفعية، ناسفاً بذلك الشكّ قبل أن تسنح له الفرصة لأن ينمو ويتعاظم. وإبان القرنين التاليين عُدّ بمثابة أمر واقع أن الهون كانوا الهيونغنو، وقد ولدوا من جديد في حالة من الفقر والفاقة. وتعتمد الطبعة الصادرة في عام 1911م من دائرة المعارف البريطانية على دي غيني الذي أخطأت في رسم اسمه بلا مبالاة فأوردته دي غيك. كما أن خبراء مثل المؤرخ الفرنسي رينيه غروسيه والأمريكي ويليام مكغوفرن اللذين وضعا أبحاثهما في الثلاثينيات من القرن العشرين أشارا ببساطة إلى الهيونغنو على أنهم الهون، قولاً واحداً، من دون أن يكلّفا نفسيهما عناء الإتيان ببرهان على الحجة التي ساقاها. ويفرد ألبرت هيرمان في كتابه (الأطلس التاريخي للصين) الصادر في عام 1935م صفحتين للهيونغنو أو الهون. وفي الوقت ذاته على وجه التقريب لاح للعلماء الأكثر تشكيكاً أنه ليس ثمة دليل على الإطلاق يردم الهوة بين القومين. وفي واقع الأمر فإن الاختلاف بين النبلاء الأكثر تطوراً المدفونين في نوين أولا وقوم أتيلا الذين يعانون الفاقة والفقر لافت للنظر. ثم دخلت هذه النظرية في غياهب الإهمال والنسيان. وكما قال بجرأة إدوارد طومسون أستاذ الكلاسيكيات في جامعة نوتنغهام ذات مرة، في كتابه الصادر في عام 1948م الذي تناول فيه الهون: «لقد جرى الآن تسفيه هذا الرأي والتخلي عنه».

بيد أن [هذه النظرية] استعادت مؤخّراً ما فقدته من مصداقية. لقد كانت هاتان القبيلتان لمدة وجيزة متقاربتين في الزمان والمكان، بحيث من الصعوبة بمكان أن نصدّق أنهما كانتا منفصلتين. وقد تمكن بقايا الهون الفارين على طول طرق التجارة التي قادتهم إلى وادي إيلي في جنوب كازاخستان قرابة عام 100م من بلوغ نهر سرداريا[1] قرابة عام 120م. وبأرقام تقريبية فقد قطعوا مسافة تبلغ ألفين وثمانمئة كيلومتر في ثلاثين عاماً، أي مجرّد تسعين كيلومتراً في السنة. وفي عام 160م يأتي الموسوعي اليوناني بطليموس على ذكر «خوني» Khoinoi، التي تقابلها عادةً تشوني chuni، ويبدو المقطع اللفظي الأول ش ch شبيهاً بالمقطع اللفظي الإسكتلندي خ kh، كما هي الحال في كلمة لوخ loch (بحيرة)، مما يجعلها تبدو إلى حد كبير شبيهة بـ «الهون». وقام بوضع هؤلاء القوم بين قبيلتين أخريين، كان الأبعد بينهما الروكسيلاني الذين كانوا يقيمون على

(1) سيحون، (المترجم).

ضفاف نهر الدون، وهكذا جعلوا الهون يلازمون المنطقة الواقعة إلى الشمال من بحر آزوف؛ أي مستنقعات الميوسين التي ذكرها المؤلفون الرومان المتأخرون. لقد ضاقت الفجوة إلى ألفي كيلومتر وأربعين عاماً، وهي فجوة من اليسير اجتيازها بسرعة تبلغ خمسين كيلومتراً في السنة.

ويطالعنا دليل إضافي على الصلة هذه؛ ففي عام 1986م أجرت بعثة مشتركة روسية مغولية أعمال حفر في مقبرة تقع في أقصى غرب منغوليا في جبال آلتاي، ويشير تقريرهم إلى الموقع المكتشف على أنه موقع «هوني»، مما يعكس حرصاً مغولياً على جعل الهيونغنو والهون صنوان، لكن من الجلي أنهم الهيونغنو. كانت القبور الخمسة رائعة؛ لأنه لم يَطلْها الخراب الشامل. وتحتوي جميعها على توابيت مصنوعة من الخشب، وتضم أربعاً من أصل خمس بقايا أقواس، وهي أجزاء من عظام أو قرون كانت تُستخدم «مقابض» في نهايات القوس ولتعزيز القسم الأوسط. ومن أجزاء النهايات التي كانت ذات أطوال مختلفة خلص الباحثون إلى أنّ الأقواس ليست متناسقة، فقد كان الطرف العلوي أطول من الطرف السفلي. وكانت أقواس الهون المتأخّرين غير متناسقة أيضاً؛ والواقع أن ذلك كان المزيّة الأشد وضوحاً لأقواسهم، وذلك لأسباب ما تزال غامضة. وتوحي أجزاء النهايات ذاتها؛ أي المقابض، بوجود صلة مع الهون، وهذا مرده إلى أن أقواس الهون المتأخّرين كانت تمتلك أجزاء نهايات شديدة التطور.

ربما كان هذا اللغز قابلاً للحلّ لو أنّ القبور في جبل آلتاي كانت تحتوي على الأقواس ذاتها، لكنها لم تكن تحتوي عليها. ولعلها أصبحت ببساطة بالية ورثة؟ لكن لا يبدو هذا صحيحاً: إذ إن التوابيت المصنوعة من الخشب بقيت صامدة زهاء ألفي عام، وكان في واحد منها أجزاء من لحاء خشب البتولا، لكنها خلت من أي قوس خشبي؟! وذلك الأمر أشد غرابة. كانت القبور الأربعة على التعاقب تحتوي على ثلاثة مقابض، وثلاثة مقابض، ومقبضين، وأربعة مقابض، وكان كل قبر من هذه القبور يحتوي على عدد متفاوت من قطع القرون المستطيلة الشكل التي تستخدم لتدعيم الكتلة الخشبية للقوس. والواقع أنه لم يتمّ اكتشاف أي قوس مكتمل أبداً في أيٍّ من قبور الهون أو مخابئهم. حتى عندما عُثر على زوج من الصفائح العظميّة الرقيقة المطابقة على نحو جليّ في موقع يرقى تاريخه إلى القرن الرابع قرب طشقند أظهرت نظرة فاحصة أنه جرى نحت قطعتي العظام الطويلة المستطيلة الشكل على يد صناع مختلفين من أجل أقواس مختلفة. ولا يمكننا أن نستخلص إلا نتيجة واحدة، مفادها: إن الأجزاء التي عُثر عليها في القبور لا يتوافق أحدها مع الآخر، أو مع أي قوس معين. وخلص أوتو مينيشين هيلفين بوصفه أحد كبار الخبراء المختصّين

في الهون إلى نتيجة مفادها: «كان الناس يوارون موتاهم الثرى ومعهم قوس مزيف».. وما إن اقترح ذلك حتى غدت الفكرة جليّة، وبطبيعة الحال كانوا يقومون بدفن أقواس مزيفة أو محطمة؛ لأن صنع الأقواس يستغرق من صنّاعها أعواماً. وفي كثير من الثقافات كان الرعايا المخلصون يدفنون مع ملوكهم سلعاً تعكس منزلتهم الملكية؛ لكن الأقواس التي كان الجميع يمتلكونها لم تكن تتمتّع بهذه المنزلة. كانت المقابر في منغوليا الغربية تضم رفات المسؤولين الأدنى مرتبة، الذين ربما كانوا يرغبون في أن تنتقل مقتنياتهم الثمينة إلى أقاربهم الأحياء. فمن هو الشخص في أسرهم المكلومة الذي قد يبدّد مثل هذا الشيء الثمين الذي تتوقف عليه الحياة أو الموت، لذلك فإنهم لا يدفنون سوى عدد قليل من الأجزاء والقطع غير المستخدمة؟

عندئذ ربما يكون ما نراه في مقابر الهيونغنو قوسَ هوني في طور النشوء والتطور؛ ويظهر ذلك - إن كان صحيحاً - أنّ ثمة صلة مباشرة بين الهون والهيونغنو.

وإذا لم يكن هناك جامع بين الهون والهيونغنو على صعيد علم الآثار، فماذا عن التراث الشعبي (الفلكلور)؟! إذا كانت ثمة صلة تربط بينهما، أليس من الغريب أنه ليس لدى الهون - كما يبدو - ذاكرة شعبية عن ذلك؟! وقد كان الأتراك خلفاء الهيونغنو في منغوليا مغتبطين بالادّعاء أن هؤلاء أسلافهم، إلى أن جرى إبعادهم أيضاً نحو الغرب في القرن الثامن. لكن يبدو أن أتيلا الأقرب زمنياً إلى الهيونغنو لم يقم بذلك أبداً، فقد كان لديه شعراؤه البطوليون، إلاّ أنّ أياً من شهود العيان لم يدوّن أنهم تغنوا بأسلافه الفاتحين.

ورداً على ذلك يمكن أن تصلح الحجة على الوجهين؛ ذلك لأن معطيات الأدب الشعبي تكون أحياناً حية وماثلة في الأذهان على نحو يبعث على الدهشة، فقد بقيت حرب طروادة حية في الروايات الشفوية طوال قرون عدة قبل أن يقوم هوميروس بتدوينها!. كما قد تتلاشى بسرعة في أحيان أخرى، ولا سيما في أثناء الارتحال لمسافات طويلة. ولقد عملت في ما مضى مع قبيلة صغيرة في غابات الأكوادور المطيرة كانت قد انتقلت إلى مناطق سكناها في وقت غير محدّد في القرون القليلة المنصرمة، وليس لديهم ما هو مؤكّد سوى هذا القدر من المعلومات، مما يعني أنهم إما لم يعلموا من قبل شيئاً عن الحِرَف في العصر الحجري وإمّا أنهم نسوها في أثناء تنقلهم وترحالهم، وكانوا يستخدمون الفؤوس الحجرية التي صنعتها وتخلصت منها ثقافة سابقة لهم. ولا تفتقر قبائل الورني إلى الأساطير، لكن كل ما يروونه عن أصولهم أنهم قدموا من «أسفل النهر منذ زمن بعيد». ولقد نسي المغول أيضاً أصولهم: تروي ملحمتهم التأسيسية الكبرى المسماة «التاريخ

السري للمغول» أنّهم نشؤوا من تزاوج ذئب وأنثى ظبي، وعبروا بحيرة أو محيطاً ليبلغوا منغوليا ربما قبل خمسمئة عام. ويبدو أن الهون نسوا بصورة أسرع بكثير - في غضون مئتين وخمسين عاماً -، فلا يتذكّرون شيئاً عن أسلافهم، أو إنه - على الأقل - لم يدون أحد أي شيء عنهم.

ولربما كان ثمة أمر أشد فاعلية من مجرد النسيان يؤثر عندما تحول الهيونغنو إلى الهون، فما إن تغيرت أحوالهم من الصعود والرقي إلى التدهور والانحسار، وباتوا عصباً فقيرة بعدما كانوا إمبراطورية عظيمة الشأن، حتى ربما - أصبح الهون يشعرون بالخجل من انحطاطهم، ورفضوا مجرد ذكر عظمة شأنهم في الزمان الغابر لأولادهم. إذ لم يتناهَ إلى مسامعي على الإطلاق أنه جرى تدوين مثل هذه السيرورة؛ لكن عندئذ: هل كانوا يرغبون في ذلك أم أنهم لا يرغبون؟ أيمكن أن يكون كافياً الإمساك عن ذكر الصين واعتبارها من المحرّمات في غضون جيل واحد؟

لا تسعفنا اللغة بقدر كبير من المعلومات في البحث في أصول الهون. وعلى الرغم من قيام أتيلا بتوظيف المترجمين والكتبة، إلاّ أن أياً منهم لم يكتب باللغة الهونية، وإنما باللاتينية أو اليونانية اللتين هما لغتا الثقافة السائدة، مع ما تتّسمان به من تحامل بنيوي على لغات البرابرة. كانت لدى العلماء حرية الارتجال، واجترح غيبون حلاً آثرناه على سواه، مفاده أن الهون هم في الواقع من المغول، (إنهم ليسوا كذلك: إذ لم ينتقل المغول إلى منطقة الهيونغنو إلا في منتصف الألفية بعدما كان هؤلاء قد رحلوا.) ويزعم بعض المختصّين أن كلمات معينة هي من اللغة الهونية، وهذه كلها كلمات متنازع عليها؛ إذ لم تبق حية أي كلمة هونية لا يرقى إليها الشك مطلقاً.

بيد أنّ لدينا أسماء هونية، أو أننا نخال ذلك. ويتعين علينا أولاً أن نزيل الستار عما يكتنفها من غموض، إذ إن الهون والقوط وسواهم من القبائل الجرمانية، بل حتى الرومان اتخذوا جميعاً أسماء من ثقافات كل منهم؛ واكتسبت أسماء الهون لاحقات لاتينية أو يونانية؛ وكثيراً ما كانت تهجّى على نحو مختلف على يد كتبة مختلفين. ومع ذلك فهنالك وراء هذا الستار مجموعة أساسية من الأسماء التي توفّر أدلة لحل لغز اللغة. كان اسم أوكتار عمّ أتيلا يرسم أيضاً أويبتاغوس، وأكيلا، وأوكيلا، وأوبتيلا وأوبتار (تحول المقطع اللفظي «كت» إلى «بت» في اللغة اللاتينية المحكية في منطقة البلقان). لكن كلمة «أوكتور» تعني «قوي» باللغة التركية القديمة. أهذه محض مصادفة؟! لا يعتقد العلماء ذلك. وتوحي أسماء الشخصيات الأخرى في هذه القصة بأنّ لها جذوراً تركية: موندزوك والد أتيلا («اللؤلؤة» أو «الزخرف»)، وعمه آيبارس («القمر النمر»)، وزوجته الأولى إركان («الملكة الجميلة»)، وولده إرناك («البطل»)، وملك مبهم شاراتون/ خاراتون (شيء ما

«أسود»، ولعله «رداء»). ويبدو أن اللاحقة كام التي نصادفها في عدد قليل من الأسماء تذكّرنا بالمقابل التركي لكلمة «كاهن» أو «شامان»، وعلى كل حال فإن الأسماء قابلة للتحوّل والتبدل، ومن اليسير استيعابها من ثقافة أخرى، كما تمّ استيعاب أسماء الكتاب المقدّس في اللغة الإنكليزية. بيد أن هناك ما يكفي - على حد تعبير إيستفان بونا، أعظم علماء الآثار المتخصصين في آثار الهون - «لتصويب خطأ كبير وشائع على نطاق واسع ارتكبه بعض الباحثين المتأخرين: فبسبب من بعض الملامح المغولية في الجماجم المنتقاة راحوا يخلطون بين الجنس البشري واللغة، محوّلين الهون إلى مغول أقحاح».

لنعدد إلى ما هو الممكن، والمرجح، والمؤكد: إنّ من المرجح أن الهون يتحدرون من أرومة تركية، وأنهم كانوا ينطقون بالتركية (التي تشترك في الجذور مع اللغة المنغولية)؛ ومن الممكن أنهم كانوا من بقايا المهاجرين الهيونغنو، ولم يكن لديهم أي اتصال مع الصين ما خلا بعض التداخل الثقافي؛ ومن المؤكد أنه لا شأن لهم بالقبائل السلافية والجرمانية التي اقتحموا المناطق الخاضعة لها عنوة.

وما تزال هناك خطوة حيوية في مرحلة تطور البدوي المحارب، ولكي يكون مؤثراً حقاً يحتاج رامي السهام إلى منظومة رمي، ومن أجل تحقيق هذه الغاية قام السكيثيون والصينيون بتطوير المركبة ذات العجلتين: وهي عبارة عن منصة إطلاق سريعة وثابتة، ولديها قدرة على المناورة، شريطة أن يتوافر لديك دوماً - يا رامي السهام - سائس للعربة؛ وأن تتوافر لدى مجتمعك دوماً إمكانية الوصول إلى الأخشاب والنجّارين، والمناجم والحدادين المهرة. وهكذا فقد كانت هذه العربات حكرا على الشعوب شبه المدينية، والمنظّمة تنظيماً جيداً. أمّا البدو الذين قد يمتطون الخيول غير المسرجة التي من المؤكد أنها تكاد تكون بلا ركبان ففي مقدورهم أحياناً مضاهاة المهارات والموارد المتوافرة لدى سائسي العربات فقط.

ومن أجل بلوغ ذروة الفعالية، كان على البدو المحاربين أن يترقّبوا وصول الرِّكاب، ولا سيما الركاب الحديدي، وكان ذلك بعد إضافته إلى السرج ابتكاراً مؤثراً على نحو يشابه ما للقوس المركّب من تأثير في الحرب، وذلك الموضوع يعتوره الإبهام؛ إذ يزعم المعتقد التقليدي السائد أن الرِّكاب قد نشأ في وقت متأخر، وانتشر ببطء، وهذا كله يبعث على الدهشة. ربما كان مرد ذلك إلى أنه كان في مقدور الفرسان المتمرّسين أن يتدبروا أمرهم من دونه، ربما لأنّ العربات وفرت حلاً جزئياً لمشكلة استخدام القوس ببراعة. كان الركاب الأقدم الذي أشير إليه أول مرة في الهند

في القرن الثاني قبل الميلاد مصنوعاً على ما يُظنّ من الحبال؛ لتدعيم إصبع القدم الكبير. وانقلت هذه الفكرة إلى الصين وكوريا، حيث ظهر الركاب الحديدي في القرن الخامس الميلادي، ومن هناك أخذ ينتشر غرباً، ويرجع أول دليل عليه إلى مطلع القرن السادس. لكن إذا تعمّقنا في البحث فسيختفي المعتقد التقليدي بنفحة من الهواء، إذ ينبغي أن يكون الركاب أقدم من ذلك! أجل، يجب أن يكون الأمر كذلك حقاً. وفي المحصلة فإن الفكرة شديدة الوضوح، إذ يتحتم ألا يأتي الركاب من الهند حقاً؛ لأن ركاب إصبع القدم البسيط هو أداة مساعدة لامتطاء الجواد إن كنت حافي القدمين فقط، وهذا الأمر حسن جداً في الهند، لكنه ليس كذلك في آسيا الوسطى حيث تمّ ترويض الخيول لأول مرة. كان ينبغي للجمع بين الأحذية الجلدية والحدادة والخيول أن يكون مصدر إلهام لابتداع الركاب الحديدي بحلول عام 1000ق.م، جنباً إلى جنب مع نصال السهام، ولعل الأمر كان كذلك، إلاّ أنه لا يظهر في السجل الأثري إلاّ بعد أن هيمن الأتراك على منغوليا في القرن السادس. وأقدم مثال صادفته كان إشارة أوردها العالم الكبير جوزيف نيدهام في كتابه «العلم والحضارة في الصين» حين أشار إلى تمثال من الفخار يُظهر فارساً صينياً يضع قدمه في الركاب، يعود تاريخه إلى عام 302م. وإذا كان الصينيون يمتلكون الركاب فلا بد من أن أعداءهم كانوا يمتلكونه أيضاً، ومع ذلك فإنه لا يظهر في الرسوم التي تمثل الفرسان الرماة. (وتطالعنا نظرية تفسر ذلك: فاستناداً إلى ما نصت عليه جرى ابتكار الركاب على يد سكان المدن البدينين والكسولين الذين لم يتمكّنوا من الوثوب فوق السرج برشاقة، يعنون بذلك الصينيين، وعند هذه المرحلة أدرك البدو ما للركاب من مزايا، واعتمدوه. وليس ثمة دليل يدعم هذه النظرية.. أتصدق ذلك؟ إنني لا أصدق ذلك.)

إنه لغز! وقد تعمق عندما كان أود يصطحبني في جولة في متحف التاريخ المغولي، فمن جملة بقايا آثار الهيونغنو ثمة ركاب حديدي لم يكن من نوين أولا، بل من مقبرة الهيونغنو بمقاطعة خوفد الواقعة في أقصى الغرب. ومع ذلك لم نجد في القبور الملكية في نوين أولا أيّ ركاب. والواقع أنه – كما ذكر أود في الرسالة التي وجهها لي عبر البريد الإلكتروني – «إننا نقوم بأعمال حفر في كثير من القبور، ومما يؤسف له أننا لم نتمكن من العثور على مزيد من [الركبان].» وذلك أمر شديد الغرابة. ولربما أقيمت القبور الغربيّة في وقت لاحق، حينما حلت الهزيمة بالهيونغنو وكانوا يرتحلون غرباً، وفي هذه الحالة: هل يتعين علينا أن نفترض بأن الهيونغنو، وهم الحدّادون والفرسان الأفضل بلا منازع، لم يكن لديهم أيّ ركاب حينما كانوا أقوياء، ثم توافر لديهم عندما فقدوا قوتهم؟! وإذا كانت الركبان تتوافر لديهم على كل حال، فلماذا لم تنتشر الفكرة لدى

سواهم؟..

من الطبيعي أن يشمل ذلك الهون الذين كان حرياً بهم أن يعلموا بأمر الركبان ويستخدموها، سواء أكانوا من الهيونغنو أصلاً أو لم يكونوا. ومع ذلك فإن المكتشفات الأثرية الهونية التي قدمت أشياء صغيرة، وسروجاً، وموادّ تزيينية للجام، لم تقدم لنا أيّ ركاب، ولا نطالع أي ذكر له في المصادر اللاتينية واليونانية (غير الاختصاصية باعتراف الجميع). ربما كان في استطاعة الهون أن يمتطوا صهوة خيولهم من دون الركاب، أو أن يستخدموا ركاباً مصنوعاً من الحبال أو القماش، لكن لماذا يعرضون عن الركبان الحديدية حينما كان لديهم حدادون من أجل صناعة النصال والسيوف وقدور الطهي؟ ما يزال الغموض قائماً!

مهما يكن من أمر فإنه بحلول عام 350م تقريباً كانت لدى البدو الرعاة في آسيا الداخلية الأفضلية على المشاة والفرسان الثقيلة والعربات؛ إذ كان الهون يمتلكون العتاد للغزو، وفي استطاعتهم أن يعملوا في الصيف أو الشتاء، وكان كل محارب مزوَّداً باثنين أو ثلاثة من الخيول البديلة، ويحمل كل منهم قوسه بوصفه من مقتنياته الثمينة جنباً إلى جنب مع العشرات من السهام والنصال من أجل الصيد والقتال، وكلّ منهم على أهبة الاستعداد للذود عن الزوجات والأطفال والآباء والأمهات في العربات. لقد كانوا حدثاً جديداً في التاريخ، ولديهم إمكانيات تفوق ما لدى الهيونغنو متمثلة بقوة ماحقة يمكن أن تقتات من الأرض إذا لزم الأمر، أو تلجأ إلى السلب والنهب. كان السلب والنهب أيسر من ذلك بكثير، لقد أصبحوا شأنهم شأن أسماك القرش حيوانات ضارية ذات خبرة، ويتوقون إلى رفع سويّة لياقتهم البدنية من خلال تنقلهم المستمر، وقد كيفوا أنفسهم للطواف في هذا البحر الداخلي بالعشب، ومحوا وجود القبائل الأقل شأناً، إلى أن انبثقوا من المجهول، وفرضوا أنفسهم على وعي الأوروبيين المتطوّرين، والمتمدّنين، والمتحضّرين ويا له من تحضّر. إذاً فإن نظرتنا الأولى إلى الهون هي من الخارج، وهي حافلة بالاشمئزاز والتحامل والخطأ بقدر ما يمكن للمرء أن يتخيل.

لقد أصيب الإغريق بالفزع من الخطر الذي يتهددهم من البرابرة القادمين من السهوب، وهو يماثل ما تعرّضوا له من السكيث. إن كلمة «بربري» ذاتها التي قيل إنها مشتقة من الضوضاء (بار - بار - بار) غير المفهومة التي أحدثها أولئك الغرباء عوضاً عن اللغة توجز تحاملاً، وتعبّر عن رهاب الأجانب الذي دعم إحساس الإغريق أنفسهم بهويّتهم وقيمتهم الذاتية. كانت تلك فكرة جمعت غير الإغريق معاً من دون أدنى تمييز بينهم، وعدَّتهم أناساً وحشيّين وحمقى ويفتقرون

إلى التهذيب ومضطهدين، وفوق كل هذا منحوا السلطة للمرأة. ولقد جسد يوربيدس البربرية في شخصية ميديا التي من المفترض أنها قدمت من أقصى جهات البحر الأسود: وهي ساحرة مستبدّة وعاطفية وقاتلة للأطفال. وكان كثير من هذا الهراء لخدمة المصلحة الشخصية؛ لأن السكيثيين أقاموا ثقافة متطوّرة ومركّبة دامت قرابة سبعمئة سنة.

ورثت روما التحاملات والتحيّزات ذاتها، واتّخذت إجراءات وفقاً لذلك، وتمت حماية كامل حدود الإمبراطورية التي تمتد مسافة تتجاوز أربعة آلاف كيلومتر بوساطة الطرق والأسوار والحصون والأبراج والخنادق، من ساحل المحيط الأطلسي في أفريقيا، وصولاً إلى الشرق الأوسط، نزولاً إلى نهر الفرات، ورجوعاً إلى البحر الأسود وما وراءه. وفي أوروبا الغربية استفادت روما من النهرين العظيمين (الراين والدانوب) اللذين شطرا فعلياً هذه القارة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، ومنذ السنوات المبكرة للألفيّة الأولى أصبح هذان النهران المكافئ الرومانيّ لسور الصين العظيم، مع اعتبار داسيا المكافئ الروماني لأوردوس، وعملت الثقافة السائدة على جعل أراضي التخوم منطقة عازلة، بيد أنه تم إبعادهم عنها على يد البرابرة. كانت الجغرافيا في أوروبا أقل ملاءمة ممّا هي عليه في الصين. ويكاد نهرا الراين والدانوب أن يتّحدا، لكن المناطق العُلوية التي تصل إليها مياههما تشكّل زاوية قائمة شمال جبال الألب من الصعب الدفاع عنها. وعندما تعاظمت قوة الإمبراطورية قطع الأباطرة المتعاقبون أوصال هذه الزاوية بتشييدهم الحصون والأبراج، وفي آخر الأمر سوراً حجرياً امتدّ مسافة ما يقرب من خمسمئة كيلومتر عبر جنوب ألمانيا، وبات ومعه سور آخر (وهو سور هادريان الحدودي) يعيّن الحدود قبالة البرابرة الشماليين. وكان ثمة سور آخر سدّ الممرّ الممتد مسافة ثمانين كيلومتراً بين نهر الدانوب والبحر الأسود. ومع ذلك فقد تمّ التخلّي عن سور الراين والدانوب تحت وطأة الهجوم الضاري الذي شُن في عام 260، وانكفأت الإمبراطورية من جديد إلى الأنهار.

كان الموقف الذي اتخذه الرومان من قوم أتيلا مستقى من المواقف الموروثة عن الإغريق الذين ينظرون إليهم على أنهم المخلوقات الأكثر وضاعة التي يمكن أن يتصوّرها المرء، وقد جاؤوا من الشمال، ويعلم الجميع أنه كلما ازداد المناخ برودة كان الناس أشدّ همجية. دعونا نُعِد صياغة نصّ أميانوس ماركيلينوس الذي لم يرَ هونياً في حياته، لكنه يقول عنهم إنهم كانوا قصيري القامة وبدينين، وذوي أعناق غليظة، وقبيحي الشكل على نحو مذهل، ومحنيي الظهر إلى درجة يخالهم المرء حيواناتٍ تسير على قدمين، أو أن أجسادهم منحوتة بصورة فجّة من الأعمدة التي

نشاهدها على حواجز الجسور. كانوا على جانب من القسوة والقبح عزّ نظيره، وكانت إحدى هاتين الخصلتين تُبرز الأخرى، ومردّ هذا أنّهم كانوا يعمدون إلى جرح وجنات أطفالهم الصبية بحيث لا تنمو لحاهم إلاّ في منطقة صغيرة من الوجه حين يبلغون مبلغ الرجال؛ هذا في حال نمت أصلاً! كانوا لا يعلمون شيئاً عن المعادن، ولا يدينون بأي ديانة، ويعيشون مثل الهمجيين من دون نار، ويتناولون طعامهم نيّئاً، ويقتاتون بالجذور واللحوم التي يجعلونها طرية بوضعها تحت سروج خيولهم. وليست لديهم المباني بطبيعة الحال، بقدر ما تتوافر لديهم الأكواخ المبنية من القصب. والواقع أنهم كان يخشون فكرة التجرؤ على العيش تحت سقف. وحين يرتدون أي قميص قذر فإنهم لا يخلعونه أو يبدّلونه إلى أن يصبح رثاً. ومن المسلَّم به أنهم كانوا فرساناً رائعين، لكن حتى هذا كان تعبيراً عن الهمجية، فقد كان يعيشون عملياً فوق ظهور الخيل، ويأكلون ويشربون وينامون وهم يعتلون السرج. كانت أحذيتهم في غاية البشاعة، وأرجلهم مقوّسة بحيث لا يكادون يقوون على السير. أما المؤرّخ القوطي يوردانس فلا يقلّ عن سواه في إهانتهم، فقد كان رجال القبيلة هؤلاء أقزاماً كريهين وسقيمين، يتحدّرون من السحرة والأرواح النجسة، «ولم تكن لديهم رؤوس، إذا جاز لي القول، وإنما نوعٌ ما من الكتل لا شكل لها، تحتوي على ثقوب عوضاً عن العيون». ومما يبعث على الدهشة أنهم كانوا يستطيعون الرؤية، نظراً لأن «الضوء الذي يدخل قبة الجمجمة لا يكاد يصل إلى مقلتي العينين المنحسرتين.. ورغم أنهم يتخذون شكل الإنسان إلاّ أنّ لديهم قسوة الحيوانات البرية». تلك هي الآراء التي تردّدت أصداؤها على مرّ العصور. ومن الناحية العملية كان الجميع بما في ذلك غيبون سعداء بالاقتباس من سواهم والاستشهاد بهم في إدانة الهون بوصفهم ذوي رائحة كريهة، وأرجل مقوّسة، وقذرين، ووحشيين، وقصيري القامة على نحو مقزز ومقرف.

بيد أنّ معظم هذا الكلام هراء ما بعده هراء!

حينما ظهر الهون من بقعةٍ ما شمال بحر قزوين ودنوا من البحر الأسود في منتصف القرن الرابع كانوا في عيون الرومان على تخوم العالم المعروف، لكن بالاستعانة بالأضواء الكاشفة التي ألقاها علماء الأنثروبولوجيا وعلماء الآثار استطعنا أن نسلّط الضوء على عدد قليل من سماتهم المحددة. وبوصفنا زواراً للهون الذين اكتُشفوا في وقت لاحق وجدنا أنهم كانوا يطلقون لحاهم، ويزرعون المحاصيل، ولديهم القدرة التامة على بناء المنازل، إضافة إلى وجود نسبة عالية من الرجال الوسيمين والنساء الجميلات، شأنهم في ذلك شأن سائر الأقوام الأخرى. ومما لا ريب فيه

أن رجالهم قد فرضوا احترامهم؛ لأنهم كانوا أشداء على نحو يبعث الرعب في النفوس بوجوههم التي لوّحتها أشعة الشمس ولفحتها الريح، ومناكبهم العريضة الأشبه بالألوح من جراء استخدامهم أقواسهم الضخمة بصورة يومية. لكن - كما هي حال المغول في يومنا هذا - ربما كان هناك قدر كاف من الامتزاج مع الأجناس الأخرى جعل بعضهم على جانب عظيم من الجاذبية. ولم يأتِ أي من الذين التقوا الهون وجهاً لوجه على ذكر أنّ لديهم أطفالاً تظهر على وجوههم آثار ندوب. وربما كانت لحاهم خفيفة الشعر على النحو الذي كانت عليه لحية أتيلا، ولعلّ الندوب كانت تظهر على وجوه بعض البالغين منهم، لكن ذلك لا علاقة له بالأعمال الوحشية التي نزلت بهم في مرحلة الطفولة، بل إنها آثار الجراح التي أنزلوها بأنفسهم بوصفها جزءاً من طقوس الحداد.

أحقاً إنهم لا يعرفون المعادن؟! ولا يعرفون الطعام المطهي؟! ربما يخال المرء أن أول ما وقعنا عليه من أدلة على صنع الأدوات المعدنية تَمثّل بالسهام الأولى التي استخدمها الهون، وسرعان ما تلا ذلك الدليل على الطهي. أما مقتنياتهم الأضخم فكانت قدور الطهي الضخمة، وهي عبارة عن أشياء ثقيلة على شكل جرس ذات مقابض كبيرة، يبلغ ارتفاعها متراً، ويتراوح وزنها بين 16 - 18 كغ. كانت هذه القدور كبيرة بما يكفي لإطعام قبيلة بأكملها، ولقد عُثر على العشرات منها في جمهوريات التشيك وبولندا والمجر ورومانيا ومولدوفا وروسيا، حيث تبيّن أن ستة منها قد توزعت في كافة أرجاء منطقة مترامية الأطراف، وقد عُثر على إحداها قرب أوليانوفسك الواقعة على نهر الفولغا، وأخرى على بعد مسافة ستمئة كيلومتر شمالاً، بل اكتُشفت إحداها في جبال آلتاي التي تبعد عن الحدود المنغولية مسافة مئتين وخمسين كيلومتراً. وقد كانت تبدو أشبه بمزهريات ضخمة مزوّدة بسنادات مخروطية الشكل. ويتمّ سبك القدر على نحو بسيط في قالبين أو ثلاثة قوالب حجرية، بينما يتم صنع السنادة في بعض الأحيان على حدة، ومن ثم يُلحمان معاً تقريباً، وتترك الوصلات والنقاط الخشنة غير ممتلئة. وتتفاوت محتويات الخليط المعدني كثيراً: إذ إن معظم المعدن المستخدم هو النحاس المحلّي، مع إضافات من أكسيد النحاس الأحمر والرصاص، لكن ليس فيها أيّ كمية من القصدير الذي عندما يمزج مع النحاس يتحوّل إلى البرونز. وبالنسبة إلى متخصّص جيد في سبك المعادن تبدو هذه القدور غير متقنة الصنع، ولا مجال لمقارنتها بالقدور الصينية أو التي كان يصنعها الهيونغنو. لكنّ هؤلاء كانوا قوماً دأبهم التنقل والترحال، مما يجعل هذه المراجل مدعاة للاهتمام. كان الحدادون الهونيون يمتلكون الأدوات اللازمة لصهر النحاس (يصهر في فرن درجة حرارته 1000 درجة مئوية) وكانت لديهم بعض القوالب الضخمة والثقيلة المصنوعة من الحجر. وإذا نحّينا جانباً السروج المزيّنة وعدة الفرس

فإن القدور وحدها تدحض الفكرة القائلة إن هؤلاء كانوا رعاة بدائيين فحسب ولا يفقهون من دنياهم غير القتال وتناول اللحوم النيئة. ويتطلّب الأمر جماعة كبيرة منظّمة تنظيماً جيداً وفائضاً من الغذاء لإعالة الحدّادين ونقلهم، وما يستخدمونه من أدوات في مهنتهم ومنتجاتهم.

لا يدينون بأي ديانة؟! يطالعنا مزيد من الهراء، إذ لا بدّ من أنه كانت لديهم ديانة ما؛ لأن الكائن العاقل (الإنسان) تطوّر بوصفه كائناً دينياً على نحو غير قابل للشفاء، ويبدو من المرجح أن النزوع إلى تفسير العالم الطبيعي والسيطرة عليه أمر جوهري جداً بالنسبة إلى الذكاء البشري والمجتمع إلى درجة أنه لم يثبت أن ثمة جماعة، مهما كانت أساسية، تفتقر إلى الاقتناع بأننا نشأنا من الجوهر المخفيّ للكون، وما نزال جزءاً منه، ونخضع له، وباستطاعتنا أن نؤثر فيه ولسوف نعود إليه[1]. ولا يُستثنى من ذلك الهون، ويعلم الرومان ذلك حقاً؛ وبقولهم «لا دين لهم» يقصد مطلقو هذا الكلام أنّه لا دين حقيقياً لهم، مثل الدين الذي يعتنقونه، سواء كان ذلك المسيحية أو الوثنية المتحضّرة الموروثة عن الإغريق. فالمعتقد الذي يؤمن به الهون بالضبط وكيفية تأديتهم عباداتهم غير معروف تماماً، لكن ممّا لا ريب فيه أنهم كانوا روحانيّين، ولديهم قدر كافٍ من الخوف من قوى الطبيعة والرياح والثلوج والمطر والرعد والبرق، بحيث يتخيّلون وجود الأرواح في كلّ منها. ومن الإنصاف تصوّر أنهم - شأنهم شأن المغول بعد بضعة قرون من الزمان - شاهدوا مصادر القوى هذه في السماء المهيمنة، وقاموا بعبادة السماوات العُلى بوصفها ينبوع كل شيء، وسعوا للسيطرة على مصيرهم بالعبادة وتقديم القرابين. ونستذكر نحن الأوروبيين المعاصرين تلقائياً إله السماء في كل عبارة مثل «يا إلهي! يا الله! بحق السماء..» نتلفظها. كانت القبائل التركية والمغولية التي

(1) إن هذا التعميم الشديد فرضية غير مثبتة، ولديّ بعض الأدلة المستمدة من القبيلة التي عملت معها في غابات الأكوادور المطيرة في مطلع الثمانينيات من القرن العشرين. كان الورني آنذاك من أبسط المجتمعات التي عرفها علماء الأنثروبولوجيا، ليس لهم رؤساء أو كهنة شامان أو طقوس محكمة؛ وموسيقاهم بسيطة جداً، ولا يرتدون من الملابس إلاّ شرائط مصنوعة من القطن يلفونها حول وسطهم لتستر عوراتهم، ولا فنّ لديهم سوى تزيين الأجساد وبضعة آثار رائعة من صنع أيديهم، ولا سيما أنبوب الرماية بالنفخ البالغ طوله ثلاثة أمتار وأفضل الأراجيح الشبكية في منطقة الأمازون. لكن لديهم حكاياتهم، وتراثهم الشعبي، وعلم الكونيات الخاص بهم، والحياة الآخرة (ألا وهي السماء حيث يتأرجح الناس في الأراجيح الشبكية، ويمارسون الصيد إلى الأبد، وهناك حالة متوسطة بالنسبة إلى أولئك الذين يعودون إلى هذا العالم على شكل حيوان، وعالم سفلي «للكائنات البكماء») والأرواح الخيّرة والشريرة على حدّ سواء، وأسطورة الخلق الذي يراقبه الخالق الذي يطلقون عليه تسمية وانغونغي. لقد كانوا قبيلة «بدائية» يؤمنون بالإله الواحد! وكانت تلك مفاجأة.. ومن المفترض أن فكرة الإله الواحد كانت تطويراً لفكرة تعدّد الآلهة، لكون الوحدانية أعلى شكل من أشكال الدين. وقد ثبت أنها مفيدة جداً للمبشّرين الأميركيين حينما وصلوا حاملين معهم ما استخلصوه من تصوراتهم عن وانغونغي (الإله). (وإن اللائحة التي تضمّ هذه الأمور «البدائية» الأربعة تبعث على السخرية؛ فقد كان الورني خبراء في نمط حياتهم، ولا يقلّون عنّا في ذكائهم وغموضهم وحذرهم وفضولهم وسحرهم وعدوانيتهم وإنسانيتهم التامة).

تعيش جنباً إلى جنب قبل أن يتوجّه الأتراك غرباً في وقت متأخر من الألفية الأولى قد أطلقت على إله السماء الخاص بها اسم: (تنكر أو تنكري)، وهما صورتان من الصور الشائعة لرسم هذا الاسم وتهجئته. وتصادفنا كلمة (تنكر) في أنحاء آسيا كافة، من صحراء تنكري في منغوليا الداخلية وصولاً إلى النقش البارز الذي يعود تاريخه إلى القرن الثامن في شرق بلغاريا. وتعني كلمة (تنكر) في اللغة المنغولية «السماء» في مظهرها الدنيوي، وكذلك الإلهي كما هي الحال في العديد من اللغات الأخرى. ويستخدم المغول عبارة السماء الزرقاء – (أي: خوخ تنكر) للدلالة على الإله الذي يعبدونه والنهار الجميل سواء بسواء. (ونطالع في اللغة الإنكليزية الازدواجية ذاتها التي يعبر عنها بالقول: السموات العلى Heavens above، ونزل من السماء the heavens opened). ولقد عبد الهيونغنو السماء (تنكري) أيضاً. ويذكر مصنَّف يؤرّخ لسلالة هان (إبان الفترة 206 ق م – 8 م) وضعه المؤرخ بان كو في نهاية القرن الأول، حيث يذكر في الفصل الذي عقده للهيونغنو: «أنهم يشيرون إلى حاكمهم بلقب تشينغ لي، (وهي صورة رسم كلمة تنكري – السماء – وتهجئتها في لغتهم)، وكوت توءو (الابن)، وشان يو (الملك) » عنينا عبارة من قبيل «صاحب الجلالة، ابن السماء». وفي النقوش التركية المبكرة يستمد الحاكم سلطته من السماء (تنكري). وكان تنكري لقباً أطلق على ملوك الأويغور الذي حكموا في القرنين الثامن والتاسع. ولم يكن في وسع الهون أن يكونوا خارج التأثير الواسع النطاق للإله (تنكري). وسواء أكانوا من بقايا الهيونغنو أم لا، وسواء احتفظوا بالتسمية ذاتها لإلههم أم لا، فلا بد من أنّهم جلبوا معهم منظومة إيمانية مماثلة، وإيماناً مشابهاً بأن في استطاعة كهنة الشامان إقامة اتصال قوي ومباشر بالسماء على وقع أناشيدهم وقرع طبولهم وقيادتهم للأرواح.

ونجد الدليل في قليل من السجلات التاريخية؛ ففي عام 439م قبيل محاربة القوط الغربيين خارج تولوز استقرّ رأي القائد العسكري الروماني ليتوريوس على إرضاء القوات المساعدة له من الهون بأن عهد إليهم تأدية طقوس قراءة الغيب، ولقد فعل الأمر ذاته أتيلا، الذي كان لديه عرّافون في بلاطه، قبل أن يُمنى بهزيمته الكبرى بعد اثني عشر عاماً. وما يصدق على منتصف القرن الخامس لا بد من أن يصدق على الأزمنة السابقة، لأن قراءة الغيب لها تاريخ يرجع إلى آلاف السنين، والواقع أنها عنصر جوهري في الثقافة الصينية، ومصدر إلهام للكتابات الصينية المبكرة؛ ففي عهد أسرة شانغ قرابة عام 1500 ق م وجد كهنة الشامان أن الشقوق التي تظهر بفعل الحرارة على ظهور السلاحف المحترقة تنطوي على معان، فجعلوا دروع السلاحف بمثابة إضمامة ورق يدونون عليها ملاحظاتهم المتضمّنة تفسيراتهم لها على شكل خربشات. وفي وقت

لاحق اعتمدت العديد من الجماعات في آسيا الوسطى - بما في ذلك المغول - قراءة أسرار الكتف، وهي ممارسة قراءة علامات الفأل التي تظهر في الشقوق التي تُحدثها الحرارة في لوح كتف الماشية. ولم يدوّن أحد تأدية طقوس من هذا القبيل في بلاط أتيلا، لكن أصول الهون تجعل من المرجّح أن كهنة الشامان لديهم كانوا يستخدمون قراءة أسرار الكتف في تنجيمهم.

وهنالك سمة من شأنها أن تؤثر في نفسك بوصفك غريباً، فما إن تصبح مقبولاً بما فيه الكفاية من بضع عائلات ذات شأن حتى يُصار إلى استقبالك بصورة غير رسمية. وكانت رؤوس بعض الأطفال مشوهة، حيث يبدو أنها قد نمت إلى الأعلى وإلى الوراء لتغدو على شكل رغيف خبز، ولم يكن هذا من جرّاء مرض أصيبوا به. ولم يكونوا يعانون من مشكلات صحية؛ بل المرجح أنهم كانوا على العكس من ذلك، إذ يبدو أنهم كانوا في سعة من العيش أكثر من سواهم. ومما لا ريب فيه أن هذا الأمر سيُفسَّر لك بيسر عندما تتقن اللغة الهونية. ومما يؤسف له أنّه لم يكن ثمّة زوّار على هذا المستوى من العلاقة الحميمة، وبالتأكيد ممّن لا ينطقون باللغة الهونية، وقاموا بتدوين ما خلصت إليه محادثاتهم من نتائج. والسبيل الوحيد لتمكين علماء الأنثروبولوجيا من الوقوف على هذه العادة تأتى من عثورهم على عدد من الجماجم العائدة في معظمها للأطفال، وقد ظهر عليها هذا التشوّه الغريب.

كنت قد تعرفت إلى التشوهات الصنعية للجمجمة في متحف تاريخ الفن في فيينا، حيث يعمل بيتر ستادلر الاختصاصي المقيم في قبائل البرابرة في حوض الكاربات، أما كارين فيلتشكيه فتعمل أخصائية الأنثروبولوجيا العضوية الطبيعية، ولديها اهتمام خاص في هذا المجال المبهم. وتحادثنا بشأن مجموعة الهياكل العظمية التي في المتحف، ولم يكن أي منها مركباً بوساطة الأسلاك مثل العينات التشريحية، بل ترقد مفككة في صناديق، وقد كُدّس في كل منها هيكلان عظميان أو ثلاثة، وتكومت بعضها فوق بعض في أعمدة ضمت كل منها مئة وخمسين صندوقاً، وكان ثمانون عموداً منها مرصوفة على أربعة جدران وجانب من الممر خمسة وعشرون ألف هيكل عظمي موضّب في صناديق، إضافة إلى خمسة وعشرين ألف هيكل عظمي آخر في انتظار أن يُصار إلى إجراء جرد لها. ومن بين تلك الهياكل العظمية هناك ما يتراوح ما بين أربعين وخمسين هيكلاً عظمياً ذات جماجم مشوهة على نحو صُنعي. ولما كان تاريخها يرقى إلى مطالع القرن الخامس فهي في الغالب جماجم عائدة للهون، ويعود كثير منها لأطفال. واستناداً إلى هذا الدليل الضئيل يبدو أنه كان يتمّ تشويه جماجم الصبية والفتيات، وتبقى كذلك حين بلوغهم سن الرشد إذا استمروا على

قيد الحياة. ولم يقيض ذلك لبعضهم - بطبيعة الحال - وهو ما يفسر النسبة المتدنية من البالغين بين الباقين على قيد الحياة.

كان تشوّه الجمجمة أمراً شائعاً إلى حدٍّ بعيد على مر التاريخ، ولقد نشرت دراسة فذة تناولت هذا الموضوع عام 1931م بعنوان: (التشوه الجمجمي الصنعي: مساهمة في دراسة التشوهات الإثنية)، وقد كان لمؤلفها إريك دينغوول شغف غريب في بابه في التشوهات الإثنية من جملة أمور أخرى. ووفقاً لتقاليد غرابة الأطوار الإنكليزي الراقي أقام في شقة في سانت ليونارد محاطاً بمجموعة قيّمة من أحزمة العفة، وعاكفاً على البحث في الظواهر الروحية والخارقة للطبيعة، وكانت له وظيفة شرفية في قسم العلوم السرانية في مكتبة جامعة كامبريدج، إلى أن توفّاه الأجل عام 1986، وقد وضع واحدة من أولى الدراسات بشأن ختان الإناث. وما يزال ختان الإناث مستمراً حتى يومنا هذا، في حين اختفى تشويه الجماجم. ويترتّب على هذين المصيرين المختلفين اللذين آلت إليهما هاتان الممارستان آثار غير مريحة للشخصية الإنسانية، إذ إن ختان الإناث مؤلم وفج وسرّي وسريع، على الرغم من أن آثاره لا تنتهي بسرعة، بينما تشويه الجمجمة ليس مؤلماً، ويتطلّب رعاية طويلة الأجل، ويبقى بادياً بصورة واضحة طوال حياة الشخص الذي أخضع له. وقد ظهر في عدد لا حصر له من المجتمعات في أنحاء العالم كافة. وقام إنسان النياندرتال بتشويه الجماجم قبل خمسة وخمسين ألف سنة خلت، وظلت هذه التقنية مستمرة مع الإنسان العاقل طوال تاريخنا، «وهي عادة غريبة في بابها، وتمارس على نطاق واسع» كما لاحظ دينغوول وهو يستعرض أمثلة من آسيا وأفريقيا وأندونيسيا وغينيا الجديدة وميلانيزيا وبولينيزيا والأمريكتين وكذلك أوروبا. وكما علق فقد لا يكون لها شأن بطقوس سن البلوغ أو التلقين؛ لأنه لا يمكن القيام بها إلا في مرحلة الطفولة المبكرة فحسب، في وقت لا تزال فيه الجمجمة ليّنة وفي طور النمو. وفي الأمريكتين درجت جماعات السكان الأصليين في تشيلي والمناطق الشمالية الغربية على جعل رؤوس أطفالهم مسطحة من خلال شد ألواح إليها، وكان أبرز هؤلاء أفراد قبيلة شينوك الذين يعرفون بناء على ذلك باسم الهنود ذوي الرؤوس المسطحة. واستخدمت ثقافات أخرى ضمادات مصنوعة من القماش لإحداث جمجمة شبيهة برغيف الخبز وأسطوانية الشكل. وذلك أمر ليس من الصعب القيام به، فكل ما يتطلّبه الأمر عصابة للرأس مشدودة بإحكام، ويجري شدها من جديد كل بضعة أيام للحفاظ على الضغط ولمنع الالتهابات والسماح بالاغتسال. كانت هذه التقنية المستخدمة من جانب السكان الأصليين في نيو ساوث ويلز بأوستراليا منذ قرابة ثلاثة عشر ألف سنة خلت، وربما من جانب قدماء المصريين ليَهبوا نفرتيتي الزوجة الملكية لإخناتون

جمجمتها الدقيقة. وكانت تلك ممارسة شائعة في الريف الفرنسي في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

لماذا بحق السماء؟! هاكم إجابة محتملة: ربما تم ذلك في بعض الحالات من أجل السماء، في إشارة إلى أنّ الطفل كان مقدراً له أن يصبح كاهناً، لكن يبدو أن الأسباب الكامنة وراء ذلك اجتماعية في المقام الأول؛ فبين ظهراني قبيلة شينوك يعد هذا الأمر دليلاً على حسن التنشئة؛ وأما الأمهات اللواتي لم يكترثن لهذا الأمر فقد اعتُبرن مهملات، وكان يُخشى أن يتعرض أولادهن ذوو الرؤوس المستديرة للمضايقة من جانب أقرانهم ذوي الرؤوس المسطحة؛ وفي ثقافات سواها حيث يتوافر لدى الأمهات أو المربيات الوقت لتوفير الاهتمام اللازم كان الرأس الطويل دلالة على المكانة؛ وفي حالة الهون كانت المسألة أشدّ تعقيداً من ذلك، وتبرز عدة تماثيل نصفية للملكة نفرتيتي برأسها المتطاول؛ لكن لم يلاحظ أحد أنّه كان لدى أتيلا رأس مشوه، أو أن لدى أي من أبنائه أو قادة جنوده أو موفديه أو زوجته الملكية رأساً مشوهاً.. إذاً فإما أنهم كانوا يغطون رؤوسهم، لكن لماذا يقومون بذلك إذا كان التشوه دلالة على المنزلة الرفيعة؟ وإمّا أن المكانة وحدها لم تكن السبب وراء شد عصابة على الرأس.

ثمة نمط سنشرحه، وكما ذهبت كارين فيلتشكيه إلى القول: «كلما اتجهت شرقاً ازدادت نسبة التشوهات»، ولكن إبان عهد إمبراطورية أتيلا التي استمرت عشرين عاماً (433 - 453) وما تلاها فوراً تبنّت هذه الممارسة القبائل الأخرى الخاضعة لمملكة الهون التي لم تدم طويلاً. ولنأخذ زعيم القوط الشرقيين ثيودوريك العظيم الذي ولد في بانونيا (شرق المجر وغرب كرواتيا في يومنا هذا) بعد وفاة أتيلا بعام أو عامين، وأنهى أيامه ملكاً لإيطاليا ما بعد الحقبة الرومانية، فنجد أنه يظهر على المسكوكات ذا رأس متطاول، ولا بدّ من أنهم جعلوه كذلك بعد مدة وجيزة من ولادته قرابة سنة 454، ومن المفترض أن السبب وراء ذلك أنها كانت التقليعة السائدة المأخوذة ممن كانوا الأكثر نجاحاً بين الغزاة البرابرة الذين جلبوا معهم هذه العادة بدورهم من الشرق.

إننا في حيرة من أمرنا، فاستناداً إلى علم الآثار نعلم أن الهون يشدّون عصابة على رؤوس بعض أولادهم الذين سيحتفظون بجماجمهم المشوّهة عند بلوغهم سن الرشد، ومع ذلك لم يدوّن أي من الغرباء رؤية أي شيء من هذا القبيل. وجلّ ما نستطيع فعله هو تخمين تفسيرٍ لذلك. فلربما ظلت هذه الجماجم المدفونة في حياة أصحابها تحت أغطية الرأس محاطة بالكتمان، ولا أحد يعلم بأمرها إلاّ أفراد القبيلة ذاتها، وقد تمّ إخفاؤها عن أعين الغرباء. ولعل ذوي الرؤوس

الطويلة كانوا من علية القوم، وأشبه برجال الماسونية الذين تنتقل أسرارهم من الأب والأم إلى الابن والابنة. وقد كانت هنالك ماسونية من هذا القبيل بين ظهراني مجتمعات الصيد تتمثل في جماعة الكهنة الشامان الذين باستطاعتهم في حالات النشوة أن يطيروا على وقع الطبول، وأن يصبحوا صقراً أو نسراً أو بطة لكي يطوفوا كما يحلو لهم في عالمي القوة ونفاذ البصيرة؟، ولقد استمد من الكهنة الشامان ورؤاهم معرفة قوة الشعب وضعف العدو، والوقت المناسب للقتال، وما سيؤول إليه المصير، وسبب الأمراض ومعالجتها..، ومثل هذه الأمور لا يمكن أن تُفشى للغرباء.

دعونا نلقِ نظرة على أسلاف أتيلا في سياق أوسع: تتدفق أربعة أنهار كبيرة مخترقة غرب روسيا وشرق أوروبا لتصبّ في البحر الأسود، وهي تبدو على الخريطة أشبه بومضات تصل إلى مانع للصواعق غريب الشكل. هذه الأنهار الأربعة التي تبدأ بحرف الدال والمتدفقة من الغرب الى الشرق هي الدانوب والدنيستر والدون والدنيبر، وهي تعيّن حدود مناطق يكتنفها غموض متعاظم لدى الرومان، وذلك ابتداءً من داسيا شبه الرومانية (رومانيا في الوقت الحاضر)، مروراً بالأراضي التي تسكنها القبائل البدوية جنوب روسيا، وصولاً إلى وديان القوقاز العصية على الاختراق وغير المعروفة. وتبرز في منتصف هذا العالم الغامض شبهُ جزيرة القرم أشبهَ بمصباح يتدلّى من سقف مبهم من الهمجية، وكانت شبه الجزيرة هذه قاعدة يونانية طوال قرون من الزمان، ومن ثم خضعت للإمبراطورية الرومانية. ويعدّ الكتاب الرومان - شأنهم شأن الكتاب الإغريق - البحر الأسود وحصونه المقامة على الأنهار بمثابة مناطق عازلة بين الحضارة والبرابرة، مع شبه جزيرة القرم بوصفها منطقة تحول لأولئك الذين يقتربون عن طريق البحر. وفي هذه البقعة كان هيرودوت قد عرف السكيثيين الذين عاشوا بين العالمين الهيليني والقبلي.

وبالاتجاه نحو الداخل بعيداً عن المستعمرات الساحلية اليونانية يقع العالم غير اليوناني لسهوب البونتيك، ومراعي كازاخستان الشاسعة الجرداء والممتدة بلطف. ولقد أضحت الآن نسخةً روسيةً عن الغرب الأوسط الأمريكي، بعدما شقّت أرضها بالمحراث. وفي ذلك الحين كان الغربيون يعدّونها قلب الظلمة الهمجية، بينما كانت لدى عدد لا حصر له من القبائل طوال ألفي عام موطناً جديداً أو ملجأ مؤقّتاً في أثناء اندفاعهم البطيء نحو الغرب. لقد جاء الهون من وراء هذه المناطق النائية، من عالم الأسطورة والظلال، أشبه بشرخ أصاب طاولة بليارد واسعة، فشتتوا شمل القبائل، وبعثروا جمعها في أنحاء العالم الروماني كافة.

ترى ما هو السبب الذي جعلهم يتحركون؟! ولماذا انفجرت فجأة قبيلة صغيرة في أعماق آسيا وتناثرت شظاياها على الساحة العالمية؟! كان من المألوف ذات يوم أن تعزى الهجرات الضخمة والاعتداءات التي يشنها البدو لتغير المناخ والضغط السكاني، وكأن «المنطقة الحيوية» في الواقع عبارة عن قلب ضخم يخفق بإيقاع بيئي خفيّ، ضاخاً تدفّقاً شريانياً من الشعوب باتجاه الغرب، لكنّ المناخ وحده ليس تفسيراً كافياً، لأنه يكون مميتاً لدى قبيلة أقل شأناً وأصغر عدداً بقدر ما يكون القحط مهلكاً للأثيوبيين الفقراء.

والواقع أنّ ثمة قلباً ينبض على الجانب القصي من أوراسيا؛ إنها الصين التي كان تاريخها سلسلةً من المراكز الحيوية ذات العلاقة بالسلالات الحاكمة التي استطاعت الاستمرار. كان كل مركز من تلك المراكز ينبض بالحيوية مدة تتراوح بين عقود وقرون من الزمان، طوال ما يزيد على ألفي سنة. وإن صعود نجم الأسر الحاكمة وأفوله طوال هذه المدة لهو أمر فريد من نوعه إبان مدة تبلغ قرابة أربعة آلاف سنة، ولقد أنفق العديد من المؤرّخين حياتهم في السعي وراء الوقوف على نمطٍ أساسيّ في هذا التعاقب الجدير بالملاحظة. وإذا كان هناك نمط واحد فيبدو أنه يتّصل بفكرة الحكم الموحّد، ومن أجل تحقيق هذا الهدف تتابعت الأسر الحاكمة الواحدة تلو الأخرى، وقد حفزت تواريخ حياتهم تفاعلات معقدة تشمل - من جملة عناصر أخرى - الزراعة والأنهار والقنوات والأسوار وانتفاضات الفلاحين وحشد الجيوش وغارات البرابرة والضرائب والإدارة وسياسة القوة والفساد والثورة وانهيار وصعود متحدٍّ ما من خارج النظام الراسخ، أما بالنسبة إلينا الآن فإن الفكرة الرئيسة هي أن الحكام البدو كانوا في بعض الأحيان ينفذون إلى قلب الصين، وفي أحيان أخرى يستولي الجزء المركزي من الصين على حدود البرابرة. وكان من شأن كل نبض أن يهزّ المناطق الحدودية، ويقذف بقبيلة أو اثنتين نحو الغرب، وعادة ما يضعها خارج الزمان، وخارج التاريخ. واتفق أن سادت الفوضى وعمت في شمال الصين طوال القرن الرابع ومطالع الخامس، وهي حقبة وصفها بعض المؤرخين بالممالك الست عشرة للبرابرة الخمسة، وقد تناقصت الفوضى إلى حد ما عندما أقامت جماعة من الأتراك (التو - با) مملكة عرفت باسم وايي الشمالية في عام 396. ترى هل أحدثت تلك الفوضى التي لم يُدوّن كثير منها موجاتٍ صادمةً من اللاجئين باتجاه الغرب مما أرغم الهون على التحرك؟! لا أحد يملك مفتاحاً لحلّ هذا اللغز!

وإنني لست على يقين من أن هذه المسألة تنطوي على أهمية بالغة، إذ إن طقساً بارداً في آسيا الوسطى أو غزواً من جانب هذه الجماعة أو تلك من اللاجئين الرحل لا يمكن أن يبيّن السبب

الذي حثّ الهون على الغزو، في حين لم تعمد القبائل الأخرى إلى ذلك. فما هو السبب وراء هذا التباين؟! إنهم لا يدينون للمناخ أو السيرورة التاريخية بالفضل في نجاحهم، بل لمهاراتهم القتالية التي سنتناولها بالبحث في الفصل التالي.

فلنتأمل في الأسباب الكامنة وراء تحركهم على أساس ما كانوا يفتقرون إليه وما كان متوافراً لديهم:

- كانوا يفتقرون إلى وسائل الترف.
- وكانت لديهم القدرة على السلب والنهب.

وكان الرعاة الرحل ينتجون ما يزيد على حاجتهم من مستلزمات الحياة، لكنهم كانوا على الدوام يفتقرون إلى الكماليّات، إن اعتمدت مقاييس المراتب العليا في هرمية المجتمعات المستقرة. وإن بقاءهم على قيد الحياة في حدّ ذاته يتطلب ذلك؛ إذ يجب سوق قطعان الماشية إلى مراعٍ جديدة، وفك الخيام وإعادة نصبها، وتحميل الدواب المعدة للنقل والجر والعربات. وتهدّد المقتنيات الحركة، وبالتالي البقاء على قيد الحياة. والحياة وفق هذه الشروط إنما هي حياة تخلو من البهرجة والزركشة، لكنها مدهشة من أجل بناء الشخصية. ويمكنك أن ترى النتائج في منغوليا اليوم، في الريف الذي يبعد مسافة تستغرق ما لا يزيد على ساعتين أو ثلاثاً من العاصمة. فهؤلاء في أحسن الأحوال شعب مستقل على نحو يبعث على الفخر: رجال أشداء مثل خيولهم، يستعملون الوهق - وهو حبل يصطنع لصيد الحيوان - بمهارة أشبه بلاعبي السيرك، وأطفالهم ذوو وجنات حمراء، ونساؤهم قويات، ولديهم جميعاً قلوب قوية، وأسنان جميلة، وهو أمر يُعزى إلى نظامهم الغذائي الخالي من السكر. إلاّ أنّ زيارة سريعة تساعد على إلقاء نظرة عاطفية إلى الرعاة الرحل. ويتقبل السياح بيسر وسهولة هذه الرواية المعاصرة عن الهمجي النبيل الذي يقود قطعانه بين المراعي المعروفة، ويعيش على إيقاع موسميٍّ موغل في القدم. لكن دعونا نُزِلْ مولّد الطاقة الكهربائية بوساطة الرياح والدراجة النارية والتلفاز، ونبعد المدرسة الكائنة في أقرب بلدة يستطيع الأطفال المكوث فيها، ولنعد إلى فصل الشتاء، ونرجع بخيالنا إلى قرن أو اثنين، ولنتخيّل حياةً من دون الفاكهة أو الخضر الطازجة (تشكل مشكلة حتى في يومنا هذا في المناطق النائية)، ولسوف ترون كم كانت هذه الحياة كريهة ووحشية. إن فصول الشتاء مميتة، ومن شأن هبوب عاصفة ثلجية تغطّي العشب بإحكام أن تهلك الآلاف من الخيول والأغنام. وقد كان وقوع مثل هذه الكارثة حتى عهد قريب يترك العائلات تتضوّر جوعاً من دون الحليب أو اللحوم أو روث

الدواب الذي كان يُستعمَل وقوداً. وعلى أحد الأصعدة كانت المعاناة وما تتمخض عنه من نتائج طبيعية كالثبات والقوة والاستقلال القوي مبعثاً للاعتزاز والفخر، ومصدراً للحسد على صعيد آخر! ولا عجب في أن البدو الرعاة كانوا ينظرون إلى الخارج.

والواقع أن النظر نحو الخارج كان مدمجاً في نهج حياتهم، وكان الرعاة الرحل مكتفين ذاتياً لعدة أشهر، وربما سنة، لكن لم يكن حالهم كذلك على المدى البعيد. ونصادف الدليل على ذلك اليوم في منغوليا، كما كان عليه الحال في القرن الثالث عشر، وعلى نحو ما كان عليه الوضع قبل صعود نجم كل مملكة بدوية وأفوله منذ الفترة السابقة لظهور الهوينغنو. ولكي تبقى على قيد الحياة في السهوب فإنك في حاجة إلى خيمة، ومن أجل أن تدعم الخيمة فإنك في حاجة إلى جدران خشبية شبكية ودعامات سقف خشبي. ويأتي الخشب من الأشجار، وتأتي الأشجار من الغابات والتلال لا من المروج الممتدة. فضلاً عن ذلك فإنه إذا توافرت لديك القدرة على ابتياع الخشب تصبح عربة ذات عجلتين في متناول يديك لتقلّ الصغار والكبار، والخيام والقدور وسواها من المقتنيات.. كانت العربات أيضاً مصنوعة من الخشب. ومن أجل الخيام والعربات على حد سواء كان الرعاة في السهوب في حاجة إلى الغابات. وللحصول على الخشب فإنك تحتاج إلى الفؤوس، مما يعني الحديد، سواء ذلك المصنوع على يد الحدادين المحليين أو الذي تحصل عليه بالتجارة. نحن الآن نبحث في مجتمع أكثر تنوّعاً وقدرة على التكيف من البداوة الرعوية «الخالصة» التي دأبها التنقل والترحال. وهذا كله لمجرد البقاء على قيد الحياة. ولمّا كان البدو بشراً شأنهم شأن سائر البشر فإنهم سيرغبون في الحصول على الأطايب غير المتوافرة على الأراضي المعشوشبة، كالشاي والأرز والسكر والأقمشة الناعمة والمتنوعة، وخاصة الحرير والديباج: وباختصار سيسعون للحصول على تلك السلع التي ينتجها المزارعون والمجتمعات المدينية الأكثر تعقيداً.

ولا يعيش الرعاة البدو حياة التجوال المتواصل كيفما اتفق، وقد تحيا العديد من العائلات التي تُعنى بتربية المواشي حياة مستقرة على نحو ملحوظ طوال سنوات، بل عقود وحتى أجيال، وذلك لأنّ القطعان تعتمد على تحديد مكان العثور على المراعي والكلأ وزمانه، وتتطلب الحاجة إلى ضمانها عاماً بعد عام التعاون والقوانين غير المكتوبة. لكن التغيير على المدى الطويل أمر لا مفرَّ منه، إذ تتفاوت المواسم، ويأخذ المرض مداه الأقصى، وتتناسل القبائل، وتتنامى أعدادها، وتنقسم، وتتنازع على المراعي والكلأ. و كانت السهوب على مر التاريخ تجيش بتحوّلات من

الداخل، ناهيكم عن التغيرات التي فرضتها المجتمعات المستقرة حول حافتها.

فلنطبق هذا كلّه على منطقة سهوب البونتيك وسهوب بحر قزوين التي قَدِم الهون منها، فقد كانت عبارة عن مرجل، وغليان بطيء الحركة لشعوب ممتزجة ومتعاقبة. تخيلوا آنذاك جماعتنا الصغيرة من الهون، وقد نزلت بهم المحنة في المراعي الراسخة بفعل بضع سنوات عجاف أو طموحات جيران طواهم النسيان ردحاً طويلاً من الزمان، فانتقلوا إلى مراعٍ جديدة، لكنهم لم يكونوا موضع ترحيب فيها بوصفهم غجراً، فشعروا بالمهانة، وباتوا يشكّلون تهديداً لجيرانهم الجدد الذين كانوا يرتابون في أمرهم، وأضحى جيرانهم هؤلاء مصدر تهديد لهم، فأصبحوا يفتقرون إلى كلٍّ من الوطن والمنسوجات الناعمة والسجاد وأكواب الشراب الغريبة والمجوهرات التي تُيسّر الحياة البدوية وتجعلها مفعمة بالحيوية. دعونا نُزِلْ حسن الضيافة التي هي بمثابة وسيلة للراحة والاطمئنان لدى المسافرين من البدو الرحل، ولنضع جانباً الدراية بالمراعي المحلية التي تبعث على الطمأنينة.. ألا يستبد بك في هذه الظروف الحنينُ إلى كل ما تفتقده؟!

لقد كان الهون لاجئين يرغبون بقاعدة، ومصدر منتظم للطعام، وإحساس متجدّد بالهوية والافتخار بأنفسهم. كانت هذه نواقص لا يمكن التعويض عنها إلا بثلاث طرق: اكتشاف أرض غير مأهولة، حيث لن يحالفهم الحظ في ذلك؛ أو عقد بعض الاتفاقيات الجديدة مع الجماعات الراسخة، وهذا أمر دونه صعوبات، ولا يملكون إلاّ القليل ليقدّموه في المقابل؛ أو استخدام القوة. كانت الحياة المستقبلية التي واجهوها مختلفة جداً عن تلك البدوية الرعوية التقليدية، وما إن شدوا رحالهم مع عدم توافر مراعٍ يدّعون بأنها حقّ لهم حتى حاولوا شقّ طريقهم عنوةً في الأراضي الخاضعة لغيرهم، واتفاقاتِ التجارة التي كان قد عقدها سواهم، وكانت القوة سبيلهم الوحيد إلى تحقيق ذلك، إلى أن توافرت لديهم قوة ماحقة لا تعرف الكلل أوالملل أبداً؛ لأنهم مع كل كيلومتر يقطعونه باتجاه الغرب سيجدون أن مساحة المراعي أخذت تتناقص على نحو متعاظم من جانب المجتمعات المستقرة. فأصبحوا - لا محالة - يعتمدون على مقتنيات الآخرين. ولربما تم الحصول على تلك المقتنيات بوساطة التجارة، لكنّ الهون كانوا أقل تطوراً من جيرانهم الجدد، وحين لم يكونوا يملكون إلاّ القليل ليقدموه إلاّ الصوف واللباد والحيوانات الداجنة فقد كانت السرقة الخيار الوحيد المتبقي أمامهم، فتحوّلوا من بدو رحّل إلى عصبة من اللصوص اختطوا العنف نهجاً في الحياة على نحو ما كانت عليه حال الفايكينغ الذين كان دأبهم التنقل والترحال.

بدأ الهون يتحركون نحو الغرب بعيداً عن مراعي كازاخستان والسهول الواقعة شمال بحر

آرال، ولقد واجه هؤلاء الجوالون تحدي الاختيار بين الغرق في غياهب النسيان أو الارتقاء إلى قمم جديدة من خلال الغزو. وقد كان الغزو يتطلب الوحدة والتوجيه، ومن أجل ذلك نصل أخيراً إلى العنصر الأخير من عناصر صعودهم إلى عالم الشهرة والثروة؛ ألا وهو القيادة. فقد كانوا يفتقرون إلى القيادة في السابق؛ تلك القيادة التي أطلقت في نهاية المطاف العنان لقوة الهون المكبوتة. وفي وقتٍ ما من القرن الرابع حصل الهون على أول زعيم لهم يُشار إليه بالبَنان، وهو أول من استطاع أن يستحوذ مع شعبه على اهتمام العالم الخارجي. كان اسمه بالامبر أو بالامور أو ما شابه، ولا نكاد نعلم عنه شيئاً سوى اسمه. لقد كان مصدر إلهام لشعبه، وركّز إمكاناتهم القتالية لمهاجمة القبيلة تلو القبيلة، حيث كان لكل قبيلة نقاط قوة وبعض مواطن الضعف. وهذه المرة الأولى التي يطلق فيها زعيم كبير العنان للمهارات التكتيكية، ويرسي دعائم تقاليد القيادة التي من شأنها - في نهاية المطاف - أن تنتج أتيلا.

عبر الهون نهر الفولغا في عام 350م، وقاد عدد قليل من المجموعات الصغيرة من الفرسان الرماة الأشداء عرباتهم وصفوفاً متعرّجة من الخيول والماشية نحو البلاد ذات الأراضي المعشوشبة التي بقيت كما هي من دون أن يطرأ عليها أي تغيير يُذكر إلى أن شاهدها أنطون تشيخوف بأم عينه وهو ما يزال غلاماً في السبعينيات من القرن التاسع عشر، وهي تجربة وصفها في أحد أعماله [القصصية] العظيمة الأولى «السهب». كان يتجلّى أمام الهون مشهد المروج الممتدّة مسافة ثمانمئة كيلومتر من نهر الفولغا إلى شبه جزيرة القرم، وقد أشار إليه تشيخوف الشاب في الترجمة التي أنجزها رونالد هينغلي Ronlad Hingley قبل أن يشقّ المحراث أرضها كما رأته عينا بطل تشيخوف الشاب يغوروشكا في ذلك اليوم الجديد:

يمتدّ الآن أمام أعين الرحالة سهل واسع لا حدود له، تحيط به سلسلة من التلال، وتتزاحم التلال تلك وهي تلقي نظرة عجلى بعضها من وراء بعض، وتندمج في أرض آخذة في الارتفاع تمتدّ إلى الأفق على يمين الطريق، ولا تلبث أن تختفي في المسافة ذات اللون الأرجواني الفاتح. وتواصل طوافك في المكان، لكنك لا تستطيع أن تدرك من أين يبدأ وأين ينتهي. أولاً: بعيداً جداً حيث التقت السماء بالأرض - قرب بعض القبور الركامية القديمة وطاحونة تبدو من بعيد أشبه برجل ضئيل يلوح بذراعيه - زحفت فوق الأرض حزمة عريضة صفراء مشرقة... إلى أن اندفع فجأة المرج الواسع بأسره خارجاً من الظلّ المشعشع للفجر، وابتسم وتألّق وقد بلّلته قطرات الندى... وانقضّ طائر النوء الذي يعيش في القطب الشمالي على الطريق مطلقاً صيحات الفرح،

ونادت السناجب البرية بعضها بعضاً وهي تثب فوق بساط العشب، وجاءت من ركن قصي في الجهة اليسرى احتجاجات طائر أبو طيط المائي... وراحت الجنادب وحشرات الزيز وصراصير الليل تصدر صريرها وتعزف أنغامها الرتيبة التي تبعث على الضجر فوق العشب.

لكن مع مرور الوقت أخذت قطرات الندى تتبخر، وسكنت الريح، واتّخذ السهب الذي انعتق من الوهم مظهرَه الأخضر المائل إلى الزرقة المألوف في شهر يوليو/ تموز. ثم تدلّى العشب، وغادرت الحياة كل شيء. كانت التلال ذات اللون البني المائل إلى الأخضر بعدما أحرقتها الشمس تبدو من بعيد بظلالِ ألوانها الهادئة الفاتحة ذات لون بنفسجي زاهي. أما السهل والأفق الذي يلفّه الضباب، والسماء التي تخيّم فوق رؤوسنا فكانت تظهر عميقة وشفافة على نحو مذهل جداً هنا في السهوب، حيث لا توجد غابات أو تلال عالية.. يبدو هذا كله الآن بلا حدود وقد أفقده البؤس إحساسه.

كانت الهيمنة للسرامطة على هذه الأراضي في منتصف القرن الرابع، وكان هؤلاء اتحاداً من الشعوب الإيرانية الذين انتزعوها من السكيثيين قبل خمسمئة عام ونيف. ونعلم الكثير عن السرامطة؛ لأنه عُثر على بعض كنوزهم الفنّية في سيبيريا الغربية، وتمّ تسليمها إلى بطرس الأكبر في روسيا. وكان لهم شغف بصنع صفائح معدنية رقيقة مطلية بالمينا الملوّنة تظهر حيوانات تتصارع مثل الغرفين[1]، أو نمور تواجه الخيول، أو ثيران الياك، وانتشر ذلك النمط غرباً فبلغ القوط وسواهم من القبائل الجرمانية. ولقد تخصّص السرامطة في القتال والطعان بالرماح، وكانوا يستخدمون القبعات المخروطية والسترات الزردية لحماية محاربيهم، بيد أنهم لم يكونوا صنواً للإعصار الهوني!

كانت إحدى الجماعات المنتسبة إلى السرامطة تدعى «الآلان»، وهم اتحاد متفرّع عن السرامطة ذوو تأثير واسع النطاق، يطلق الفرس عليهم تسمية «آس»[2]. ونتناول الآن منطقة وقبيلة أصبحتا معروفتين لدى الرومان؛ فقد أتى على ذكرهما كلّ من سينيكا ولوكان ومارشال في القرن الأول الميلادي. وقام مارشال ذو اللسان اللاذع والماهر في نظم الابيغرامات[3] بابتداع شخصية تدعى كايليا، ونسب إليها عادات جنسية واسعة النطاق، متسائلاً كيف تستطيع فتاة رومانية أن تهب

---

(1) حيوان أسطوري مجنح بجسد أسد ورأس نسر، (المترجم).

(2) الشيء بالشيء يذكر، فقد اشتقت كلمة «آري» من هذا الاسمهم ؛ إذ يتحول حرف اللام (L) إلى الراء (R) في النطق في بعض اللغات الإيرانية، وهكذا ظهر أن القبيلة التي أعجب بها هتلر أيّما إعجاب لم تكن جرمانية على الإطلاق.

(3) قصيدة قصيرة محكمة منتهية بحكمة وسخرية، (المترجم).

نفسها للبارثيين أو الفرثيين، والجرمان، والداتشيين، والكيليكيين، والكبادوكيين، والفاريين، والهنود من البحر الأحمر، والأفراد المختونين من اليهود، و«الآلاني ذوي الأرومة السرماطية»، ومع ذلك لا تستطيع أن «تجد المتعة بصحبة أفراد العرق الروماني». ولقد أغار الآلان على الجنوب داخل كبادوكيا (شمال شرق تركيا اليوم)، حيث حاربهم المؤرخ اليوناني [مارشال] والقائد أريان في القرن الثاني، اللذان لاحظا تكتيك التقهقر في المعركة الذي آثره فرسان الآلان بوصفه حيلة للعودة إلى ميدان القتال، وهو تكتيك حربيّ بلغ الكمال لاحقاً على يد الرماة الهون. يقول أميانوس إنهم كانوا من البدو الرعاة الذين يعيشون في عربات مزوّدة بسقوف مصنوعة من لحاء الشجر، ويعبدون سيفاً مغروزاً في الأرض، وهو معتقد اعتنقه أتيلا ذاته. كانوا فرساناً رائعين يمتطون صهوات خيولهم الصغيرة صعبة المراس. كان الآلان أقرب إلى الأوروبيين منهم إلى الآسيويين، ويتّصفون بأن لحاهم كاملة وعيونهم زرقاء، ويعشقون الحرب، ويجيدون استخدام السيف والوهق[1]، ويصدرون صيحات مرعبة في المعركة، ويلعنون الرجال الطاعنين في السنّ لأنهم لم يلقوا حتفهم في الحرب. وقيل إنهم كانوا يسلخون جلود أعدائهم المقتولين، ويجعلونها أغطية مزركشة لخيولهم. وكانوا يمتلكون ثقافة انتشرت على نطاق واسع، إذ عُثر على مئات من قبورهم في جنوب روسيا حيث أقيم العديد منها إحياء لذكرى نساء مقاتلات، وربما جاءت من هنا الأسطورة الإغريقية عن الأمازونيات المحاربات!. كانت هذه الحضارة تتّسم بالمرونة أيضاً، إذ يطيب لها أن تستوعب الأسرى، كما يطيب لها أن تُستوعَب. والواقع أنه ربما كانت القدرة على التكيف مشكلتهم الرئيسة في منتصف القرن الرابع؛ لأنهم كانوا يفتقرون إلى الوحدة لمواجهة نمط الفرسان الرماة الذي اعتمده الهون.

ولقد بدّد الهون شملهم وفرّقوا جمعهم، العشيرةَ تلو العشيرة، وسرعان ما سيشكل الآلان شظايا انفجار الشعوب الذي عادة ما اصطلح على تسميته بالألمانية (Völkerwanderung)؛ أي هجرة القبائل. ومع أنهم كانوا يستوعبون الآخرين على نحو جيد فقد كانوا يمتلكون أيضاً موهبة الحفاظ على هويّتهم. كان الآلان في رداغ[2] الشعوب المترحلة أشبه بحبيبات الرمل الخشنة المختلطة كثيراً، لكنها كاشطة على الدوام. وفي غضون جيلين أصبحت مختلف القبائل مفيدة للهون، تمدّهم بجنود جدد، كما أصبحوا حلفاء لروما. ولسوف تتحول وجهة بقاياهم في القوقاز نحو أوسيتيا الواقعة جنوب روسيا وجورجيا. يذكرنا المقطعان اللفظيان الأولان من هذا الاسم

(1) حبل في طرفه أنشوطة، (المترجم).

(2) طين أو ملاط رقيق القوام، (المترجم).

بتسميتهم الفارسية، آس، ومعها صيغة الجمع في اللغة المنغولية أوت ut (وهكذا فإن الاسم الحالي للمنطقة العازلة الروسية الصغيرة المعروفة باسم أوسيتيا ألانيا الشمالية يؤكد على نحو مضاعف جذورهم). وفي الطرف الآخر من الإمبراطورية التحقوا بركاب القوط إبان سيرهم نحو إسبانيا، حيث يشتق بعضهم اسم كاتالونيا من دمج كلمتي (القوط والألان)، وكذلك الوندال [أو: الفاندال] الذين اكتسحوهم أثناء فرارهم إلى شمال أفريقيا قرابة عام 420. وسنأتي على ذكر الآلان مرة أخرى لاحقاً في هذه القصة.

أقام القوط الشرقيون على ضفاف نهر دنيبر، وكانوا قوماً من المزارعين المستقرين، لكن ربما كان زعيمهم الجليل إرماناريك[1] أنموذجاً يقتدي به زعيم هوني طموح. ولقد كان الشخصية المحورية في أرض تشرّد أبناؤها في الأصقاع الممتدة من البحر الأسود إلى بحر البلطيق انطلاقاً من جزئها المركزي الذي كان يحكمه إرماناريك مباشرة، نحو شبكة فضفاضة دوماً من الأتباع، والحلفاء، ودافعي الضرائب، والشركاء التجاريين. ووفقاً لإحدى الروايات قام بالامبير بحركته لأنّ إرماناريك لم يعد الرجل نفسه الذي عهده سابقاً، لقد تحول أحد أتباعه إلى خائن وولى الأدبار مخلفاً زوجته التعيسة سونيلدا تعاني انتقام إرماناريك، فقد ربط جذعها وساقيها إلى حصانين ضُربا بالسوط ليجريا بسرعة في اتجاهين متعاكسين، فشطراها إلى نصفين. حاول شقيقاها اغتيال الملك العجوز، لكنهما لم يوفّقا إلا في إصابته بجراح، وبعد ذلك – على حد وصف يوردانس – «كانت قواه قد خارت بسبب هذه الضربة، وامتد به الأجل وعاش ما تبقى من حياته بائساً يعاني من الضعف البدني». لقد قام بالامبير على رأس قومه الهون وفرسان الآلان بسحق جيش إرماناريك في المنطقة الواقعة شمال البحر الأسود قرابة عام 376، وانهار التحالف القبلي الفضفاض على نحو شبيه بانفجار النُّفَّاخة الهوائية؛ فانتحر القوطي الشرقي العجوز، وتزوج بالامبير من أميرة قوطية متمّماً بذلك استيلاءه على تلك المنطقة.

وعلى ضفاف نهر دنيستر كان القوط الغربيون المقيمون في ما يدعي رومانيا حالياً هم الذين سيأتي دورهم لاحقاً، كما سيكتشف فالنس؛ فقد أصبح هؤلاء شعباً مزهّواً فخوراً ومتطوراً، ومستقراً الآن في المدن، وأفراده يحترمون القانون والنظام اللذين يسهر على تطبيقهما حاكمهم الذي يطلقون عليه اسم القاضي. ولما أشار موفد روماني إلى حاكم القوط الغربيين بوصفه

(1) من المحتمل أن إرماناريك اشتق اسمه من هرمان ريكس (الملك هرمان) بعدما اعتمد القوط الكلمة اللاتينية وحولوها إلى رايكس reiks، التي أصبحت ric ريك عندما أعيدت كتابتها بأحرف لغتهم. وكانت لاحقة شاعت إضافتها إلى أسماء الأرستقراطيين القوط.

«ملكاً» اعترض قائلاً: «إن الملك يحكم بما أوتي من سلطة، لكن القاضي يحكم بما أوتي من حكمة». وبعدما تخلّت روما عن فكرة الحكم المباشر راحت تعامل القوط الغربيين معاملة الشركاء التجاريين، مثمّنة توريد الأرقاء والحبوب والنبيذ والقماش والمسكوكات المعدنية. وقد كان بعضهم من المسيحيين. وقبل جيل من وصول الهون كان أسقف يوناني يدعى أولفيلاس قد وضع أبجدية للّغة القوطية، وأنجز ترجمة للكتاب المقدس، لكن المسيحية لم تتمكّن من الظفر بـ«القاضي» أو سواه من الأرستقراطيين الذين كانوا يحرصون على الحفاظ على معتقداتهم الخاصة بهم (أي: وعيهم الجوهري بهويتهم) في مواجهة الإمبريالية [أو الهيمنة، م] الثقافية الجديدة التي تتدفّق من القسطنطينية. وبعدما اعترف فالنس باستقلال القوط الغربيين بزعامة أثاناريك في عام 369م بدا أن ذلك عاد بالفائدة على كل منهما؛ فقد أقام اتفاقهما صلاتٍ تجاريةً متبادلة، واحتراماً متبادلاً بين الجانبين، ودولة عازلة لروما في مواجهة جحافل البرابرة من آسيا الداخلية، وأطلق لأثاناريك حرية القيام بكل ما يحلو له من دون أن يخشى تدخّل القوى العظمى، وجلّ ما كان يرغب به أن يضع حداً للمسيحية. وذلك أمرٌ تمكّن من تحقيقه عن طريق ممارسة الطقوس الشريرة، معيداً بذلك فرض الديانة القوطية القديمة التي (كما نوه المؤرخ تاكيتوس) كانت تتمحور حول الإلهة الأم - الأرض، نرتوس. وقام الموظفون لدى أثاناريك بنقل تمثال لهذه الإلهة بعربة إلى خيام معتنقي الديانة المسيحية، وأمروهم بالارتداد عن دينهم وعبادة ذلك الصنم تحت طائلة الموت. وقد آثر جلّهم العيش - على ما يبدو - باستثناء شخص متعصّب يدعى سابا حيث مضى على درب الشهادة. وقد أعلنوا أنه أحمق، وطُردوه من قريته، فقام بتوبيخ أبناء قبيلته على نحو ساخر إلى أن ألقوا به في النهر وجعلوه يغرق عبر دفعه إلى الأسفل بوساطة قطعة من الخشب. وأصبح - كما كان يتمنى - أول قدّيس قوطي.

كانت مقاومة روما والديانة المسيحية ممكنة آنذاك؛ بيد أنه لا سبيل لمقاومة الهون الزاحفين. لقد حاول أثاناريك ذلك، فأقام خطاً دفاعياً على طول نهر دنيستر، لكن تم تجنّبه بسهولة حينما تجاهل الهون الجيشَ القوطي، وعبروا ذلك النهر ليلاً، وشنوا هجوماً مباغتاً على القوط من المؤخرة. وبعد تقهقر متعجّل عبر مولدوفا في الوقت الحاضر شرع القوط ببناء سور على طول حدود مولدوفا ونهر بروت. وفي هذه المرحلة انهارت معنويات القوط، فاندفعوا نحو تراقيا من خلال نهر الدانوب إيذاناً ببداية سلسلة الأحداث التي أدّت إلى نشوب موقعة أدريانوبل.

ومن ورائهم أخذ أسلاف أتيلا المباشرون يتقدّمون من الأراضي الأوكرانية المنخفضة، قاطعين مسافة خمسة وسبعين كيلومتراً فوق منطقة الكاربات، وسلكوا الطريق القائمة على مرتفع

والمليئة بالالتفافات والمنعطفات التي تربط كولوميجا بحديقة كاربات الوطنية الطبيعية. وكانت تلك الطريق التي يسلكها الغزاة عادةً، واستخدمها المغول من جديد بعد قرابة ألف عام. وتستطيع أن تتسلّق بيسر تسعمئة وواحداً وثلاثين متراً (3072 قدماً) فوق ممرّ يابلونيتسيا (الملائم للتزلج في فصل الشتاء، والتنزه في فصل الصيف)، ومن ثم زيارة الحدود الرومانية، وبعد أن تترك مرتفعات ترانسلفانيا عن يسارك اسلك الطريق الملتوية والضيقة على طول نهر تيسا فوق المراعي الهنغارية.

وقد انتشرت في هذه البقعة عربات القطار وقطعان الماشية في حوض الكاربات مثلما عادت المهارات القديمة الرعوية والقتالية إلى البروز.

3

عودة الفارس رامي السهام

«إنهم قوم وضيعون، وقبيحون، ومنحطون» تلك هي كلمات أميانوس، كتبها من داخل الإمبراطورية الرومانية التي تعدّ في عينيه وعيون قرّائه ذروة الحضارة، فلا عجب إن كان متحاملاً شديد التعصب. والحق أنه كان يصف في تلك الأقوال أقوى الأعداء الذين استهدفوا الإمبراطورية، لكن يجب علينا أن ندع التعصب جانباً بفضل ما نتمتّع به من أمن وما يتوافر لنا من قدرة على النظر إلى الأمور بعد انقضاء عهد طويل عليها، وأن نظهر بعض الاحترام ونسعى لاستيعاب الأسباب التي جعلت قوم أتيلا يمتلكون هذا التأثير.

تعتمد قوتهم على أربعة عناصر:

* مهارة قديمة يتحلى بها الفارس رامي السهام[1].

* أنموذج جديد لسلاح قديم، هو القوس المنحني إلى الوراء.

* أسلوب تكتيكي جديد.

* القيادة.

سيكون الإنسان ذاته موضوع الفصول اللاحقة. وما يعنينا الآن المواد الأولية التي يتعامل بها؛ أي المهارات التي يتمتّع بها البدو الرعاة راكبو الخيل المسلّحون بالأقواس وما لديهم من طموح. أمّا الفارس رامي السهام فكان الأسلوب الحربي الذي قُدّر له أن يجعل حضارات المدن رهينةً في منطقة أوراسيا [الأوروبية - الآسيوية] كلّها طوال معظم حقبة تمتدّ ألفي سنة، حتى أطاح البارود بالفارس رامي السهام من فوق ظهر الحصان، وأخمد ذكره في التاريخ، كما قضى على المحارب الياباني الساموراي، والرامح السويسري. وما هو إلاّ حين حتى انهارت في وقت قصير المهارات التي تميَّز بها البدو المحاربون من منشوريا حتى السهوب الروسية، وانحسر استخدامها وكادت تمحى من الذاكرة، ولم تبقَ إلاّ لدى من كانوا هدفاً لوابل من سهام البدو، وكذلك في عقول الاستراتيجيين الجالسين في مقاعدهم الوثيرة. ونذكر هنا أن الفرسان رماة السهام أنفسهم لم يخلّفوا وراءهم مخطوطات تدلّنا على فنِّهم في القتال. وليس هناك بعد تلاشيهم من لديه شيء من العلم بأصول وفروع أسلوب رمي السهام من على ظهر الحصان؛ أي كيفية سحب السهام من الكنانة، ثم وضعها في القوس وإطلاقها مرة بعد مرة، بينما يمتطي الفارس صهوة حصان يجري

(1) وهي مهارة تجعله بارعاً في رمي السهام وهو ممتط جواده الذي يعدو بسرعة كبيرة، (المترجم).

بسرعة، ناهيكم عن تنفيذ هذه العمليات ضمن تشكيل، وما من أحد جرب القيام بهذا.

كانت هذه هي الحال حتى الآن، لكن الفارس رامي السهام قد عاد ثانية وجلب معه فهماً جديداً للأساليب التي اتُّبعت ليكسب هؤلاء الفرسان تفوّقهم في هذا المضمار، الأمر يقتضي توافر ما هو أكثر من مجرد مهارة. فلقد كان البدو الرعاة الأوراسيون فرساناً ورماة أفذاذاً بالقوس، ولا أحد يمكن أن يضارع الهون وقدراتهم على التدمير، بل إن فنّ القيادة في حدّ ذاته لا يكفي لتفسير نجاح الهون. لقد كان أتيلا يتمتّع بشيءٍ ما إضافي يُظهر انتصاراته، شيء ما يتّسم به الهون، ومع إحياء الفارس رامي السهام أصبح من الممكن تعيين هذا العنصر السحري.

يعود الفضل في إحياء تلك المهارة القديمة إلى رجل واحد فحسب، هو لايوش كوشاي، وأعتقد بأنه أول فارس حقيقيّ رام للسهام في أوروبا منذ انسحاب المغول في عام 1242م، فقد انسحب المغول من هنغاريا، وكانت قاعدة أتيلا في هنغاريا أيضاً، وهذا ينسجم مع كون كوشاي هنغارياً، ويتّفق مع كون المركز الذي انطلق منه كوشاي لا يبعد إلاّ مسيرة يوم واحد على ظهور الجياد عن خطوط تقدّم المغول والمكان الذي اتّخذه أتيلا مقراً لقيادته في القرن الخامس.

وما سيلي ذلك القصة التي تروي حكاية العمل الذي كرّس له حياته، وعليك في غضون ذلك أن تتابع التضافر الوثيق بين المهارة والرشاقة والعراقة والإخلاص والثقة بالنفس. وهذا ما يقدّمه الآن الفارس رامي السهام من فوق صهوة الحصان، وما قدمه الهون ذات يوم. ويجعل كوشاي من حديثه عن تقمصه لأتيلا مجالاً لإطلاق النكات؛ فيقول «أشعر بأنني ولدت في القرن العشرين بفعل خطأ إداري»، لكنّ الأمر كلّه ليس مزاحاً إن كان أتيلا الشاب وليس الملك أتيلا هو موضوع حديثنا.

كنت قد سمعت بكوشاي لأنه لا بد من أن يأتي على ذكره كلّ من يُلمّ بشيء عن الهون والفارس رامي السهام، ولو كنت في عالم الجياد والأقواس لسمعت به في كولورادو أو برلين. لكن ما حدث أنّني سمعت بهذا الاسم لأول مرّة من العاملين في متحف فيينا، وفي بلدة غيور شمال هنغاريا، ومن أحد عشّاق الجياد الأندلسية في شمال هنغاريا أيضاً، وكان على علمٍ بأن كوشاي سيستعرض مهاراته قريباً في إحدى المناسبات الرياضية في بودابست.

كوشاي لايوش: إن وضعت اسم العائلة ثانياً، على نهج الهنغار، فسيكون اسمه (كوش – آي) (Cosh- eye) (لاه – يوش) (Lah- yosh)؛ حيث إنّ الإيقاع وصوت الشين (Sh) اللطيف يجعلان الاسم يتحوّل إلى شعر، وعندها أصبح هذا الرجل هاجساً لديّ يستحوذ على تفكيري.

لقد التقيته مع المترجمة أندريا تسيغيدي في جزيرة مارغريت وسط الدانوب، وقد كان يرتدي يومئذ زياً بسيطاً ملفوفاً حوله على النمط البدوي، فبدا كأنه أحد الهون وقد بُعث من جديد، وكان معه ثلاثة مساعدين يبيعون أقواساً من صُنعه، فسألناه إن كانت لديه فرصة لتبادل الحديث معنا؟ فلم نحظَ منه إلاّ بهزة من رأسه، وكان هذا كلّ الحديث، من دون أن يفترّ ثغره عن ابتسامة واحدة. وفي خيمة الاستراحة مضى الرجل يحدّق فيّ بنظرة ثابتة من عينيه الزرقاوين في وجه خلا من التعبير. وكنت في تلك الأثناء غير واثق بنفسي، إذ إنني لم أكن أعرف شيئاً عن الفرسان رماة السهام عن ظهر الحصان، أو كم لدينا من الوقت، وما إذا كنت سألقاه ثانية. لربّما حاول أن يهدئ من اضطرابي ببعض العبارات اللبقة، لكني ظللت مضطرباً، ولم يفلح شيء في تهدئتي، بل ازددت قلقاً واضطراباً حين حاولت الحصول على بعض الإجابات الدقيقة عن طريق استقصاء المصادر.

ومن ذلك التساؤل عن مصدر اهتمامه بالفارس رامي السهام؟

فأجاب بلغة إنكليزية عرجاء، وهو يثبتني بنظرة حادة: «ذلك يعتمل في داخلي فماذا تعني؟!»

«إنه سؤال عن سبب هذا الاهتمام فحسب».

وحوّل عندئذ نظره نحو آندي، ومضى يتحدّث بالهنغارية بذات القدر من الجفاف: «إن مصدره في أعماقي، إنه أمر لا أستطيع إلاّ القيام به.. هذا كل ما في الموضوع».

«أأفهم أن اهتمام الآخرين آخذ بالتعاظم والازدياد؟!»

«إنهم يأتون من كافة أرجاء العالم من الولايات المتحدة، وكندا، ليتعلّموا».

«وما الذي يحمل الناس على الإعجاب به؟».

«إن عجزت عن بيان سبب انشغالي به فكيف لي عندئذ أن أبين لك سبب شغفهم».

لقد أدركت سبب نفاذ صبره مني، فأنا غريب، والأسئلة غبية، ثم إن تركيزه القوي لم يكن عليّ، بل على ما يعتزم القيام به، وما يتطلّبه ذلك من مشاقّ بدنية وضغوط نفسية. فكان الأمر أشبه بالاحتكاك بلاعب كرة المضرب قبيل بدء بطولة ويمبلدون النهائية والتوقّع بأن يقوم بتقديم إجابات عن القضايا العميقة في لعبة كرة المضرب. فضلاً عن أن ثمة أكثر من ذلك يأخذ مجراه، وكنت أشد انشغالاً بآلة التصوير والمسجلة من أن ألحظه. وجدير بالذكر أنّ آندي كانت طالبة ذات شعر قصير تدرس الطب في ذلك الحين، وتجيد ركوب الخيل، وطويلة القامة، ورشيقة

رشاقة الفرس الأصيلة، ومتمكّنة من قيادة الجياد بصورة احترافية لا يمكن الشك فيها، أو هكذا اعتقدت للحظة، إلى أن تحدّثت لاحقاً عن الانطباع الذي خلّفه لديها.

«حقاً! إنه قد يبدو رهيباً، لكنّ مزاجه تبدّل في لحظة، ولديه ابتسامة محببة، ويتمتع بحسّ الدعابة حقاً، إنه مسلّ، ويطلق الشتائم والعبارات البذيئة مثل التي نتداولها في أحاديثنا الجارية، وكان يبدو أحياناً...». كانت آندي تقود السيارة على طريق منبسط مستقيم في سهل هنغاريا الكبير (بوزستا)، إلاّ أنَّ عقلها لم يكن يركّز على المراعي، وقالت وهي تحدثني: «لدينا تعبير يقول: حين ينظر إليك شخصٌ ما بمثل نظرته تلك فيمكنه رؤية عظامك، وهذا ما شعرت به حينئذ حين نظر إليّ وسألني سؤالاً بسيطاً حقاً، وكان عليّ أن أقدح زناد الفكر وأتمعّن بالسؤال؛ لأنه كان ينظر عميقاً في عيني.. إنه رجل خارق حقاً». ثم تابعت: «إنه حقاً كذلك».

كان جليّاً أن لدى كوشاي أكثر من استجابات مفككة مبعثرة صادفتني في أثناء تلك المقابلة فحسب، وهذا تطلّب مقابلة أخرى، ومزيداً من الحديث، وملاحظات تدل على الاحترام لأتمكّن من إدراك أن موضوع الفارس رامي السهام كان العمل الذي كرّس له حياته. ويمكن أن يستغرق شرح هذا العمل لي عدة أسابيع، لكن من الجيد أنه كان قد انصرف منذ زمن لكتابة سيرته الذاتية، وقد صدرت في كتاب «Horseback Archery» (الرماية من فوق ظهر الحصان). لكن حتى هذا الكتاب لم يروِ إلاّ نصف القصة. وأمّا النصف الآخر فيظهر في العمل، والتعليم، والالتزام الذي يوليه الآخرون له. والواقع أنه لا يمكنك أن تفهمه حقاً إلاّ في العمل، ولا يمكنك فهم ما يتطلّبه أن تكون فارساً رامياً للسهام إلاّ إذا مارسته أنتَ وأصبحت من أهل هذا الفن.

لقد كان فارسنا رجلاً يتّفق نهجه في الحياة مع ما يشعر بأنه قدره، ومن هذه الحال تتدفق ثقة بالنفس صلبة كالفولاذ، وشعور راسخ قوي كالصخرة بالهوية والهدف، وهذا يصعب نيله في عالم يراه مأخوذاً بالتغيير والنمو والتجديد والمطامح التي ما إن تدركها حتى يتحتّم عليك إبدالها بمطامح أخرى جديدة. ولقد سمع كوشاي الدعوة شأنه شأن الراهب، فاتبعها وبلغ مراده، لكنه بخلاف الراهب لم يجد طريقه وهدفه بإتباع تعاليم مدرسة أو منظمة أو معلم؛ إذ حصل عليها كلها لوحده، وقد تضمّنت الجمع الفذّ بين العمل البدني والذهني، ويتجلّى في شخصيّته شيء من المحارب الراهب «الزن» الذي يحقّق في ذاته توازناً داخلياً يشحذ مهاراته القتالية، إلاّ أنه كان عليه أن يصبح معلم نفسه، ويبتدع عقيدته الخاصة إذا جاز التعبير، وقد استغرق ذلك منه عشرين عاماً.

وعدت أسأل من جديد: لماذا؟ فيجيب إنه لم يكن لديه خيار في الأمر، وكأنما الجمع بين

الفروسية والرماية كان في جيناته الوراثية، ولكن الأمر ليس كذلك بالتأكيد؛ لأن مهارات الفارس الرامي لم تكن قديمة جداً بحيث تتسرّب إلى الشيفرة الوراثية. بل إن جذور هذه المهارات لا توجد في طبيعة البدو، بل يتطبّعون بها، إذ إنهم يكتسبونها منذ الطفولة، وتتكامل لديهم على مدى عقود من الزمان. لكن لم تكن لدى كوشاي تلك المزية، فقد نشأ في عالم من المزارعين الذين يعملون في مزارع جماعية وأهالي المدن وعمال المصانع، ولكن لعله عرف في أثناء طفولته نوعاً آخر من التطبّع، حاجةً لا واعية للهرب من القمع الذي فرضته الثورة المضادة المدعومة من السوفييت؛ أي حثالة الشيوعية.

كان المهرب في مخيلته، وقد أطلقتها في طفولته رواية للكاتب غيزا غاردونيه تدور حول الهون؛ اسمها «الرجل الخفي»، حيث تعرض هذه الرواية قصة عبد تراقي يدعى زيتا يرحل إلى بلاط أتيلا برفقة موظف يوناني يدعى بريسكوس (وسيكون الرجل الخفي ذاته موضوع فصل خاص لاحقاً، وهو راوي الرحلة التي جرت في عام 449 بوصفه شاهد عيان). يخوض زيتا مغامرات عديدة، ثم يقع في هوى فتاة من الهون متقلّبة المزاج، ويرفض فتاة أخرى تظلّ على هواه على الرغم من رفضه لها، ثم يخوض المعارك إلى جانب أتيلا في حملاته، ويشهد المعركة الكبرى التي دارت في سهول كتالونيا، ويحضر دفن أتيلا، ثم يفرّ في النهاية إلى برّ الأمان ومعه الفتاة التي يقتنع أخيراً بأنها حبّه الحقيقي. لكنّ الموضوع برمّته ورد بصورة مبالغ فيها وتستدعي كثيراً من علامات التعجب، بيد أن القصة جيدة للصغار، وتسهل قراءتها لسرعة تعاقب أحداثها وحيويتها، وقد استحقّت الشهرة التي حازتها في هنغاريا. وما تزال تظهر في طبعات عديدة منذ نشرها في عام 1902، وتظهر بذلك شيوع الإعجاب بأتيلا، والاعتقاد بأنّ الهون هم السلف الحقّ للهنغار، ولا ينال من هذا الاعتقاد معرفتهم أنّ السلف الحقيقيّين لهم وردوا إلى هذه المنطقة باسم المجر بعد ما يزيد على الأربعمئة عام.

وهاكم نصوصاً من الرواية التي ترجمت إلى الإنكليزية، وصدرت لسوء الحظ بعنوان «عبد الهون»، وتصف تلك الجحافل التي قادها أتيلا في أثناء استعدادها للتقدم غرباً بلغة تحفل بعبارات قاتمة تغلب عليها المبالغة:

«كان الفتيان يتدرّبون في حشود عظيمة في البراري، وكانت الأبواق تُصدر الإشارات للجنود: النغمة الطويلة المنخفضة تعني التقهقر؛ أما النغمتان الطويلتان المرتفعتان فمعناهما تغيير كامل ومفاجئ في الاتجاه في أثناء الجري ورمي السهام. كانت هذه مناورة لم أتمكن من إتقانها قط،

أما الهون فكانوا يتدرّبون لإتقانها منذ نعومة أظفارهم؛ فكانوا يَبدون كأنهم يسبحون في الهواء فوق الجياد التي تعدو كالبرق الخاطف. ثم يستدير الفرسان وهم في وضع الانبطاح ويأخذون في إطلاق السهام من الخلف بعيداً، بل إن بعضهم كانوا يرمون وهم مستلقون على ظهورهم».

ظلّت جموع الهون تتقاطر إلى المنطقة طوال أسابيع، الآلان برماحهم الخفيفة، والنوبيون بأزيائهم من جلد الذئاب، والبلميون ذوو اللحى المرسلة، والغيلونيون الذين طلوا أنفسهم بالألوان وتسلّحوا بالمنجل، وعربات الباستارناي ذات الهدير، والأكاتيري بأقواسهم التي تصل إلى نصف طول قاماتهم، والسكيريون الشرسون ذوو العظام الثخينة، والهيرول والكفاد والقوط الشرقيون وهلم جراً حتى يستغرق التعداد صفحات وصفحات..

عشرة آلاف هنا، وعشرون ألفاً هناك، وخمسون ألفاً من الإيزجس، وثمانون ألفاً من الجيبيداي، وستون ألفاً من القوط.. وظللنا نعدهم طوال أسبوع بناء على الثقة بكلام قادتهم في عدد الرجال هناك، فلما تجاوز العدد نصف المليون توقّفنا عن العدّ. ومازلت لا أدري إلى اليوم كم من الرجال احتشدوا هناك... لابد من أن العدد تجاوز المليون حصان وعشرات الآلاف من العربات!

تلك الموضوعات شديدة الوقع في نفس فتى يتوق للمغامرة والحرية، ويسعده أن يمضي مع مبالغات روائي، فيقول كوشاي: «أجل، كان أجدادنا الهون أعظم من امتطى ظهور الخيول من رماة السهام». ويتابع: «كنت أتخيّل الجياد تجري بسرعة والزبد يخرج من أشداقها، وأوتار الأقواس تشد.. ياللروعة! لقد كنت أطمح للتشبه بهم، فأصبح محارباً مخيفاً لا يهاب شيئاً».

كانت خطوته الأولى أن يصبح من رماة السهام، وقد دأب على صنع الأقواس بالجملة في صغره، ثم حين غدا شاباً فتياً يعيش قرب كابوسفار التي تبعد 40 كيلومتراً جنوب بحيرة بالتون، وكان يجمع المعلومات ويُراكم الخبرة. فجرّب أنواعاً مختلفة من الخشب من أجل معرفة متانتها، وسرعة استجابتها، وأفضل السبل لتقوية الأوتار (على ظهر القوس ليقاوم الشد)، وقطع القرون (على بطن القوس لمقاومة الضغط)، ووزن السهام، وصلابة النصال لزيادة قوة الاختراق لديها.. فأصبح رامياً متمكّناً، واكتسب القدرة على الإطلاق السريع أيضاً[1]، وهذا أمر صعب الأداء في حدّ

---

(1) كان سيليستينو بوليتي الايطالي أحد أصدقاء كوشاي قد أرسى تقليداً ومضى به إلى أقصاه باستخدام أحد أقواس كوشاي، وقد فاز بالرقم القياسي العالمي بأن أطلق ما وسعه من السهام في 24 ساعة. ولعلّ هذا أحد أشدّ إنجازات الإنسان جنوناً. وتجلى بأن أخذ يطلق سهماً كل 5 ثوان، فأطلق 11 سهماً في الدقيقة، و 700 سهماً في الساعة، فبلغ مجموع ما أطلقه 17 ألف سهم.

ذاته، فلا بد من أن تتحوّل عضلات وأعصاب الزند والكتف كلّها إلى فولاذ. ولا بد كذلك من أن تعتاد الأصابع الثلاثة من اليد التي تطلق السهام على الكشط الذي لا ينقطع به الوتر عند إنزاله باليد في أثناء شد وتر القوس؛ لأنه في خضمّ المعركة لا يمكن للفرسان الرماة استخدام العروة الجلدية التي يستخدمها الرماة العصريون أو محبس الإبهام الذي صار الترك يستخدمونه لاحقاً، فإذا كنت قد تدرّبت منذ صغرك غدت أصابعك متكيّفة مع مستلزمات الرمي، وأصبح جلدها جاسئاً، واكتسب الصلابة، إلاّ أنّ كوشاي لم يكن يتمتّع بهذه المزيّة؛ فكان يلفّ أصابعه بشريط.

لكن هذا كله كان مجرد رمي بالقوس والسهام، فهو لم يكن قد ركب جواداً بعد، ولم يتلقّ إلاّ بضعة دروس أولية في الفروسية، لكنه أدرك أنه ليس ثمة من يستطيع أن يعلّمه ركوب الخيل مثل البدوي، والمكان الوحيد عملياً الذي يمكن تلقّي التدريب فيه حالياً إنما هو منغوليا، حيث يُربَط الأطفال أبناء الثالثة إلى سرج الحصان حتى يتّحد الاثنان معاً. لكن فيما يتّصل بكوشاي فقد فات الأوان، ومنغوليا مكان بعيد جداً عنه، ولما كان راشداً الآن فقد بات عليه أن يدرّب نفسه بنفسه. وكان ذلك عين ما فعله في العشرينيات من عمره بمساعدة مخلوق [حصان، م] مفعم بالحيوية أطلق عليه اسم برانكيش، وقد قام هذا بتعميده بالنار؛ إذ رماه حين كان يجري به بسرعة تحت أغصان منخفضة، وصار يجرّه على الأرض وهو معلّق بالركاب، ثم أوقعه في الطين. وقد وصف تجربته بقوله: «كانت المرة الوحيدة التي أحسست بالريف حين وجدت رأسي مدفوناً فيه!».

وفي أحد الأيام انتهى الجري السريع عند أسفل تل شاهق شديد الانحدار، وقد توقف برانكيش عندها، وفي هدوء غير متوقّع راح كوشاي يتلفت حوله، فوجد نفسه في واد سحيق غير نافذ، وجوانبه الشاهقة مرتفعة جداً وقريبة حتى بدا له أنه يمكنه لمسها إذا مدّ ذراعه. شعر عندئذ كأنه اكتشف مكانه في العالم: «مكان بوسعي فيه قبول الوحدة العذبة في منفى اختياري (بعبارات انفعالية حتى عند الترجمة) يمكنني أن أتراجع من القرن الصاخب هذا، وأظهر مقدرتي على الرمي من فوق ظهر الحصان، حتى أصل بها إلى الإتقان التام».

لم يكن ذاك بالمكان الذي يسهل العيش أو الركوب فيه بسبب كثافة الغابة، إضافة إلى أن مساحاته المكشوفة قد غطتها الأعشاب الضارة، كما أنّ أخفض منطقة فيه كانت خليطاً من الطين والقصب. كانت هذه البقعة ملحقةً بمزرعة للدولة، إلاّ أنها لم تكن صالحة للزراعة، وهكذا استأجر 15 هكتاراً وراح يستصلحها لتكون ملائمة للفروسية والرمي.

كانت هذه العملية طويلة بطيئة، لكنّ وادياً مثل هذا حيث تسود الطبيعة كان يستحق الاحترام

بفضل كيانه المستقل. وقد يستطيع المرء أن يكون لوقت قصير صديقاً لهذا الوجود الأرضي، لكن يتعيّن عليه عدم إلحاق ضرر دائم به، وعليه أن يهتمّ بالرياح والمياه والنباتات وتحركات الحيوان والبشر. كيف تهبّ الرياح في الأسفل حول محيط التلال؟ وفي أي اتجاه تتدفق المياه؟ وماذا يحدث إن هطلت الأمطار غزيرة أو في حال حدوث جفاف طويل؟ وأين يذوب الثلج أولاً وآخراً؟ وفي أي اتجاه تمضي الجياد عندئذ، وأين يطيب لها أن تستلقي؟ وأين ترعى في النهار، وفي الليل؟ وحين يأتي الناس أين يتوقّفون عفوياً ليحادث بعضهم بعضاً أو لإشعال النار؟ وعلى نحو خاص: أين يحلو لهم الرمي؟.. لقد استغرق الرجل أربعة أعوام ليحيط بهذه الأمور كلها، ومعرفة رائحة المراعي عند تغيّر المواسم وتحسّس كل تلّ وكل سبخة، وأفضل السبل لتحقيق حلمه.

لقد كان عليه أن يكتشف كل شيء عن هذه المهارة القديمة المنسيّة ويبعثها من جديد، وقد وفرت له الأرض مضماراً طبيعياً بطول 90 متراً، وعلى امتداده توضع الأهداف. قام عندئذ بشراء دابة ثانية كانت فرساً عرجاء بائسة أنقذها من مسلخ يتاجر بالخيول البائسة، ولذلك كانت زهيدة الثمن. بعد شهور من العناية والرعاية الفائقة صارت بيلا - وهذا اسمها - رشيقة حساسة راقية الطباع. ومعها اكتشف كوشاي كيف يجعل الفرس تعتاد اللجام والسرج مما يوحي للفرس بأثر الفارس الرامي. لقد أخذت بيلا تعتاد العدو المتوازن على امتداد المضمار، ثم تكرّر التدريب من دون لجام، وتقبّلت بعدئذ الضجيج والشعور بالعصيّ والأشرطة والجعب والكرات التي يلوّح بها وتُرمى من فوق رأسها حتى أصبحت أخيراً مهيّأة لسماع صوت رنين القوس وأزيز السهم والشعور بوجود فارس يرمي مرة بعد مرة، دونما شيء يشير إلى الاستدارة أو تغير الخطوة إلاّ حركات الرجلين وانتقال ثقل الجسم إلى الأمام والخلف.

لقد كانت أول خبرة بالرمي من فوق ظهر الحصان كشفاً، وكان هدفه عندئذ تسديد السهام إلى كيس من القش، لكنه حتى حين كان قادراً على الجري ولم يتجاوز الهدف إلا بمترين أو ثلاثة أمتار لم يتمكن إلا من تسديد سهم واحد في كل ممرّ من دون أن يصيب أيّ هدف. وقد وجد أن من المستحيل عليه تقريباً القيام بالعمل الأشهر الذي يُعرف به الفرسان الرماة، ألا وهو «الرمية البارثية» (Parthian Shot) من فوق الكتف، وسميت كذلك نسبة إلى البارثيين. ثم جرى تشويه الكلمة في اللغة الإنكليزية فأصبحت «رمية الافتراق» (Parting Shot)، وأخذ يتدرّب لعدة أسابيع، ويجري بالفرس ما بين خمس عشرة وعشرين مرّة في اليوم. كانت بيلا تزداد قوة فوق قوة، ومع أنه صار الآن خبيراً بالرمي، وله رصيد من الجوائز في المسابقات، إلاّ أنه ظلّ في حالة من

اليأس لا ينفع معها رجاء. وبدا له أنه ليس هناك من وسيلة للتغلب على مجموعة من الحركات كالاندفاع والقفز في أثناء العدو بسرعة، وصدمة الحوافز واندفاعة جسده وخبط الذراعين في استجابة آلية. كما أنه من المستحيل التسديد ثم الرمي بدقة، ناهيكم عن إعادة التلقيم للتسديد والرمي مرة ثانية.

كاد أن يبلغ حدّ اليأس، إذ ثمة شيء ما يستعصي عليه إدراكه، شيء ما كان أتيلا وكل محارب من الهون، وكل فارس رامٍ منذ أقدم الأزمان قد تعلّمه في وقت متأخر من طفولته، فأصبح جزءاً منه، حتى إنه لا يذكر للغرباء القلائل الذين دوّنوا تلك التقاليد التي يتبعونها. وقد جعلته تلك الحالة ينقطع عن ركوب الخيل، لكنه لم ينقطع عن الحلم قط، بل استمرّ في البحث عن جوهر المهارة التي سعى إلى امتلاكها، وهو الفنّ الهمجي المخفيّ بغيمة الحضارة.

انكفأ كوشاي إلى الداخل. وامتنع عن متابعة الجهد الذي يحكم الرمي بالقوس والسهام كما تحدّده المعايير التي تركّز على الدقة، ذلك الدرب الذي يعتمد على أجهزة حفظ التوازن والتسديد في الرياضة القائمة على التنافس. ولاحظ أن التكنولوجيا والعقل لم يوفّرا الطريق إلى تلك الأهداف، فالتفت عندئذ عوضاً عن ذلك إلى نهج «الزن» في الرماية الذي يعتمد على الانسجام الداخلي لتحقيق النجاح ببذل أقل جهد، وهذا في جوهره الأسلوب ذاته الذي يتعلّم به الطفل ركوب دراجة، أو «التركيز المسترخي» الذي يمكّن رياضياً من تسجيل أرقام قياسية بيُسرٍ شديد في رمي الرمح أو القفز العالي أو القفز بالزانة.

لقد عاد كوشاي إلى الأساسيات؛ أي الحصان والفارس، فتخلى عن سرجه ليمتطي صهوة الحصان بلا سرج، وكان ذلك رغبة منه في تحسّس جسم الحصان وعضلاته وعرقه وطريقته في التنفس لكي يتّحد معه، فأصبح الألم نهجه في الحياة، ولطالما ظلّ يسقط عن ظهر الحصان. واستمر يخالط بولَه دمٌ طوال أسابيع بسبب قوة ارتطام مقعده بظهر الحصان. وقد تعلم الدرس التالي الذي هو أن الألم والمعاناة أمران مختلفان. وهذه لم تكن معاناة؛ لأن هذا الأمر لم يفرض عليه، وكانت له الحرية في أن يواجه مزيداً من الألم، وهو يعلم علم اليقين أنه كان يحقق بذلك تقدماً. فالجروح تندمل سريعاً - كما يقول - وبوسعنا أن نتابع دربنا لمواجهة العقبة التالية، ونتحرك دوماً باتجاه المقاومة الأعظم. فلقد شاء ركوب هذا الدرب كما شاء القساوسة ذات يوم اختيار القمصان المنسوجة من الشعر وضرب أنفسهم بالسياط، فكان ذلك يملأه ابتهاجاً بقرب الخلاص. أكان هذا هاجساً وشيئاً من الجنون؟! ربما كان الأمر كذلك، فلقد كان يرحّب بالجنون!

بسبب هذا الجنون تحدّدت سلامة العقل، وجاء النجاح. فقد تعلّم أن يفصل بين جزئي الجسم الأعلى والأسفل، تخيل كذلك المسار الذي شقّته يده اليسرى في الهواء حتى وصل إلى أنه إذا حمل كأساً من الماء بهذه اليد يستطيع أن يبقيها ثابتة بينما يكون ممتطياً حصاناً بلا سرج يجري بسرعة. وقد اشترى مزيداً من الجياد وأخذ يتدرب عليها جميعها ويختبرها في أسوأ الشروط: تحت المطر، وفي الطين، والثلج، والأرض المتجمدة..، وراح يتدرّب على وجه الخصوص على الرمية «البارثية» أو «رمية الافتراق»؛ أي الرمي من فوق الكتف، والحفاظ على الخصر مندفعاً إلى الأمام بينما يستدير الجسم 180 درجة. وحين بلغ هذه الحالة تحوّل إلى القنطور الأسطوري الذي نصفه فرس ونصفه رجل، وقد اختلقه الإغريق ليكون رمزاً للفارس الرامي من السكيث.

وكان يعمل في الوقت ذاته على تطوير أساليبه في الرمي لتقارب الكمال، وقد واجه عقبة كبرى نجمت عن ضرورة رمي السهام بالتتالي؛ أي واحداً بعد آخر، بسرعة. وذلك أمر لا يمكن للرامي العادي الذي لا يمتطي جواداً أن يقوم به قط، وكذلك لا يمكن حتى للخبير أن يتحسّس الطريق إلى إعادة تلقيم القوس، إذ إن للسهم قطعة معدنية ملتصقة بنهايته تدخل في حيز معين في وتر القوس، وذلك يستغرق - كما يعلم كل هاو ثوان عديدة وتحرّكات كثيرة لتلقيم السهم؛ فتخفض القوس وتجعله مستقيماً مسطحاً، ثم تمسك بالكنانة وتخرج منها سهماً وتوجهه الوجهة السليمة حسبما تشير إليه الريشة الموجهة بعيداً عن الوتر، وتدخل القطعة المعدنية في الوتر، وتجعل رؤوس أصابعك الثلاث تلتف حول الوتر، وتلتقط السهم بين الإبهام والسبابة وتثبته في مكانه من القوس، ثم ترفع القوس وتشد الوتر وتعيد تركيز انتباهك على الهدف البعيد، ثم تطلق السهم في النهاية. ربما تستغرق هذه العملية نصف دقيقة، ولعلها تعادل المدة التي تستغرقها في قراءة هذه التعليمات.

احتاج كوشاي إلى شهور وكثير من التجارب ليتمكّن من معرفة السبيل إلى إطلاق السهم بسرعة. لكن لننسَ في البداية الكنانة، فما هذه إلا جعبة وُجِدت لاحتواء السهام؛ إذ إن هذه الجعبة ليست مخصصة للسهام التي أنت على وشك إطلاقها، وهي مزعجة لأنّها تؤدي إلى البطء الشديد في إعادة التلقيم، حيث عليك أن تمدّ يدك إلى خاصرتك أو كتفك في الأعلى لتسحب سهماً من كنانتك.

هاكم كيف يجري العمل: التقط مجموعة من السهام بيسراك وضعها قبالة القوس، واحرص على أن تنشرها مثل مجموعة من أوراق اللعب، ثم مدّ يدك بين الوتر والقوس، والتقط سهماً

بإصبعين مثنيين بحيث يشكلان دعامتين على أي من الجانبين. ضع الإبهام على نحو صحيح، ثم اجذب السهم إلى الوراء بحيث ينزلق الوتر على طول الإبهام بصورة مستقيمة فتدخل فيه القطعة المعدنية التي في نهاية السهم، وعليك أن تشدّ بينما ترفع القوس، وكل ذلك في مجموعة واحدة من الحركات الانسيابية. لكن هذه كلمات فحسب، أمّا التطبيق فيعني القيام بحركات حاسمة ودقيقة ومنسابة مثل التعلّم وفق أسلوب بريل للمكفوفين (كأن تتحقق بوساطة الإبهام أن القطعة المعدنية في السهم موجهة على النحو السليم لتدخل في الشق الصغير في الوتر، وليس بوسعك أن تتحسّس هذا الشق الصغير ما لم تكن قد تدرّبت على ذلك، ناهيكم عن القيام بأي تصحيح، والقيام بذلك والحصان يركض). كان بوسعه بعد عام من التدريب أن يطلق ثلاثة سهام في ست ثوان.

قل ذلك بصوت عالٍ ثلاث مرات بسرعة! ذلك هو ما يستغرقه التلقيم وإطلاق ثلاثة سهام. والآن حان الوقت للإفادة من مواهبه الجديدة.. فقد شرع بالتلقيم والشدّ في أثناء جري الحصان، مسدّداً نحو الاتجاهات الثلاثة على التوالي، إلى الأمام، والجانب، والخلف. وأصبح الأمر في نهاية المطاف واقعاً: جرى بمحاذاة كيس الهدف (البالة) مطلقاً ثلاثة سهام...، فشلٌ بعد فشل كالمعتاد، ثم في أحد الأيام استقرت السهام الثلاثة كلّها في البالة!. كانت تلك بالتاكيد فرصة وتوفيقاً. لكن إذا أصبت مرّة فيمكنك أن تصيب من جديد. ألف مرة، مئة ألف مرة.. إن توافر الدأب والمثابرة. كانت هذه هي اللحظة التي شعر بها للمرة الأولى أنه فارس رام للسهام من فوق ظهر حصان حقاً.

لقد استغرق أربع سنوات ليبلغ هذه اللحظة، وما هي إلاّ البداية، فثمة اكتشافات جديدة تنتظره في المستقبل، فقد كان هناك رماة واقفون مستعدّون يسحبون القوس نحو عظم الخدّ أو الذقن، وكثيراً ما كانوا يقبّلون الوتر، ويُصوّبون عندئذ السهم. أخذ كوشاي بتجريب هذا الوضع شهوراً طوالاً، حتى اضطر للاعتراف بأنه لا يمكن القيام به والرامي فوق ظهر حصان يجري. فبالله عليكم كيف يمكن في هذه الظروف وهذا التوتّر كله، والقوس مشدودة، وعضلات الذراعين والكتفين متوتّرة، والجسم كلّه منهك بفعل حركات مختلفة أن يختار الفارس اللحظة المناسبة لإطلاق سهمه؟! وقد حاول في إحدى المناسبات استخدام التكنولوجيا لمساعدته على اكتساب التركيز، فأضاف إلى أحد السهام مؤشّراً ليزرياً، وحاول أن يبقي بقعة الضوء الأحمر مثبتة على الهدف بينما كان يمرّ من أمامه وهو يجري بالحصان، لكنه، ويا لدهشته الشديدة! مني بفشل ذريع، بل عجز

حتى عن إدراك البقعة المهتزّة ليظلّ في حدود متر بعيداً عن الهدف، ناهيكم عن الدخول في نطاق البقعة. يقول في هذا بطريقة ملتوية: «لقد أثبتت التجربة أنّي محيط تماماً بكل ما ينبغي معرفته عن الرماية من فوق ظهر الحصان، ما عدا استثناء بسيط يتعلق بنهج السهم في إصابة قلب الهدف».

كانت الإجابة أولاً بمحاولة شدّ القوس، ليس ناحية الذقن، بل مباشرة وبشكل مستقيم على طول الذراع الممدودة حتى يبلغ السهم الصدر، فالقلب، فمقرّ العواطف؛ وثانياً ترك اللاشعور يختار لحظة ترك السهم لينطلق؛ ذلك أن ثمة لحظة مناسبة في فوضى الحركة، هذه اللحظة تأتي في أثناء جري الجواد بسرعة حين تكون أقدامه الأربعة معاً منطلقة من دون أن تمسّ الأرض، وإن هي إلاّ ثانية يجد فيها المرء راحة النفس. وهذه اللحظة تحلّ - حسبما يقول كوشاي - في أعلى النقطة الميتة في قفزة الجري حين نسبح في الهواء قبل أن تمسّ حوافر الجواد الأرض ثانية». لكن ما من وقت يُتاح للدماغ ليجسّد هذه اللحظة في إدراكٍ واعٍ، إذ ليس فيها تفكير، ولا تحليل، بل فعل فحسب.

فكيف تسدّد سهمك إلى هدفه؟ إنك لا تسدّد، ولا تستطيع التسديد، لأنه ليس لديك الوقت لذلك، بل تدع عقلك بعيداً، وتستجيب لشعورك المحض بما يجب القيام به.

يتطلّب القيام بذلك امتلاك الخبرة السليمة، والمعلومات الدقيقة ليعمل بهما العقل. وكما هو الحال مع الرسم والشعر فإنّ الشعور لا يعمل من دون أن يتوافر له الأساس التقني، وسنوات من التجارب والألم ومعاناة الفشل واليأس. لقد كان في كفاح كوشاي وهذه العملية التي تتكشف تدريجياً شيء من المجاهدة الصوفية كما عرفتها القرون الوسطى مع الليل المظلم الطويل للروح.

وعندئذ دخل إلى ضرب من الفردوس.

«امتطيت جوادي فجراً وركضت على بساط من الكريستال مدّته أمامي قطراتُ الندى، ومضيت أطلق سهاماً ندية طوال الصباح باتجاه هدفي. أما الماء الذي ألقاه السهم الرطب فكاد أن يرسم خطاً في الهواء. لاحظت بعد ذلك فجأة أشعة الشمس الملتهبة وهي تحرق وجهي وتجعله أحمر، وكل شيء من حولي يطقطق تحت وطأة الحرارة الملتهبة الجافة، ومنحدر التل الأصفر يرجع الأجراس التي تقرع في القرية المجاورة مُؤذنة بحلول الظهيرة.

انتابتني أحلام اليقظة، فكنت أحلم وأنا يقظ، وكان الوقت يذوب مثل ذوبان العسل الحلو في شاي الصباح. كم بحثت عن ذلك الشعور! فلقد كنت أطارده مثل طفل صغير يريد الإمساك

بفراشة في حقل حافل بالأزهار. والحشرة الرائعة تمضي في طيرانها متعرّجة هاربة مثل صفحة من الورق تعبث بها الريح، ثم تحطّ على زهرة عطرة. ويلحق بها الطفل وهو يلهث من الجهد الذي بذله، ويمد يده بحركة خرقاء ليمسك بها بين السبابة والإبهام، لولا أنّ الفراشة تستمرّ في طيرانها بعيداً، والطفل يركض ويجري ويتعثّر مرة بعد مرة.

كانت الفراشة في قبضتي، فأطبقت عليها في كفي، وأنا أحرص ألاّ أؤذي جناحيها الضعيفين. هبّت رياح التغيير وتدفّقت داخلي، بينما كنت أنتظر اللحظة التي أستطيع فيها توجيه قواي كلها إلى تحدٍّ جديد».

ينبغي أن يكون التحدي جدياً كلّ الجد في أمر الرمي من فوق ظهر الحصان، وقد غدا الآن الحياة ذاتها، وكان يعني حرفياً: أنه سيموت - على حد قوله - من دونه. كان على كوشاي أن يؤمن دخلاً للعناية بهذا الشغف، لذلك جعل مهمّته الشاغلة طرق باب تجارةٍ ما، وذلك يعني ابتكار رياضة جديدة ومعها كلّ القواعد والقوانين اللازمة، وقد منحه واديه الأبعاد؛ فقد كان هناك مضمار من تسعين متراً، وبه ثلاثة أهداف، عرض كل منها تسعين سنتيمتراً ليرمي كلاً منها فوراً من ناحية الأمام ومن الجانبين والخلف، وذلك في أثناء جري الحصان بسرعة، وينبغي ألاّ تستغرق هذه العملية أكثر من ستّ عشرة ثانية، إذ إن الفرسان الخبراء لا يستغرقون فيها أكثر من ثماني أو تسع ثواني. لكن ينبغي عدم إطلاق السهم الأول حتى يكون الفارس قد دخل مسافة ثلاثين متراً في المضمار، ويجب إصابة الهدف الأخير بأسرع ما يمكن مع «رمية الافتراق» حين يمضي الفارس مبتعداً..، فهي إذاً ثلاث إصابات في ستّ ثواني، وإصابة كلّ ثانيتين، ولكي يرسي هذه الرياضة الجديدة اقتضى منه الأمر أن يرسي لنفسه اسماً متوسّلاً بخبرته الخاصة ليعرض إمكانات الرياضة.

كانت فكرته الكبرى التالية: ركوب جياده التي بلغ عددها الآن أحد عشر جواداً، بالتبادل على امتداد المضمار الذي حدّده لنفسه، مطلقاً السهام باستمرار على مدى اثنتي عشرة ساعة. وكان قد أغلق الوادي، وأبعد عنه الفضوليين، «والأصحاب غير المخلصين، والأعداء الثابتين، والأحبة المنافقين»، وهذه تلميحات إلى مقدار الصعوبة التي لا بد من أنه قد عانى منها الآخرون في التعامل وهذا المتحمس المتعصب اللجوج. وقد أخذ يتدرّب لمدة ستة أشهر، وفي هذا يقول: «لم يكن يمضي يوم لا أتخيل فيه نفسي وسط ساحة معركة، وعلى الرغم من أنني كنت وحيداً لم أكن أشعر لوهلة بالوحدة. فقد كانت مخيلتي تحشد في الوادي بشراً ورفاق سلاح وأعداء ألداء وقتلة»، لقد فتح التحدي مستويات جديدة من النجاح والحرية، «أعتقد أن الحياة تمتحنُنا جميعاً،

لكنّ المحظوظين حقاً هم من اختاروا مِحَنهم وتضخيمها ما وسعهم ذلك». وغنيّ عن القول أن خوض هذه التجارب لم يكن من قبيل التجربة الروحية بالتأكيد، فسباق الجري الذي يقوم به كوشاي يقصد به إشادة المشروع التجاري من العملية التي ينهض بها، فقد حان الوقت ليعلم العالم ببعث الفارس رامي السهام.

وهذا ما جرى، وتمّ إعلام كتاب غينيس للأرقام القياسية، والتلفاز، والصحف، وجاء المؤازرون والأصدقاء للإمساك بالجياد وجمع السهام. وفي ذات يوم من يونيو/ حزيران، وفي الساعة الخامسة صباحاً، بدأ كوشاي باستخدام الخيول الأبطأ أولاً، مطلقاً خمسة سهام في الثواني العشرة أو الاثنتي عشرة التي استغرقها في الجري في المضمار. وحين اشتدت الحرارة، ومضت الساعات، تحوّل إلى الجياد الأسرع التي تقطع المضمار في أقل من سبع ثوان، وعلى الفارس أن يطلق عندئذ ثلاثة سهام في كل شوط. وبحلول الساعة الخامسة من عصر اليوم يكون قد دار 286 دورة، وأطلق ما يزيد على 1000 سهم. ولشدة إرهاقه دخل في حالة بديلة من الوعي تتّصف بالجمود التامّ. وكان مساعدوه وتلامذته يطوّحون به في الهواء ويتلقّونه احتفالاً بالإنجاز الذي حققه. وقد كتب في هذا يصوّر حاله بسخرية بالغة: «لسوف أكون مديناً لهم إلى الأبد للحماسة التي كانوا يظهرونها.. وقد استغرق الأمر مني ساعتين أخريين لأصحو من هذه الحال. وفجأة يصدمني الإرهاق المتراكم طوال عقد من الزمان مثل الرصاص المصهور.. وفي حفل المساء لم أكن أبدي إلاّ القليل من النشاط في الرقص».

***

دأب كوشاي على تجويد أدائه طوال خمسة عشر عاماً ليبلغ ما يقارب الكمال، وحين استخدمت هذه الرياضة النظام الذي ابتكره في تعيين نقاط الفوز والخسارة رسخت وأخذ نموها يتعاظم. لقد أقبل مئات الرجال والنساء منذ عقد التسعينيات من القرن العشرين للانضمام إلى هذه الرياضة المجهدة، وصارت أعدادهم تزداد باطّراد مع كل عام جديد، في هنغاريا أولاً والآن في ألمانيا والنمسا، وبضعة تلاميذ متحمسين في الولايات المتحدة. ولسوف يطالب هؤلاء التلاميذ المهرة في وقت ما بضمّ هذه الرياضة إلى الألعاب الأولمبية.

كان تود ديلله، من ولاية أريزونا الأمريكية، قد اكتشف كوشاي حين أشرف على جلسة تدريب في الولايات المتحدة. وبذلك فإن اهتمام ديلله طويلَ الأمد بالرمي بالقوس والفروسية اكتسب فجأة قوة جديدة؛ لأن تود رأى في ذلك أكثر من رياضة فحسب، فقد وجد في هذا النشاط امتزاجاً

يتداخل فيه الجسم والعقل، بحيث يعكس كلّ منها الآخر، وأساساً للتعامل مع ما في الحياة نفسها من نجاحات وإخفاقات؛ «لأنك لا تستطيع أن تفهم النجاح تماماً من دون أن تفهم الفشل أولاً». لكنّ الأمر لا يتعلّق بكلّ إنجاز على حدة، بل إن هذا يتصل بالجماعة أيضاً، حيث كل فرد يشجع الآخر، وتلك هي روح من التعاون نادراً ما تتوافر في رياضة تقوم على المنافسة، إذ ينبغي أن تقوم هذه الرياضة على المهارة التي تعدّ الدعامة لبقاء الردّ والجماعة في المعركة. وهناك الآن آخرون يدّعون تعليم رياضة الفروسية والرمي بالقوس، ويقول ديلله في هذا الصدد: «لقد التقيت ببعض هؤلاء، وما يجعل كوشاي مختلفاً عن سواه أنّ ما يعلّمه لا يقتصر على آليات التسديد ورمي سهم من فوق ظهر حصان يجري فحسب، إن ما يعلِّمه كوشاي هو قلب المحارب وروحه».

وهاك الحقيقة: فإذا كان كوشاي هو أتيلا رامي السهام، فإنه بهذا المعنى أتيلا القائد أيضاً، فقد أنشأ جماعة كرّست نفسها لغاية معينة. والعمل كله - في حالة كوشاي - ايجابي، وليس فيه سوى التأثير المبدع على الفرد والجماعة. إنه يصف نفسه بالمحارب، إلاّ أنه بعيد كل البعد عن الأعمال القاسية التي تَسِم حياة المحارب. أما حالة أتيلا فقد كان فيها بُعد آخر تام، بيد أنّه مهما كانت المشاقّ البدنية شديدة، ومهما كان التدريب الروحي منعشاً، والعمل الجماعي جذاباً، فإن هذا كله أدى إلى الغزو والقتل والدمار والاغتصاب والنهب.

لقد أصبح وادي كوشاي الآن مركزاً لا يقتصر على رياضة ما، بل هو مذهب ونهج حياة ومشروع تجاري مستقل بذاته.

يشتمل منحنى الوادي على بيت كوشاي؛ وهو كوخ بسيط، دائري، من الخشب، وأثاثه منحوت من جذوع الأشجار. فيه حظيرة جميلة تفوح منها رائحة القش مخصصة لأربعة وعشرين جواداً. كما أن فيه مدرسة مسقوفة لتعليم الفروسية وساحة، ومضماران للتدرب على الفروسية ورمي السهام، وخيمة يورت مستديرة كازخية على طرف التل، يقصدها أطفال المنطقة لتلقي الدروس في التاريخ الحي. وبسبب حفر خندق أضحت السبخة بحيرة. وفي البلدة القريبة تقوم الورشات بصنع الأقواس والسهام وسروج الخيل، والضيعة كلها تتميز بالمتدربين وما يحتاجون إليه من معدات، حيث يبلغ تعدادهم عدة مئات، جلهم من الهنغار، وإلى جانبهم ألمان ونمساويون أيضاً، وبعض الإنكليز، بل حتى أمريكيون قلائل.

تستطيع أن تراه يعمل في أول سبت من كل شهر. وحين كنت في زيارة الموقع كان هناك خمسة وثلاثون طالباً يتراوحون ما بين الذين قاربوا أن يصبحوا معلمين وصبي في السادسة من عمره،

كما أنّ هناك أيضاً إحدى عشرة امرأة. فقد كان لدى الهون نساء في صفوفهم، شأنهم في ذلك شأن السكيث، وإحدى أفضل تلاميذه النجباء هي بترا أنجيلاندر التي تقوم بتعليم برامج من وضعها بالقرب من برلين. يسيطر كوشاي على عالمه كالرقيب العسكري الذي يعلّم أحد فنون القتال، حيث يبدأ اليوم مع حشد من مئة شخص يقفون مراقبين على جانبي الساحة، وثلاث مجموعات اثنى عشرية من المتدرّبين المصطفين الذين يتابعون حركاته من تليين الذراعين والرقبة، ثم ينتقلون إلى تدريبات على الرمي مع مدّ الرجل والذراع اليسرى بينما الذراع الأخرى مشدودة إلى الصدر، ثم يطوح بها إلى الوراء متمثلاً حركة إطلاق مع صرخة «هو (Ho)!» من كوشاي، ويكون الجواب «ها (ha)!» من المتدرّبين، ثم يتقدّمون خطوة واحدة، وهي عبارة عن حركة التفاف 180 درجة، ويتكرّر المشهد ذاته ثانية يميناً ويساراً.

وقد شرح لاحقاً الأمر بينما كنّا نسير عبر الوادي بقوله: «إنّ من الأهمية بمكان إطلاق السهام بكلتا اليدين للحفاظ على التماثل، وهذا يختلف عن القوس الإنكليزي الطويل الذي لديكم». ثم تابع كلامه: «علينا أن نكون مستعدّين للهجوم بالقدر ذاته من الكفاءة من أي اتجاه يصادفنا».

وهناك عملية تنويعات أخرى على الموضوع ذاته؛ فمن ذلك محاكاة رمي السهام في الصف، إلى الأمام والجانب، والخلف، ومن وضع القرفصاء، ومرة بحسب قرع طبل الكاهن الشامان، وكوشاي يتحرّك جيئة وذهاباً على طول الصف بعد أن يكون قد مضى ساعة تقريباً يجري المتدرّبون إلى الإصطبل حيث يبدّلون ثيابهم ويرتدون ثوب المحاربين الفضفاض (كيمونو) ويظهرون من جديد مع جيادهم التي بلا سرج.

وفي البداية يرمي بعضهم أكياس القش لبعض، ثم يتقاذفونها بينهم لتكون بمثابة الوسائد المستخدمة في القتال بالوسائد. ثم يأخذون في ضرب الأعمدة بالهراوات بوحشية، ويطعنون بالرماح أشكالاً تشبه البشر. هذا كله مشهد رائع؛ لكن ما كان جمهور المشاهدين في انتظاره إنما هو ذلك العرض الذي سيقوم به كوشاي، وقد كان عرضاً مذهلاً، حيث يقف ثلاثة رجال على طول الساحة، وكلّ منهم يحمل عموداً وعليه هدف دائري يبلغ قطره تسعين سنتيمتراً. يجري جواد كوشاي حتى يقطع الساحة بطولها. وحين يصبح بمحاذاة الرجل الأول يبدأ هذا بالجري جاعلاً هدفه فوق رأسه بمتر أو أكثر، ويستغرق كوشاي ست ثوان ليمرّ بأول رجل يركض، ويطلق أثناء ذلك ثلاثة سهام. وحين يصل إلى الرجل الثاني يطلق ثلاثة سهام، وتليها ثلاثة سهام أخرى. وتكون المحصلة تسعة سهام في ثماني عشرة ثانية، ومع كل منها صرخة «ها»! وجميعها تصل إلى

الهدف. ثم تعاد العملية ثانية، لكن يُعيَّن لكل رجل هذه المرة هدفان منفصلان، ويركض هؤلاء الرجال، وحين يحاذيهم كوشاي يرمون الأهداف من فوق أكتافهم. ستة أهداف طائرة وست رميات، وجميعها في حدود متر من العدائين، وكلها تصل إلى أهدافها من دون أن يحيد سهم واحد عن هدفه، ثم يقوم العداء الأخير بالجثوّ على ركبتيه، كأنه يشكر الآلهة لبقائه حياً، ويصطفّ الجميع ليتلقّوا تصفيق الحضور، ويظل كوشاي في هذا كله متجهم الوجه كالعهد به أبداً.

وحين كنت أسير في الوادي في وقت لاحق شاهدت خمسة متدربين يرمون السهام نحو أهداف مرسلة في الهواء، وقد ظللت أتابع المشهد عدة دقائق. ولم أجد عندئذ أحداً من هؤلاء يصيب هدفاً واحداً، بل لم يكن أحد منهم يُطلق سهامه بسرعة، ناهيكم إن كان ممتطياً حصاناً أم لا.

استطاع كوشاي إذاً الإجابة عن السؤال الحاسم: لماذا كان الهون أكثر نجاحاً من جيرانهم، مع أنهم فرسان رماة سهام، ينهجون في حياتهم أسلوب الحياة ذاته الذي تنتهجه عشرات القبائل البدوية الأخرى من جيرانهم؟ لكن ذلك لا يسري على الجميع حتى يبلغ أتيلا، إذ إن غزوات الهون بدأت قبل جيلين منه حين هرب منهم الآلان والقوط.

كان الأساس التقني لنجاح الهون - أي سلاحهم السرّي - قوس الهون. ونقول الآن: إن القوس يبدو مختلفاً بالتأكيد بسبب عدم تماثل طرفيه، شأنه في ذلك شأن الأنموذج الأصلي للهيونغنو الذي نشأ عنه، حين يكون وتر طرفه الأعلى أطول من طرفه السفلي. أما إن كان الهون قد أخذوا تصميمه عن الهيونغنو أم لا فإنّ هذا التصميم كان موجوداً منذ عدة قرون، كما أنه انتشر شرقاً حتى بلغ اليابان. والغريب أنّ عدم تماثل طرفيه لم يؤثر إطلاقاً على قوة القوس أو مداه أو دقته. وهكذا تظلّ فائدته موضع جدل. وقد يكون تقصير الطرف الأسفل قد تمّ لتسهيل تعبئته، كما هو الحال حين يلتفت الفارس بسرعة فوق عنق الحصان لإطلاق سهم ناحية اليمين، أو إذا كنت معلماً حقيقياً للإطلاق باليد اليسرى. لعله كان من الأيسر الإطلاق من وضعية الجثو، لكن متى تحتاج إلى ذلك؟! يتساءل كوشاي وهو يتّخذ وضع الصوفي إن كان القوس يصبح حين يتم شدّه رمزاً لخيمة الهون أو الربّ المحيط بالكون والسماء فوقنا، لولا أن الفكرة غير منطقية.

إني أؤثر النظر إلى الأمر على أنه مسألة تتّصل بالهوية؛ لأنه كثيراً ما تحتوي تفاصيل الأشياء العادية على عناصر تبرز عشوائياً أو لأسباب تافهة، وتدوم لأنها تصبح تقليدية وليس هناك من سبب لتغييرها. ولعلّ عدم تماثل أقواس الهون يرجع دوماً إلى أن الناس اعتادوا على أن تكون

كذلك، ويرجح أن يكون العود المقتطع من الشجرة أقرب إلى عدم التماثل. ولعلك إن تجرأت وسألت أتيلا عن السبب في أن أقواس الهون كبيرة في أعلاها، فستجد الجواب عبر مترجمة يتم على هذا النحو: هكذا نصنع نحن الهون أقواسنا!

بيد أن أقواس الهون كانت تختلف من ناحيتين، إضافة إلى ناحية ثالثة تعدّ هامة؛ فقد كانت أقواسهم أكبر من سواها؛ وانحناءاتها أبرز؛ وأخيراً - وهذا حاسم - كان حجمها وشكلها يوفران لها قدراً أكبر من القوة. وقد تطور تصميم القوس عندهم للاستجابة للمتغير الذي طرأ على بيئة الحرب في السهوب؛ فقد استمرّ القوس السكيثي الصغير طوال ألفي عام، إلاّ أنه في القرن الثالث جاء السرامطة الجيران الشرقيون للسكيث وأنشؤوا وسائل للدفاع في وجه سهام السكيث؛ حيث عمد السرامطة إلى إحاطة محاربيهم وخيولهم بالدروع، ومضوا يدرّبونهم على القتال في تشكيلات بعضها قريب من بعض. كانت هناك طرق مختلفة ممكنة لمواجهة هذا الأمر باستخدام السيوف والرماح والنبال والفرسان الثقيلة. لكنّ السلاح الأكثر فعالية كان قوساً يمكنه إرسال سهام تخترق الدروع! ألا وهو القوس الذي حمله الهون معهم من الشرق. كما علمنا أنّ من بين تلك الأقواس التي عُثر عليها في قبور الهيونغنو قوس ذو جناح صغير مصنوع من قرن، يبلغ طوله قرابة 3سم، منحنٍ ليكون بعيداً عن الرامي. كان هذا هو الذي يشدّ وتر القوس وليس الإطار الخشبيّ للقوس ذاته. أمّا «الأجنحة» فكانت تكسب النهايات الضعيفة صلابة لا يمكن للخشب أن يضاهيها، كما أن الأظافر تأتي بأمور لا تستطيع الأنامل أن تقوم بها. كذلك زادوا طول القوس بنسبة مئوية حاسمة، وكان لهذا الطول الإضافي تأثير الرافعة؛ إذ إنه يمكّن الرامي من شدّ وتر القوس الأكثر ثقلاً بجهد أقل، لأن المقبض المنحني يعمل كأنه جزء من عجلة ذات قطر كبير. وبينما يشد الرامي القوس ينبسط المقبض، ممّا يؤدّي بالنتيجة إلى تمديد وتر القوس، وحين يطلق السهم يلتف المقبض من جديد، فيؤدي ذلك بالنتيجة إلى تقصير وتر القوس، لكنه يسرّع من انطلاق السهم من دون الحاجة إلى أن يكون السهم أطول والشد إلى نقطة أبعد. كان ذلك اختراعاً يعدّ إيذاناً بظهور نظام البكرات المستخدمة في الأقواس المركّبة الحديثة. وقد وفّر ذلك للرامي من الهون في المحصلة ذراعين أطول، مما أتاح له أن يطلق السهام بقوة خرق تزيد عما هو معهود، أو مدى أبعد قليلاً؛ أمتار قليلة فحسب، لكنها حاسمة، إذ تتيح لسهام الهون أن تكون مميتة، بينما تذوي سهام العدو في مكانها.

لقد كان لهذه الأداة الجميلة المعقدة ميزة أخرى، تلك هي أنها تتطلّب من المرء مستوى من

الخبرة يصل إلى حدّ البراعة الفنية. لم تكن هذه بندقية كلاشينكوف يمكن أن تُخرط في إحدى الورشات التي تصنع الأقواس في آسيا الوسطى؛ لأن عملية ثني الأقواس من أي نوع كانت تستغرق سنة أو أكثر، إضافة إلى أنّ صانع الأقواس يجب أن يكون معلّماً متمكّناً من الحفر وتنفيذ المقابض من القرون. وقد كانت كل قوس تحفة متواضعة، لكن ليس لدى أي جماعة أخرى خبرة بإنتاج ما يضاهيه.

والواقع أن القوس الأفضل لم تكن العنصر الوحيد الذي كفل هيمنة الهون، ولعل ذلك كان أمراً حيوياً للمحارب المتوحّد بموقعه، أو لجماعة من المغيرين، أما بالنسبة إلى جحفل يتقدّم فإنّ الانتصارات المحدّدة لا تفيد أكثر من غياب الانتصارات. كانت الضرورة تفرض على الهون أن يصبحوا آلة للتدمير الضخم الساحق، وكان هناك عنصر واحد لمصلحتهم هو نمط حياتهم البدوية الذي وفّر لهم القدرة على القتال طوال العام، وهذا نقيض حال الجيوش الغربية التي كانت تلزم معسكراتها في الشتاء، ثم تلتفت للقتال في الصيف. وقد مكنت الأرض والأنهار المتجمدة الرجال الأقوياء والجياد من الانطلاق والتقدم. أما مزيّتهم الأخرى الكبرى التي يتمتّعون بها فكانت أنهم تعلموا أن يقاتلوا كأنهم شخص واحد، وعلى نطاق واسع. وقد مكنتهم إقامتهم المؤقتة في البراري أو انتقالهم التدريجي نحو الغرب من ابتكار التكتيكات الملائمة لسلاحهم الجديد. فإذا استطاع السكيث أن يجعلوا ضربتهم كالريح، فإن الهون تعلموا كيف تكون ضربتهم كالعاصفة، وكان الأمر كالتالي:

تخيلوا جيشاً من الفرسان الهون يواجه جيشاً من الفرسان المدرعين جيداً من السرامطة والقوط والرومان؛ فلن يكون للأمر للوهلة الأولى أهمية؛ لأن ثمة عناصر مشتركة تجمع بينهم، فالكل يحملون الأقواس، وجميعهم مزوّدون بنوع ما من الدروع، ومعظمها من الجلد أو صفائح من العظم أو البرونز، وأحصنتهم محمية كذلك. ولسوف يعتمدون جميعاً على سرعتهم وقوة سهامهم؛ فكل واحد من هؤلاء يحمل قوساً وجعبة مليئة بستين سهماً، وسيفاً معلّقاً على حفرة. ولئن كان بوسعهم ركوب الجياد بلا سرج فقد كانت لديهم سروج وركبان من الجلد أو الحبال. وتتألف قوات الخط الأول عند الهون من فوجين، كل فوج منهما يضم ألف رجل (أو امرأة إن اقتضى الأمر)، بينما يقف خلف هؤلاء عشرات العربات التي تحمل الذخيرة وتجرّها الجياد، وهي محمّلة بعدة مئات من الأقواس، وما يزيد على مئة ألف سهم.

يصدح بوق، وتعرف الجياد كيف تنتظم، ويتم تشكيل الفوجين في كتلتين ضخمتين بعيداً عن

متناول العدو على بعد قرابة خمسمئة متر من المكان، وتدوران ببطء في اتجاهات متعاكسة كما العواصف المتجمعة، فتثير سحباً كئيبة من الغبار، ولا تصدر من الأصوات سوى وقع حوافرها على العشب، ثم يصدر نداء آخر، وإذ بكل واحد من الرجال الألفين يستخدم يده الحرة ويلتقط من الكنانة ستة سهام، أو سبعة، وربما تسعة، وذلك بحسب مهارة الرجل وخبرته، وينشرها في يده التي يحمل بها القوس، ويمسك بها ويضعها فوق الطرف الخارجي للقوس.

ومرة أخرى يعلو النفير، فيتجمّع المحاربون ويتقدمون بسرعة وهم يدورون في حلقات تقطع 200 - 300 متراً، وينتظرون اللحظة الحاسمة. تعلم الخيول ما هو آت، فتتصبب عرقاً والتوتر يتصاعد، ويكون نداء المعركة قد علا وصدح.. وبعيداً عن الحدّ الخارجي لكل مجموعة. تجري كل مجموعة مثل الدوامة، ويأخذ خط من المحاربين بالانحراف عن السرب بسرعة للانقضاض مباشرة على خط المدافعين الساكن، ثم يتبعهم البقية، فتأخذ الفجوة بالتقلص: 400 متر، 300 متر.. ولا يمضي منذ النداء الأخير إلاّ أقل من نصف دقيقة، والآن ينطلق الفوجان بكامل سرعتهما، أي ما بين ثلاثين وأربعين كيلومتراً في الساعة. وعند المئتي متر تأتي من جهة العدو سحابة من سهام كانت قد أُطلقت بصورة عشوائية، لكنّ بُعدَ المدى يجعلها جميعها تكاد تذهب هباء ولا تصيب أهدافها. وعلى مسافة مئة وخمسين متراً يطلق الهون الأوائل عدة مئات من سهامهم مباشرة أمامهم، موجهين اهتمامهم على قطاع ضيق من خطوط العدو لا يزيد، على 100 متر، حيث توجّه السهام على نحو منخفض فوق رؤوس أولئك الذين يقفون في المواجهة. ومع زيادة سرعة الجياد تمضي السهام بسرعة تفوق 200 كيلومتراً في الساعة، وهذه سهام ثلاثية الرأس من الفولاذ بحدّة الإبرة وبقوة الرصاص في الاختراق. وحين يقترب الفرسان ويصبحون على مسافة 100 متر يكون القادة قد أعدّوا السهام من جديد، فتنطلق الخيول حتى تصبح في موازاة خط العدو، فيدير الرماة سروجهم ويأخذون بإرسال السهام من الجانب، حيث تطير السهام بشكل مباشر تقريباً، ويعيدون التلقيم، ويطلقون مرة ثانية، وثالثة، وذلك في غضون ثوان، حيث إنّ هذه العملية تعادل مضمار كوشاي الذي يبلغ 90 متراً، ويستطيع فيه أن يطلق ستة سهام بينما يقوم الفوج الذي وراءهم بتوجيه سهامهم مستهدفين الجمع ذاته من جنود العدو التعساء. وفي غضون خمس ثوان يتم إطلاق 1000 سهم، وبوسع هذه السهام أن تصيب 200 من جنود العدو، ثم هناك 1000 سهم آخر مقدّر لها أن تُرسل في الثواني الخمس التالية. وهذا يعني إطلاق 12000 سهم في الدقيقة، وذلك يعادل ما تطلقه عشرة رشاشات. الآن، وبعد 100 متر يندفع القادة من جديد، وينطلقون مباشرة مبتعدين عن العدو، لكنهم يظلون يطلقون السهام واحداً أو اثنين، ويسدّدونها

منخفضة فوق رؤوس الذين وراءهم، ويعود هؤلاء الفرسان ثانية في حركة التفاف، وينتزعون قبضة من السهام من كناناتهم، ويضعونها في أيديهم، وهم يتلمّسون موضع القطع المعدنية في طرف السهم، ويدخلون السهم في موضعه الصحيح من الوتر وهم يدورون خلف مؤخرة العدو مثل الزوبعة..، لقد انطلقت الزوبعة بأقصى سرعة، إنهم مئة فارس في دائرة خارجية تقريباً، وإلى جانبهم عشرة خطوط أخرى، وكلّ يجتهد ليتّخذ الموقع الأفضل من الطرف المتقدم، والجميع يجولون حول 400 متراً من السكون. والحق أن عبارة «الزوبعة» ملائمة جداً في وصف ما هو جارٍ على الأرض لأولئك القوم الذين شهدوا شياطين التراب يمتصون التراب من السهول المحترقة بحرارة الشمس. وهنا يتبادر إلى الذهن صورة حديثة؛ لقد مزقت تلك الجولة الرجال وحولتهم إلى أشلاء، شأنها في ذلك شان آله جزّ العشب في حديقة المنزل. وفي غضون 45 ثانية - وهذا وقت طويل للحصان حين يعدو ليقطع مسافة 400 متر - يكون قد نال الأعداء المئتان أنفسهم نصيبهم من الآلاف الخمسة من السهام المسدّدة، فيكون نصيب الفرد من ذلك 25 سهماً. وغنيّ عن القول إن معظم تلك السهام كان ينحرف، إلاّ أنه لابد من أن يجد بعضها فجوة بين الدروع أو في أعلى درع الصدر، أو في محجر العين أو حتى مباشرة عبر الترس، أو الدرع الحديدي. ويتقدّم من خلفهم حشد من الجنود الآخرين مندفعين إلى الأمام ليحتلوا موقع من سقط، فيسقطون هم أنفسهم.

لكن لنضع هذا في إطار أوسع، فالحق أنه ما من جنود في الماضي أمكنهم توجيه مثل هذا القدر من السهام..، ولن يكون ثمة شبيه لمثل هذا الوضع حتى واجه الفرنسيون القوس الإنكليزية الطويلة في حرب المئة عام، حيث كان رماة القوس الطويلة يلازمون مواقعهم ولا يتحركون، فكانوا يفتقرون بالتالي للمرونة التي يتمتّع بها الفرسان الرماة الهون. وما كان هناك أحد يماثلهم من حيث سرعة الرمي أو الكثافة حتى كان اختراع البنادق المتعدّدة الطلقات في أواخر القرن التاسع عشر. لكن حتى في ذلك الزمان لم يكن رماة البنادق الأوائل ذوي شأن مقارنةً مع حملة القوس؛ فقد كان على الجندي الذي يحمل القوس أن يتقن حرفته، ويكتسب المهارة منذ طفولته، وهو عون لا يقدّر بثمن؛ وحامل البارودة ينال تدريبه اللازم في أيام، ومن اليسير إحلال آخر محله.

وفوق ذلك فهذه أول دورة من عشر دورات، حيث المحاربون الجوالون يختطفون أثقالاً من صناديق الذخائر المودعة في الخلف، ففي عشر دقائق أصاب خمسون ألف سهم خطاً أمامياً من 100 متر. والآن تذكروا أن هذه إحدى الدوامتين المتعاكستين، حيث يقوم أفراد أحد الفوجين

الذين على الجانب الأيسر بإطلاق السهام بيدهم اليمنى، بينما يفعل الفوج الآخر العكس. وبالتعاون بين الفوجين يغطيان جبهة قتالٍ تمتدّ مسافة 200 متر، ويكفي أن يسقط أحدهم فتنشأ فجوة وتُصبّ فيها السهامُ وينهار السدّ.

هنالك بالتأكيد بعض الأعداء الذين يحظون بحماية أفضل مما يناله سواهم، فقد كان لدى الفرس والسرامطة والقوط والرومان جميعهم قوات من الفرسان المزوّدين بالدروع والمشاة الذين يرتدون الدروع، ويحملون معهم الترس والرماح والجريدة، تؤازرهم أحياناً المنجنيقات. كذلك قد تدعو الضرورة إلى اختراق صفوف الجنود ذوي الدروع الجيدة بوسائل أخرى، ولذلك ابتكر الهون تكتيكات أخرى، وخاصة التظاهر بالتراجع الذي من شأنه - إذا ما توافر الحظ - أن يستدرج المقاومين إلى التقدّم مسافة كافية لتحطيم خط دفاعهم المتصلب، بحيث تُفتح فيه فجوات، مما يتيح للهون أن يمضوا في جولة أخرى تقوم فيها السيوف المجرّدة بعملها، فتجعل جيش العدو مفتوحاً. وفي القتال القريب تستخدم الجيوش الأنشوطة، وهذا سلاح طبيعي عند الرعاة؛ ففي منغوليا اليوم يستخدم أهل الريف الأنشوطات المربوطة في نهاية عصي طويلة للإمساك بالغنم والماعز، وقد كتب أميانوس: «وبينما كان العدو يحرص على أن يتجنّب الجروح التي يسببها الطعن بالسيف يستمرّ الهون في رمي قطع من القماش مضفورة لتكون أنشوطات يلقونها على خصومهم ويقيدون أطرافهم، وهذا يسلبهم القدرة على الركوب والمشي».

لقد وفر هذا كله للهون ميزة في الريف الفسيح، وكان هذا الأسلوب بالغ الفعالية في السهوب حين يصادفون السرامطة والآلان والقوط، لكن حين وُلد أتيلا كان الهون يُسيطرون على أراضي الرعي في هنغاريا الغنية. ولم يعد هناك مزيد من السهوب لاحتلالها، وكانت التقاليد المعتمدة على الرعي والفروسية وسرعة الحركة ونمط الحياة البسيطة قد وصلت إلى حدودها. وفي غضون ذلك صار الهون يواجهون الآن الغابات والجبال والمدن، وسرعان ما سيواجهون مشكلات إستراتيجية وتكتيكية لا دراية لهم بشيء منها.

II

الأنداد

4

قارة في حالة من الفوضى

الزمان: مطالع عقد الثمانينيات من القرن الرابع.

المكان: سهل هنغاريا الكبير.

أخذ الهون يستقرّون في وطنهم الجديد الذي وجدوه مكاناً لا يطيب العيش فيه، بعد أن كان دأبهم التنقّل والترحال طوال جيل على الأقل، وأصبحوا يرفلون في سعة الرزق ورغد العيش من عوائد الحرب. إنهم قوم مولعون بالسلب والنهب، ليس من أجل الحصول على زينة الحياة الدنيا ومتاعها وزخرفها فحسب، وإنما لمجرد البقاء على قيد الحياة أيضاً، وذلك هو كل ما يعرفونه. والآن أصبحوا مطوّقين فجأة؛ ففي الجهة الشرقية تقع الهضاب - ترانسيلفانيا والكاربات - التي قدموا من خلالها قبل بضع سنين، ولا سبيل أمامهم لأن يعودوا أدراجهم من خلال هذه الطريق؛ وفي الجهتين الجنوبية والغربية يقع نهر الدانوب الذي يشكّل الحدود الرومانية، وتزدحم على ضفتيه الجيوش والمدن التي تحميها الحصون والقلاع؛ وفي الجهتين الشمالية والغربية تقيم القبائل الجرمانية التي ربما ستصبح ذات يوم ذليلة خانعة منقادة، لكنها لا تتّصف بالثراء تماماً. ولسوف يستغرق تقدير أي اتجاه سيسلكونه بعض الوقت؛ إذ إن المستقبل يبدو حافلاً بالأشياء المعقدة والمجهولة لهؤلاء البدو الرحل الذين وفدوا حديثاً.

***

كافحت الإمبراطورية بعد أدريانوبل لإعادة السلام في الداخل والخارج، لكنها أخفقت في تحقيق ذلك. وعمّت الاضطرابات منطقة البلقان، وأخذت جماعات من القوط تشنّ غاراتها على نحو لا يعرف حداً ولا قيداً، إلى أن عقد الإمبراطور الغربي غراتيان وشريكه في الحكم في الشرق ثيودوسيوس الكبير السلامَ مع كلّ منهم على حدة ما بين عامي 380 - 382، وأعفوهم من الضرائب، ومنحوهم الأراضي ووفّروا فرص العمل في القوات المسلحة على سبيل الرشوة. كان ثيودوسيوس قد تمكن في لحظتين هامتين من جعل هذا المشروع المترنّح متماسكاً من خلال إرساله الجيوش لدعم الديانة المسيحية تجاه الوثنية، ومؤازرة مطالب عائلته في الغرب في مواجهة أولئك الذين شقّوا عصا الطاعة. وقد نجح كذلك في كسب الوقت من خلال تحويل القوط إلى حلفاء له، حتى وإن كان مذهبهم في المسيحية هرطقة، وكان هو الذي فرض العقيدة النيقية/ النيقاوية Nicene[1] في أنحاء الإمبراطورية كافةً قبل رحيله عام 395. ومعه سقط معقل

(1) نسبة إلى المجمع المسكوني المنعقد في نيقيا بآسيا الصغرى عام 325م.

مناهض للفوضى والهمجيّة المعدية. وكان ورثته ابنين ضعيفين، أركديوس البالغ من العمر تسعة عشر عاماً، وهو الحاكم في الشرق؛ وهونوريوس البالغ من العمر أحد عشر عاماً وكان الحاكم في الغرب.

أضحت الإمبراطورية خليطاً من الثقافات الملتحم بعضها ببعض، وتعتمد كل منها على الأخرى. واستقرّ بعض البرابرة، وواصل بعضهم الآخر ترحاله، ولا سيما القوط الغربيين. وخرج بهم الزعيم الجديد ألاريك للإغارة من خلال البلقان محقِّقاً نجاحاً منقطع النظير، حتى إنه نصّب حاكماً لهذا الإقليم، لكنّ ذلك كان مجرد حجر الأساس لوطن أفضل لشعبه داخل الإمبراطورية. وفي شطري الإمبراطورية أصبح القوط وسواهم من البرابرة - بل حتى أفراد من الهون - ضباطاً كباراً. وفي الغرب كان ستيليكو - وهو المتحدر نسباً من الوندال والمتزوج من ابنة أخ ثيودوسيوس - القوة الكامنة وراء العرش. وقد خدم القوط بصورة جماعية بوصفهم فرقاً يمثّلون بلادهم في الوحدات العسكرية، وهو أمر محفوف بمخاطر أن يكون ولاؤهم لقادتهم وليس للإمبراطور. وسرعان ما أضحى البرابرة أصحاب القول الفصل بشأن مصير الإمبراطورية. وفي عام 401 قاد ألاريك قومه القوط الغربيين إلى إيطاليا، مما أجبر الإمبراطور على نقل بلاطه إلى رافينا، حيث بقي مدة قرن من الزمان.

وما بين عامي 405 - 407 قام جيشان من البرابرة - هما خليط من القوط والآلان والوندال والسوابيين والألمانيين والبورغونديين - باجتياح بلاد الغال وإيطاليا. وقد آثر ستيليكو التعاون، مما أثار ردّ فعل معاد للبرابرة، أسفر عن التخلص منه، وتنفيذ حكم الإعدام به، من دون أن يؤثر ذلك في تقدّم البرابرة. وفي عام 410 استولى ألاريك على روما. وتلك هي المرة الأولى التي شهدت فيها المدينة الخالدة الأعداء داخل أسوارها طوال ثمانمئة عام، وهو حَدَث أوقع صدمة كبرى في نفوس المسيحيين، حتى إنَّه ألهم أسقف شمال أفريقيا أوغسطينوس لوضع واحد من أكثر الكتب تأثيراً في ذلك العصر، المعنون «مدينة الله» Concerning the City of God. وقد توفي ألاريك في تلك السنة، في وقت كان ما يزال فيه شعبه عديم الجذور يبحث عن وطن، فانجرفوا مرة أخرى إلى بلاد الغال، ومن ثم إلى إسبانيا، وظلوا هائمين على وجوههم إلى أن استقرّوا أخيراً في شمال جبال البرانس في ما يعرف اليوم بأكويتانيا. وفي عام 418 أصبحت عاصمتهم الجديدة تولوز مركزاً لمنطقة شبه مستقلة، تمتلك كلّ مقومات الدولة إلاّ الاسم، وراحوا يمدّون الإمبراطورية بالجنود مقابل حصولهم على إمدادات منتظمة من الحبوب. وتداخل البرابرة والرومان في

الجغرافيا والأسلحة والمجتمع والسياسة، وهي عملية تجسّدت في مصير ابنة ثيودوسيوس وشقيقة الإمبراطور هونوريوس غالا بلاسيديا البالغة من العمر عشرين عاماً، التي كان قد تمَّ جرّها لكي تصبح مرغمة زوجة أحد البرابرة، وهو أتولف وريث ألاريك.

ولكن القَدَر أتاح لغالا بلاسيديا استعادة ما كان لها من وضع سابق على نحو رائع، وحينما توفي أتولف عادت لتتزوّج (مرغمة من جديد) من رجل روماني الأرومة يليق بقدرها ومكانتها، وهو الأرستقراطي والقائد قسطنديوس الذي كان إمبراطوراً مشاركاً لمدة سبعة أشهر فحسب عام 421. كان هذا الزواج قد قذف بها إلى السلطة التي حافظت عليها من خلال العديد من التحوّلات الدراماتيكية، لتتحوّل بذلك إلى واحدة من أكبر الشخصيات النسائية في عصرها. وعندما توفي قسطنديوس اتُّهمت بتدبير مؤامرة على شقيقها، فولّت الأدبار هاربةً إلى القسطنطينية وبرفقتها طفلتها هونوريا وابنها فالنتينيان البالغ من العمر أربعة أعوام الذي كان وريث الشطر الغربي من الإمبراطورية. وفي القسطنطينية كان حاكم الشطر الشرقي نجل أركديوس، المدعو ثيودوسيوس أيضاً، الذي أصبح عام 423 الحاكم الوحيد للإمبراطورية بأكملها لمدة قصيرة، وهو في الثانية والعشرين من عمره، ومع ذلك فقد آثر أن يدعم غالا بلاسيديا عندما طالبت بأن يعتلي نجلها الشاب فالنتينيان العرش الغربي. ونتيجة لذلك، لمّا وقع في العام ذاته اختيار البلاط في رافينا على تتويج مسؤول من غير أفراد الأسرة، وهو جون، جرّد ثيودوسيوس جيشاً لسحق ذلك الغاصب، ونصّب على العرش فالنتينيان البالغ الآن من العمر ستة أعوام، معيداً بذلك والدة هذا الصبي بلاسيديا إلى إيطاليا، ومعها الرضيعة هونوريا التي قدر لها لاحقاً أن تضطلع بدور مثير على نحو مميز في قصتنا.

ذلك هو الوضع الذي كان قائماً عندما بلغ أتيلا سنّ الرشد في العشرينيات من القرن الخامس: كانت الإمبراطورية مقسّمة، وقد مزّق شطريها التناحرُ الطائفي والسياسي، ووجود ست جماعات من البرابرة بوصفهم جاليات مهاجرة على أراضيها، وحدودها الشمالية في حالة من الفوضى، كما تمّ تزويد كلا الجيشين جزئياً بأفراد من الشعب الذي كانوا يواجهونه.. وقد بدا هذا كله لزعيم قبيلة طموح واعد إلى حدّ بعيد يقيم شمال نهر الدانوب.

***

دعونا الآن نستعدْ في الذاكرة الأعوام الأربعين ذاتها للوقوف على ما كان يقوم به الهون في أثناء تلك المدة.

ظهر الهون الأول في أوروبا الغربية في عام 384، حينما تمّت دعوتهم مع الآلان التابعين لهم لتعزيز صفوف الإمبراطورية في الحرب الأهلية على مكسيموس الذي كان يودّ الاستيلاء على الحكم، ولقد ساعدوا على الحيلولة دون دخول مكسيموس إلى إيطاليا، ولربما قيض لهم التوغل في الإمبراطورية ما لم يتلقّوا الرشوة لكي يحسنوا التصرّف ويعودوا إلى وطنهم. ولقد حث سلوكهم الحسن ثيودوسيوس على توظيفهم من جديد بعد أربع سنوات في تدخلٍ ثانٍ لقمع الثورة في إيطاليا. وقد كتب المؤرخ باكاتوس الذي عاش في القرن الرابع: «يا له من أمرٍ جدير بأن يُذكر، فقد استجاب القوط والهون والآلان للنداء، وبدّلوا الحرس، وقلّما هابوا التوبيخ. لم يكن ثمة شغب، ولا فوضى، ولا أعمال سلب ونهب على نحو ما كان مألوفاً لدى البرابرة». لكن في هذه المرة رفضت وحدات البرابرة العسكرية العودة إلى ديارها، بعد إحراز النصر. وقد وصف يوحنا الذهبيُّ الفم[1] رئيس أساقفة القسطنطينية ما تمخَّض عن ذلك: «لقد حصل ما لم يكن في الحسبان؛ فما إن غادر البرابرة بلادهم حتى اجتاحوا مساحة غير محدودة من أراضينا، مرة تلو أخرى، وبعد أن أضرموا النار في الأرض، واستولوا على المدن، لم يكن لديهم ميل للعودة إلى ديارهم من جديد، لكنهم تمثّلاً بالرجال الذين يقضون الاستراحة عوضاً عن خوضهم غمار الحرب، راحوا يهزؤون بنا ويعاملوننا بازدراء». لم تكن هذه القوات تخضع لسيطرة مركزية، بل يأتمرون بإمرة رؤساء جماعات صغيرة من النهّابين والسلاّبين الذين يشنّون غارات كرّ وفرّ، ولا سبيل إلى إنزال الهزيمة بهم في الحرب، وكان ذلك أمراً أشبه بالإمساك بالضباب. وعوضاً عن ذلك عرضت القسطنطينية اتفاقاً يتضمن: منح البرابرة المعنيين - وجلّهم من القوط، ولكن بما في ذلك جماعات من الهون - صفة الحلفاء الفوديرتي[2]، إضافة إلى الأراضي الواقعة جنوب نهر الدانوب على سبيل الرشوة مقابل خلودهم للسكينة والهدوء. ولم تكن لقبائل الهون هذه قيادة موحّدة، نظراً لكونهم يزيدون قليلاً على مجموعات عائلية؛ ولكن أضحى الهون الآن رسمياً للمرة الأولى داخل الإمبراطورية.

توافرت في الشمال لدى القاعدة الأوسع للهون، الذين أصبحوا الآن حكام شرق هنغاريا ورومانيا، على الأقل أساسيات الوحدة، بقيادة اثنين من ورثة بالامبر، يدعيان باسيك (Basich) وكورسيك (Kursich)[3]. وتكشف مقبرة تقع قرب قرية ما تزال قائمة إلى يومنا هذا وتعرف باسم

(1) هو القديس يوحنا، (المترجم).

(2) كلمة تدل على البرابرة الذين لا يمكن مقاومتهم، وإنما يمكن إقناعهم بمدّ يد العون، (المترجم).

(3) ضبط اسماهما هكذا: Basich (Bas-ich, Bas-iq) باسيك؛ Kursich (Kurs-ich, Kurs-iq) كورسيك.

تشيسكفار، على حافة تلال فيرتيس الحرجية بين بودابست وبحيرة بالاتون، عن حضارة في طور التحوّل، إذ التحق بصفوف السكان السابقين، سواء أكانوا من رجال القبائل المحلية أم من الرومان، أولئك الذين يلفّون رؤوس أطفالهم بالأربطة ويشدّونها، ويدفنون الخيول، ويضعون عصابات رأس مطلية بالذهب والفضة، وأقراطاً من الفضة والبرونز في آذانهم. لكنها لم تكن أرضاً يطيب للبدو العيش فيها، فقد كان الاقتصاد المحلّي في حالة يُرثى لها، وكانت هناك بعض المراعي في الوديان الحرجية من منطقة الكاربات، ومن المحتمل أن أولئك الذين يقيمون مع قطعان ماشيتهم في سهل هنغاريا الكبير (بوزستا) أخذوا يكتشفون بأنّ هذا السهل الواسع لم يكن تماماً مهوى أفئدتهم، ومحطّ آمالهم، ومرتع أحلامهم؛ لأن نهر تيسا الذي يخترقه بمجراه المتعرّج يفيض في فصل الربيع، شاطراً مراعيهم إلى نصفين. وكان لديهم عبيد من القوط والآلان الذين نزلت بهم الهزيمة، ويقيمون وراء منطقة الكاربات، ومن السرامطة الذين كانوا حكام هنغاريا ذاتها، وكان هؤلاء جميعاً يعلمون كيفية حراثة الأرض، لكن لم يكن أي من المزارع المحلية أو القطعان المستوردة ينتج ما يكفي للقيام بأود المقيمين فيها. كان الهون في حاجة إلى الغذاء، وفي مقدورهم أن يستولوا عليه محلياً، أو باستطاعتهم ابتياعه من أماكن أخرى خارج موطنهم لو كانوا يمتلكون المال. وكان من شأن العملات المسكوكة من الذهب أيضاً أن تكون مادة خام مفيدة لصنع الرقائق الذهبية التي يزركش بها علية القوم أطقم خيولهم وأسلحتهم وأغطية رؤوسهم.

إلى أين يتعيّن عليهم أن يتّجهوا سعياً وراء الذهب؟ فقد كان البلقان أرضاً خراباً يباباً، والقسطنطينية مدينة عصية عليهم. ونظروا حولهم بحثاً عن هدف أشدّ يسراً، ومن شأنه أن يخضع لتكتيكاتهم المشحوذة جيداً، ومكافأتها على نحو كافٍ.

وفي عام 395 يمّموا شطر المقاطعات الشرقية غير المحمية التي تمثّلأ البوابة الخلفية للإمبراطورية؛ لأنّ الجيش الروماني كان يغوص في مستنقع حرب أهلية أخرى دائرة في إيطاليا. ولكي يصلوا إلى هناك كان عليهم أن يَعْدُوا بخيولهم مسرعين على الطريق الممتدة على طول شاطئ البحر الأسود البالغة قرابة ألف وخمسمئة كيلومتر. لكن الطريق هناك عبر الأراضي التي كانت عائدة سابقاً للقوط والآلان أضحت الآن جزءاً من المنطقة الخاضعة لهم، وكان الفصل ربيعاً، وقد اعشوشبت المراعي حديثاً. وإذا زُوّد كل محارب بجوادين أو بثلاثة جياد احتياطية، فإن في استطاعة جيش من البدو، من دون العربات التي تعيق تقدمه، أن يجتاز مسافة تبلغ مئة

انظر: Otto Maenchen-Helfen, The World of the Huns: Studies in Their History and Culture, (Berkeley, 1973), p. 405، (المترجم).

وستين كيلومتراً يومياً فوق سهوب جنوب روسيا، وأن تكون متاريس القوقاز المكسوّة بالثلوج في مرمى نظرهم في غضون شهر. ولسوف يستغرق الأمر معهم مدة أسبوعين آخرين ليسلكوا الطريق المتعرّجة في منطقة القوقاز، عبر مضيق داريال، وهي الطريق الرئيسة في منطقة القوقاز الوسطى التي تصل بين بلاد الشيشان؛ لأن الشيشانيين الذين يقيمون فيها آنذاك كانوا يقيمون فيها منذ آلاف السنين، وبين جورجيا. وتتاخم أرمينيا المسيحية الحدود الشرقية للإمبراطورية، وتبعد عنها المدن الغنية القائمة على الساحل السوري والفينيقي مسافة ألف ومئتي كيلومتر أخرى. وفي ذلك الصيف اشتعلت الحرائق في القرى الواقعة وسط تركيا، وأسر الهون/ العبيد في سوريا بلغ تعدادهم ثمانية عشر ألفاً وفقاً لأحد المصادر.

تناهت أخبار وصولهم في بيت لحم إلى مسامع جيروم العالم ثم القديس لاحقاً، فارتعدت فرائصه. كان جيروم قد ولد في شمال إيطاليا، وتلقى تحصيله العلمي في روما، حيث اعتنق الديانة المسيحية. بعد ذلك أقام سنوات عدة في أنطاكية في محاولة لإيجاد وسيلة لحلّ النزاع المرير بشأن مذهب الأريانية، تلك البدعة التي تُنكر ألوهية السيد المسيح. وكان قد طاف في كل البقاع المعنيّة بهذا الشان: روما واليونان والأراضي المقدسة ومصر؛ واستقرّ أخيراً في بيت لحم كما كان يعتقد. ولقد استقر رأيه الآن على أنّ أمله الوحيد في النجاة يتمثّل في الفرار إلى الساحل. وعندما انقضى كل شيء بعد ذلك بعام كتب عن تجربته قائلاً:

«ها هي ذي الذئاب! ليست تلك الوافدة من شبه الجزيرة العربية، وإنما من الشمال، وقد سُلّطت علينا في العام الماضي من صخور منطقة القوقاز النائية، واجتاحت في برهة من الزمن أقاليم مترامية الأطراف. كم عدد الأديرة التي تم الاستيلاء عليها؟! وكم عدد الجداول التي تخضّبت مياهها بدماء البشر؟!... حتى وإن كان عندي مئة لسان، ومئة فم، وصوت من حديد..، أجدني عاجزاً عن سرد اسم كلّ كارثة... لقد ملؤوا الأرض كلّها ذبحاً وسفكاً، وبثوا الذعر والرعب في النفوس وهم يحلّقون على صهوات خيولهم السريعة هنا وهناك... كانوا قريبي المنال في كل مكان قبل أن يتوقع ظهورهم، وكانت سرعتهم تسبق الإشاعة، ولا يشعرون بالشفقة تجاه أي من الدين أو المنزلة أو السن أو نُواح الأطفال. أما أولئك الذين بدؤوا حياتهم توّاً فقد أُرغموا على الموت، وجهلاً منهم بالخطب الجلل الذي أصابهم ارتسمت الابتسامة على ثغورهم بينما كان الأعداء يستلّون سيوفهم... أما نحن فقد اضطررنا إلى تهيئة السفن، والانتظار على الشاطئ، واتخاذ التدابير الاحترازية اللازمة لمواجهة العدو لحظة وصوله، والخشية من البرابرة كانت أكثر

من حطام سفينة غارقة، على الرغم من أن الرياح كانت تعصف».

رأى كاهن مسيحي في سوريا هو كيرللوناس أن إيمانه أوشك على التلاشي بسبب التخلي الجليّ للرب عنه، وقد عبّر عن ردة فعله في قصيدة مؤثرة من نظمه:

«تطالعنا في كل يوم أخبار عن وقوع اضطرابات، ومحن، وضربات جديدة، لا شيء سوى المعارك.. لقد أصبح الشرق أسيراً، وخلت المدن المدمرة من الناس... والموتى هم من التجار والأرامل من النساء... وإذا ما تمكّن الهون مني، رباه! فلماذا استجرت بالقديسين الشهداء؟! وإذا ما أعملوا سيوفهم قتلاً بأبنائي، فلماذا عانقت صليبك المجيد؟! وإذا ما سلمتهم مُدني، فما هو المصير الذي سيؤول إليه مجد كنيستك المقدسة؟!... لم يمض عام على مجيئهم وإلحاقهم الدمار بي وأخذهم أبنائي سجناء، ويا للعجب! ها هم الآن يهدّدوننا ويتوعّدوننا من جديد بإذلال أرضنا».

لكنّ الهون لم يبلغوا فلسطين حقاً، ولقد عاد جيروم إلى داره في بيت لحم. ولم يقع أي هجوم ثان؛ لأن توغل الهون أسفل نهري دجلة والفرات لفت انتباه الفرس، وكان الجيش الفارسي، لا الروماني، هو الذي دحرهم وردّهم على أعقابهم شمالاً، واستردّ ما نهبوه من سلع، وأفرج عن ثمانية عشر ألفاً من السجناء. وحين بلغت مسامع بريسكوس الموظف المدني اليوناني قصة هذه الغارة بعد مرور خمسين عاماً ونيف، قيل له: إن الهون سلكوا طريقاً مختلفة ليتفادوا المطاردة، فمروا «باللهيب المنبعث من الصخور تحت سطح البحر»، وذلك في إشارة ربما إلى شاطئ بحر قزوين الغني بالنفط. ويشير ماركو بولو إلى الظاهرة ذاتها، واصفاً «ينبوعاً ينبثق النفط منه بغزارة... ولا يصلح استخدام هذا النفط في الطعام، لكنه يصلح للحرق».

ولئن لم تُحقّق الغارة نجاحاً كاملاً فإنها كانت مع ذلك إنجازاً مذهلاً. ولربما عانى الهون إلى حدّ ما من نقص في الغنائم والأرقاء، لكنهم قاموا إلى حدٍّ كبير بتوسيع معرفتهم الجغرافية وخبرتهم العسكرية، إذ لم يسبق لهم أن أطلقوا حملة على غرار هذه الحملة؛ فقد عزّ نظيرها، وقل مثيلها من حيث السرعة والوحشية، وما زالت لا تضاهى طوال ثمانمئة عام، إلى أن قام جنكيز خان زعيم المغول - الذي كان يقترب من الجانب الآخر - بتقطيع أوصال بلاد القوقاز في غارة شنّها على روسيا هي الأولى من نوعها، ولا بد من أن ذلك منحهم ثقة هائلة بأنفسهم. ترى ما الذي سيقصّرون عن تحقيقه إذا ما هاجموا الإمبراطورية الشرقية من جديد، وقد سلكوا في هذه المرة الطريق المباشرة في الجنوب التي تمرّ من خلال البلقان، وتبعد مسافة ثمانمئة كيلومتر فحسب عن

سهول هنغاريا، وهو ما يمثل خمس المسافة التي قطعوها من توّهم؟

مرت تسع سنوات، وظلّ الهدوء مخيِّماً على الجبهة الشمالية. ولعل الأرقاء القوط كانوا أوفر إنتاجاً، وأصبح نهر تيسا رقراقاً ينساب بهدوء، ممّا جعل الغنائم التي سلبوها في الغارة على بلاد القوقاز كافية. وفي ظل الزعيم الجديد أولدين استطاع الهون أن ينالوا الحظوة عند القسطنطينية، وذلك من خلال تعاملهم مع إحدى الشخصيات الأكثر إزعاجاً للإمبراطورية الشرقية، وهو زعيم قوطي يُدعى جايناس كان قد خان منصبه باعتباره قائداً عسكرياً في الإمبراطورية. وقد وضعت حرب قصيرة وحادّة أوزارها بمصرع جايناس، الذي أُرسل رأسه هدية للإمبراطور أركديوس.

وإذا وضعنا تلك الغزوات جانباً فقد مكث الهون في وطنهم يتحيّنون الوقت المناسب لهم، إلى أن حلّ فصل شتاء عام 404 - 405، حين قاد أولدين جيشاً من خلال نهر الدانوب المتجمّد في طريق عودته إلى تراقيا. وكان ذلك تمرين إحماء فحسب، وبعد ما يقرب من أربعة أعوام؛ أي في عام 408، عاد على رأس غزو واسع النطاق. وقد كانت تلك لحظة مؤاتية لتوجيه ضربة؛ لأن القوط كانوا في طريقهم إلى روما، وثمة هجرة جماعية للوندال وجماعات سواهم من خلال نهر الراين، وكان جيش الإمبراطورية الشرقية قد ابتعد لتعزيز الحدود مع فارس. وأحدث مقدَمُ الهون موجات صادمة امتدّ تأثيرها إلى القدس، حيث خلص جيروم إلى أن عقاباً من الرب نزل على العالم الروماني غير الأخلاقي على هيئة قبائل متوحشة «يتشبّهون بالنساء، ويحدثون جروحاً عميقة في وجوهم، ويطعنون ظهور الرجال الملتحين في أثناء فرارهم».

ولم يكن ثمة سبيل لوقف الهون بالقوة، وهكذا قام قائد عسكري روماني لم يُكشف عن اسمه باتّخاذ الاستعدادات الضرورية لإجراء محادثات سلام وعرض تقديم المال. وفي وقت مبكر من صبيحة يوم صيفي التقى الزعيمان في مكانٍ ما على حدود تراقيا، وذلك لم يترك أثراً طيباً في نفس أولدين، وقد أشار إلى الشمس المشرقة، قائلاً: إن باستطاعته الاستيلاء على كل الأراضي التي تضيئها إن لم يدفع الرومان ما يكفي. ولسوء طالعه فقد كان بعض ضباطه توّاقين إلى قبول ذلك العرض، فانشقوا عنه، مفسحين بذلك المجال أمام الرومان لإلحاق هزيمة منكرة بالقوات الموالية لأولدين وجرّهم بالعربات إلى القسطنطينية وهم مقيّدون بالسلاسل. أما المصدر الرئيس لهذه الحكاية فقد كان سوزمن، وهو مؤرخ كنسيّ وضع مؤلفاته في القسطنطينية في منتصف القرن الخامس، وروى أنه شاهد في وقت لاحق كثيراً من هؤلاء الرجال وهم يعملون في المزارع الواقعة قرب جبل أوليمبوس. وبعدما تقوّضت سلطة أولدين إلى حدٍّ بعيد استطاع النجاة بأعجوبة وقفل

عائداً من حيث أتى من خلال نهر الدانوب، وأرغمته سفن الخفارة الإمبراطورية التي تم إرسالها على عجل لتعزيز أسطول نهر الدانوب على البقاء في مكانه.

وأخذت تتكشّف مطالب أولدين: إذ لم يكن راغباً في حيازة الأرض، أو الحقّ في الاستقرار على النحو الذي كان القوط يطالبون به قبل أربعين عاماً؛ لأنَّ من شأن قيام الهون بالاستيطان في منطقة جديدة أن يفرّق جمع شعبه، ويبدّد شملهم، ويُضعف سلطته. لقد كان في حاجة إلى المال؛ لأن البداوة الرعوية لم تعد كافية حتى عندما تُدعَم بالفلاّحين الأرقاء. وللحفاظ على حكمه كان في حاجة إلى الوحدة الوطنية، وليس في استطاعته تحقيق ذلك إلاّ إذا توافر لديه المال لشراء الولاء. وكان المصدر الجلي للثروة يتمثل في روما والقسطنطينية، ولكي يضع يديه على المال كان يحتاج إلى جيش قوي. ولا بد من أجل الحفاظ على السلطة والوحدة من توافر: السلطة، والوحدة، والتحكّم بالأتباع، والقدرة على التأثير على روما والقسطنطينية، والمال. وفي ذلك الحين كان الهون عالقين في دوامة الغزو الذي كان التراجع عنه يعني الإخفاق، والخزي، والفقر، والانهيار.

كان لدى الهون وطنهم الجديد الذي اختصّوا به لأنفسهم إلى حدٍّ بعيد، بيد أن سلطة أولدين قد وهنت بفعل حملة عام 408، وانفضّ عنه أتباعه، وحذا حذوهم جماعات من قومه؛ حيث تجاهلوه، واندفعت مجموعات صغيرة من الهون من تلقاء نفسها، وانضم بعضهم إلى القوط في زحفهم على روما، بينما التحق بعضهم الآخر بالوحدات العسكرية الرومانية التي تدافع عنها.

ماذا عسى أولدين أن يفعل إزاء ذلك كله؟! ما من أمر له أيّ تأثير على العالم الواقع وراء نهر الدانوب. بل لقد قام عوضاً عن ذلك بتعزيز سلطته محلياً، ولا سيما على جماعة صغيرة تعرف باسم الجيبيداي، الذين كانوا يقيمون على الأراضي المعشوشبة شرق نهر تيسا، وفقاً لما تبين لعلماء الآثار نتيجة دراسات أجروها على قرابة مئة موقع، يحتوي العديد منها على أمثلة من إبزيم على هيئة رأس نسر من الفضة الذي كان الزينة التي تميّز بها الجيبيداي، ومنذ ذلك الحين أصبح الجيبيداي من الاتّحاد الهوني. ومن نواحٍ أخرى فإنّ ما كان الهون منهمكين فيه في العقدين الأولين من القرن الخامس تعتوره الثغرات. وقدم أحد المؤرخين - وهو أولمبيدورس من أبناء مدينة طيبة بمصر - سرداً غنياً وتفصيلياً للزيارة التي قام بها إلى أحد ملوك الهون ويدعى شاراتون قرابة عام 412. ونحن نعلم ذلك لأن آخرين أتوا على ذكره، لكننا لم نطالع أي أثر يدل عليه في عمله الأصلي، أو في الحقيقة تاريخه الواقع في اثنين وعشرين مجلداً. وإذاً: فإنّ شاراتون يبقى

مجرد اسم لا أكثر.

ويبدو من المرجح أن خلافات نشأت في العلاقات التي تربط بين الهون والإمبراطوريتين الشرقية والغربية. ويلقي قانونان شرقيان صدرا في عامي 419 و420 أضواء صغيرة وسط العتمة، مما يوحي بأنّ طموحات شاراتون كانت موجّهة نحو الشرق؛ يقضي أولهما بإنزال عقوبة الإعدام بأي شخص يفشي سرّ فنّ بناء السفن إلى البرابرة؛ بينما يحظر ثانيهما تصدير سلع معينة من خلال البحر. وتوحي هذه التفصيلات الغريبة في بابها بأنه كانت هناك طموحات لبناء إمبراطورية منقولة بحراً لدى الهون الذين يعانون الفاقة والعوز وإنما ما زالوا موحدين، وأن الرومان الشرقيين وضعوا حداً لهم، وإذا كان الأمر كذلك فلربما كانت المعارضة الإمبراطورية السبب في أن ينظر الهون من جديد في سبل كسب العيش من خلال ممارستهم أعمال السلب والنهب.

ومن الجلي أنّهم قاموا فعلاً بأعمال سلب ونهب، وتلك نتيجة يمكن استخلاصها من مرسوم بلغنا يتعلّق بحصون القسطنطينية ووسائل الدفاع عنها، ولا سيما الأسوار الجديدة، التي بُدئ بتشييدها في عام 413 رداً على تهديد الهون. ولقد أُطلق اسم الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني على هذه الأسوار، لكنه كان ما يزال طفلاً حينما كان العمل جارياً على قدم وساق لإقامتها. والواقع أن صاحب فكرة هذا العمل ومن نجح في إنجازه هو الوصيّ على العرش الحاكم البريتوري [الشرعي] أنثيميوس، الذي كان قد فعل الكثير لحماية الإمبراطورية الشرقية. وإلى جانب أمره بإحداث دوريات بحرية جديدة على نهر الدانوب كان قد وقّع معاهدة سلام مع بلاد فارس، وعمل على تحسين العلاقات مع روما. والآن أصبحت هناك أسوار جديدة؛ لأنه على الجانب المتّجه نحو اليابسة تضخمت المدينة إلى حدّ الاستغناء عن حصون قسطنطين القديمة، وتوسّعت على امتداد السهل الواقع وراءها، وهو أمر ينطوي على خطر واضح في زمن الحرب. وقد امتدت الأسوار الجديدة مسافة خمسة كيلومترات، من بحر مرمرة وصولاً إلى خليج القرن الذهبي، واحتوت على تسع بوابات، وعشرات الأبراج. كانت الأبراج كبيرة بما يكفي لكي تسهم السلطات في مشروع خاص صغير، مما أفسح المجال أمام أصحاب الأرض الأصليين لاستخدام الطوابق السفلية، بعدما تم إعفاؤهم من القيود المعتادة بأنه ينبغي أن تكون المباني الحكومية متاحة لاستخدام القوات العسكرية عند الضرورة. وبعد تسع سنوات كان السور في موضعه الصحيح، ولم تعد السلطة بين يدي ثيودوسيوس البالغ من العمر خمسة عشر عاماً، إنما بين يدي أخته بولكيريا الطموحة والأكبر سناً. ولذلك فمن المحتمل أنها صاحبة فكرة إصدار مرسوم مثير

للجدل لأولئك الذين يعيشون في الأبراج الجديدة. فمن الآن فصاعداً ستُتاح «الغرف في الطابق الأرضي في كل برج من الأبراج التي يحتوي عليها السور الجديد» للجنود الذين يتهيّؤون للحرب أو العائدين منها. «ولن يتضرّر مالكو الأرض» نتيجة التبدّل الذي طرأ على استخدامها، وذلك ما قاله مَنْ صاغ مشروع هذا القانون، وهو يعلم جيداً بما فيه الكفاية ما سيثيره من احتجاجات، «وقد جرى العرف أن يقدّم حتى أصحاب البيوت الخاصة ثلث ما يمتلكونه من مساحة من أجل هذا الغرض».

ترى أكان هذا ضرورياً؟! وينبئنا تعليق موجز مصدره مؤرخ إخباري عاش في القرن السادس هو مارسيلينوس كومز فيقول: «إن الهون يعملون في تراقيا تدميراً وتخريباً»، من دون أن يقدّم لنا مزيداً من التفصيلات.. وقد كان ذلك دوياً بعيداً جداً لا يستدعي التعليق في تلك اللحظة!

اتخذت العلاقات مع الإمبراطورية الغربية مساراً مغايراً إلى حدّ ما، وبدا كل شيء في هذا الاتجاه على خير ما يرام. وتم إدراج بعض الجماعات من الهون في قائمة الحلفاء (الفوديرتي)، وقدمت لهم أرضٍ تقع في مكان قريب من الطرف الشرقي لبحيرة بالاتون، وراح الهون يشكّلون وحدات عسكريةً لتلتحق في صفوف الجيش النظامي. وعلى الصعيد المحلي يبدو أنّ الهون والرومان كانوا يعيشون جنباً إلى جنب في جوّ من التسامح المتبادَل، حتى تحت أعين الجنود الرومان الذين واصلوا تزويد قلعة فالكوم العظيمة بالرجال، وقاموا بحماية الطرق المؤدية إلى المنطقة الواقعة حول الطرف الغربي لبحيرة بالاتون من خلال المنطقة المعروفة عند الرومان باسم فاليريا. ويتبين من خرائبها القائمة بجانب القرية التي يطلق عليها في يومنا هذا اسم فينيكبوزستا أن هذه الساحة المربّعة البالغة أبعادها 350 × 350 متراً مربعاً، وفيها أربعة وأربعين برجاً وأربع بوابات تطلّ كلّ واحدة منها على إحدى الجهات الأربع كانت مَدينةً بقدرِ ما كانت حصناً، وتضمّ مركز قيادة، وإدارات حكومية، وكنيسة، وبناء يبلغ طوله مئة متر ربما اتخذ سوقاً يومية للتجارة. ويظهر محراث قديم بلغنا وغيره من الأدوات الزراعية أنّ المدينة كانت تعتمد على الريف المحيط بها للتزوّد بالمؤن. ويوحي سندان تبلغ زنته اثنين وثمانين كيلوغراماً بوجود قدرات صناعية. وكان يسكن فالكوم الحدادون، والبناؤون، والخزّافون، والدبّاغون، والنسّاجون، والصّاغة الذين لم يكونوا ينتجون الذهب الخاص بهم، وذلك استناداً إلى البقايا التي عُثر عليها في ورشة العمل، بل اقتصر عملهم على إعادة تشكيل القطع الموجودة وإصلاحها فحسب. ولا بدّ من أنّ الآلاف من الأشخاص كانوا يقيمون فيها، وتطلع الآلاف إليها من أجل التجارة، ومن بينهم كان الهون

المحليون كما يبدو.

وفي تلك الظروف المواتية - وربما قرابة عام 410 - وقع مراهق روماني هو فلافيوس إيتيوس رهينةً لدى الهون مدة من الزمن، وكان من شأن هذا الحدث الصغير أن تكون له عواقب خطيرة على أنحاء أوروبا كافة. و«الرهينة» هي الكلمة المستخدمة عادة، لكنها ليست صحيحة تماماً، ولربما كان هذا الشاب قد أرسل بصورة رسمية لسببين: باعتباره دليلاً على حسن النوايا ولمبادلته بهوني ذي مكانة مرموقة مماثلة؛ وبوصفه نوعاً ما سفيراً شاباً، وهو ما يعادل وظيفة متطوع لما وراء البحار أو متطوع في فيلق السلام، ولربما عُهدت إليه مهمة ضمان قيام علاقات جيدة بين الجانبين وتدفق المعلومات، ولعله كان في الواقع جاسوساً تحت مسمى آخر شأنه شأن أيّ سفير. وكان قد سبق له أن اضطلع بالدور ذاته بين ظهراني القوط تحت حكم ألاريك، وبقي معهم مدة ثلاث سنوات. وبذلك فإن خبرة إيتيوس السابقة جعلته مؤهّلاً على نحو فريد ليكون وسيط سلام، و ليكون بمثابة مستشار عسكري إذا لزم الأمر، وقد كان يتحدث اللغات القوطية، والهونية، واللاتينية، واليونانية، وكان لديه أصدقاء في كل مكان. وقد وظف معرفته واتصالاته للحفاظ على السلام مع الهون طوال الأعوام الثلاثين المقبلة، وذلك الإنجاز أفاده في الارتقاء ليصبح أعظم قائد عسكري عرفته الإمبراطورية.

وسرعان ما أُحسن استخدام خبرة إيتيوس؛ ففي عام 423 مزقت الحرب الدائرة بين روما والقسطنطينية أوصال الإمبراطورية، وتلك كانت حرباً أهلية عند أولئك الذين ما يزالون ينظرون إلى الإمبراطورية بوصفها واحدة؛ فقد نُصّب مغتصب الحكم جون (يوهانس) الذي كان موظفاً مدنياً فحسب إمبراطوراً في رافينا، وخرج جيش شرقي للإطاحة بحكمه وتنحيته. كان جون في حاجة إلى العون، وفي استطاعته أن يتوسّل بما لدى إيتيوس - الذي كان آنذاك في العقد الثالث من العمر - من نفوذ عند أصدقائه الهون. وفي عام 425 عاد إيتيوس إلى الهون حاملاً معه صناديق من الذهب. كان ذلك دفعة أولى فحسب، على أن تليها مزيد من الدفعات حالما يُمنى الشرقيون بالهزيمة. وزحف نحو إيطاليا جيش ضخم من الهون، فقد تحدّثت التقارير في وقت لاحق أن تعداده بلغ ستين ألف رجل، لكن الباحثين يقرّون بأن التقارير جميعها مبالغ فيها إلى حدّ بعيد، ربما يبلغ عشرة أضعاف. لقد هاجم ذلك الجيشُ الجيشَ الشرقي من المؤخرة بعيد بلوغهم رافينا. لكن كان الأوان قد فات؛ إذ نُفّذ حكم الإعدام في جون قبل ثلاثة أيام. وقد قاتل الهون على أي حال، إلى أن رأى إيتيوس أنه لا فائدة تُرجى، وعقد الصلح معهم، وفي مقابل ذلك تم الحصول

على مزيد من الذهب من أجل ذلك الجيش المخادع. ولم يكن ذلك ينطوي على أي عقيدة فكرية (أيديولوجيا) معينة أو ولاء، ولسوف يحارب الهون لصالح من يدفع لهم، وراق لهم البقاء في خدمة الإمبراطورية. لكن الحكام الجدد في رافينا كانوا توّاقين إلى التوصّل إلى سلام أشمل. والآن وقد بات إيتيوس يحمل لقب «قومس» (كونت) تمّ إيفاده من أجل تنظيم الحدود الشمالية التي تعصف بها الاضطرابات في بلاد الغال، حيث بقي طوال الأعوام السبعة المقبلة، وعاد الهون إلى ديارهم؛ أي بانونيا وفاليريا، حيث أبيح لهم على ما يبدو الاستيلاء على الأراضي والقلاع من دون أن يلقوا أي معارضة تذكر؛ تقديراً لما قدموه من عون.

وبفضل إيتيوس والإمبراطورية الغربية استطاع الهون إذاً تعزيز سيطرتهم على ما يعرف الآن باسم هنغاريا، وهي قاعدة وطيدة الأركان للقادة من ذوي الطموحات العريضة. (ولم تكن تلك المرة الأخيرة التي يدعم فيها الغربيون البرابرة أملاً في السلام، بيد أنهم وجدوا أن صنائعهم قد تحولوا إلى أناس بغيضين.) وكان الزعيمان اللذان نحن بصددهما شقيقين؛ هما: أوكتار وروغا، لا أحد يعلم من أين أتيا. ولربما كانا يتحدّران من بالامبر، أو باسيك، كورسيك، أولدين، شاراتون الذي يكتنفه الغموض، أو لعلهما كانا سليلي قبيلة جديدة محدثة النعمة. ولقد ألهما كافة ضروب النقاش الأكاديمي بشأن طبيعة «الملكية الثنائية»، ومبرراتها. ومن المحتمل أنه لم يكن هناك قدر كبير من الغموض؛ لأنّ ذلك كان قد وقع من قبلُ بين ظهراني الهون ووقع من جديد في وقت لاحق مرتين. وعلى الأرجح أن كلاً منهما ببساطة تولّى حكم أجزاء مختلفة من الأراضي؛ روغا في الشرق، وأوكتار في الغرب. وقصارى القول إن الملكيات الثنائية غير مستقرة والشاهد على ذلك ما وقع بين روما والقسطنطينية. ولبلوغ تلك القمم كان كل من هذين الرجلين طموحاً لا تعرف الرحمة طريقاً إلى قلبه، وكانت الخصومة أمراً لا مفر منه تقريباً.

لم تحقق حملتهما الأولى النجاح، ولمّا كانت الإمبراطورية قد ضربت حولهما سياجاً في البر والبحر فقد شنا هجوماً على الضحايا الوحيدين المتاحين لهما؛ وهم الشعوب الجرمانية على طول نهر الراين في الجهة الشمالية الغربية، ومن جملتهم بقايا قبيلة تعرف باسم البورغونديين أو النيبلونجس (Nibelungs)[1]، وكان معظم أقاربهم قد عبروا نهر الراين قبل نحو خمسة عشر عاماً. لم يكن أولئك البورغونديون الذين بقوا يشكّلون أيّ تهديد لأحد، وكانوا البقية الباقية التي خلفتها وراءها؛ أي هجرة القبائل، وطاب لهم العيش بسلام، وكانوا يعملون غالباً نجّارين في وادي نهر

(1) نسبة إلى زعيم سابق يدعى نيفلونج (Niflung).

الماين. وروى حكايتهم مؤرخ كنسي يدعى سقراط، في مؤلَّف وضعه بعد بضع سنوات. والآن يأتي الهون فجأة، ويحلّ الدمار والخراب. ويقرّر البورغونديون وقد اعتراهم الذهول التماسَ العون من روما، وذلك عن طريق إرسالهم وفداً عبر نهر الراين وطلبهم أسقفاً لجعلهم يعتنقون المسيحية، ولقد وفقوا في ذلك؛ إذ أدى تحوّلهم هذا إلى إحياء الروح لديهم. وحينما جاء الهون من جديد استطاع ثلاثة آلاف رجل بورغوندي قتل عشرة آلاف من الهون، كان من بينهم الحاكم المشارك أوكتار Octar، ويسلم هذا الفرع الصغير من القبيلة من الخطر. ولا ريب في أنّ ثمة مغالاة في الأرقام، لكن ربما هناك بعض الحقيقة في هذه القصة؛ لأن اعتناق البورغونديين [المسيحية، م] مذكور في كتاب «تاريخ العالم» لمؤلفه الكاتب الإسباني أوروسيوس الذي عاش في القرن الخامس. ومع ذلك فقد الهون كثيراً من الرجال، ولا بد من أنهم استخلصوا العبرة من الصعوبات التي تعترض العمل في غابات جنوب ألمانيا.

وما إن لقي أوكتار مصرعه في عام 432 حتى بزغ نجم روغا بوصفه الزعيم الأوحد، وكان هو المسؤول عن تعزيز الصلة بصديق الهون القديم إيتيوس، الذي أصبح ضحية صراع داخلي وحشي في روما. وبعدما أقيل من منصبه على يد غالا بلاسيديا الوصيةِ على العرش فرّ هارباً من خلال البحر الأدرياتيكي إلى دالماسيا، ومن ثم إلى الشمال من خلال المنطقة المحرّمة حيث كان الرومان والجرمان والقوط والسرامطة والهون في حالة من الفوضى لا فكاكَ منها، و من خلال نهر الدانوب إلى قلب المنطقة الخاضعة للهون. وهنا أمدَّ روغا حليفه القديم إيتيوس بعصبة من المرتزقة، ووفّر له ما يلزمه من غطاء عسكري للعودة إلى دياره واستعادة موقعه من بلاسيديا الوصية على العرش - الإمبراطورة[1]. وفي العام ذاته، أُسند إليه منصب القنصل؛ وتلك كانت المرة الأولى التي يتقلّد فيها هذا المنصب الذي شغله ثلاث مرات، وعُيّن قائداً عاماً للجيش الغربي، وأُرسل من جديد لحماية الحدود من هجمات الفرنجة.

كان روغا - على ما يبدو - الرجل الذي وضع الأساس المتين لمملكة الهون، وكان يمتلك جيشاً قوياً بما فيه الكفاية لشنّ غارات ناجحة على الرومان الشرقيين، وموفدين لديهم من الذكاء

(1) من السهل قول ذلك؛ لكن هذه الرواية شأنها شأن العديد من الروايات التي تعرض للجذور الاجتماعية أو السياسية لحادثة أو وضع ما تُخفي في طياتها قصائد ملحمية. كان إيتيوس يقف في مواجهة المدعو بونيفاتيوس أو بونيفاس، الذي كان ذات مرة الحاكم العسكري لشمال أفريقيا، والمنافس على السلطة في إيطاليا، وبالتالي كان خصم غالا بلاسيديا الوصية على العرش. ولما عاد من شمال أفريقيا سوّى خلافه مع غالا بلاسيديا، وما لبث أن أصبح بطلها في مواجهة إيتيوس. ولقد أنزل إيتيوس الهزيمة ببونيفاس لكي يستعيد منصبه - في موقعة واحدة، وفق ما جاء في الأسطورة.

ما يكفي للتفاوض بشأن ضريبة مقدارها ثلاثمئة وخمسين رطلاً من الذهب، إضافة إلى وعد آخر بإعادة اللاجئين الهون. لم يكن ذلك بمثابة نصر كبير، وليس مبلغاً ضخماً؛ وإنما نقطة انطلاق جيدة في كلتا الحالتين. ولقد دُفع له المال بصورة مباشرة، مما يعني أن لديه السلطة لتوزيعه، وبالتالي الحفاظ على ولاء زعمائه. وإذا ما اعترض بعضهم - وهو ما قامت به بضعة عشائر بأكملها - لاذوا بالفرار بحثاً عن ملجأ عبر الحدود بوصفهم مهاجرين غير شرعيين. ولن يقوى روغا على تحمّل ذلك إذا أراد الحفاظ على سلطته وتوسيع نطاقها. فما كان منه إلاّ أن فرض قيود صارمة على القبائل الأقلّ طاعة وطالب بعودة الخارجين على القانون من روما.

وفي هذه المرحلة في منتصف الثلاثينيات من القرن الخامس توفّي روغا، إلاّ إذا أردنا أن نصدّق الرواية الميلودرامية التي أوردها المؤرخ الكنسي سقراط الذي ذهب إلى القول إنّ الرب كافأ الإمبراطور ثيودوسيوس على خشوعه وتقواه بأن وجّه إلى روغا ضربة صاعقة أردته قتيلاً، وأعقب ذلك تفشّي وباء الطاعون وسقوط النار السماوية اللذين أهلكا أتباع روغا. لكن سقراط لم يقدّم لنا تفسيراً لسبب حفظ الربّ أخوي روغا المتبقيين موندزوك وآيبارس (Oebarsius في صيغته اللاتينية)[1]. وكان لدى الأخ الكبير بينهما موندزوك ولدان، وقد انتقل هذا الثنائي الآن إلى مركز الصدارة في ملكية ثنائية أخرى، وقد أخذا على عاتقهما مهمة توحيد صفوف رعاياهما صعبي المراس، وضمان تدفّق الأموال والسلع من الرومان الشرقيين منهم والغربيين.. كان أولهما يُدعى بليدا؛ وأخاه أتيلا.

(1) بالنسبة إلى أولئك التوّاقين إلى الحصول على دليل يربط بين الهون الغربيين والهيونغنو فما يزال اسم موندزوك مستخدماً في دولة توفا الصغيرة المستقلة حديثاً الواقعة بين منغوليا وسيبيريا، وأدى مكسيم موندزوك دور الصياد في فيلم (Desu Uzala) الحائز على جائزة كوروساوا لعام 1975.

5

الخطوات الأولى نحو بناء الإمبراطورية

كان نسطوريوس أسقفُ القسطنطينية الأسبق رجلاً يشعر بالمرارة والغضب، إذ دخل في نزاع يتّصل بالمشكلة المحورية التي قسمت المسيحية في أيامها الأولى: هل السيد المسيح إله أم بشر أم مزيج من هذا وذاك؟! وتبيّن له أن ما كان يعده - لا بل ما يعلم - أنه الحقيقة ومفادها أنه على الرغم من أن السيد المسيح كان إلهاً وإنساناً في الوقت ذاته، إلاّ أنّ فيه شخصين متميّزين؛ لأنه من الواضح تماماً أن الجانب الإلهي فيه لم يكن أبداً طفلاً بشرياً. وبناء على ذلك لا يمكن أن تكون مريم والدة الإله؛ لأن ذلك يوحي بأن امرأة فانية يمكن أن تلد إلهاً! مما ينطوي على تناقض. ولذلك كان نسطوريوس محقاً، وجميع المسيحيين الذين خالفوه الرأي كانوا على خطأ؛ أي أولئك الذين قبلوا العقائد المنصوص عليها في مجمع نيقيا المنعقد في عام 325، وسائر المهرطقين المناهضين لقرارات نيقيا.

ولم يقدر العالم نفاذ بصيرته. وكان منافسه الكبير كيرلس الإسكندري قد أدانه ونفاه إلى الواحة الواقعة في أقاصي جنوب مصر. ومع انقضاء الثلاثينيات من القرن الخامس بتثاقل انتقد بقسوة ما لحق به من ظلم، ولسوف ينتقم من كثيرين، أو بالأحرى سوف ينتقم الله له. والواقع أن الانتقام الإلهي كان قد بدأ بالفعل، وإلا فكيف يمكن تفسير صعود نجم الهون؟! فقد كانوا ذات يوم منقسمين على أنفسهم، وليسوا أكثر من لصوص فحسب، أما الآن فقد أصبحوا فجأة موحَّدين، ومن المرجح أن ينافسوا روما ذاتها. ولا ريب في أنّ ذلك هو العقاب الذي أُنزل بالعالم المسيحي جزاء «انتهاكه لتعاليم الدين القويم».

وقد يكون نسطوريوس ضعيفاً عند تناوله الأسباب، إلاّ أنه كان مصيباً في عرضه للمسألة؛ فقد صعد بالفعل نجم الهون، ولم يعودوا أولئك السلاّبين النهّابين الوضيعين. وبحلول أواخر الثلاثينيات من القرن الخامس أصبحوا يمارسون أعمال السلب والنهب على نطاق واسع. والواقع أنه لا دخل لذلك في تأييد الله لنسطوريوس، بل يتصل ببزوغ نجم بطلنا ونقيضه أتيلا.

وطوال عقد من الزمان بعد وفاة روغا قرابة سنة 435 كانت يدا أتيلا مغلولتين بفعل مشاطرته أخاه الأكبر بليدا الحكم. وطوال تلك السنوات العشر عمل الرجلان معاً لتوطيد مملكتهما، وكان أتيلا الشريك الأقل أهمية، مما زاد في استيائه ضغثاً على إبالة.

ما يزال الغموض يكتنف كيف وصولا إلى السلطة والأسباب الكامنة وراء ذلك، ولا نعلم شيئاً عن طفولتهما في السنوات الأولى من القرن الخامس، ولا تسعفنا كثيراً أسماؤهما الشائعة

إلى حدّ كبير في اللغة الجرمانية. والاسم بليدا (Bleda) هو الصيغة المختصرة لاسم من هذا القبيل بلاداردوس/ بلاتغيلدوس (Bladardus/ Blatgildus). ويشتق أتيلا اسمه من كلمة عطا atta التي تعني «الأب» في كل من اللغة التركية والقوطية، إضافة إلى صيغة التصغير إيلا ila؛ ويعني «الأب الصغير»، حتى إن هذا الاسم انتشر عبر القنال في بلاد الأنغلوساكسون، وحمله أسقف دورتشستر، وكذلك فعل شخص محلي عظيم الشأن تذكره قريتا أتلبورغ وأتلبريدج في [مقاطعة] نورفولك. ربما لم يكن ذلك الاسم الأصليّ لأتيلا الذي نحن بصدده، وإنما لفظة تنمّ عن المودة والاحترام أُسبغت عليه لدى ارتقائه العرش، وهي الصيغة الهونية لكلمة (dedyshka) («الجد») التي نعت بها الروس ذات يوم لينين وستالين.

بادئ ذي بدء، بدا كل شيء مهيئاً لكلا الأميرين؛ فقد كانا في حالة سلام مع روما الغربية، ومستقرّين ليجمعا ما بين الجماعات المحلية ويركّزا على استنزاف الشرق، ولم يخلُ ذلك كله من المرارة. ولا بد أنّ مصرع روغا قد أطلق العنان لاندلاع بعض المشاحنات بين الأخوين اللذين تقاسما في الوقت الحاضر المملكة فيما بينهما؛ فكانت المنطقة الواقعة باتجاه مجرى النهر - وهي رومانيا الحالية - من نصيب أتيلا، بينما تولى بليدا الحكم في هنغاريا، وهي الإقليم الأمامي الذي تتوافر لديه حرية الوصول إلى الغرب الغنيّ على نحو أشد يسراً. ولا بد أن كلاً منهما كان يطالب أقاربه والزعماء الخاضعين له بالإخلاص له، متوعّداً مهدّداً بالثبور وعظائم الأمور؛ لأن اثنين من أبناء العمومة الملكيّين فرّا هاربين إلى الجنوب، بعدما قاما بنبذ قومهما وبحثا عن ملجأ بين ظهراني أعدائهما المفترضين.

وفي السنة التي لقي روغا مصرعه فيها أنجز أتيلا وبليدا معاً الصلح المتّفق عليه بين عمهما والإمبراطورية، ويمّما وجهيهما جنوباً شطر حصن كونستانتيا الحدودي الواقع تجاه مدينة مارغوس[1]، ويتولّى حماية مصبّ نهر مورافا، حيث ينضمّ إلى نهر الدانوب على بعد خمسين كيلومتراً شرق مدينة بلغراد داخل حدود رومانيا في الوقت الحاضر. وفي هذا المكان قابلهما بالترحاب بلينثا سفير القسطنطينية، وهذا اختيار موفّق على حد وصف بريسكوس؛ فقد كان بلينثا ذاته من «السكيث»، وهو مصطلح يطلق على أيّ من البرابرة، أو البرابرة السابقين كما في هذه الحالة. ومما لا ريب فيه أن بلينثا وذراعه الأيمن أبيجنيس - الذي وقع الاختيار عليه نظراً لما يتمتع به من خبرة وحكمة - قد جاءا ومعهما بضع عربات محملة بالخيام والكتبة والطهاة، وأعدا

(1) هو الاسم اللاتيني الذي كانت تعرف به مدينة بوزاريفاك Požarevac الصربية حالياً، (المترجم).

مأدبة باذخة تليق بمقام ضيفيهما. ولقد أظهر الهون الازدراء، حيث كانوا على أتم الاستعداد للمواجهة ويشعرون بالفخر والزهو لذلك. وعلى حد قول بريسكوس: «يعتقد البرابرة أنه من غير الملائم البحث في أي أمر وهم مترجلون عن جيادهم، بحيث إن الرومان (أي أولئك الذين هم من روما الجديدة - القسطنطينية) الحريصين على صون كرامتهم آثروا الالتقاء بالسكيث (أي الهون) بالطريقة ذاتها».

لم يكن ثمة شكّ في مَنْ كانت له السيطرة على الموقف، إذ أملى أتيلا وبليدا جدول الأعمال؛ وقام كتبة بلينتا بتدوين شروطهما، ولقد نصت على إعادة الهون الفارين جميعاً إلى شمال نهر الدانوب، بما في ذلك الأميران الخائنان، وإعادة كافة السجناء الرومان الذين كانوا قد لاذوا بالفرار، إلاّ إذا دفع كل واحد منهم فدية تبلغ قيمتها ثمانية صوليدي، أي ما زنته تسعة أرطال من الذهب[1] واجبة الدفع إلى آسريهم، وتلك هي وسيلة جيدة لضمان تدفق الأموال مباشرة إلى علية القوم من الهون، فضلاً عن إطلاق النشاط التجاري وجَعْل المعرض التجاري السنوي المقام على ضفاف نهر الدانوب آمناً للجميع، ومضاعفة المبلغ مستحق الدفع للهون للحفاظ على السلام، فأصبح سبعمئة رطل من الذهب سنوياً[2] بعدما كان ثلاثمئة وخمسين رطلاً، ولسوف يستمر السلام ما دام الرومان يحافظون على تأدية هذه الدفعات.

وللبرهان على حسن نيتهم قام الرومان الشرقيون في وقت لاحق بتسليم اللاجئَيْن المَلكيَّيْنِ ماماس وأتاكام («الأب شامان»). وتوحي طريقة استقبالهما بالمنافسة المحتدمة تحت سطح تعاون أتيلا مع أخيه ووحشية ذلك العصر على حد سواء، فقد تمّ تسليم هذين الأميرين إلى أتيلا مباشرة في منطقة الدانوب الأسفل في موضع يدعى كارسيوم[3]. ولم يكن ثمة أمل بالفوز بولائهما على ما يبدو، ولكي ينزل العقاب بهما ويجعلهما عبرة لمن يعتبر فقد قتلهما بطريقة اكتسبت سمعة سيئة بعد ألف عام على يد فلاد المخوزق دراكولا الأصلي[4]، الذي كان حاكم الإقليم ذاته.

كانت تلك ميتة رهيبة على نحو غير مألوف[5]؛ إذ يقوم الجلادون أولاً بقطع وتد خشبي يبلغ

(1) نظراً إلى أن وزن الرطل البيزنطي كان أقل بقليل من الرطل الحديث، ويبلغ هذا ما قيمته قرابة ستمئة دولار أمريكي حسب أسعار الذهب لعام 2004.

(2) قرابة أربعة ملايين ونصف المليون دولار أمريكي بأسعار اليوم.

(3) مدينة هارسوفا (Hârşova) الرومانية الواقعة على دلتا نهر الدانوب في يومنا هذا.

(4) أي ابن الشيطان، (المترجم).

(5) استقيت هذه التفصيلات من رواية «جسر على نهر درينا» للكاتب الصربي إيفو أندريتش الحائز على جائزة نوبل للآداب عام 1945. (ترجمة لوفيت إدواردز، لندن، 1959/ 1994).

طوله ثلاثة أمتار، فيجعلون أحد طرفيه مستدقّاً ومشحوذاً بعناية ومدهوناً جيداً بدهن الخنزير، أمّا الطرف الآخر فكان أكثر سماكة وثخانة؛ ليكون بمثابة قاعدة آمنة ومتينة. وتُمَدّ ساقا الضحية بشكل نسر ناشر جناحيه على يد رجال يسحبون حبالاً، وتُقصّ الملابس، ويُدقّ الوتد بالمطرقة في فتحة الشرج بعناية فائقة، تتخللها توقّفات مؤقّتة متكرّرة لتجنّب إتلاف الأعضاء الداخلية. وكان الوتد المُقحم يَدفع جانباً الأمعاء والقولون والمعدة والكبد والرئتين، إلى أن يبلغ الكتف، وينفذ بمساعدة سكين عبر الجلد في الجزء العلوي من الظهر، إلى أحد جانبي العمود الفقري. وبذلك يغدو الضحية كأنه مثبّت بسيخ، «أشبه بالسفود التي يشوى عليها لحم الحمل»، إلاّ أن القلب والرئتين ما تزال تعمل! ومن ثم كانت الساقان تربطان إلى الوتد عند الكاحلين لمنع الانزلاق في ما سيلي ذلك. ويجري رفع الوتد ومعه حمولته بشكل عمودي، ويثبت برفق شديد، لكي لا يرتجّ الجسد، في مِمسك من الحجارة أو الخشب، حيث يبقى مثبتاً وقد دُعِّم بقوائم. وإذا ما تمّ القيام بكل شيء بطريقة صحيحة فإن من شأن الألم العام الذي يلي ذلك أن يدوم يومين. وقد راح الرومان يراقبون ذلك من الضفة القصيّة، وكان أيّ من الهون الذين يُعدون مشايعين لبليدا قد تناهت إلى مسامعهم أصوات ضربات المطرقة البطيئة والمستمرّة والصرخات، فعلموا أن أتيلا هو الذي أمر بذلك لبعض الناس المتمكّنين من فنون القسوة، لأن الخوزقة كانت مهارة تتطلب خبرة ويداً سريرية خبيرة، وقد نظروا إلى هذا الأمر بعين الاعتبار.

ويتّضح من الشروط التي فرضها الهون ما كانوا يسعون وراءه، وعلى الرغم من أنه كان يروق لهم صهر العملات الذهبية من أجل الحصول على المجوهرات، فإنهم كانوا يعملون على تطوير اقتصاد نقديّ مبنيّ على أساس العملة الرومانية، وليس ثمة طريقة أيسر يمكن بوساطتها الحصول على النقد من الابتزاز. وكان في مقدورهم أن يعرضوا الخيول والفراء والأرقّاء في المعرض التجاري المقام على ضفاف نهر الدانوب، لكن هذا لن يجلب لهم الثروة الحقيقية، إذ إنها لا تكفي للحصول على الحرير والخمور التي من شأنها أن تجعل حياتهم ممتعة، أو تدفع أجور الحرفيين الأجانب الذين يستطيعون صناعة الأسلحة المتينة التي يعتمد عليها أمنهم على المدى البعيد. إلى جانب ذلك فإنهم بمضاهاتهم ثروة الرومان فحسب يمكنهم تجنب أن يتمّ استغلالهم. وعلى حد قول القديس أمبروسيوس فإنّ من الملائم تماماً للمسيحيين أن يستنزفوا البرابرة بالقروض الممنوحة لهم إلى أن تجفّ مواردهم المالية: «من لا تستطيع الانتصار عليه بسهولة في الحرب، سرعان ما تستطيع الانتقام منه بجزء من المئة (أي نسبة مئوية). وحيثما يكون هناك حق إعلان الحرب سيكون هناك أيضاً حق الربا الفاحش». وحينما عاد أتيلا وبليدا إلى المقاطعتين

الخاضعتين لسلطانهما توافر لديهما ما كانا يمتلكانه على المدى القصير: بعض الذهب، ومتنفس ما؛ بيد أن السلام لم يكن يخدم مصالحهما على المدى البعيد. فقد كانا في حاجة إلى خوض غمار الحرب، وسرعان ما وفّرت لهما الأحداث الدائرة في مكان آخر هذه الفرصة.

أخذت كارثة على عدة جبهات في شطري الإمبراطورية تلوح في الأفق إبان هذا العقد، وكان إيتيوس يكافح الحرائق المشتعلة في بلاد الغال، فراح يقمع الفرنجة في عام 432؛ ومن ثم الباغودا بين عامي (435 – 437)، وهم عصبة يكتنفها الغموض ومتمردة كانت تشن حرب عصابات من قواعدها في الغابات؛ وأخيراً القوط الذين كادوا أن يستولوا على ناربون في عام 437. وفي عام 439 سقطت في يد جيسريك زعيم الفاندال (الوندال) قرطاج ذاتها العاصمة القديمة لمقاطعة شمال أفريقيا الرومانية. كان الوندال بعد أربعين عاماً من التنقل والترحال (فوق نهر الراين، وعبر فرنسا وإسبانيا، وفوق مضيق جبل طارق) قد استولوا على ما يُعرف بليبيا في يومنا هذا قبل أربعة عشر عاماً فحسب. وأنزلوا الخراب بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى بقرطاج، وما احتوت عليه من قنوات، ومعابد، ومسارح[1]. ووجد الغزاة موطنهم الجديد ضيّقاً ومحصوراً بين الصحراء الإفريقية والبحر الأبيض المتوسط على الرغم من خصوبته بما يكفي لتلبية حاجاتهم، وسرعان ما تعلّموا مهارة جديدة؛ هي بناء السفن. كانت قرطاج مقامة في موقع رائع يتحكّم بالقناة البالغ طولها مئتي كيلومتر التي تفصل أفريقيا عن جزيرة صقيلية، وأضحت قاعدة لأعمال القرصنة، وفي عام 440 هيأ جيسريك أسطولاً للغزو، وحطّت مراسيه عند صقلية، فقام فيها ببعض أعمال التخريب، وعبر إلى الأراضي الإيطالية، ولم يكن يعلم أحد بما كانوا يُبيّتونه. ومن الشرق جرد ثيودوسيوس الثاني جيشاً للمساعدة في صدّ الغزاة، لكنه لم يقم بذلك إلاّ بعد فوات الأوان؛ فالوندال كانوا قد عادوا أدراجهم إلى موطنهم حاملين معهم غنائمهم قبل أن يصل الشرقيون.

لقد قام أتيلا وبليدا باستغلال تلك الأوقات العصيبة، وتوافرت لديهما في الغرب فرصة رائعة ليمارسا أعمال السلب والنهب، وذلك بفضل تحالفهما مع إيتيوس الذي كان في حاجة إليهما لدعم حملته المناهضة لأولئك البرابرة صعبي المراس داخل بلاد الغال. كان ثمة رجال من الهون راحوا يمدّون يد العون في محاربة الفرنجة، والباغودا، وعلى نحو بارز البورغونديين/ النيبلونجس، وتلك قبيلة كانت قد عبرت نهر الراين بصورة جماعية تقريباً قبل ثلاثين عاماً، مخلفةً وراءها بقايا قاومت بنجاح هجوم الهون. وقد استقروا بغير رضا روما على الجانب الروماني من نهر الراين

(1) يعرف إحداها باسم أوديون، وكان بمثابة مكان يتم فيه إحياء الحفلات الموسيقية.

الأوسط، واستولوا على العديد من البلدات، واتّخذوا مدينة فورمس عاصمة لهم. وظلوا مجموعة ساخطة في ظلّ حكم ملكهم غونداهار الذي يعرف في التاريخ والأدب الشعبي باسم غونثر، يسعون للاستيلاء على مزيد من الأراضي. ولقد استرعى اجتياحهم لمناطق في اتجاه الغرب عبر منطقة الأردين في عام 435 انتباه إيتيوس ومرتزقته من الهون الذين أرادوا الانتقام لأنفسهم بعدما هُزموا قبل بضع سنوات. كانت النتائج مدمّرة على الرغم من أنه لم تبلغنا أي تفصيلات بشأن ذلك العدوان. ولقد لقي آلاف البورغونديين حتفهم في مذبحة قيض لها أن تتحول إلى قصة شعبية، على الرغم من أنه ربما لم يبلغ تعدادهم العشرين ألفاً التي ذكرت في أحد المصادر، حيث كان من بينهم غونثر، ولا سيما في الملحمة [الجرمانية] القروسطية الكبرى النيبلونْغِن، وفي الأزمنة المتأخرة على يد فاغنر في [عمله الأوبرالي] خاتم[1]. وفي أثناء سير الأحداث سلّمت الذاكرة الشعبية جدلاً بأن أتيلا ذاته كان وراء الخراب الذي حاق بالبورغونديين، لكن ذلك لا يستقيم مع واقع الحال؛ إذ إنه كان منشغلاً كثيراً في موطنه. لكن ثمة حقيقة ضمنية للأسطورة، لأنه ما كانت لتقع أيّ مذبحة من دون حصول التفاهم بين إيتيوس والهون. وها هم الآن يحصلون على مكافأتهم: الانتقام، والغنائم. ولقد تمّت مطاردة البقية الباقية من البورغونديين في الغرب والجنوب، وارتبط اسمهم بالمنطقة المحيطة بليون وكروم العنب فيها بعد مرور مدة زمنية طويلة على زوال القبيلة ذاتها ومملكتها لاحقاً.

وفي ذلك الحين كان كلّ من أتيلا وبليدا في حاجة إلى المزيد، إن لم يكن من البرابرة الآخرين، فمن الإمبراطورية الشرقية أيضاً، وكانت ذرائعهما وحججهما جاهزة؛ إذ لم تتم تأدية الإتاوة، ولم تتم إعادة اللاجئين الذين كانوا قد فروا عبر نهر الدانوب. وللحدّ من ذلك كله أرسل أسقف مارغوس رجالاً عبر النهر لينهبوا المقابر الملكية[2]، وجاء الأمر بأن يتمّ تسليم الأسقف فوراً، وإلاّ فستقع الحرب.

ولم يتمّ تسليم أي أسقف، فشرع أتيلا وبليدا باتخاذ الخطوة اللازمة لتحقيق هدفهما المنشود. وفي وقت ما قرابة عام 440 في معرض التجارة المقام في قنسطنطيا، شن الهون هجوماً مباغتاً على التجار والجنود الرومان، وقتلوا عدداً منهم. وبعدما عبر جيش الهون نهر الدانوب هاجم

---

(1) النيبلونغ أو الخاتم؛ كما تعرف اختصاراً، (المترجم).

(2) يذهب بريسكوس إلى القول إنها كانت قبوراً هونية، لكنّ الهون لم يبنوا أياً من تلال المدافن، ولا بد من أنها كانت تلالاً تحتوي على قبور قديمة تحت الأرض كانت عرضة للنهب على الدوام كأنها جبال صغيرة كان يجري حفرها حسبما يشاء الناس.

فيميناسيوم، وهي الجارة المباشرة لمارغوس في الجهة الشرقية، مخضعين المدينة لمصير مروّع. ولم يسجّل أحد لماذا كانت عرضة للسقوط بيد الأعداء، لكن يبدو أن أهالي تلك المدينة كانوا يعلمون ما كان ينتظرهم؛ لأن مسؤوليها توافر لديهم الوقت لدفن محتويات الخزانة الخاصة بهم، إذ عثر علماء الآثار في الثلاثينيات من القرن العشرين على ما يزيد على مئة ألف قطعة نقدية مسكوكة. واقتيد الناجون إلى الأسر بعيداً، ومن بينهم رجل أعمال لم يكشف عن اسمه سنلتقي به من جديد في ظروف مختلفة نوعاً ما وأكثر تطوراً. ومن ثم سويت المدينة بالأرض، ولم تتم إعادة بنائها طوال قرن من الزمان، وهي الآن قرية كوستولاتش.

ولقد انقضّ الهون بعدئذ على مارغوس ذاتها، وإذ تملّك الأسقف سارق القبور الرعب من أن يقوم شعبه بتسليمه من أجل ضمان سلامتهم غادر المدينة خلسة عبر نهر الدانوب، وأخبر الهون أنه سيتدبر أمر فتح أبواب مدينته لهم إذا تعهّدوا بأن يحسنوا معاملته. ولقد قطعت الوعود، وتصافحت الأيدي. واحتشد الهون ليلاً على الضفة القصية من نهر الدانوب، بينما بطريقة ما أو بأخرى أقنع الأسقف أولئك الذين يتولّون الحراسة بفتح الأبواب له. وقد كان الهون خلفه مباشرة، وسقطت مارغوس أيضاً، وأحرقت، ولم تتم إعادة بنائها على الإطلاق.

أما ما حدث بعد ذلك فيكتنفه الغموض، وتتضارب المصادر والتأويلات على نحو كبير، بحيث إنه ما من أحد على يقين بأنّه نشبت حرب واحدة أو اثنتان، أو كم من الوقت دامت أو دامتا، إذ تتفاوت التقديرات بين سنتين وخمس سنوات. ويبدو أن سنتين أو ثلاثاً تلائم على نحو أفضل. ولقد اختلط ذلك كله بغزو الوندال صقلية، وتجريد الجيش الشرقي حملة عسكرية لمساعدة الغرب، وحلّ في منطقة بلغراد دمار كبير. وعلى أي حال فقد كان الهون قد استولوا الآن على مارغوس والبلدة الشقيقة لها قنسطنطيا الواقعة على الضفة الشمالية لنهر الدانوب، وبات في استطاعتهم بسط سيطرتهم على وادي مورافا الذي كان يمتد على طوله الطريق الرئيسة المؤدية إلى تراقيا. وسقطت مدينتان أخريان؛ هما: سينجيدونوم[1] وسيرميوم[2]، حيث قام الأسقف بتسليم بعض الأطباق الذهبية التي من شأنها أن تصبح السبب وراء نشوب نزاع بغيض بعد بضعة سنوات.

يبدو بعدئذ أنّ شيئاً ما قد أوقف تقدّم الهون؛ ربما كانت هناك متاعب في الداخل، أو عرض سريع بتقديم الذهب من ثيودوسيوس. قام أتيلا وبليدا بسحب قواتهما مخلّفين وراءهما تخوم

(1) هي الآن بلغراد.

(2) هي الآن سريمسكا ميتروفيكا، الواقعة على بعد ستين كيلومتراً غرب بلغراد أعلى نهر سافا.

بانونيا وموسيا أطلالاً يتصاعد منها الدخان، وكان ثمة معاهدة سلام أخرى حظيت بموافقة أناطوليس الذي هو القائد العام لجيش الإمبراطورية الشرقية وصديق الإمبراطور.

ولربما كان جزءاً من السلام المتجدد ظفر الهون بغنيمة أخرى هي عبارة عن قزم أسود من ليبيا أضاف عنصراً غريباً في بابه إلى قصتنا؛ فقد كان زيركون أسطورة حية حقاً، ويدين بوجوده في أراضي الهون إلى واحد من أعظم القادة العسكريين الرومان واسمه أسبار، وهو الذي تولى قيادة حدود الدانوب لبضع سنوات حتى عام 431، حينما أُرسل إلى شمال أفريقيا في محاولة يائسة لقمع الوندال. كان أسبار هو الذي أسر زيركون وأعاده إلى تراقيا. ونجد أنفسنا هنا أمام أحد أمرين: إما أن الهون قد أمسكوا به؛ وإمّا أنه تم تسليمه على يد أسبار. كان زيركون ذميم الخلقة، ويعرج على قدمين مشوهتين، ولديه أنف مسطّح جداً بحيث كان يبدو كأنه لم يكن موجوداً على الإطلاق، مجرّد فتحتين حيث ينبغي أن يكون الأنف، وكان يُتأتئ ويتلعثم، بيد أنه كان يمتلك الفهم العملي السليم لتحويل هذه العيوب الخَلقيّة إلى مصادر قوة، فأصبح مهرّج البلاط، ومتخصّصاً في المحاكاة التهكمية الساخرة باللاتينية والهونية. ولم يستطع أتيلا تحمّله، فأضحى ملكاً لأخيه. وكان يعتقد بليدا أن زيركون مرح في طريقة حركته! ولثغته! وتأتأته!..، وتعامل معه كأنه مسخ أليف، فزوّده بدرع من الزرد، وراح يصطحبه معه في الحملات العسكرية. لكن زيركون لم يثمّن تماماً روح الدعابة السادية لدى بليدا، وفرّ هارباً مع بعض السجناء الرومان. واستبد ببليدا غضب شديد إلى درجة أنه أمر أولئك الذين أرسلوا في إثرهم بتجاهل الفارين جميعاً باستثناء زيركون وإعادته مقيداً بالسلاسل. وذلك ما حصل، فما إن وقع نظر بليدا عليه حتى بادره بالسؤال عن سبب فراره من سيد كريم عطوف، فاعتذر زيركون على نحو مسرف، متحدثاً بمزيج مروّع من اللاتينية والهونية التي تعلمها حديثاً، لكنّه احتجّ بأنه يتعيّن على سيّده أن يفهم بأن ثمة سبباً وجيهاً لهروبه؛ وهو أنه لم يزوّجه. عندئذ لم يتمالك بليدا نفسه من الضحك، وخصّه بفتاة مسكينة كانت ذات مرة وصيفة لزوجته الأولى. ولسوف يظهر زيركون من جديد، وتتواصل حكايته، في وقت لاحق.

ظلت جبهة الدانوب هادئة طوال عامين، وذلك بعدما اكتشف أتيلا ما ينطوي عليه التبادل الدبلوماسي من فوائد. وكما يخبرنا بريسكوس فقد راح أتيلا يوجّه رسائل إلى ثيودوسيوس، ولا بد من أن تلك الرسائل كانت باليونانية أو اللاتينية؛ ولا مراء في أنه كان لديه في ذلك الحين كاتب ومترجم على الأقل،إن لم يكن جهاز أمانة سر مصغر. وكانت تلك الرسائل تتضمّن مطالبته بأولئك الفارين الذين لم يتمّ تسليمهم، وبالإتاوة التي لم يتمّ تأديتها. فأضفى بريقاً دبلوماسياً على ما هو

أكثر قليلاً من تهديد صادر عن قاطع طريق؛ إنه رجل صبور؛ ويبدي استعداده لاستقبال موفدين للبحث في الشروط؛ وهو يصوّر أيضاً نفسه على أنه رجل لديه مشكلة، وتتمثل هذه المشكلة في قادة قواته نافذي الصبر. وإذا كان هناك تلميح إلى تأخير أو ما يشير إلى أن القسطنطينية تستعد للحرب فإنه لن يكون قادراً على كبح جماح جحافله.

ويبدو أن أتيلا كانت لديه حقاً مشكلة مع بعض بني جلدته، وبما أن السلام كان أرخص من الحرب، والسفراء أرخص من الجيوش، فقد أوفد ثيودوسيوس مبعوثاً هو قنصل سابق يُدعى سيناتور. كانت الطريق البرية في غاية الخطورة على ما يبدو؛ لأن تراقيا كانت ما تزال فريسة لقُطّاع الطرق الهون الذين لم يقعوا بعدُ تحتَ سيطرة أتيلا، وعاد «الفارون» الذين أرادهم وفقاً لبنود معاهدة مارغوس. وهكذا آثر سيناتور أن يجعل الجزء الأول من رحلته على متن سفينة أبحرت على طول الساحل الممتد من البحر الأسود إلى فارنا، حيث كان في استطاعة فرقة عسكرية رومانية أن تزوّده بحرس يرافقه داخل البلاد. وصل سيناتور وفق ما تقضيه الأصول، وأثار إعجاب أتيلا الذين أشاد به في وقت لاحق بوصفه مبعوثاً نموذجياً، لكن يبدو أنه ما من شيء آخر قد أنجز.

ولربما قطع وعد ما؛ إذ إنّ أتيلا اعتاد إلى حدّ ما على فكرة تبادل المبعوثين، أما السبب الذي دفعه لإرسال سفارات فلا صلة له بالدبلوماسية والفارين؛ إذ إنها كانت وسيلة سهلة للحصول على مال وفير لكبار قومه، ووسيلة لكسب الوقت. ولم يكن المهم في الأمر إلاّ الحفاوة التي كان يُستقبل بها سفراؤه، التي كانت تتماشى مع الخطوط التالية: أصدقائي الأعزاء، كم هو جميل ورائع أن أراكم! الفارون؟ الإتاوة؟ لكلّ مقام مقال، ولكل شيء وقته.. ولسوف نتجاذب أطراف الحديث بعد تناولنا طعام العشاء.. دعونا نقدْكُم إلى الغرف المخصصة لكم.. نعم! السجاد والحرير رائعان، أليس كذلك؟! لا شيء إلاّ الأفضل. كأس من النبيذ، ربما؟ أتعجبكم الكأس؟ إنها لكم. أُوهْ، وبعد العشاء، هناك الفتيات الراقصات.. لقد كانت رحلتكم طويلة. وجرى انتقاء أولئك الفتيات خصيصاً لإعادة معنويات أمثالكم من المحاربين العظام. وقد أشار بريسكوس إلى هذا كله بعبارات أكثر رزانة إلى حد ما: «وبعدما رأى (أتيلا) البربري بوضوح ما كان الرومان يمارسونه من تسامح من خلال توخّيهم الحذر خشية أن تنتهك المعاهدة، أرسل إليهم من رجال حاشيته أولئك الذين يرغبون بالحصول على المكاسب». ولقد حصل ذلك أربع مرات في منتصف الأربعينيات من القرن الخامس، وفي كل مرة كان يعود أحد رجال الحاشية سعيداً، وقد حمل معه الحلي الصغيرة والنقود بوصفها هدايا دبلوماسية.

لم يؤمن أيّ من الجانبين بالسلام، وكانت القسطنطينية قلقة، أو ذلك هو ما ذهب إليه الباحثون بالاستناد إلى دليل هزيل تمثّل في دخول قانونين حيز التنفيذ على عجل في صيف وشتاء عام 444. وكان قد فرض منذ وقت طويل على ملّاك الأراضي توفير المجندين من بين المستأجرين لديهم، أو دفع مبلغ نقدي عوضاً عن ذلك. لكن أعفي من ذلك كبار المسؤولين، وجلّهم من ملّاك الأراضي أيضاً؛ وذلك كان حقاً مقصوراً على من كانوا يشغلون مناصب عالية. بموجب أحد القانونين الجديدين تعيّن الآن على هؤلاء أيضاً توفير الجند، أو دفع غرامة. أما القانون الثاني فقد نصّ على فرض ضريبة بلغ معدلها 4 في المئة على كل المبيعات. ومن الجليّ أن المدينة كانت في حاجة إلى مزيد من الرجال المسلّحين والمال اللازم لتأدية رواتبهم. ووفقاً لأحد المراسيم التي أصدرها ثيودوسيوس فقد كان العمل جارياً على تعزيز أسطول الدانوب وإعادة بناء القواعد على طول النهر.

كان الإمبراطور في الواقع مصيباً تماماً في توقّعه لحدوث مشكلات؛ لأنه كان على وشك أن يمنح الهون سبباً وجيهاً للتذمّر والشكوى. ولم تكن لديه نية لخسارة مزيدٍ من المال للبرابرة. وبكلمات مقتضبة كتب أوتو مينيشين هيلفين أحد أعظم الاختصاصيين في الهون يقول: «ولكي يتخلّص من البرابرة قام ثيودوسيوس بدفع كامل المبلغ لهم.. وما إن عادوا حتى مزّق معاهدة السلام»، وانقطع ببساطة عن تأدية الدفعات.

ربما كانت هذه الأزمة بمثابة الملهم لأتيلا الذي جعله ينتقل إلى ممارسة السلطة المطلقة. وبحلول ذلك الوقت توافرت لديه قاعدة سياسية خاصة به، على شكل نخبة أشار إليها الكتاب الإغريق على أنها صفوة القوم[1]، ولا بد من أن الدائرة الداخلية المحيطة به كانت في موضعها الصحيح، وإلاّ لَمَا استطاع أتيلا أن يُحكم قبضته على السلطة العليا. وكان من بين هؤلاء نائبه أونيجيسيوس؛ وسكوتاس شقيق أونيجيسيوس؛ وبعض أقاربه[2]؛ وإديكا، وهو زعيم قبيلة يدعون السكيريين يقيمون شمال قومه مباشرة، وقد عقدوا الآن تحالفاً مع الهون قوم أتيلا، ولسوف يشكل جنودهم الراجلون من الآن فصاعداً قلب المشاة الهون. ولقد اتّجهت أفئدتهم جميعاً إلى أتيلا بدافع أمر يتخطّى الخشية من وحشيته، إذ لا بد من أنهم كانوا صنواً له في ذلك. وكان هذا رجلاً من شأنه أن يخدم مصالحهم العائدة للهون على أفضل وجه، وكان صفوة القوم هؤلاء عبارة عن جماعة ضخمة. ولقد ناقش المؤرخون ما إذا كان من الأفضل أن ينظر إليهم على أنهم حكام

(1) سوف نلتقي لاحقاً ستة من هؤلاء بشخصهم، بصحبة الدبلوماسي اليوناني بريسكوس.
(2) وقفنا على اثنين من أعمام أتيلا؛ هما ايبارس ولوداريك.

محليون أم رجال شرطة أم جباة ضرائب أم كهنة شامان أم قادة عسكريين أم زعماء قبيلة أم نبلاء أم دبلوماسيين..، ومن المحتمل أن كلاً من هؤلاء كان يضطلع بعدة أدوار. ونطالع المعنى المتضمن في العمل الذي أنجزه ليدل وسكوت الموسوم بمعجم يوناني - إنكليزي: كلمة (logades) هي صيغة الجمع لكلمة (logas)، التي تعني «الصفوة». وتعني (Logades) «صفوة القوم»: أي النخبة. وكما يخلص مينيشين هيلفين: «ما من دليل على وجود قاسم مشترك بين هؤلاء الأشخاص البارزين من الهون إلاّ البروز والشهرة»، إنهم الهون الشبيهون بضباط قوات الأمن الخاصة للنظام النازي، إذا ما اعتبرنا أتيلا شخصية شبيهة بهتلر!

وماذا بشأن بقية الهون؟! كل ما يمكن قوله هو أنه كان ثمة قبيلة أو شعب انقسم إلى عشائر، شكلت هرمية تكونت - على الأقل - من العبيد والأرقاء في الأسفل، ومن ثم عامة الناس ويتكوّنون من الرعاة وأرباب الأسر، ومن ثم الأرستقراطية، التي ربما كان الانتماء إليها بالولادة أو الجدارة، ويتربّع على رأس الهرم زعيم أعلى، كان على استعداد الآن للقيام بانقلاب.

ولا بد أنّ ذلك كان مباغتاً وموجزاً ودموياً. لقد تلاشى بليدا من التاريخ، وتولى أتيلا زمام الحكم في الممتلكات الممتدة بين البحر الأسود وبودابست، وكانت تلك مملكة امتدت مسافة ثمانمئة كيلومتر، وبلغ عمقها أربعمئة كيلومتر. ولا بد من أنّ المحاولة الانقلابية قد أُخمدت في المهد، إذ لم يبلغ العالم الخارجي أيّ نبأ عن نشوب حرب أهلية، وتوافرت لدى أتيلا الثقة في الصفح عن إحدى زوجات أتيلا على الأقل، التي من المفترض أنها الأولى: ولسوف نصادفها من جديد لاحقاً، فقد تمتعت بقلب طيب كما يبدو، وتقيم ليس ببعيد عن المقرّ الرئيس الذي انتزعه المظفر من يدي أخيه الميت.

ونستطيع أن نستدلّ على شيء ما من تدفّق السلع وحالة الهلع التي استمرت مدة وجيزة وأطلق العنان لها قتل أتيلا لأخيه، وذلك بفضل بعض الديوك الرومية الهنغارية. بدأت القصة خارج بلدة صغيرة تبعد مسافة ثمانية عشر كيلومتر إلى الشمال الشرقي من تسيغيد. وأنا متردّد في أن أخبركم باسم هذه البلدة؛ لأن ذلك يمتثل للقانون الأول في فقه اللغة الهنغارية الذي ينص على أنه كلما صغر حجم البلدة استحال النطق باسمها على نحو أكبر، إنها هُدمِزوفازارهِلي، ممّا لا يمثل مشكلة عند الهنغار على الإطلاق، وهي تعني «ميدان سوق فرو القندس»، وكثيراً ما كانت تغمر هذه المنطقة المنخفضة فيما مضى مياه نهر تيسا المجاور لها، فتصبح عبارة عن بحيرات

راحت تنمو فيها وتترعرع القنادس[1]. وتمتد الأرض - وقد جفت الآن - منبسطة في اتجاه الأفق المستقيم. وفي عام 1963 كانت زوجة مزارع في منتصف العمر تدعى جوزو اريزابيت (اليزابيث جوزو) تعتني بديوكها الرومية عندما رأت أنها قامت بنبش شيء ما يتألق تحت التربة، فانحنت، وراحت تجرف التربة أكثر من ذلك بقليل، فوجدت كتلة من العملات الذهبية: 1440 قطعة على وجه الدقة، بلغ مجموع وزنها 64 كيلوغراماً. فأخذ ولدها بتعقل إحداها إلى المتحف الوطني ببودابست، وعرضها للبيع. فقدموا له ألفاً وخمسمئة فورنت، أي ما يعادل أجر شهرين تقريباً. وفي اليوم التالي ظهر من جديد ومعه قطعتان أخريان، في هذه اللحظة شعر القيّمون على المتحف أنّ الديوك الرومية العائدة للسيدة جوزو في حاجة إلى أن يوليها الأخصائيون عنايتهم. فجرى نقل الكنز إلى المتحف، والتقطت صور للسيدة جوزو، وقد وضعت على رأسها وشاحاً، وتظهر في الصورة الحفرة السطحية[2]، وقد تركت الأسرة التي أضحت أشد ثراء بامتلاكها سبعين ألف فورنت، وهو ما كان يكفي لابتياع منزلين.

كانت تلك القطع النقدية بيزنطية سُكّت على يد ثيودوسيوس الثاني، ويرقى تاريخ نسبة جيدة منها إلى عام 443، حينما شرع أتيلا وبليدا بإرسال سفرائهما في بعثاتهما إلى القسطنطينية، تلك البعثات التي أريد منها أن تكون وسيلة سهلة للحصول على مالٍ وافر، وإنّ مكتشفات من هذا القبيل هي بمثابة دعوة للتخيل: لماذا عمد أحدهم إلى دفن عملات مسكوكة على هذا النحو في حقل وليس معها أي سلع أخرى؟! ثمة سيناريو محتمل، إذ شرع أتيلا لتوه باتخاذ الخطوة اللازمة لتحقيق أهدافه المنشودة، وقضى بليدا نحبه، وكان لديه أيضاً صفوة من الرجال، ومعظم هؤلاء قد لقوا مصرعهم الآن، لكنّ أحدهم فرّ هارباً. وشأنه شأن أبناء العمومة الملكيّين التعساء الذين زَيّنت هياكلهما العظمية طوال سنوات الأوتادُ المستدقّةُ الطَّرَف باتجاه مجرى النهر، وأعتقد أن حظوظه ستكون أوفر إذا ما ولى الأدبار هارباً عبر نهر الدانوب، فجمع نصيبه من آخر دفعة تم تأديتها ليصل قادماً من القسطنطينية ويُيمم وجهه شطر الجنوب. لكن عندئذ، يرى فرساناً من أمامه وخلفه على حين غرة.. إنه مطوق! وهو لا يرى أن حظوظه وافرة إن تم الإمساك به وبحوزته هذا المبلغ من المال، فما كان منه إلاّ أن دفنه على عجل. ولسوف يلجأ إلى الفلاحين، ويحدوه الأمل بأن يتلاشى في المنظر الطبيعي الريفي إلى أن تهدأ الأحوال، وحينئذ سوف يسترد غنيمته، ويبني لنفسه حياة أفضل في مكان ما. هل سيبقى حيا؟! أشك في ذلك، لأنه لم يعد أبداً، وظلت الأموال المكتنزة

---

(1) الواقع أنه ما تزال «قناة بحيرة القندس» قائمة بجوار هذه القرية.

(2) ما تزال الصورة محفوظة في متحف تسيغيد.

مخفية طوال ألف وخمسمئة سنة، إلى أن نبشتها الديوك الرومية العائدة للسيدة جوزو!

***

قام أتيلا بتعزيز ثقته الطبيعية بنفسه على نحو ما درج عليه الزعماء، وذلك بأن عمد إلى إعادة كتابة الأعراف والتقاليد بما يدعم صعوده الى السلطة، وقد قام بذلك من خلال اختطافه معتقداً قديماً يقوم على عبادة السيف. كانت كثير من القبائل تعبد سيوفها، أو تبجّلها، أو تقسم بها، وفي بعض الأحيان ترى في سيفٍ بعينه رمزاً للتأييد الإلهي. وربما هناك استذكار لهذه الممارسة في أسطورة الملك آرثر الموسومة بـ«السيف في الحجر»، التي قد تذكر بالاحترام الممنوح للخبراء في الصناعات المعدنية الذين وقفوا على آلية فصل الحديد عن الصخر. وكان لدى الهيونغنو والآفار والبلغار معتقداتهم الخاصة بهم التي تقوم على عبادة السيف، وكذلك فعل الهون، وعلى أثر تسلّم أتيلا زمام الحكم اتّخذ من هذا المعتقد عقيدة خاصة به. وتلك هي القصة كما تناهت إلى مسامع بريسكوس، وهو المصدر الرئيس الذي استقينا منه معلوماتنا بشأن بلاط الملك أتيلا، ولسوف تكون مغامراته موضوع البحث في الفصل التالي. ولقد فقدت بعض أعماله، وإن تمّ حفظ مقدار ضئيل مما فُقد على نحو غير مباشر، فاستشهد به المؤرخ القوطي يوردانس بعد أكثر من قرن من الزمان. ويبدو أن ملوك الهون كانوا يعظّمون شأن سيف بعينه، وهو يُعرف باللاتينية بسيف إله الحرب مارس، إلاّ أنه ضاع وفُقد أثره. وهاكم طريقة إعادة اكتشافه، وفقاً لهذه القصة التي أقرها أتيلا على ما يبدو:

شاهد أحد الرعاة إحدى بقراته الصغيرات وقد أصابها عرج، وحين أعياه أن يجد مبرراً لمثل هذه الجراح راح يقتفي بقلق أثر الدماء، فوصل إلى سيفٍ كانت البهيمة قد داسته من دون قصد في أثناء رعيها، فانتشله من الأرض، وأخذه إلى أتيلا فوراً، فغمرته البهجة والحبور بهذه الهدية، ولمّا كان على جانب عظيم من الشجاعة فقد استقرّ رأيه على أنه عُيّن حاكماً للعالم أجمع، وأنه بفضل سيف إله الحرب مارس قد مُنح القدرة على كسب الحروب.

كانت لدى أتيلا كلّ من القوة والحافز على شنّ حرب على إمبراطورية ثيودوسيوس، وكان التركيز هو ما يفتقر إليه في تلك اللحظة. ولقد واجه تهديداً من قبيلة أو عشيرة تدعى الأجاثيرس أو آغاجري حيث يُرسم اسمهم بطرائق متعددة وبأوجه مختلفة، وثمة جدل كبير دائر بشأن اشتقاقات هذا الاسم، استغرق تلخيصها من مينيشين هيلفين عشر صفحات. وخلاصة القول أنهم ربما كانوا من قاطني السهوب، ويقيمون على شواطئ البحر الأسود في بقعةٍ ما قربَ نهر الدون. وكانت

ثمة مشكلة من نوع ما أخذت تتكوّن هناك، ولسوف يتمّ تسويتها في نهاية المطاف مع أحد زعماء القبيلة الذي احتفظ باستقلاله متوسّلاً بالتملّق والتزلّف. وبعدما قدّم له أتيلا الذهب مشفوعاً بدعوة لزيارته داخلته الريبة في أنَّ شَرَكاً نُصب له، فوجه رسالة قال فيها إنه لن يكون بمقدوره أن يأتي لأنه لا يملك أن ينظر إلى الشمس بوصفه رجلاً، لذلك فإنه لا يستطيع أن ينظر إلى الله، وذلك دليل ضئيل على أنّ أتيلا كان قد أخذ يُنظر إليه على أنه وقع اختيار الله عليه من أجل الغزو والفتح. ولقد استقرّ رأي أتيلا على الاكتفاء ببسط السيطرة عوضاً عن الغزو، وذلك بأن عمد إلى إرسال ولده الأكبر إيلاك لتأكيد حكم الهون.

وصل إيتيوس ذاته قادماً من روما للتفاوض من أجل عقد معاهدة صلح أخرى. ولم يخلف لنا أحد وصفاً لزيارته، بيد أننا وقفنا على حقيقتها بناء على قصيدة باللاتينية نظمها سيدونيوس، وهو شاعر بارز من بلاد الغال، وسيصبح مصدراً هاماً في وقت لاحق من هذه القصة. كانت القصيدة هذه مديحاً لإيتيوس، وعلى الأرجح أنها نظمت احتفالاً بذكرى إشغاله منصب القنصل مرة ثالثة، الذي بدأ في عام 447، وكما عبر عن ذلك أحد الأبيات: «عاد وهو يحمل السلام من نهر الدانوب، وجرّد نهر الدون من غضبه». وعلى الرغم من أن أتيلا وإيتيوس لم يلتقيا في طفولتهماهاهما التقيا الآن بلا ريب، ووجد كل منهما في الآخر صفات قيادية مماثلة. وكان في استطاعتهما العمل معاً، وأن يخدم كل منهما مصالح الآخر، علماً بأن إيتيوس كان يكبره بعشر سنوات، وكان حقاً شيخاً جليلاً يربو عمره الآن عن الخمسين عاماً.

ولا بد من أنّ هذه هي المرة الأولى التي يحلّ فيها دخيل رفيع المستوى في مقر قيادة أتيلا منذ أن تولى القيادة على نحو منفرد، وذلك هو الوقت المناسب لكي نفكّر ملياً في المكان الذي كان يقيم فيه، وكيف كان يعيش، وما كان من أمره. ومن أجل القيام بذلك يجب أن أتفوق على نفسي قليلاً؛ لأنه يتعيّن عليّ أن أستأنس بالوصف الذي وضعه بريسكوس، الذي تمّت زيارته في وقت لاحق بعد عامين.

ويأتي أولاً موقع مقرّ قيادة أتيلا الذي كان مثار جدل كبير، فقد أولى المؤرّخون اهتماماً كبيراً لخطّ السير الذي اتّخذه بريسكوس في رحلته إلى الشمال انطلاقاً من القسطنطينية، لأنه إذا ما استطاعوا تحديد ذلك فلسوف يتبيّنون المكان الذي اتّخذه أتيلا مسكناً ومقراً له، وفي مقدورهم بعدئذ الكشف عن الآثار وفتح العديد من النوافذ على أتيلا وحياة الهون. لكن ليس لدينا إلاّ تلميحات قوية أشبه باقتفاء أثر كنز، وقد فقدت نصف المفاتيح لحلّ لغزه. فقد عبّر بريسكوس

ثلاثة أنهار كبيرة حدّد أسماءها، وهي دريكون، وتيجاس، وتيفيساس؛ لكن يوردانس في أثناء استشهاده به حرّف الأسماء وترتيبها، جاعلاً إياها تيسا، وتيبيسيا، ودريكا. أو ربما رسم يوردانس أسماءها بصورة صحيحة، بينما أخطأ بريسكوس في ذلك، أو لعلهما كانا يحاولان تدوين استخدامات محلية أضحت الآن منسيّة. ولقد ألهم عدم اليقين هذا كثيراً من الأكاديميين لتذييل الموضوع بالحواشي والهوامش. ويمكن المزاوجة بين الأسماء، لكن يمكن جعل ثلاثة أزواج منها تنتج نهرين معروفين فحسب (وحتى هذا النهران هما مثار جدل):

Tiphesas/ Tibisia = Tibiscus و(باللاتينية)/ Tamis (بالصربية)، نهر تيميش يعرف Timis أو Timisul و(بالرومانية)

Tigas/ Tisia = Tisza (بالهنغارية)/ Theiss (بالألمانية)؛ ويعرف نهر تيسا

حالياً Begei فغير معروف؛ ولكنه ربما كالننهر بيكا Dricca/ Drecon أما

ويلتقي نهرا تيميش والدانوب إلى الشمال مباشرة من بلغراد على مقربة من مكان مصبّ نهر بيكا في نهر تيسا، لكن ثمة أنهار عديدة أخرى، ولقد تبدّلت أسماؤها على نحو ما تغيّرت الشعوب واللغات. والمطابقة الأكثر منطقية هي بين تيغاس/ تيسيا وتيسا/ ثيس الطويل والعريض والمتعرج والمتقلب، الذي يطغى على سهل هنغاريا الوسطى، وقد فعل ذلك إلى حدّ أكبر بكثير قبل أن يتمّ ترويضه في القرن التاسع عشر على يد الكونت شتيفان سيشني، الذي قام عملياً بإعادة تكوين بلاده من الناحيتين السياسية والمادية، كما نظم جريان نهر الدانوب. ويطالعنا مقدار لا حصر له من طرائق تهجئة اسم نهر تيسا Theiss على مرّ القرون (وما يزال هناك عدد غير قليل في هذا الجزء متعدد اللغات من أوروبا). ومما يؤسف له أنّ أياً منها لا يحتوي على الحرف (جي – g) في المنتصف، ومع ذلك فما لا يمكن تصوّره أنّ عالماً مثل بريسكوس لم يكن على دراية بنهر تيسا، والمسلَّم به على نطاق واسع أنّ هذا هو النهر الذي قصده بريسكوس. وإذا كان قد عبره فهذا يعني أن أتيلا كان يقيم على الجانب الآخر؛ أي الغرب. وهذا أمر منطقي؛ لأنّ أتيلا كان في حاجة إلى أن تتوافر لجيشه وسيلة للوصول سريعاً إلى الغرب فضلاً عن الجنوب، ويمكن أن تمتدّ مياه نهر تيسا في الربيع، وتنتشر على بعد أميال، مشكّلة عائقاً تجنّبه على أفضل نحو بأن اتَّخذ من الجانب الغربي قاعدة لنفسه.

ويقودنا تقدير المسافة التي قطعها بريسكوس من أعلى الضفة الغربية لنهر تيسا إلى الأراضي المستوية قرب تسيغيد في يومنا هذا جنوب هنغاريا، وتقع تسيغيد على النهر مباشرة. وحتى مع

احتوائها على السدود فهي ما تزال عرضة للفيضانات، وكادت أن تُمحى معالمها في عام 1879، وغمرتها المياه من جديد في عامي 1970 و2000. ولو أنّ أتيلا كان يقيم غرب النهر فلا بدّ من أنه استقرّ على بعد مسافة 20 – 30 كيلومتر غرباً، بعيداً على نحوٍ آمن من السهل المغمور بمياه الفيضان وما فيه من المستنقعات وجداول الماء البطيئة، خارج منطقة سهل هنغاريا الكبير، مع أرض مكشوفة يمكن لفرسان الهون إنجاز مهماتهم ومناوراتهم القتالية عليها.

لكن هذه الأرض لم تكن معسكراً للجيش، بل كانت عبارة عن بلدة صغيرة عادية، تحتوي على مبانٍ خشبية، وقد زوّد اثنان منها بقواعد من الحجر، وبني إحداها بالحجر تماماً، وسنفصّل القول في ذلك في الفصل التالي. وهي ليست شيئاً يذكر إذا ما نظرنا إليها من زاوية الحداثة، لكنها ما تزال تعبيراً عن اتساع رقعة إمبراطورية أتيلا وامتدادها. ولا تحتوي تلك المنطقة على أي أشجار ومقالع، لذلك كان لا بد من جلب كلّ جذع شجرة وحجر على متن العربات والقوارب. وعلى الرغم من الكمّ الهائل من الجدل الأكاديمي الدائر بشأن إمكانية أن هذه القرية كانت أشبه بالحصن وقد أحيطت بها حسيكة، لم يأت بريسكوس على ذكر أيّ شيء من هذا القبيل. و كان داخل القرية هناك بالفعل سياج من الأوتاد الخشبية، يحيط بمجموعات من المباني الخشبية. ويعود أحدها – على سبيل المثال – إلى أونيجيسيوس نائب أتيلا، وآخر إلى زوجته الأولى إريكان. لكنّها لم تكن تفي بأيّ أغراض عسكرية، إذ كانت بواباتها من دون حراسة وغير مقفلة، وتدلّ على منزلة أصحابها ومكانتهم. وكان ثمة مسافة كبيرة بين تلك السياجات من أجل إقامة الخيام.

ويمكنك أن ترى اليوم مدناً صغيرة مثل هذه في منغوليا بناها أناس في طور التخلّي عن قطعانهم من أجل الحياة المدينية. وفي الشمال تمتد الجبال والغابات من سيبيريا، وهذا ما يجعل استخدام الخشب في البناء مريحاً على الدوام لمن يرغبون في ذلك. ونجد هنا قرى مبنية بألواح من خشب شجر التنوب والصنوبر، وبيوتاً مؤلّفة من طابق واحد مقامة في مجمعات من المباني لإبقائها بعيدة عن متناول اللصوص، والسماح للكلاب بدخولها، وتفصل بينها مسارات من شبكات العناكب، وتتخلّلها أحياناً الخيمة الدائرية المصنوعة من اللباد والخيول المقيدة بحبل بجوار دراجة بخارية. وحتى في صحراء غوبي، فقد تقود سيارتك في سهل غير متناه مفروش بالحصباء، وترى مدينة صغيرة تومض في الأفق، وقد اتّخذت مركزاً للإدارة المحلية. وعلى الأرجح أن المنازل مبنية بالقرميد والإسمنت، وسيكون هناك خط هاتفي وأعمدة مقامة في زوايا منعزلة، لكن لديها مجمعات مبانٍ مشابهة مبنية بألواح خشبية. وإذا ما اضطر البدو الرحل إلى

الاستقرار فتلك هي طريقة قيامهم بذلك.. في الواقع إن هذه القرى تعود إلى الهون.

وأخال أن أول مرة رأى فيها إيتيوس قصر أتيلا الجديد كانت إلى حد بعيد ذاتها التي رأى فيها بريسكوس القصر نفسه: «جدران خشبية مصنوعة من ألواح ذات سطح مستو بنعومة»، وكانت مفصلاتها[1] «متينة جداً ومشابهة لتلك الألواح، بحيث يكون من الصعوبة بمكان التمييز بينها من خلال الفحص الدقيق... وفناء تحيط به دائرة بالغة الاتساع، يدلّ حجمها ذاته على أنها كانت القصر الملكي. وكانت هذه بقعة تم تصميمها لتترك أثراً، ليس من حيث حجمها فحسب، بل من حيث جودة صنعتها أيضاً؛ إذ فيها خشب رائع ونجارة من الطراز الأول، وربما من صنع من أُسروا من القوط أو البورغونديين، الذين لدى كل منهما تقاليد في فن البناء بالخشب».

أما الرجل نفسه فقد وصفه بريسكوس بحسب النسخة المنقّحة التي وضعها يوردانس باللاتينية:

كان رجلاً ولد ليزلزل أجناس الأرض، ويوقع الرعب في الأراضي كلها، ولا أعلم كيف قيض له أن يدخل الرهبة في نفوس الجميع على نحو ما تناقلته تقارير بشأنه تبعث على الفزع. كان يمشي مشية فيها زهو وخيلاء، ولديه نظرة حادة تذهب إلى هنا وهناك، بحيث إنّ سلطته وكبرياءه كانا جليّين في أثناء حركته.. أجل، كان محباً للحرب، لكنه كان يعلم كيف يكبح جماح نفسه. وكان رائعاً في عقد المداولات، ومتعاطفاً مع المتضرّعين إليه، ورؤوفاً باللاجئين والمستجيرين به. كان قصير القامة، عريض الصدر، ذا رأس كبير، وعينين صغيرتين، ولحية خفيفة خطها الشيب، وأنف أفطس، وبشرة مثيرة للاشمئزاز ورثها عن أسلافه[2]. ولقد جعلته طبيعته هذه يتمتع على الدوام بثقة كبيرة بالنفس.

وبعدما تعامل إيتيوس بنجاح مع هذا الملك الجديد عاد في حينه حاملاً معه السلام من نهر الدانوب، وضامناً تلك الرابطة المتجددة بإرسال ولده كاربيليو، ربما في سفارة ثانية، وربما بوصفه رهينة، على نحو ما أرسل نفسه في شبابه!. ومما يؤكد ذلك رسالة خطها في النصف الأول

(1) الإضافة نقلاً عن يوردانس.

(2) «مثيرة للاشمئزاز» هي ترجمة للكلمة اللاتينية (teter)، التي هي تهجئة مختلفة لكلمة (taeter) التي تعني «كريه، وشائن، ومؤذٍ، ومثير للاشمئزاز». ولا نملك تفسيراً لظهورها على أنها «داكن اللون»، أو «مظلم» في بعض الترجمات، وهو خطأ كثيراً ما تمّ نسخه. وأما عبارة «البشرة التي ورثها عن أسلافه» فهي ترجمة حرفية للعبارة (originis suae signa restituens) «يستعيد سمات أرومته». وتذكّرنا هذه العبارة الغريبة بوصف أميانوس ماركيلينوس المتحامل على الهون، لكنني أعتقد بأن يوردانس يشير هنا إلى صفة تتسم بها الأسرة.

من القرن السادس بعد مرور مئة عام على هذه الأحداث قلمُ المؤرخ كاسيودوروس، الذي وضع كتاباً في تاريخ القوط؛ تتضمن هذه الرسالة وصفاً لآلية إيفاد جده إلى أتيلا برفقة كاربيليو. ولا بد أن هذه هي الجماعة الثانية من الغرباء التي قابلت أتيلا باعتباره الزعيم الأوحد. وقد حرص كاسيودوروس على إظهار جدّه على أنه شخصية بارزة، وعلى إظهار الهون بوصفهم الغزاة الأشرار لقومه القوط، بيد أن روايته هذه تدعم وصف بريسكوس له، ويكتب كاسيودوروس قائلاً إن جده «بدا شجاعاً تجاه الرجل الذي جبنت أمامه الإمبراطورية، وكان رابط الجأش، ويحتقر كل تلك الوجوه البغيضة والغاضبة جداً التي كانت تعبس من حوله، ولم يتردّد في مواجهة القوة الكاملة للقدح والذم الصادر عن إنسان كان يبدو وقد علا وجهه بعض الغضب أنه يكافح من أجل بسط هيمنته على العالم. ووجد أن الملك كان على جانب عظيم من الزهو والخيلاء، فأبقى على هدوئه، وشكّك باقتدار في كل ما ساقه من ذرائع أراد بها تشويه سمعته على أساس أنه على الرغم من أن مصلحة الهون تتمثّل في دخولهم في صراع مع الإمبراطورية الأغنى في العالم، فإنّه مع ذلك تنازل لالتماس حظوتها... وهكذا فقد عاد حاملاً معه السلام الذي يئس الرجال من الحصول عليه».

ويقدم لنا كل من كاسيودوروس وبريسكوس وصفاً لرجل ضئيل قبيح في شخصه تناقضات، ومتقلّب المزاج، وبارع في إظهار الحالات المزاجية، وينزع إلى الشك في الجميع ما خلا مساعديه الأكثر وثوقاً، وهو وحشيّ في كثير من الأحيان، ويتصف بالقسوة والعنف في القتال بيديه. وكان قد قتل بشراً، وربما أنه قتل أخاه بيديه. كان من المستحيل معرفة ما يشعر به حقاً أو تخمين ما سيفعله لاحقاً. وكان لدى كل من ستالين وهتلر الموهبة ذاتها في إبقاء حتى أقرب مساعديهما على أحرّ من الجمر، ويعتمدان اعتماداً مطلقاً على كل نزوة من نزواتهما. وحاله كحالهما، فقد كان يملك وحده دون سواه سرّ النصر، ولا يستطيع هو ذاته أن يفصح عن ماهيّة هذا السر. وكان جزء من هالة القداسة التي تُحيط بقيادته يتمثل في ثقته بنفسه، وجزء آخر يتمثل في تقشفه، وجزء ثالث يتمثل في كرمه الذي نعم به من اصطفاهم وضيوفه المبجلون كأنهم يرون ضوء الشمس. وأعتقد بأنه كانت لديه ابتسامة مفاجئة يمكن أن تذيب الصخور. ولا يملك المرء في حضرته إلا أن يشعر بما تتمتع به شخصية القائد من جاذبية كبيرة وحضور طاغ بمعناه الأصليّ واللاهوتي، وهي القوة التي تتدفّق بوصفها منحة إلهية وتحول رجلاً عادياً الى قائد.

كان ثمة شح في البذل والعطاء والتقدمات التي تشكل هدية دبلوماسية غريبة، والحق أنها

لم تكن كافية لتهدئة قوم يضيقون بما هم فيه، ولكي يحفظ لنفسه السلطة كان عليه أن يمسك بالمبادرة سريعاً، وهكذا مضى في عام 447 في درب الحرب، وكانت أهدافه يومئذ ثلاثة: الأول أن يحوز أكبر قدر ممكن من المغانم في أسرع وقت ممكن؛ والثاني أن يتمكن من تكرار ذلك في المستقبل أيضاً؛ والثالث حرمان الإمبراطورية الشرقية في أثناء ذلك من كلّ فرصة للردّ. وقد عنى هذا احتلال منطقة الدانوب كلها، والاستيلاء على النهر وأسطوله، واحتلال المدن التي كانت بمثابة مواقع متقدّمة للإمبراطورية. وكان من شأن الهون في الماضي أن يتجنبوا كسب الأراضي وهم يدعمون مواقعهم؛ لكن طموحات أتيلا الجديدة اقتضت التوسع، فللمرة الأولى أصبح أتيلا الآن ينشد المكاسب الإقليمية، وهو في طريقه لبناء إمبراطورية.

إننا لا نملك إلاّ تفاصيل قليلة عن حملة سنة 447، لكنّ هناك أمرين يبدوان مؤكدين: الأول أن الهون قد بلغوا القسطنطينية، إنما لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها؛ وقد قاموا بتدمير مدن عديدة في البلقان. أما كيف تكشفت الأحداث على وجه الدقة فلم يتمّ تدوين ذلك، ولذلك فإن العرض التالي استنتاج خاص خرجت به، ولسوف أبين السبب لاحقاً:

انظروا إلى ما كان يواجهه البدوي في الماضي من مصاعب وتحديات، فقد كان يتقدّم حيثما طاب له ذلك، إنما السؤال هو ما هي الأهداف التي كان يحملها في حربه؟ فهو لم يكن يرمي من الحرب أبداً السلب والنهب فقط في منطقة من الريف تعرضت مراراً للسلب والنهب من قبل، فالثروات تتركز في المدن، وهي عديدة. لكن المدن كانت حسنة التحصين، وأسوارها سميكة ومرتفعة، وقد لا يجدي معها استخدام الفرسان رماة السهام، لكن هناك وسيلة وحيدة يمكن للبدو الرحل الاستيلاء بها على المدن، وهي محاصرتها وترك أهلها يعانون الجوع بالافتراض دائماً أن هؤلاء لن تصل إليهم أي تعزيزات ثقيلة. وهذا يعني فرض حصار يمتد عدة شهور يعاني فيه الجيش أشد المعاناة بسبب الافتقار للإمدادات. وإذاً فسيتعيّن على الهون الآن الاستيلاء على المدن.

لكن ما هي أعظم المدن في هذه الحالة، أهي القسطنطينية؟! الواقع أن أتيلا لم يبلغ هذا الحد في توغله جنوباً، إنما كان في وسعه أن يدرك ما ينتظره إن قام بذلك. ويا لها من مسيرة طويلة! فقد كان في وسعك أن تنطلق من السهول الهنغارية وتتبع نهر تيسا لمسافة 160 كيلو متراً حتى تبلغ بلغراد، ثم مورافا، وبعد مسيرة 180 كيلو متراً أخرى لبلوغ نايسوس الحصينة[1]. وبعد

(1) نيش، كما تعرف اليوم.

120 كيلو متر ستمرّ بوادي نيشافا الضيق، حيث تمرّ الخطوط الحديدية الآن، وتحمل ركابها إلى صوفيا؛ ومن هنا تسابق [نهر] ماريتسا لبلوغ الطريق القديم من خلال جنوب بلغاريا حيث تنتهي المنطقة الجبلية، وتفسح المجال لدخول آخر أرض منبسطة وبلدة أدريا نوبل[1] التركية، وبعدها 160 كيلو متراً.. وهذا ما يجعل طول المسيرة 840 كيلو متراً على الجملة، عندئذ تطالعك أسوار القسطنطينية المنيعة.

كانت المدينة يومئذ محمية بالأسوار الثيودوسية الجديدة التي بناها أنثيميوس بعد عام 413، وما تزال الأسوار قائمة إلى يومنا هذا، وأبنيتها القرميدية السمراء الضاربة إلى الحمرة تبدو للناظر من السهل. وتبدو هذه الأبنية الآن متآكلة إلى حدّ بعيد، إلاّ أنها كانت في عام 445 إحدى عجائب العالم يومذاك، إذ تمتدّ من النهر إلى البحر مسافة 5 كيلو مترات مرصوفة عند قاعدتها بالحجر المصقول، ثم ترتفع كأنها درج. ويواجه المهاجم أولاً خندقاً يبلغ عرضه 20 متراً، وعمقه 10 أمتار، وتتخلّله الأقفال التي تقسمه، ولكل قسم أنابيبه الخاصة بحيث يمكن غمر الخندق بالماء عند الضرورة وحمل المياه إلى المدافعين. وبعدئذ يأتي المتراس، أو البيريبولو كما كان يسمى، حيث يبلغ عرضه قرابة العشرين متراً، وتوجد فيه قوة من المدافعين. وبعد ذلك يواجه الغزاة السور الخارجي الذي يبلغ ارتفاعه نحواً من 10 أمتار، وله ممرّ على امتداد أعلاه تتخلله أبراج للحرس.

وخلف هذا هناك متراس آخر عرضه 15 متراً، وأخيراً السور الداخلي، وقد يبلغ ارتفاعه 20 متراً، وهو واسع كفاية في الأعلى ليمكّن الجنود من القيام باستعراضاتهم. وقد أُقيمت أبراج يفصل بينها 50 متراً. وكان عند كل باب من الأبواب العشرة جسر متحرك يُرفع كلية في أوقات الحصار.

وإذا لم تخلف الوقائع والأرقام أثراً في النفس فأصغوا إلى عبارات أستاذ التاريخ بجامعة امهيرست في ولاية ماساتشوسيتس، وكان في فترة من حياته أستاذاً للتاريخ في القسطنطينية، إذ قال في روايته حول المدينة، في عام 1895[2]:

لعل أثبت القادة جناناً وأقوى الجيوش كان سيرتد فَرَقاً في تلك الأيام التي لم يكن المدفع قد ظهر فيها لمرأى تلك الأشغال الضخمة؛ فالخندق المائي الذي يشبه النهر الواسع والعميق

---

(1) أدرنة اليوم: 220 كيلو متراً.

(2) من مقدمة بقلم صديقه ليو والاس مؤلف كتاب (Ben Hur).

وقد خلا من الجسر يتمدّد مسرعاً في غمده الحجري وحتى وإن تجاوز وجه الصخرة العالي، وارتفع وعلا على مقدمة السور الخارجي والأبراج الضخمة والمتاريس التي تحميها كتائب من المقاتلين. وإذا تم الاستيلاء على هذه المعاقل الحصينة وأبعد المدافعون عنها إلى داخل المدينة فسيبدو بعدئذ الدرج المزيف والكبش المستخدم في دكّ المنشآت الهندسية، والسور الداخلي المذهل والشديد الصلابة. وقد يتجوّل المحاصرون على امتداد القسم الأعلى الذي تتخلّله الفجوات التي يستخدمها القناصة ويسخرون من الهجوم العقيم الذي يشنه خصومهم الذين كانوا قبل حين يحقّقون النجاحات وإذ بهم الآن أعداء يعانون الخيبة.

والواقع أنه ما من عدو استطاع اختراق هذا الحاجز حتى استولى الأتراك على المدينة في عام 1453، وذلك باستخدام مدفع من عيار 8، 5 متر يجره 60 ثوراً، وبوسعه أن يرمي قنابل وزنها نصف طن من مسافة كيلومتر واحد، وكان هذا يفوق أحلام أتيلا!

ولكن أتيحت لأتيلا فرصة لينال نصراً سهلاً، إذ تعرّضت المنطقة في نهاية يناير/ كانون الثاني 447 لزلزال رهيب أصبحت معه أقسام كاملة من السور الجديد حطاماً ركاماً، وقام الإمبراطور عندئذ بقيادة حشد عسكري قوامه 10 آلاف من المشاة الحفاة استجابة لإرادة الله، مخترقاً بهم طرقات المدينة التي تحفل بالخرائب في كل أرجائها، ليؤدّوا معاً صلاة خاصة. لكن ذلك لن يؤدي إلى خلاصهم من خطر البرابرة من دون العمل المجهد السريع. وقد نهض بهذا العمل الحاكم المعين من الحرس الإمبراطوري سيروس، الشاعر والفيلسوف وعاشق الفنون والمهندس المعماري الذي كان يتولى مسؤولية المباني العامة أكثر من أي شخصية أخرى منذ أيام قسطنطين.

ولعلّ أتيلا كان في هذه اللحظة عينها يتهيأ للتوجه جنوباً. ومن التفسيرات التي تقدمها المصادر أنه أسرع بجيشه حين بلغه نبأ الزلزال وانهيار السور، وسار بجيش أصعب مسيرة مخترقاً البلقان كي يصل إلى القسطنطينية. وإذا كان في هذا الظن من أمرٍ فهو أن الذعر بات يطبق على المدينة. وثمة إشارة واحدة إلى ما يمكن أن تكون عليه حالُ المدينة. وقد قام الراهب كالينيكوس، وكان يعيش يومئذ قرب خلقيدونيا[1]، الواقعة على الطرف الآخر من مضيق مرمرة، مقابل القسطنطينية، بعد عشرين عاماً باستعادة ذلك الذعر العام الذي استولى على الناس يومذاك.

---

(1) كاديكوي حالياً.

«لقد غدا الهون البرابرة الذين كانوا يومئذ في تراقيا أقوياء جداً حتى إنهم استولوا على أكثر من مئة مدينة، وكادوا يهدّدون القسطنطينية، مما حمل الناس على الهروب منها. بل إن الرهبان أنفسهم سعوا للهرب منها إلى أورشليم (القدس). ولقد شاع القتل في المدينة وسفك الدماء حتى لم يعد في الإمكان معرفة أعداد الموتى. وتفشّى نهب الكنائس والأديرة، وكذلك قتل الرهبان والعذارى... لقد روع هؤلاء القوم تراقيا ولن تقوم لها قائمة ثانية».

ويقول الكاتب إسحاق الأنطاكي، وهو سوريّ من القرن الخامس: إن المدينة لم ينقذها من الخراب إلا وباء أصاب الغزاة/ فيقول مخاطباً المدينة: «لقد دحر [الرب] بالمرض الطاغية الذي كان يهدّد بأن يأتي ويتولى أسرك». والواقع أن إسحاق ذكر هذه الفكرة مراراً وتكراراً «بحجر المرض تعثروا... وبعصا المرض الضعيفة [ضرب الرب] رجالاً جبابرة... وشد الخطاة القوس ووضعوا السهام، ثم أطلقها عندئذ المرض [من خلال] المضيف، ثم تغلب عليهم ودفع بهم إلى البراري». وهذا أمر يلفّه الغموض؛ ربما كان أمراً ذا دلالة ألاّ يرد ذكر لعدوان، ولا لآلة حصار بالتأكيد.

كان السبب في ذلك أن سايروس قام استجابة للصلوات التي تعالت من المدينة بإصلاح الأسوار بسرعة مضاعفة. وما زالت النقوش بالإغريقية واللاتينية ظاهرة للكاتب غروسفينور حين كان يجمع المعلومات لكتابه في ثمانينيات القرن التاسع عشر، فأطرى على العمل الضخم الذي نهض به حاكم المنطقة الذي ظل «مسمراً إلى السور» طوال 60 يوماً، فقال: إن «بالاس ذاتها ما كان لها أن تشيد منشأة حصينة في مدة وجيزة مثل هذه»، وما كان أتيلا ليواجه فجوات تستلفت الانتباه في سور مهدّم، وإنما البناء المجدَّد والمنيع. وهكذا ذهبت هذه الرحلة أدراج الرياح، على الرغم من أنه ربما كان قد وجد قليلاً من العزاء في أن القرار الذي اتخذه الآن صار من الواجب متابعة تنفيذه.

وكان ذلك القرار – في رأيي – يقوم على تبني نمط جديد تماماً من فن الحرب ليس فيه إلاّ القليل من تاريخ الهون من البداوة، وكان أقرب ذكرى من التاريخ الحي لحملة البلقان في عام 447 وصف بريسكوس لحصار نايسوس والنتائج التي ترتّبت عليه وشهدها بنفسه بعد سنتين من تلك الحملة. ولما كان الهون غير معتادين على حياة المدن فإنهم لم يكونوا يحسنون الحصار. ومع ذلك فقد أفادوا على مدى السنتين الأخيرتين كثيراً من جيوش أعدائهم الرومان في الشرق والغرب، وأخذوا الآن يفيدون من بحوثهم والتطوير الذي خرجوا به في هجوم ضخم

وآلي. ويذكر أن نايسوس تقع على ضفة نهر يدعى نيشافا. فقد قرر الهون القيام بعملية عبور ببناء جسر ذي تصميم مختلف عما هو مألوف في إقامة الجسور؛ إذ أقيم بسرعة، ويتألف من ألواح من الخشب مستندة إلى صفين من القوارب. ومقابل ذلك أتت «الدعامات المركبة على دواليب»، وإذاً فهذه أبراج حصار بمعنى ما، وربما كانت جذوع أشجار مثبتة على هيكل من أربعة دواليب. ويمكن للمرء أن يقدر - وفق التفاصيل التي عرضها بريسكوس - كيف يكون عمل هذه القوارب والجسر. فكان هناك فوق الهيكل منصة تغطيها ستائر من جدائل من الصفصاف والجلد، وهي سميكة وثقيلة بما يكفي لصد السهام والرماح والأحجار، بل حتى السهام النارية، لكنها ذات شقوق يمكن للمهاجمين من خلالها إطلاق سهامهم. وقد تتساءلون عن عدد الرماة على المنصة؟ أنقول أربعة؟! لقد كان في الأسفل فريق آخر من أربعة أفراد (أو ربما ثمانية) كانوا يحرّكون العجلات بأقدامهم. وقد يكون هناك فريق ثالث في المؤخرة يوجه هذه الآلة برافعة طويلة. وهناك عدد كبير من أبراج الحصار هذه التي تطلق وابلاً من السهام يجبر المدافعين على الهرب من الأسوار. لكن الأبراج لم تكن عالية بما يكفي للوصول إلى الأسوار أو المتاريس، ولا هي بالمستوى الذي كانت عليه أبراج الحصار الكلاسيكية مثل «الهيليبوليس» (كاسحة المدينة) التي استخدمها فيليب المقدوني حين حاول الاستيلاء على بيزنطة سنة 340، أو أبراج أخرى يفترض بأن ارتفاعها يبلغ حتى الخمسين متراً وهو حجم خارق؛ بل إن نصف هذا الحجم كاف ليثير الدهشة. بل ليس هناك من ذكر للجسور المتحركة، وهي ذات أهمية حيوية، إن كان هناك هجوم معتزم وتستخدم فيه أبراج الحصار منذ أيام الإسكندر الأكبر قبل ثمانمئة سنة، لقد كان الهون يتعلّمون، ولابد لهم من مزيد من التعلم والخبرة.

وهنا أتى الهون بسلسلة أخرى من مبتكراتهم التالية: الكبش المستخدم لدكّ الأسوار المرفوع على سلاسل عند نقطة اتصال الروافد الأربعة بعضها ببعض مثل حوافّ الهرم. وتغطى بدرع من الصفصاف والجلد، وتحمي الفرق التي تستخدم الحبال لتوجيه المنجنيق. وكانت هذه آلات ضخمة جداً كما يقول بريسكوس. وهذه الضخامة يفرضها عملها في الدك، ولا يقتصر ذلك على دك الأبواب، بل الأسوار أيضاً. وفي هذا السياق كان لابد للمدافعين من تحيّن اللحظة المناسبة للعمل، بعد أن كانوا قد عادوا إلى المتاريس. وقد عمدوا بعدئذ إلى إطلاق صخور جلاميد بحجم العربة، وبوسع كل واحدة منها أن تحطم منجنيقاً، كما تحطّم المطرقة الضخمة سلحفاة. ولكن ما مقدار الصخور الضخمة التي خُبّئت في الحصن؟ وكم من الرجال من هو على استعداد لمواجهة وابل السهام التي يمطرهم بها الأعداء وهم يلقون بها؟ وكم من أبراج الحصار والمنجنيقات يحتاج

الأمر ليكفل لهم النصر: 20 أم 30 أم 50 في كل حصار؟ لا يفصح بريسكوس عن التفاصيل. ومهما يكن العدد الحقيقي فإنّ التكتيكات كانت ستتطلّب القدر الكبير من الوقت والطاقة والمعرفة والخبرة؛ أي جيوشاً من النجارين والحدادين، وشهوراً من الاستعدادات، ومقادير عظيمة وأحمالاً من العتاد. ولم يكن جيش أتيلا قد بلغ من القدرة ما يسمح له بمنافسة روما والقسطنطينية في هذا المجال؛ بيد أنه كان يفوق كثيراً قدرة نايسوس. وإذا ظلت الأسوار خالية بفضل أمواج متصلة من السهام، فإن أدوات المنجنيق ظلّت تنزل ضرباً بالأحجار حتى حينما أنهى الهون هجومهم ومضوا يتسلقون السلالم بعدما سقطت المدينة.

لقد غدت نايسوس بعدئذ ركاماً وحطاماً.، وعندما مرّ بريسكوس بالمدينة بعد سنتين من تلك الواقعة كانت عظام من سقطوا ما تزال مبعثرة متناثرة على ضفة النهر، والمضافات تكاد تكون خالية، ولكن يكفي المرء أن يجد هناك مضافات وأناساً: لم يكن الخراب عاماً كلياً، فقد كان هناك دائماً بشر نجوا من شأنهن أن يقوموا بإعادة البناء!.

أما كيف لنا أن نجمع تلك الأحداث بعضها إلى بعض؟ فقد افترض بعض المؤرخين أن أتيلا استولى على تراقيا بلدة بعد بلدة عندما كان في طريقه إلى القسطنطينية. وإذا أخذنا بهذا الرأي سألنا عما جرى لآليات الحصار التي كانت حيوية للاستيلاء على المدينة؟ الواقع أن هذه الآليات ليست كافية للتعامل مع الأسوار الجديدة التي بناها انثيميوس، ولابد أنه كان يعلم ذلك؛ فلماذا يتجشم عناء الرحلة إلى هناك؟ وأجدني أجنح إلى الرأي بأنه إنما هرع إلى العاصمة، آملاً أن يجد أسوارها ما تزال على حالها من الخراب الذي أصابها بسبب الزلزال، فلما وجدها سليمة تراجع، ثم التقى بآلات الحصار وهي تتقدم لتنتقي أهدافاً أسهل، مثل نايسوس، وهكذا يكون في وسعه أن يمسك بالإمبراطورية الشرقية ويبتزّها في كل الأحوال، فيحصل بذلك على غنائم عظيمة وينال خبرة هامة في حرب الحصار تجعله في وضع جيد على امتداد الخط، خاصة إذا رغب في التحرك ضد القسطنطينية وقت لاحق.

ولقد سعى ثيودوسيوس إلى السلام وناله حسب الشروط التي شاءها أتيلا[1]؛ فتم تسليم الفارين، وارتفعت فدية الأسرى الرومان من 8 إلى 12 صوليدي، متأخرة وهي تعادل 6000 ليرة

---

(1) يعود كثير من الباحثين بهذه الأحداث ومعاهدة عام 442 مجحفة إلى الوقت الذي كان فيه بليدا ما يزال حياً. ويجزم مينيشين هيلفين بأن «هذا الرأي ليس سليماً»، مستنداً إلى بريسكوس الذي يقول بأن «أتيلا حاكم الهون الأوحد. وهو الذي وجه الكتب إلى الإمبراطور، وكان مستعداً أبداً لاستقبال رسل الرومان، ويحدد مقدار الإتاوة. ولم يعد هناك عبارة «ملكا الهون» بعد ما مات بليدا.

ذهبية – تدفع، حيث بلغت الإتاوة ثلاثة أضعاف ما كانت عليه، إذ أصبحت 2100 رطل. وكانت هذه عند الهون أموالاً حقيقية: ما يعادل 38 مليون دولار، يتبعها 13، 5 مليون دولار كل سنة، ويعد هذا عند البدو الرعاة نهر من الذهب. وتذهب المصادر الرومانية إلى أن هذه المبالغ جعلت القسطنطينية تستنزف، فعندما حضر محصلو الضرائب لجمع الأموال اضطر الشرقيون الأثرياء لبيع رياشهم، بل حتى حلي زوجاتهم ليسدّدوا ما عليهم. بل لقد قيل إن بعضهم انتحر تحت وطأة مطالبة المحصلين.

والواقع أن الأمر لم يكن على هذه الدرجة من السوء؛ ففي عام 408 تلقى إلاريك 9 آلاف رطل من الذهب (4 آلاف من القسطنطينية و5 آلاف من روما) وكان هناك زعماء معادون آخرون يتلقّون الرشى بما يتراوح بين 1000 و3000 رطل كل عام. وقد تلقى الفرس ما بين الأعوام 540 – 561 أربع دفعات بلغ مجموعها 12600 رطل، أو ما يزيد قليلاً على ألف رطل، في السنة. وكانت هذه المبالغ تماثل أحياناً فدية عن أسير مهم، أو كلفة دورة ألعاب تكريماً لأحد الأباطرة، أو بناء كنيسة. وتذهب إحدى التقديرات إلى أن عائدات الإمبراطورية الشرقية تبلغ في المتوسط 270 ألف رطل من الذهب في السنة. وإذاً فقد أمكن لأتيلا أن ينتزع ما نسبته قرابة 2 , 2 في المئة من دخل الخزانة كدفعة مقدماً، أما الدفعات اللاحقة فكانت أقل من 1 في المئة، أي في حدود المبلغ الذي يجيزه مستشار حصيف ليدخل في بند «الرشى والمتفرقات». لكن هذه الحال لم تدم إلاّ ثلاث سنوات على أقصى تقدير. وقد قدر أتيلا أن ثمة ما هو أكثر من ذلك، ولا شك في أنه كان يجري التحضيرات للقيام بحركته التالية.

كان العنصر الرئيس في هذه الإستراتيجية حيازته لرقعة هائلة من الأرض واقعة جنوب نهر الدانوب، وتمتد مسافة 500 كيلو متر من الغرب إلى الشرق من بانونيا إلى نوفاي (سيستوفا الحالية)، ومرحلة من خمسة أيام – لنقل 160 كيلو متراً – من الشمال إلى الجنوب: 80 ألف كيلو متر مربع، وهي رقعة بحجم سكوتلاندا أو ولاية ماين. ولم يكن هناك في هذه المنطقة مدن ذات أسوار أو مواقع لمعسكرات الجنود الرومان، ولا أسطول في الدانوب، كما كان الطريق عبر البلقان إلى القسطنطينية مفتوحاً لا يعترضه معترض، وكان موقع معرض التجارة السنوي قد تحول إلى الجنوب من ضفاف الدانوب إلى نايسوس المهدّمة التي ستكون من الآن فصاعداً البلدة الحدوديّة الرئيسة. وأصبحت تراقيا يومئذ تحت رحمة أتيلا، ولما بدأ الحملة كان سلطانه يمتدّ على طول المناطق المجاورة المهتزّة. أما وقد توافر له كل ما يحتاج إليه من المال، وقومه

ارتفع شأوهم بما توافر لهم من الأموال المنهوبة وفداء الأسرى، فقد غدت عشائر الهون خاضعة لأمره، وتم له فرض سلطته على أولئك الذين كانوا قد نفروا منه، وبات في وضع يسمح له بتوسيع حدوده أكثر من ذي قبل.

أصبحت إمبراطورية أتيلا أمراً لا عهد لهذا القسم من أوروبا به ككل منذ أن نمت روما وتطورت، وقد كانت هناك ذات يوم مملكة قامت على داسيا، أقامها رجل يدعى بوربيستا في عام 60م امتدت من البحر الأسود غرباً حتى هنغاريا، وتوغلت شمالاً في أعماق سلوفاكيا، بيد أن هذه المملكة لم تدم إلاّ عشر سنوات فحسب، واختفت بعدها من دون أن تترك أثراً. وكان أتيلا قد فرض نفوذه على منطقة أوسع من تلك عبر بحر الخزر شرقاً حتى البلطيق في شمال شرق بحر الشمال.

ويأتي الشاهد على تواجد الهون من إشارات متناثرة عبر هذه المنطقة. وكما شاهدنا فإن الأميرين سُلّما للخوزقة بعد معاهدة مارغوس في كارسيوم (وهي هارشوفا اليوم) على الدانوب، وتبعد 60 كيلو متراً فقط عن البحر الأسود. وقد وجد علماء الآثار مئات الأدوات التي يختص بها الهون، ومصدرها النمسا (أجزاء من قوس جرى تجديد انحناءته وجمجمة مشوهة في فيينا) وفي الفولغا (أوان وسيوف في أوكرانيا). ويبدي بريسكوس إشارة غامضة إلى حكم هوني في «جزر المحيط»، وهي عند معظم العلماء جزر في بحر البلطيق قبالة ساحل الدانمرك وألمانيا (وهذه نقطة يدور حولها الجدل، لكنّها تنطوي على أساس؛ لأن أتيلا كان قد ورث هيمنته في إطار الاتحاد القوطي الشرقي الذي أقامه ارمناريك، وسقط ليفوز به الهون في سبعينيات القرن الرابع). وقد شملت هذه الرقعة وسط أوروبا وشرقها من نهر الراين نحو الشرق، بما في ذلك اثنتا عشرة دولة من الدول الحالية، وأجزاء من جنوب روسيا والبلقان وبلغاريا، وتبلغ مساحتها قرابة 5 ملايين كيلو متر مربع، وهي مساحة تبلغ نصف حجم الولايات المتحدة. وليس المراد القول إن هذه المنطقة كانت إمبراطورية موحدة، وكلّها تخضع لسيطرة أتيلا، ولا كانت كل قبيلة تأتمر بأمره، إنما لم تكن لتتحرك ضده على الأقل، بل إنّ معظمها كانت تسانده بالمقاتلين إن سألها. وفي أواخر الأربعينيات من القرن الخامس كان يعدّ لدى البرابرة بمثابة الأسد الألفا[1] الذي يستطيع أن يكفل الحصول على الغنائم التي تبرّر شنّ حروب هجومية.

(1) رأس قطيع الأسود، (المترجم).

كانت تلك إمبراطورية مخفيّة إلى حدّ بعيد عن أولئك الذين يملكون القدرة على تدوين أحداثها، نظراً إلى أنها بلغت نواحي الشرق والشمال الشرقي، ولم تبد لقادة القسطنطينية وروما تهديداً ماثلاً بعدُ للعالم المسيحيّ، ولن تكون كذلك قبل عام أو يزيد، وبالتالي لم تكن طبيعتها جلية أو واضحة. وكان لدى مختلف الخبراء اختلافات في الآراء بالغة الحدة، حتى تكاد أن تبلغ حد الفظاظة أحياناً. فيكتب مينيشين - هيلفين أن طومبسون يرى في «الهون جمعاً من المتوحشين النابحين»، «بل إنه ليخطئ في ترجمة النص». كذلك رأى الماركسيون في أتيلا ذروة المرحلة الأخيرة من البربرية، وهي على وشك إنتاج ديمقراطية عسكرية قُيّض لها وفق التصور الماركسي للأمور أن تقضي على مجتمع روما الذي كان يأخذ بملكية الرقيق، وتُهيّئ لظهور الإقطاع والرأسمالية والاشتراكية وقيام الجنة على الأرض، ولكن لا شيء من هذا تؤيده الوقائع، فلا يُعرف إلاّ القليل عن آلية عمل المجتمع الجديد.

فماذا كان مثلاً - موقع أتيلا؟ لقد شاعت مختلف أنواع المصطلحات، وباتت موضع نقاش وجدل، ومن ذلك باسيليوس (وهو مصطلح يشير إلى أباطرة الرومان)، ريكس، ومونارخوس، وهيجيمون، وآرخون، وفيلارخوس..، وهذه مصطلحات إغريقية أو رومانية، وجميعها تنطوي على الغموض أو الالتباس، فقد نتساءل لعلّه كان أكثر من ذلك، أهو إله عند شعبه؟! وكان هذا ما يُوسَم به صاحبه، ولعله كان محتملاً إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ من أباطرة الرومان من كان يولى مرتبة قدسية، فقد رفع أوغسطس قيصر إلى مرتبة الآلهة، كما رفع كاليغولا نفسه إلى مرتبة إله، وتفضل قسطنطين وسمح بأن يلصق به ما يشي بالتأليه. إلاّ أنّ هذا الجنون لم يكن جزءاً من ثقافة البدو قط؛ فالحاكم عندهم قد يزعم في أفضل الأحوال أنه مختار من السماء، كما رأى جنكيز خان أنّ السماء الزرقاء أو الأبديّة اختارته لحكم العالم، وكان ثمة أباطرة صينيون يدَّعون أنهم مخوَّلون بالحكم من السماء، ولكنّ هذا ليس مثل ادعاء الألوهة. فلم يكن ثمة ما يضير في الإطراء بذكر القائد في السياق ذاته الذي يرد فيه ذكر السماء أو الرب، أو بوصفه أحد الآلهة. وكان ذلك ما أثار الخلاف حول رحلة بريسكوس كما سنرى في الفصل التالي، والأساس للعذر الظاهر الذي تذرع به مقدم الأجاثيرس وامتنع عن الذهاب لتحية أتيلا. لكنه لم يكن يقصد ذلك حقاً، فأتيلا لم يكن الملك الشمس الذي كان يُعتبر كل ما يصدر عنه أمراً، فقد كان الاحترام يولى للرجل، ولا يقصد به إلهاً.

أصبح الهون الآن في طريقهم للصعود بفضل ثرائهم المتزايد، ومنطقتهم التي تتّسع، ووجود

نخبة متعدّدة العروق تتوق لنيل مزيد من الثروة والأرض، وقد برز شاهد ملموس على ذلك كله سنة 1979 في شمال هنغاريا، كما أتيح لي أن أعلم إبان زيارة قمت بها لغيور.

وقد ذهبت إلى تلك المنطقة يومذاك للقاء بيتر تومكا الخبير مختص بالهون، وأحد كبار علماء الآثار في هنغاريا، ومدير متحف يانوش اكسانتوس. وكنت يومئذ حديث العهد بموضوعي وبي شيء من التوتر، لكن ذلك اليوم كان يوماً مجيداً من أيام الصيف، ومشهد مركز البلد الذي يعود إلى القرن الثامن عشر خلاباً كأنه لوحة رسمت بألوان الباستيل، وقد حملت أندي تسيغيدي على الترجمة، وأعلم بأن ثمة أمراً لا أدري ما هو يجمع بيني وتومكا. وكنا نحن الاثنين قد عرفنا منغوليا، ومن يعرفون منغوليا يربط بينهم وثاق سرّي. وكان أمراً مفيداً أن نحطم الجليد بيننا، وسرّني ذلك؛ لأن هذه المقابلة كانت هامة؛ لأنّ تومكا كان قد أشرف على استعادة أحد أعظم كنوز الهون، والواقع أنه لم يكن هنا من جليد ليذوب. أما تومكا فكان الصورة التي يحملها كل طفل عن الدبّ الضخم والودود؛ كان الرجل ضخم البنية قوياً، ذا لحية بيضاء، أشعث الشعر، يرتدي بنطالاً فضفاضاً قصيراً. رحّب بي تومكا في عرينه المكوّن من الكتب والأوراق ورفوف من الحديد ترحيباً منغولياً «ساين باين اوو!»، أعقبته ضحكة هائلة وقصة..

تبدأ القصة في منتصف مايو أيار 1979 في حقل في هدأة دير بانونهالما أعلى التل الأبيض، وكان العمّال يزرعون كرماً جديداً. وأحدهم «يحفر» الأرض لنصب من الإسمنت في التربة الناعمة الشبيهة بالرمل في عمق يبلغ متراً تقريباً، فوقع فأسه على شيء صلب، كان حديداً، بل قطعة طويلة من الحديد. ومضى يحفر فصادف مزيداً من الحديد، ورفعها فخرج سيفان، وحين تمكّن المشرف عليه من بلوغ المتحف كان العمال قد وجدوا مزيداً من اللّقى معظمها قشور صغيرة من الذهب. وما هي إلاّ بضع ساعات حتى كانت هذه الموجودات قد وضعت في علب، وحملت جميعها إلى المتحف. وكانت تلك أول ما وقعت عليه عينا تومكا من كنز البانونهالما «أجل، كان اكتشافاً مثيراً جداً.. إنها تجربة فريدة لا تعادلها أي تجربة في الحياة». رجع برأسه إلى الخلف وهدر ضاحكاً وهو يعود بذاكرته إلى الأيام الخوالي، وتابع قائلاً: «كانت تلك الحلي من آثار الهون التقليدية: أدوات زينة ذات شكل حلزوني، وزينة حصان بشكل حرف أوميغا الإغريقي، وقشور ذهبية كانت تزيّن غمد السيف الذي كان من الخشب. فخرجت يومئذ إلى الحقل ومضيت أُجرى مزيداً من التنقيب والصيد بالكشّاف لدي، وهي آلة معدنية، لكن لم أعثر هناك على شيء، إلاّ وريقات قليلة من الذهب. ولم يكن هناك من علامة على قبر، ولاشيء من الرماد، ولا عظام.

وهكذا كنت واثقاً جداً بأن ما وقعتُ عليه كان مذبحاً للقرابين، وقد لفظها بالألمانية، وكان متمكناً منها، مما جعل الحديث يجري بيسر شديد بيننا؛ لأن الهنغارية مغلقة على الفهم لدي.

كان الموقع بعيداً عن درب إحدى المزارع ووسط حقل ذرة. فلمّا مضيت إلى ذلك المكان وجدتني أقف وسط حقول صامتة وأشجار موزّعة هنا وهناك، ولم تكن دلالة المشهد تنحصر بكنز تقادم عهده ومضى، وإنما بفضل مجمّع الدير الذي يرقى عهده إلى ألف عام وهو يهيمن على المزارع المحيطة من التل الذي يبعد قرابة كيلومترين جنوباً. وهذه التلال ذاتها كانت في موقعها حتى قبل ألف وخمسمئة سنة مضت. كانت هذه أرض الهون، لكن على حافة المنطقة الرومانية؛ لأنّ الرومان لم يغادروا أكوينكوم، وهي البلدة التي تقوم عليها بودابست الآن، 100 كيلومتر شرقاً، وقد كانت جزءاً من بانونيا تحت حكم الهون مدة 20 سنة فقط امتدت ما بين عام 433 و454، فما كان هؤلاء الهون الأغنياء يفعلون إبان هذه الفترة؟! أتراهم كانوا منشغلين بدفن هذه الأشياء الثمينة في حفرة من دون أي علامة؟!

كانت هذه أشياء يقدر قيمتها من قاموا بإخفائها: قطع حديدية ترافق لجام الأحصنة، سيوف ذات حدين بطول متر وقوس، وكلاهما من الأسلحة التي باتوا يستخدمونها في الزينة والطقوس مع مستطيلات صغيرة يتراوح طولها 3 أو 4 سنتيمترات وأوراق ذهب على شكل وريقات البرسيم، مشغولة بأشكال دائرية وبيضوية. كذلك عُثر على لجامات مزيّنة ومثبتة بمسامير برونزية ورؤوسها ملفوفة بشكل دقيق. وقد أشار تومكا في دراسته المنشورة سنة 1986 حول هذه اللقى أنّ بعضها مماثل في النمط لما عثر عليه في منطقة الراين، قريباً من بحر آزوف، وهذا يبيّن عند تومكا مدى اتساع إمبراطورية الهون: «تتصل المجموعتان جغرافياً وزمنياً، وتفصل بينهما آلاف الكيلومترات[1] بمكتشفات بانونهالما».

وثمة معنى أيضاً في ما لم يكن هناك؛ فلم يكن هناك رؤوس سهام؛ ولا قطع نقد؛ ولا مشابك، وهذه الاشياء كانت شائعة في اللقى الأخرى. وإذاً فليست هذه قائمة زمنية للأدوات التي تستخدم في الحياة اليومية، ولا هي كنز ينطوي على ثروة أو غنيمة حقيقية، بل إنها أشياء حافلة بالدلالة العاطفية، لكن لا يرجى منها فائدة بأي معنى عملي.

قال تومكا وهو يندفع باهتمام إلى الأمام: «الأشياء المثيرة للانفعال حقاً كانت التزيينات على القوس، وهناك لقى أخرى تحتوي على مقابض قرن مشابهة، إنما تخلو من قطع الذهب الصغيرة

(1) قرابة 2000 كيلو متر.

مثل هذه، لكنها ذات تصميمات شبيهة بأشجار الشربين. إن القوس الذهبية التي عُرف به الهون لا مثيل لها إنها فريدة!»، ثم أطلق ضحكة أخرى تشي بحبوره.

«أهي قوس استُخدمت فعلاً؟».

«سؤال جيد.. لم يعثر على قوس بالتأكيد، إنما كانت هناك التزيينات فحسب، فهذه الأشياء كانت في النهاية مدفونة في الأرض، ولابد من أنها كانت في وقت ما في صندوق خشبي، ونستدل على ذلك بفضل المسامير هناك، إلاّ أن الخشب كله تعفّن وتلاشى، مثل غمد السيوف. وعندي أنك لن تستطيع بمثل هذه القوس الموشاة برقائق ذهب راقية أن ترمي سهامك، لأنّ التزويقات ستسقط، ولا بد من أن هذه كانت رمزاً للسلطة والمكانة. دعك مني، فأنا يطيب لي المزاح - لكني جاد أيضاً - ولابد من أن هذا كان رمزاً لمكانة أتيلا ذاته، ولربما كان الأصل يحمل بصمات أتيلا».

ونقول الآن إن من الراجح أن يكون موقع قيادة أتيلا على بعد مئتي كيلو متر إلى الجنوب الشرقي، إلاّ أنّ رمز المكانة ذاته مفهوم؛ فتومكا يتحدّث عن احتفال موصوف في أيام الهون شائع جداً بين أهل السهل، حيث من جملة ما يتألف منه المأتم وليمة تُستعرض في أثنائها أشياء خاصة بالمتوفى؛ مثل لجام الحصان وأسلحته. ويكون هذا العرض وروح المتوفى لم تصعد بعدُ إلى السماء، ولابد له عندئذ من أن يُحاط بأشيائه التي كان قد أَلِفها على الأرض، وليس المقصود بذلك ثروته طبعاً؛ لأنها تكون عندئذ قد توزّعت بين ورثته، بل أدواته التي تعبّر عن معتقده. وإذا حان الوقت للوداع الأخير، وقد يكون شهوراً أو حتى عاماً بعد ذلك يُحرق تمثال أو قناع يمثل وجه الراحل ومعه آثاره الحميمة التي رافقته في حياته، وذلك أمر غالباً ما يحصل، وإن لم يكن ذلك بالضرورة دائماً، ثم تدفن هذه الآثار قرب المكان. وقد عُثر على أكثر من 100 من هذه اللقى، إنما لم يعثر بين أي منها على عظام بشرية. ويخلص تومكا إلى القول: «فإذاً ليس لنا أن نشكّك بأن اللقى التي وجدناها في بانونهالما هي بقايا قرابين قدمت في جنازة».

ولكن بانونهالماتقع على بعد 100 كيلو متر غرب أكوينكوم، أي بودابست الرومانية. ولابد من أنّ أحد الهون المرموقين قد أرسى لنفسه مكانة مرموقة في ما كان حتى وقت متأخر منطقة رومانية، في التلال والغابات المنتشرة التي لم تكن ملائمة لقطعان الماشية مثل سهل هنغاريا الكبير (البوزستا). تمتد إمبراطورية أتيلا الجديدة غرباً وشمالاً؛ والرجال مثله وأسرته الباقية يحتاجون إلى رقيق وممتلكات ونقد وأرض، إن كان للحياة أن تستمر وأن يكون ولاؤهم مؤكّداً.

6

في بلاط الملك أتيلا

يحيا أتيلا اليوم ويتنفس بفضل رجل واحد، إنه موظف مدني، ومثقف عالم، وكاتب: يدعى بريسكوس؛ فهو الوحيد الذي قابل أتيلا وترك لنا سجلاً مفصّلاً عنه. وقد أصبحنا نلمّ عموماً بشخصيّته الحقة مما بلغنا من بريسكوس؛ فعلمنا أنه أقلّ همجية ووحشية من الصورة التي بلغتنا عنه، وأقرب إلى القائد المهيب مع مزيج من الخصائص، هي: القسوة، والطموح، والتلاعب بالناس، وسرعة الغضب، وسرعة أكبر في التظاهر به، وميل إلى جمع الثروات من أجل قومه، إلاّ أنه شديد التقشف، ورهيب في المعارضة، وكريم في الصداقة. إنها صورة رجل كاد أن يغيّر مجرى تاريخ أوروبا.

أما بريسكوس ذو الخمسة والثلاثين عاماً فكان ينزع للكتابة، وهذه موهبة لا جدال في أنها مفيدة للرواية: زيارة لغريم الإمبراطورية الأعظم، ومؤامرات في البلاط، وعقدة الرواية في مؤامرة اغتيال، ورحلة حافلة بالأحداث والتوتر والخداع، وكشف يهدد حياة البشر. وهذا كله شذرات من كتاب بريسكوس «تاريخ بيزنطة» الذي وضعه أصلاً في ثمانية مجلدات فُقد معظمها، وهي تصلح لأن تكون قصة مغامرات شائقة، ولذلك أخذ آخرون عنه الكثير من روايته التي بقيت حتى الآن تغالب الزمان. وقد كان من اليسير على بريسكوس أن ينزلق من التاريخ إلى سرد الرواية؛ إذ يفتقر الرجل إلى الاهتمام بتفاصيل الحياة اليومية والقضايا العسكرية والجغرافية، والسبب في ذلك أن هذه المسائل لا تحتل مجالاً كبيراً في التقاليد الأدبية للنماذج الكلاسيكية التي يُعنى بها، بيد أنه كان يتمتع بتقدير الروائي للعلاقات؛ لأن اهتمامه الأكبر كان ينصبّ على الدبلوماسية. إلاّ أنّ وجهة نظره ليست شاملة، ونظرته لا تحيط بكل شيء، وذلك لأنه لا يلج العقول، بل يحرص على إخفاء استجاباته الانفعالية. لكن بناءه الروائي جيد، إنه يكشف مقدَّماً ما لم يكن يعلم به في حينه، إنما عرفه لاحقاً. وبالنتيجة نجد أننا نعلم بمؤامرة الاغتيال، وإن لم يكن هو يعلم بها حتى النهاية؛ إذ إنّ رحلته كلها تتمّ في حالة من الجهل مما يسبغ عليها جواً من التوتر الحديث. فمن الذي يعلم هذا الأمر أو ذاك بالضبط؟ ومتى يتم الكشف عن كل شيء؟ وكيف يمكن أن ينجو وسط هذا الجو؟ وما يلي إنما هو عبارة عن نسخة من رواية بريسكوس. وأسلوب السرد هنا يأخذ الطابع الحديث بتحويل كثيرٍ من حديث بريسكوس غير المباشر إلى صيغة «النقل المباشر»، ولقد أضفت بعض التفاصيل التي استقيتها من مصادر أخرى، ودفعت أحداثاً أخرى إلى المقدمة حين بدا لي أنه من الأجدى أن نكون على علمٍ بها قبل أوان ورودها. لكنّ البنية والشخصيات وكثيراً من المقتطفات

المأخوذة مباشرة هي كلماته ومستقاة من الترجمة التي تولاها آر. سي. بلوكي، وصدرت ما بين عامي 1981 - 1983، والمقتطفات المأخوذة عن بريسكوس والمصادر الأصلية تظهر مكتوبة بحرف مطبعي أسود تمييزاً لها عن عباراتي الخاصة.

تبدأ القصة مع وصول سفراء أتيلا إلى بلاط ثيودوسيوس الثاني في القسطنطينية في ربيع عام 449، وكان هذا الفريق الرفيع المستوى بقيادة إديكا، القائد السكيري سابقاً، وحليف أتيلا المخلص حالياً، الذي كانت له جولات مشهودة في الحرب. كان أوريستيس، وهو روماني من أهالي شريط من الأرض يقع جنوب الدانوب ويخضع الآن لسيطرة الهون، ثاني أبرز عضو في الفريق، ولديه جماعة صغيرة تتألف من مساعدَيْنِ أو ثلاثة مساعدين. وعلى الرغم من أن أوريستيس كان غنياً وصاحب نفوذ وأحد أعضاء فريق أتيلا من الإداريين، فقد كان إديكا يتغلب عليه وينحّيه جانباً، وهذا ما كان يضايقه. وها هما الآن في قاعة استقبال الإمبراطور ثيودوسيوس في القصر الكبير الذي بني بإيعاز من الإمبراطور قسطنطين قبل قرن من الزمان، وكان الموفدان ينظران إلى المشهد وقد فغرا فاهيهما من شدة الدهشة.

كان القصر الكبير أشبه بكريملين بيزنطي، متاهة من أماكن السكن والكنائس والأروقة ذات الأعمدة، والمكاتب والثكنات، والحمامات والحدائق، وكل منها تحيط به أسواره الخاصة، فهو كتلة مترامية الأرجاء من المساكن والكنائس والأديرة والتشكيلات الهندسية الدفاعية. ويستعيد إدوين غروزفينور عام 1895 صورة القسطنطينية وأمجادها الغابرة: «بدت السلسلة المتّصلة من الغرف والقاعات تلمع ببريق الذهب والفسيفساء وأندر أنواع المرمر، وكأنما طاقات الإنسان وابتكاراته لا يمكنها أن تنجز ما يبزّ هذا الجمال الفائق والأبهة الرائعة». في ذلك الوقت، وعند أسفل منحدرات الفخامة التي تقبع قمتها على بعد ألف سنة قادمة، لكنها تنافس في ذلك الحين أيَّ معلم في روما. وقد أقام ثيودوسيوس بلاطه في قلب قصر قسطنطين الذي يحميه الله والمؤلف من كتلة من الدور والغرف الفخمة التي تُعرف باسم «دافني»، نسبة إلى عمود يخصّ أحد العرافين جُلب من بستان في بلاد الإغريق.

يقرأ أوريستيس الكتب التي أملاها عليه أتيلا، ويتولّى مترجم القصر فيجيلاس ترجمتها. وصفوة القول أن أتيلا يخبر في رسالته الإمبراطور بما عليه القيام به ليكفل السلام، ومن ذلك أن عليه الامتناع عن توفير الملاذ للاّجئين الهون الذين يسكنون المنطقة الحرام التي بات يملكها أتيلا الآن، وألاّ يكون الموفدون إليه من الأفراد العاديين، بل مسؤولين من ذوي المراتب العليا بما يليق

بمقام أتيلا، فإذا تولّد لديهم شعور بالقلق فإن ملك الهون سيعبر نهر الدانوب للقائهم.

لا ريب في أنه قد ران على القاعة صمت ثقيل حين أخذ أحد المسؤولين لفافة البردي، وبذلك يكون نصف المهمة قد أنجز، وينبغي الآن دراسة الاستجابات وتدوين الردود، ولسوف ينزل أعضاء الوفد ضيوفاً على القصر في الأيام القليلة القادمة. وقد أُدخل إديكا وأوريستيس والمساعدون إلى جناح من عدة غرف تخصّ كبير الحجّاب كريسافيوس. وراود الجمع شعور بالتوتر؛ لأن المكانة التي يحتلها كريسافيوس تجعله أقوى رجال الدولة، مثل سلفه قائد الحرس الإمبراطوري سيروس الشاعر والفيلسوف وعاشق الفنون الذي كان يحظى بأشدّ الإعجاب والتقدير، واشتهر بالنزاهة، وأشرف على العديد من الأبنية الجميلة، وقام على تطوير جامعة قسطنطين، وأعاد بناء الأسوار التي دمّرها الزلزال في عام 447، وكان أول من وضع المراسيم بالإغريقية عوضاً عن اللاتينية. بيد أن كريسافيوس يختلف عن سلفه أشد الاختلاف؛ فهو خصيّ له ملامح الطفل الصغير، وبقدر ما كان سيروس صادقاً نزيهاً كان كريسافيوس يستمدّ سلطته من المؤامرات الماكرة التي كان يحيكها. وهو من دبّر سقوط سيروس، ومن ثم[1]: «سرعان ما صار يفرض سيطرته على كل شؤون البلاد، ومضى ينهب أملاك الجميع وبات مكروهاً من الجميع. إنه الآن يحكم قبضته على الإمبراطور المطواع، وهو الذي له القرار في أفضل طرائق التعامل مع أتيلا. وبينما كان إديكا على وشك أن يبدي إعجابه الشديد بالرياش الفاخر الذي يملأ القاعة والسجاد السميك والسقف المزين بأوراق الذهب، انضم إليهم كريسافيوس. عندئذ تولى فيجيلاس تجنيب إديكا الحرج، بقوله: «لقد كان يبدي إطراءه للقصر ويهنئ الرومان للثراء الذي يتمتّعون به». وكان يشير إلى أسياده ونفسه بعبارة الرومان، وإن راحت «روما الجديدة» تتخذ طابعاً إغريقياً أكثر فأكثر مع مرور كل عام.

لا ريب في أن ما كان يجري من قبيل تبادل المجاملات[2]، ولقد التقط كريسافيوس تعليق إديكا والإشارة الخفية إلى ما يشغل فكره، وتحدّث عبر فيجيلاس الذي غدا ظلاً: «وأنت أيضاً يا إديكا سوف تكون ذا ثراء طائل، وتملك غرفاً ذات سقوف ذهبية إن استقرّ رأيك على أن تعمل للرومان». كانت عين كريسافيوس قد استقرت على إديكا لعلمه أنه كان ذات يوم سيد قبيلته، ولا ريب في أنّه ممتعض من مولاه الجديد.

ولقد شعر إديكا بالقلق، فأجاب: «لا يليق بخادم سيد آخر أن يقوم بذلك من دون إذن من

---

(1) بعبارات مؤرخ آخر: هو يوحنا الأنطاكي.

(2) وأنا هنا أخمن؛ فلم يكن بريسكوس حاضراً ليسجل مثل هذه التفصيلات، والأرجح أنه ما كان ليفعل ذلك.

مولاه».

أخذ كريسافيوس يمتحنه بكل كياسة؛ أيكون إديكا وثيق الصلة بأتيلا؟! أيمتلك حرية الوصول إلى أتيلا من دون أي قيد؟!

«إني أحد أقرب أعوان أتيلا، ومسؤول عن حراسته».

«أنت وحدك؟».

«هناك عدة أشخاص يتولّون حراسته. ونحن نتناوب الحراسة؛ واحد منا كل يوم».

توقف كريسافيوس: «ثمة أمر أودّ مناقشته معك، وأحسب أنّ فيه فائدة لك، والأفضل أن تقوم بذلك وأنت مرتاح، وفيما بيننا على العشاء في جناحي، ومن دون وجود الآخرين». ونظر عبر الغرفة إلى أوريستيس وبطانته: «وأودّ أن تعدني بأنّ الأمر سيظلّ بيننا».

وإذاً فهناك ثلاثة على مائدة العشاء في ذلك المساء، عدا الأرقّاء الذين كانوا يتولّون خدمة المائدة. وبينما كان فيجيلاس يهمس بترجماته، أمسك كريسافيوس وإديكا كل منهما بيد الآخر اليمنى وتبادلا العهود، أحدهما يقسم على ألاّ يتآمر على سلامة إديكا، وإنما سيعمل لما فيه مصلحته الكبرى، والآخر يتعهد بالتزام السرّية حتى وإن شعر بأنه عاجز عن الالتزام بما سيعرض عليه صاحبه.

وفيما يلي العرض:

سيعود إديكا إلى منطقته، ويقتل أتيلا، ثم يرجع إلى القسطنطينية، وإلى حياة سعيدة وثراء عظيم.

بقي إديكا محافظاً على مظهره الهادئ، لكن لابد من أن يكون قد حلّ به الصمت المرافق للذهول وهو يستوعب أبعاد هذا العرض المذهل! وفي غضون ذلك ينتظر فيجيلاس، وتلك صورة التماسك الذي يعرف به المحترفون.

وعندئذ يوافق إديكا على العرض ببساطة! بيد أن الأمر يحتاج إلى المال بالتأكيد، إذ إنه مضطر إلى دفع الأموال للحرّاس الذين يأتمرون به، ولن يقتضي ذلك تسديد مبالغ كبيرة؛ فالأمر لا يتعدّى خمسين رطلاً من الذهب؛ أي 3600 قطعة نقدية مسكوكة من الذهب، أو صوليدي[1]. ولابد من

(1) صوليدي أو صوليدوس قطعة نقدية تزن 4.54 غرام/ 0.22 أونصة. وهذه العملة التي ترقى إلى القرن الخامس تعادل

أنّ هذا المبلغ كافٍ لكل أعوانه مدى الحياة، لكنه لا يزيد على نثريّات لرجل مثل كبير الحجّاب، ويمكن لإديكا أن يأخذ المبلغ فوراً.

حسناً، لكنّ الأجدر عدم التسرّع. ويأخذ إديكا في عرض الجوانب العملية من الموضوع؛ إذ إن أوريستيس والآخرون سيكونون في عداد الجمع الذي سيلتئم عند العودة إلى أتيلا ليقدّم له تقريره عن سفارته، فأتيلا يحرص دائماً على معرفة الهدايا التي حملها الوفد وأسماء الذين قدّموها، ولسوف يستجوب كل فرد، ولن يكون في وسعنا أن نخفي عنه خمسين رطلاً من الذهب. بيد أن فيجيلاس سيضطر إلى العودة إلى القسطنطينية ومعه تعليمات تتّصل باللاجئين. ولسوف يخبركم عندئذ بآلية إرسال الذهب».

لقد بدت هذه الأقوال معقولة لكبير الحجاب، ففيجيلاس رجل مناسب. وبعد العشاء يعود إديكا إلى حجرته، بينما يسعى كريسافيوس لمقابلة الإمبراطور الذي يستدعي إليه رئيس الدواوين مارتياليس، الرجل المسؤول عن رجال البريد والمترجمين (وفيجيلاس منهم) والحرس الإمبراطوري.. وإذاً فالمؤامرة تزداد تعقيداً. ويتّفق ثلاثتهم على أن فيجيلاس، وإن كانت له خبرة واسعة بالسفارات، إلاّ أنّه ليس بالرجل المناسب لحمل ردّ الإمبراطور على مطالب أتيلا. وجرى إعلامه بأنه أصبح يخضع الآن لسلطة إديكا[1]. فضلاً عن ذلك، هناك أمر آخر ينطوي على الدقة ولابد من حسمه، ويتضمّن التفاوض بشأن فدية عددٍ من السجناء الرومان الذين اعتقلهم أتيلا، وهذه أمور لابد من أن يتولاّها سفير الإمبراطور. وقد استقرّ رأيهم على إيفاد مكسيمنوس، وكان رجلاً عريق النسب ويتمتع بثقة الإمبراطور، وهذا هو عين الموفد ذي المرتبة العالية الذي كان أتيلا يطالب به. ولئن لم يفصح بريسكوس عن أي شيء فلابد من وجود مخطّط سري أيضاً؛ فقد كانوا يأملون بوجود شخصية كبيرة حين يتم اغتيال أتيلا.

ولقد أطلعوا مكسيمنوس على الأمر باقتضاب، لكن لم يخبروه بالمؤامرة. وأشار بدوره إلى أنه ليس هناك من ضرورة لأتيلا أن يجتاز الدانوب لعقد الاجتماع، إذ إنّ هذا يبين بوضوح أنه يريد إظهار مقدرته على دخول المنطقة الرومانية متى يشاء، فإذا أراد أتيلا عقد اجتماع فيمكنه أن يرسل نائبه أونيجيسيوس (ولسوف نطالع اسمه كثيراً لاحقاً). فضلاً عن ذلك فإنّ كتاب الإمبراطور كان ينصّ على نحو قاطع: إضافة إلى ما تمّ تسليمه لكم سابقاً؟ أبعث إليكم بسبعة عشر فارّاً، نظراً

قيمتها بأسعار اليوم 600 دولار أمريكي. أي أن المبلغ يعادل 320 ألف دولار في حساب اليوم.

(1) في هذا إنصاف، نظراً إلى أنّ هذين الرجلين هما المتآمران، إلاّ أن وضع روماني بإمرة أحد الهون يحتمل أن يكون باعثاً على التوتر.

إلى أنه ليس هناك أكثر من هؤلاء». وكان ينبغي إحضار الفارّين من قاعدة عسكرية على الحدود الجديدة قرب نايسوس، تلك البلدة التي نهبها الهون قبل عامين.

وفي هذه النقطة يدخل بريسكوس، ومكسيمنوس يعرفه ويعرف مهارته في استخدام الكلمات، ومن الممكن أن يكون بريسكوس أحد أولئك الذين انشغلوا إبان السنوات العشر الماضية في سن المدوَّنة الثيودوسية في الشرائع الإمبراطورية. ولا شك في أنّ الرجل محيط بالمؤرخين هيرودوت وثوسيديدس إلى حدٍّ كاف لأن يجعل كتاباته بمثابة صدى لأسلوب هذين المؤرخين وعباراتهما. كما كان يحسن كتابة الخطب أيضاً. ولا ريب في أنّه سيكون مثالياً في تدوين أحداث هذه المهمة الهامة؛ فهو مدقّق، ويعدّ نوعاً من الموظف التقليدي، إضافة إلى أنه بليغ العبارة. وكان بطبيعته لا يجنح إلى المغامرة، ولذلك فإن حمله على المشاركة في المهمة قد احتاج إلى أكثر من مجرد قليل من الإقناع.

وهكذا أعدّ الجمع عدّتهم للرحيل، ولقد انضم إلى المسؤولين السبعة رجل الأعمال روستيكوس الذي كان له تعامل مع أحد أعوان أتيلا الكثيرين. وتذكّرنا هذه الصلة بأنه ليس هناك من أمر بسيط كما يبدو في هذه المبارزة بين البرابرة والرومان، ولذلك فإنّ أحد كتبة أتيلا، وهو إيطالي يدعى قسطنطيوس، كان قد أرسله القائد الروماني العظيم إيتيوس الذي كان يسعده أن يكون عوناً لأتيلا في اتصالاته الدولية. كذلك فإنّ روستيكوس بما لديه من أصدقاء في بلاط أتيلا كانت له ميزة التحدث بلغة الهون التي ستُثبت الأيام أنها مفيدة.

كان هناك ثمانية مكلفين بالمهمة، فضلاً عن مساعدي إديكا الذين ينصبون الخيام ويُعدّون الطعام، وكلهم على ظهور الجياد، وربما بلغ عدد هذه الجياد خمسة عشر. وقد حملت الجماعة معها خيمة كبيرة، وبعض الخيام الأصغر حجماً للرقيق، وأدوات الطهي التي كانت من الفضة لتناسب السفارة، وبهاراً، وتموراً، وفاكهة مجفّفة، لتقدم لهم إن قلّ الطعام الطازج.

قطعت هذه القافلة ما يزيد على 300 كيلومتر، وأمضت أسبوعين عاديّين خليا من الأحداث، إلى أن نزلت في سرديكا (صوفيا). وهناك حيث كتمن الجماعة تقترب من حدود المنطقة الجديدة التي بلغها أتيلا بدأ بعض التوتر المستور بالظهور. وبعد مسير يوم أو يومين اشترى الرومان بعض الأغنام والبقر، ثم ذبحوها وقدموا لرفاقهم الهون الضيافة، وتدفق عندئذ النبيذ، ورفعت الكؤوس بالأنخاب: نخب الإمبراطور! ونخب أتيلا!

كان فيجيلاس من بدأ المشكلة، وفيجيلاس - كما تذكرون - مطّلع على المؤامرة، لكن

بريسكوس غير مطّلع عليها، ولا يعرف ما يعانيه فيجيلاس من توتر. وقد خطر له فجأة أنه يحسن صنعاً إن أظهر نفسه موالياً لإمبراطوره، فغمغم قائلاً لبريسكوس: «ليس من اللائق مقارنة إله بإنسان».

«ماذا قلت؟» كان هذا أوريستيس الذي يعرف الإغريقية. فأجابه فيجيلاس من غير توقف: «قلت إنه ليس يليق مقارنة إله بإنسان».

«فعلاً.. إن أتيلا إله.. ولهو أمر جيد أن نسمع هذا القول من إغريقي».

«لا.. بل ثيودوسيوس هو الرب، وأتيلا الانسان».

«أتقول إن أتيلا مجرد إنسان فحسب؟». وهبّ الهون على أقدامهم وقد جرّدوا سيوفهم في وجه فيجيلاس. ماذا حقق؟! ألا يعلم فيجيلاس أن سلطة أتيلا مستمدة من سيف إله الحرب «مارس» ذاته؟ فكيف يمكنه أن يفعل ما فعل لو لم يكن هو ذاته إلهاً؟! وهلمّ جراً من هذا الحديث مع كل إشارة للعنف القادم، إلى أن قام مكسيمنوس وبريسكوس بتحويل الحديث إلى موضوعات أخرى وتمكّنا من تهدئتهم بفضل سلوكهما الودي والهدايا من الحرير واللؤلؤ التي قدّماها بعد تناول الطعام. لكنّ التوتر ظلّ كما هو، فقد كان أوريستيس (وهو لم يكن مطلعاً على المؤامرة) متضايقاً منذ أن استُبعد من العشاء الذي حضره إديكا وفيجيلاس وكريسافيوس في القسطنطينية. ومضى يشكو أمره لمكسيمنوس الذي بحث الموضوع مع فيجيلاس ونقله بدوره لإديكا، وقد أصابه الهلع لبلوغ الأمور هذا الحد. أما إديكا فكان غاضباً من فيجيلاس، وأوريستيس غاضب من إديكا، والآن أصبح الهون والرومان غاضبين بعضهم من بعض. وفيجيلاس يعلم أن إديكا عازم على قتل أتيلا، لكن كان لإديكا مخططاته الخاصة التي أبقاها سراً لا يُطلع عليها أحداً. وكان مقدّما الرومان مكسيمنوس وروستيكوس لا يدريان بعدُ بنصفها، فأين ستنتهي الأمور كلها؟

لقد جعلهم مرأى نايسوس يُدركون مدى تقصيرهم، فالمدينة كانت مدمّرة على نحو ما كانت عليه حالها يوم غادرها الهون قبل عامين: الأسوار شبه ركام، وليس في الجوار أحد تقريباً، والنزل المسيحية تعمل عمل المشافي للمرضى. وبين الأسوار المهدّمة والنهر حيث أقام الهون جسراً عائماً لأدوات الحصار التي نصبوها هناك ركام مبعثر من العظام. مضوا فوق ظهور جيادهم في صمت وقد تملكهم الذهول للدمار الذي أصاب المنطقة.

وليس بعيداً عن الموقع هناك معسكر قضوا فيه الليل، وهنا كان اللاجئون الهون معتقلين،

لكنهم لم يكونوا السبعة عشر الذين تضمّنهم كتاب الإمبراطور؛ بل خمسة سجناء فحسب.

وفي اليوم التالي غادروا المكان قاصدين ناحية الدانوب، واللاجئون يسيرون خلفهم في صف مقيدين بعضهم إلى بعض، وتتجه الجماعة نحو الشمال الغربي آملين أن يعبروا النهر عند مارغوس التي تبعد مئة وعشرين كيلومتراً، ويحتاج الوصول إليها إلى أربعة أيام على الأقل، أو خمسة، والدرب هنا غير مألوف لبريسكوس. ولقد أمضوا اليوم كلّه وهم يكدّون في طريقهم عبر الغابات، وفي التلال صعوداً وهبوطاً، ويتابعون جهدهم مع حلول الظلام. ثم يجدون أنفسهم في مكان مجلّل بالظلال الكتيمة، حيث يتّخذ الممرّ كثيراً من الانعطافات والاستدارات والتعرجات. ولكن ليس هناك سوى المجاهدة على أضواء المشاعل، وهم يأملون بأنهم ما زالوا على اتجاههم نحو الشمال الغربي. ولمّا أنهكهم ركوب الخيل والسير الطويل لاح لهم بريقٌ أمامهم مباشرة في كبد السماء، فصاح أحد الرومان من بين الظلال: إنها الشمس تظهر في غير المكان الذي تبزغ منه! إنه نذير شؤم! ولكم أن تتخيّلوا وقع هذا المشهد في الأمام: إنه الشرق، يا أبله! إن ما تشاهده مجرد طريق متعرج، فلا تبالوا وسنكون في أحسن حال.

تابعوا عندئذ سيرهم من خلال سهل تغطيه غابة متجهين دائماً ناحية الشمال الغربي على درب وحيد، حتى قيّض لهم أن يصادفوا وحدة من الهون؛ لأن الهون عبروا الدانوب لتوّهم لتهيئة الطريق أمام أتيلا ذاته، وكان في طريقه للصيد في الغابات التي استولى عليها حديثاً، ولم يكن ذلك من أجل المتعة والحصول على اللحم فحسب، بل باعتباره تدريباً لجنوده على التعامل مع أرض لم يألفوها من قبل. وعلى مسافة غير بعيدة كان هناك النهر وجمع من الهون ومعهم قوارب يتدرّبون بوساطتها على أعمال النقل النهري لجنودهم، ولربما كان معهم أطواف لنقل الأحصنة والعربات.

وعلى الطرف الآخر استمرّوا في سيرهم ساعتين أخريين قبل أن يطلب إليهم مرشدوهم الهون الانتظار حتى يمضي أعوان إديكا ليعلنوا لأتيلا وصول القادمين الجدد. وفي وقت متأخر من ذلك المساء، وبينما كانوا يتناولون العشاء في خيامهم، عاد الهون الأعوان من مهمّتهم حاملين النبأ بأن الأمور جاهزة لاستقبالهم. وصل القوم في الغد إلى معسكر أتيلا، وفي أواخر عصر ذلك اليوم صارت العربات والخيام المستديرة مكدسة بعضها فوق بعض بالعشرات، وتتدفق موجة إثر موجة، تطوي المراعي الفسيحة في ما هو اليوم مقاطعة فويفودينا الصربية. كان مكسيمنوس يريد نصب خيمته على طرف التل، لكنّ ذلك محظور؛ لأن خيام الرومان ستكون عندئذ أعلى من خيمة أتيلا.

ومع نصب الخيام في بقعة منخفضة ومناسبة وصل وفد من كبار الهون يقودهم أوريستيس وسكوتاس ليسألوا الرومان عما يريدونه بالضبط، فأبدى الرومان علامات الدهشة، وراحوا يتبادلون النظرات فيما بينهم. فأجابهم مكسيمنوس لقد أمرنا الإمبراطور بالتحدّث إلى أتيلا وليس مع أحد سواه.

ولقد تولّى الكلام سكوتاس شقيق أونيجيسيوس نائب أتيلا، حيث يحتل سكوتاس المرتبة الثالثة في التكوين الهرمي الهوني[1]. كان يجدر بالرومان أن يدركوا أن أتيلا هو صاحب السؤال؛ فما كان لأحد من الهون أن يعرض هذا بمبادرة شخصية منه. وفي هذا كان مكسيمنوس يعتمد على نظام التشريفات الدبلوماسية (البروتوكول) الذي يجدر بالهون أن يكونوا محيطين به نظراً إلى أنهم زاروا القسطنطينية مراراً في سفاراتهم، إذ «ليس من قواعد السفراء أن يدخلوا في مجادلات مع الآخرين حول الغرض من سفاراتهم، ونحن لنا في ذلك أسوة، فإن لم نلقَ هذه المعاملة فإننا لن نبين الغرض من هذه السفارة». وسادت لحظة صمت «مثيرة للأعصاب»، فغادر الهون برفقة إديكا، ثم عادوا ثانية من دونه وقد أظهروا إشارات تدلّ على الازدراء والتحدّي، وهم يعلنون أن إديكا قد أخبر أتيلا بغرض الرومان[2]. ولمّا كان أتيلا لا يهتم بغير ذلك، وليس لديهم أمر آخر ليعلنوه. فقد اصبح في وسع الرومان أن يعودوا الآن إلى بلادهم.. لم يعد هناك ما يمكن القيام به.

كان الرومان الذين استبدّ بهم القنوط منشغلين يحزمون أمتعتهم حين استولى على فيجيلاس اليأس وهو يرى مهمّته السرية قد أصبحت مستحيلة. فهو العنصر الحاسم في مؤامرة الاغتيال؛ إذ إنّ أمر إحضار الذهب متروك له، وصار يواجه احتمال خسارة مكافأة ضخمة إن فشلت المؤامرة. وأخذ يضرب أخماساً بأسداس؛ ينبغي ألا تغادر البعثة من دون تحقيق إنجاز ما، والأفضل عندئذ أن يلجأ المرء إلى الكذب، ولنقل إن لدينا أموراً أخرى جديرة بالتناول، ولنبق ههنا بدلاً من أن نكون صادقين ونغادر! «لو أمكنني التحدث إلى أتيلا، لأمكنني إقناعه بسهولة بأن ينحّي خلافاته مع الرومان جانباً.. لقد كنت أتودّد إليه في سفارة أناطوليوس».

ولكن ماذا عن إديكا؟! كان الرجل حريصاً على ألاّ يبرز في المقدمة، فقد كان محرجاً لخيانته الثانوية للرومان، وشعر أنه في مأزق؛ فقد فضح الغرض الرسمي وراء الزيارة، لكنّ هذا لا يعدو أن يكون نصف القصة؛ لأنه كان يعلم بالهدف الحقيقي من الزيارة، ويخشى أن يقوم أوريستيس

---

(1) كان أونيجيسيوس يومئذ مسافراً لزيارة الأجاثيرس، ليفرض ابن أتيلا البكر، (إيلاك)؛ ليكون ملكهم الجديد.

(2) هدفهم الرسمي على الأقل؛ أما الغرض غير الرسمي فقد ظل سراً لا يعرفه إلا إديكا وفيجيلاس.

بإخبار أتيلا بأنه وفيجيلاس بمفردهما قد تناولا العشاء مع كريسافيوس المقيت والمراوغ، وما الذي سيستخلصه أتيلا من هذا كله؟! خصوصاً وأن إديكا غريب ويمكن الاستغناء عنه. ويمضي الرجل الليلة وهو يعاني أشد القلق والاضطراب؛ أيكشف المستور أم لا، تلك هي المسألة؟ أن يخون أو أن يظل على الولاء؟ كان أشد ما يخشاه وهو في قلقه هذا أن يكون مصيره محسوماً أياً كان ما يقوم به.

وفي اليوم التالي كانت الخيام تُطوى وتُحزم والأحصنة تتحرّك، وحين رأى بريسكوس مدى إحباط مكسيمنوس، حفّزه هذا المشهد على أن يبذل محاولة أخرى. ويلحظ عندئذ ذلك التاجر روستيكوس الذي يتحدث بلغة الهون، ولابد أنه متكدر كذلك بسبب الفشل المتوقع لخططه التجارية، فيسير به إلى سكوتاس: «أخبره أنه سيتلقّى هدايا كثيرة، متى دبّر مقابلة لمكسيمنوس مع أتيلا». قام روستيكوس بنقل ذلك، ثم أضاف: «وثمة أمر آخر، أخبره بأنه سيفيد أخاه أونيجيسيوس، لأنه سينال أيضاً هدايا قيمة متى حلّ لنا بعض القضايا المعلّقة، وإني لعلى ثقة بأنه سيكون ممتناً جداً لنا». كان سكوتاس في غضون ذلك يصغي بعناية شديدة، فنظر بريسكوس محدّقاً مباشرة في عينيه: «لقد سمعنا أنك أنت أيضاً لديك نفوذ لدى أتيلا، ولعلك تودّ أن تبرهن على هذا الأمر؟»، فقال سكوتاس: «ثق بأنني ندّ لأخي، قولاً وفعلاً»، ثم يمتطي صهوة جواده ويمضي قاصداً خيمة أتيلا.

يعود بريسكوس إلى رفيقيه المستلقيين على العشب من الإعياء، ويهزهما لينتبها إلى الأنباء التي يحملها: «هيا، هيا.. انهضا، وأعيدا فكّ الرزم التي فوق ظهور الحيوانات؛ هيا تدربا على خطابيكما. هيا، انهضا! هيا ألقيا علينا خطابيكما!» وفي ثوانٍ، تحوّل اليأس إلى صيحات ابتهاج بفضل مخلّصهم بريسكوس. وأعقب ذلك عندئذ هبة من القلق، فقد كان السؤال الذي أصبح يلحّ على الخاطر: كيف سيخاطبان أتيلا؟ ثم كيف سيمثّلان أمامه مع الهدايا؟

كان بريسكوس لا يدري ما يجري في خيمة أتيلا، وليس لدينا إلاّ أن نقوم بالتخمين. ولعل وصول سكوتاس هو الذي أطلق الأزمة، ولعل إديكا رأى سكوتاس ينطلق على جواده، وأخذت مخيلته تنشط في العمل: لسوف يحدس أتيلا أن أمراً ما يحضّر، وسيتم تعذيب فيجيلاس لانتزاع الاعتراف منه بكل شيء، ولسوف يظهر هو إديكا - بوصفه خائناً، إلا إذا ...، الوقت ضيق، ولا يستطيع الانتظار، وعليه التحرّك الآن ليبرهن على ولائه. وبينما يغادر سكوتاس حاملاً الأنباء بأن أتيلا سيقابل الرومان في نهاية المطاف، يرجو إديكا مقابلة أتيلا ليخبره بالمؤامرة كما اقترحها

الخصيّ كريسافيوس، معترفاً بأنه القاتل المعيَّن للمهمة، ويتلقّى التمويل بالذهب الذي يفترض أن يحضره فيجيلاس.

وفي تلك الأثناء وصل سكوتاس عائداً إلى خيام الرومان الذين كانوا في انتظاره.

ويشق هؤلاء طريقهم من خلال الصفوف وهم يرتقون التلّ ليصلوا إلى الخيمة الكبيرة المطوّقة بالحراس.

يفتح الباب (لا شك بأن لخيمة الملك باباً خشبياً كما هي حال خيام المغول الجير اليوم)[1]، ويدخل الوفد.

وقد يتساءل المرء كيف تكون الحال هناك؟! لا يدلي لنا بريسكوس بشيء عن الأرضية المكسوّة بالسجاد، وثمة مجمرة أساسية، وطاولة حافلة بتماثيل شامانية سحرية صغيرة، إضافة إلى حشد من الحراس والحجّاب والكتبة؛ لأن انتباهه منصرف كلياً إلى أتيلا ذاته، ذلك الرجل ضئيل الحجم، رهيب المنظر، متجهم الأسارير، غير المبتسم، وكان جالساً على مقعد من الخشب هو كرسي العرش في الوقت ذاته، إنه كرسيّ صلب محفور الذراعين وله مسند مرتفع.

كان ذلك أول مشهد للرجل الذي عسف بالبلقان وأرهب أباطرة المشرق على مدى تلك السنوات العشر الأخيرة. وعند هذه النقطة يبدأ بريسكوس بوصفه بالكلمات التي بلغتنا من المؤرخ يوردانس القوطي، ووردت في الفصل السابق، وتصوّر لنا الرجل ذا الحجم الضئيل والمشية المليئة بالغطرسة والعجرفة، والعينين الصغيرتين اللتين تنتقلان هنا وهناك ولا تستقران على موضع، والصدر العريض الواسع، والرأس الكبير، واللحية الخفيفة التي يتخلّلها الشيب، والأنف الأفطس، والبشرة السيئة، والسلوك الذي هو مزيج عجيب من الاعتماد على الذات وطيب الشمائل والثقة الهائلة بالنفس.

من المؤكد أنّ لديه كل ما يحمله على الثقة في هذه اللحظة؛ لأنه يعلم الآن بأمر المؤامرة ويمكنه أن يدخل مع الرومان في لعبة القط والفأر.

يتقدم مكسيمنوس ويقدم لأتيلا رسالة الإمبراطور في لفافة. ويقول من خلال فيجيلاس: «يرجو الإمبراطور أن تكونوا جلالتكم وأتباعكم في صحة جيدة وأمان».

ردّ أتيلا ببرود قائلاً: «لسوف تنالون ما تتمنّونه لي»، ويلتفت عندئذ إلى فيجيلاس بصفته مترجماً،

(1) هذه الخيام تدعى يورت، وهي بيت متحرك مستدير يصنع من الخشب ويغطى باللباد، (المترجم).

ويصرخ به، كيف يجرؤ هذا الوحش الذي لا يعرف الخجل، أن يظهر على الإطلاق - لحظة تظلّ للذكرى لأن أتيلا ربما يتهمه للتو واللحظة بالتخطيط لقتل الملك - بينما يجب ألا يأتي السفراء إليه ويظهروا أمامه قبل تسليم كافة الفارين بحسب آخر معاهدة!

عندئذ يجيب فيجيلاس متلعثماً إن الفارين جميعاً قد تم تسليمهم فعلاً، وليس هناك إلاّ هؤلاء.....

«اصمت! هذه إهانة فاضحة! يمكنني أن أضعك على الخازوق، وأجعلك طعاماً للطيور الكاسرة، لولا أن في ذلك اعتداء على حقوق السفراء. هناك لاجئون كثر بين الرومان. أيها الكتاب: أحضروا الأسماء»!

وهكذا كان على فيجيلاس وبريسكوس والجميع إعادة الكؤوس إلى الساقي، وأن يصغوا بينما يتم انتقاء اللفافات وبسطها، ثم ينكسر الصمت الكئيب بطقطقة أوراق البردي.. وأخيراً تأتي الأسماء. ذكر الإمبراطور أنهم سبعة عشر؛ خمسة تمّ التقاطهم خارج نايسوس؛ وهنا في هذه اللفافات أسماء كل من عُرف أنهم قد فروا عبر الحدود في الأعوام الماضية، منذ أن كان ابن كاربيليو إيتيوس رهينة، جميعهم خونة، وينتبه إليه الكتاب بعناية.. العشرات، إن لم يكن المئات منهم، ومن يدري كم يبلغون؟ ومن كان يقوم بحساب عددهم؟ ليس الرومان بالتأكيد.

ران الصمت أخيراً، ثم يشرع أتيلا بالكلام بأنه سيستردّ اللاجئين؛ لأنه لا يحتمل وجود رجال من الهون يقاتلون إلى جانب الرومان في حال نشوب الحرب. وليس مؤدّى ذلك أنه سيكون لهؤلاء نفع للرومان بالتأكيد؛ فأي مدينة أو قلعة أمكنهم إنقاذها بعد خروجه للاستيلاء عليها؟! الواقع: لا شيء، فلسوف يغادر فيجيلاس فوراً مع أحد الهون، وهو إيسلاس، ليطالب بكلّ الفارين. وعندئذ فقط - كما يذكر بريسكوس - يمكن مناقشة مقدار الفدية المطلوبة للأسرى الرومان الذين يمسك بهم أتيلا، فإن لم يستجب الرومان وقعت الحرب.

يمكن لمكسيمنوس أن يبقى ليكتب الرسائل، أما بقيتكم فسلموني الهدايا، ثم اخرجوا.

وحين عاد الرومان إلى خيامهم التفتوا إلى تدوين مجريات اللقاء.

قال فيجيلاس «لا أفهم! فقد كان في آخر لقاء معه هادئاً ودمثاً». وتأوّه بريسكوس: «ربما بلغه قولك إن ثيودوسيوس إله وإنه إنسان».

يهز مكسيمنوس رأسه. لابد أن هذا هو السبب.

ويظل فيجيلاس على حيرته. والمؤكد أنه في أمان إذ لا بد من أنّ الهون يخشون الكلام عن ذلك الحديث الطليق من القيود الذي جرى تبادله في أثناء العشاء، ولابد من أنه اعتقد أن إديكا لن يكشف أمر عملية الاغتيال فيدين نفسه بالخيانة!.

عندئذ - وفي تلك اللحظة - دخل إديكا ذاته، فانتحى بفيجيلاس وتمتم ببعض الكلمات. علم بريسكوس فيما بعد أن إديكا قال لفيجيلاس أن يعدّ نفسه للذهاب وإحضار الذهب للمتآمرين.

كانت تلك هي المرة الأولى التي ظهر فيها إديكا منذ أن أخبر أتيلا بالغرض من السفارة، وما كان في وسعه أن يحضر إلاّ بناء على أوامر من أتيلا، ولا بد أنه خلص من ذلك إلى أن إديكا في نهاية المطاف ليس خائناً.. لقد نجح رهان إديكا. وإذاً فهناك الآن مؤامرتان: مؤامرة الاغتيال المخطط؛ وانتقام أتيلا، وفي كلتيهما كان إديكا محوراً. فقد كشف الأولى، وبدأ الآن بالثانية.

سأل أحدهم، وإديكا يغادر: علام هذه الجلبة؟! فلوح فيجيلاس بيده باستخفاف: إن أتيلا غاضب بسبب موضوع الفارّين ومرتبة السفراء، هذا كلّ ما في الأمر. والجميع يعلمون أن إديكا أعطي السلطة على فيجيلاس قبل خروجهما من القسطنطينية.

ولقد أنقذه من تعرضه لمزيد من الأسئلة دخول مجموعة من الحجاب من جهة أتيلا حاملين منه أوامر جديدة. لا يمكن للرومان أن يشتروا شيئاً؛ لا أسرى رومان، ولا عبيد، ولا جياد، لا شيء سوى الطعام حتى تتم تسوية الخلافات. وأوعز إلى فيجيلاس بالعودة إلى القسطنطينية مع ايسلاس وتسوية قضية الفارين. أما كلّ شخص سواه فيبقى حيث هو. وأما أونيجيسيوس الذي كان في طريق عودته من الإشراف على تنصيب ابن أتيلا ملكاً على الأجاثيرس فقد سُمّي سفيراً إلى روما، ولا ريب في أنه سيحمل معه نصيبه من الهدايا.

صار الجميع الآن حيثما أراد لهم أتيلا أن يكونوا؛ الرومان في وضع المعتقلين، بينما مضى فيجيلاس - كما أراد له أتيلا - ليأتي بالذهب لاغتيال أتيلا، وعند عودته سيطبق عليه الفخ.

في اليوم التالي لمغادرة فيجيلاس أصدر أتيلا الأمر بعودة الجميع إلى مقرّ قيادته الأساسية. وسيحظر عندئذ الصيد جنوب الدانوب، ويبرّر ذلك بأمور أكثر أهمية تستدعي المعالجة، وتدبّ الفوضى مع طيّ الخيام، وإعداد العربات، وإسراج الخيل للمسير، مما يجعل الأرتال تنتظم: العربات والمرافقون على ظهور دوابهم، والقواسون[1] والسائسون والطبّاخون، وجميعهم

(1) صانعو أقواس الرماية، (المترجم).

يَمضون وراء أتيلا وحاشيته في مسيرة تراعي رغبات الآخرين، ويشقون طريقهم شمالاً فوق أرض المراعي الخضراء المعشوشبة التي هي الآن بلاد الصرب الشمالية.

وبعد برهة انقسم الرتل؛ فقد سلك أتيلا طريقاً جانبية قاصداً قرية ليأخذ منها زوجة أخرى، هي ابنة أحد الرجال من علية القوم المحلّيين (اللوغاد)؛ أما البقية فقد تابعوا طريقهم واجتازوا سهلاً، وعبروا ثلاثة أنهار كبيرة وعدة أنهار أصغر. كانوا يصادفون أحياناً بعض أهالي المنطقة في زوارق شجرية، بينما كان الجنود يعبرون النهر فوق ظهور جيادهم، أما كبار الشخصيات فيعبرون النهر بعرباتهم المحمولة فوق أطواف أتوا بها خصيصاً لهذا الغرض فحسب. كان أهالي القرى على طول الطريق يقدّمون لهم الدخن والميد[1] وبيرة الشعير (لاحظوا أن هؤلاء القوم قرويون، ولم يعودوا من البدو الرعاة، بل يحصلون رزقهم بوصفهم مزارعين مستقرين يعيشون في أكواخ مبنية بالوتل[2] والطين ومسقوفة بالقصب والقش).

ولقد قاموا بعد يوم من المسير المنهك بنصب الخيام قرب بحيرة صغيرة. وفي منتصف الليل أيقظتهم من نومهم العميق إحدى عواصف الصيف التي تجتاح سهل هنغاريا الكبير، كانت عاصفة بلغت من العنف حداً أطاح بالخيمة، وعصف بالأقمشة الإضافية والأغطية. لقد كانت خيمة رومانية ليست مصممة لحياة البراري، ولا تشابه خيام الهون المستديرة (اليورت) التي تظلّ محتفظة بأناقتها في أقسى أحوال الطقس برودة، وهي متينة جداً بحيث تستطيع أن تواجه أقوى الزوابع. استطاع الرومان الذين غشيت عيونهم بالمطر وأصاب الرعد المدوي آذانهم بالصمم أن يجدوا طريقهم إلى القرية بالاستعانة بوميض البرق، وهم يصرخون لطلب المساعدة، فاستيقظ القرويون وأشعلوا أعواداً لتنير طريقهم، وقادوهم إلى الداخل حيث نار القصب تشيع الدفء.

تبين لهم أن للقرية أماً رئيسة تحكمها، والأشد غرابة أن الأم الرئيسة هذه أرملة، وهي واحدة من أرامل بليدا، الأخ الذي قتله أتيلا. ويبدو أنه سمح لها بأن تحتفظ بمقرّ خاص لاجتماعها بالذين يتبعونها في المناطق التابعة لبليدا، حيث ما تزال ملكة. وعلى الرغم من أن الوقت كان منتصف الليل فإنها تدبّرت أن ترسل إليهم طعاماً. ولمّا جفت ثيابهم من آثار المطر وتناولوا الطعام بعثت إليهم فتيات جميلات في مقتبل العمر، وكنّ كما قيل لبريسكوس، للمضاجعة، ويعدّ ذلك عند الهون دليلاً على التكريم وحسن الضيافة. وقد وصفهن بريسكوس بأنهن: «نساء جميلات»،

(1) شراب مخمّر يصنع من العسل والشعير والخميرة، (المترجم).

(2) قضبان تضفر مع الأغصان والقصب، (المترجم).

ترى ماذا حلّ بتلك الآراء العنصرية المقزّزة عن الهون ذوي الملامح المقرفة والسلوك الذي يكاد لا يرقى إلى مستوى إنساني؟! لقد أزال ذلك ما لاقوه من حسن الضيافة والجمال، وكان في ذلك بعض الإحراج للمسيحيين والموظفين المدنيين والدبلوماسيين، خاصة وأن اختيار النساء تمّ على أساس من ملامحهنّ وقسماتهن ومحاسنهن. وكان الردّ على ذلك التحفظ والكياسة: «لقد أسرفنا في مدح النساء بتناول الأطعمة التي وضعْنَها أمامنا، إنما أعرضنا عن مضاجعتهن».

كان الغد يوماً رائعاً وحاراً، واستعاد الرومان أمتعتهم التي نالها بعض الأذى، فعرضوها للشمس حتى جفّت، وقاموا بزيارة مجاملة للأم الرئيسة لتقديم الشكر، وقدموا لها على سبيل الهدية ثلاث طاسات للخمر من الفضة وبعض الفاكهة المجففة، ثم تابعوا سفرهم.

هكذا مضت المسيرة طوال أسبوع، ولعلّهم قطعوا مئتي كيلومتر على الطريق. ثم وصلوا إلى قرية أخرى، وهنا وجدوا شيئاً من الازدحام على الطرق، فكان على الجميع الانتظار لأن أتيلا سينضم إلى القافلة، وعليه عندئذ أن يقودها. وكانت هنا أيضاً سفارة أخرى، وكانت قادمة من الإمبراطورية الغربية من روما، وصادفوا بينهم بعض الوجوه المألوفة من ذوي الرفعة والصدارة: قائد وحاكم، وسفير عائد، وهو قسطنطيوس، وكان في الأصل قد أوفده إيتيوس إلى أتيلا؛ وكونت يدعى رومولوس وصهره، ولم يكن هذا إلاّ والد أوريستيس. يبدو أن العمل في السفارات التي يوفدها أتيلا حرفة عائلية.

كان للسفراء الغربيين قصتهم الخاصة التي تتمحور حول أقداح سيريوم الذهبية التي كانت تخصّ الأسقف الذي قدمها هدية لأحد كتبة أتيلا في أثناء حصار الهون للمدينة في الأربعينيات من القرن الخامس، وهو يعتقد يومئذ أنّ هذه الهدية ربما أفاد منها، إن قُدّر له أن يقع في الأسر، وهكذا آلت إلى أتيلا. لكن هذا الكاتب رهن الأقداح عند أحد المصرفيّين في روما. ولما علم أتيلا بالقصة أمر بصلب الرجل. وهو يريد الآن أحد الأمرين: إما أن تُسلّم إليه الأقداح أو المصرفي. فهذه السفارة تأتي برمّتها لتقول لأتيلا إنه لما كان المصرفي قد استلم الكؤوس باعتقاد خالص بأنها بضاعة غير مسروقة فلا يستطيع قائد الهون الادعاء الآن بأنّ عليهم إما تسليم هذه الكؤوس وإما المصرفي البريء.

وأخيراً يظهر أتيلا والطوابير المتورّمة تمضي من خلال سهل فسيح حتى تبلغ «قرية ضخمة»، تلك هي عاصمة أتيلا، وهي تقع – كما ورد في الفصل السابق – على مسافة قرابة عشرين كيلومتراً غرب تسيغيد، وهذه مسافة بعيدة جداً عن نهر تيسا المتعرّج والمتعرض دائماً لمعاناة الفيضانات.

وبينما كان الموكب الملكي يشقّ طريقه بين المباني الخشبية أخذت النساء بإبداء ترحيبهن بالطقوس المعهودة، حيث وقفن في صفوف وهنّ يحملن شرائط طويلة من الخام الأبيض ويشكلن بها مظلة تسير تحتها في موكب فتيات في ربيع العمر وكلّهن يصدحن بالأغاني، ويتقدمن الركب، ثم يمضين بين الأحياء، ويتابعن طريقهن مباشرة إلى حمى مقر أونيجيسيوس.

كان مقر أونيجيسيوس الذي لا يبزّه إلاّ مقر أتيلا يتضمن مفاجأة؛ هي حمام من الحجر جيء به من بانونيا، ويقع على مسافة مئة وخمسين كيلومتراً جنوباً، وقد قام على بنائه معماري روماني كان سجيناً في سيرميوم. لكن بريسكوس لا يذكر القمين والمياه الحارة، الشرط الذي لا محيد عنه للحمامات، ولا يبين كيف يصل الماء إلى الحمام، وليس هناك قناة لجرّ المياه بالتأكيد؛ لأن هذه ليست سوى قرية بالمعنى الذي يفهمه الرومان، وقد يوجد هناك مسال للمياه، أو لعل هناك مساجين رومان يتولّون نقل الماء بالدلاء ويمضون في ذلك جيئة وذهاباً بين الحمام والنهر في أوقات الاستحمام. والحمام في هذه البيئة الهمجية - على أي حال - رمز عظيم للمكانة عند أونيجيسيوس؛ لأن الحمامات كانت معابد للحضارة، وماء الحمام أساسيّ جداً. ولعلّه كان يستحسن قصيدة لسيدونيوس أحد أعظم شعراء العصر الذي وضع قصيدة في مديح حماماته الخاصة في جنوب بلاد الغال، تلك الحمامات التي سنفصل القول في مديحها، وربما سمع أتيلا شائعات حولها قبل عامين من الزمان:

تلج أمواجاً باردة بعد الاستحمام بالبخار

حيث تنعش برودة الماء جلدك الساخن.

لكن بريسكوس لا يذكر شيئاً عن استحمام أتيلا، إنما لا يعقل أن يكون بناء هذا الحمام قد تم من دون إذنه، بل وتشجيعه، ولا ريب في أن المعماري الروماني الذي لم يحفظ التاريخ اسمه كان قد وفر لأونيجيسيوس حمام بخار وحماماً ساخناً، بل حتى غرفة تعرق جافة، ومعها قمين بالتأكيد. وقد يقول المرء: ليس هناك فائدة من حمام إذا كنت ستتجمد من البرد في الشتاء!. وقد أمل أن يجعله هذا الإنجاز يفوز بحريته. لكنه لم يكن محظوظاً، ولم يحصل على ما تمناه، كما يلاحظ بريسكوس أنه الآن المشرف على الحمام.

وفي ذلك الموقع الخاص الذي تشرف عليه زوجة أونيجيسيوس - ولعلها الزوجة الأولى ذات المكانة العليا - يقوم خدم من بيوت كثيرة بتقديم الطعام والنبيذ للخيالة في صحون وأقداح من الفضة، ويتنازل أتيلا عندئذ ويتناول قطعة شهية هنا، ورشفة هناك، والخدم يحملون الصحن

والكأس للتفاخر بتكريم الحشد المحيط. ثم يخرج من معسكر أونيجيسيوس من الباب الآخر ويصعد إلى القصر.

لقد كان هذا أول مشهد يطالعه الرومان للمكان الذي يقصدونه، وإن كان كل ما في وسعهم أن يروه في هذه اللحظة جدران من الخشب مبنية من ألواح حسنة التشكيل من عمل نجارين قوط أو بورغونديين، جعلوا مواضع التمفصل أقرب إلى أن تكون مخفية، والإشارة الوحيدة إلى أن البناء قصر ملكي هو حجم الجدران. يدخل أتيلا ويختفي في الداخل ليقابل أونيجيسيوس، ويبحثان موضوع الأجاثيرس وحاكمهم الشاب. والواقع أن الموضوع شديد الإلحاح: فقد سقط ابن أتيلا وأصيبت ذراعه اليمنى بالكسر، ولذلك لابد من استدعاء معالج لتقويم الإصابة بالطقوس الصحيحة.

وبعد حفل العشاء الذي أقامته زوجة أونيجيسيوس التي تعاني من أمراض طال عهدها نصب الرومان خيامهم بين المقرّين ليكونوا مستعدّين في اليوم التالي للمثول أمام الحضرة الملكية، وراحوا ينتظرون، لكن ما من أحد يأتي في طلبهم. فيرسل مكسيمنوس بريسكوس إلى قصر أونيجيسيوس مع خدم يحملون الهدايا إلى الملك وساعده الأيمن، بيد أن الأبواب ما تزال مغلقة، وهذا ما ينبئ بأن أمامهم انتظاراً طويلاً آخر.

وبينما يتجول بريسكوس خارج الحاجز يتقدّم أحد الهون بالزي الذي يرتديه الهون عادة، حيث يتألف من الجركينة؛ أي السترة الطويلة الضيقة، وبنطال من اللباد. وكان من دواعي استغراب بريسكوس أن يبادره هذا الشخص بالتحية باللغة اليونانية (الإغريقية): خيرا (Khaire!) فالهون قوم خليط، ويجري بينهم الحديث عادة باللغتين الهونية والقوطية، أما أولئك الذين اعتادوا معاملة الغربيين - أمثال أونيجيسيوس - فلديهم ذخيرة طيبة من اللاتينية، لكن هذه الذخيرة لا تشمل اليونانية بالتأكيد. وأما الناطقون باليونانية وحدها فكانوا مساجين وقعوا في الأسر في الحروب الأخيرة، وهم من يريد الرومان استردادهم بفدية. ويمكنك أن تتبين هؤلاء مما يبدو عليهم من علامات القهر والاضطهاد والثياب الرثة. أما هذا الرجل الذي كان في الأربعينات من عمره فإنه أنيق الملبس، وشعره حسن القص على مذهب الهون، ويبدو واثقاً بنفسه ومطمئناً.

رد بريسكوس التحية بمثلها: خيرا، وأخذ يمطر الرجل بعدد من الأسئلة: من هو؟ ومن أين جاء؟ وكيف تبنى طرائق البرابرة الأغراب؟

رد الرجل «ولماذا تريد أن تعرف؟».

«إنك تتكلم اليونانية، وهذا ما أثار فضولي!»

يضحك الرجل، ولابد من أنه قد عرّف بنفسه، ولو أن بريسكوس تفادى تعريفه باسمه لأسباب ستتضح لاحقاً. لقد كان إغريقياً، وهو رجل أعمال كان مقرّه في مدينة فيميناسيوم، ومتزوج من امرأة ثرية. كانت تجارته رائجة حتى جاء الهون وهاجموا المدينة قبل ثمانية أعوام وأحرقوا المكان حتى أصبح أثراً بعد عين. وقد كان من بين أولئك الذين غدَوا أسرى في ظلّ العبودية، وقد دُمرت تجارة الرجل، لكن بسبب ثرائه اختاره أونيجيسيوس ليكون رهينته الأولى. وقد كان ذلك أمراً موفقاً لكلا الرجلين؛ فقد أظهر في قتاله الرومان والأجاثيرس شجاعة وبأساً، ما يعني أنه كان يوفر الرجال ويعدّهم ويقودهم. لكن أياً كان الأمر فقد فاز بما يكفي من الغنائم ليشتري حريته، وها هو الآن قد أصبح جزءاً من حلقة أونيجيسيوس، وله زوجة جديدة من الهون وأطفال، وعادت أحواله لتزدهر من جديد.

والواقع أن الحياة هنا أفضل مما كانت عليه في فيميناسيوم، ولابد من أنه على دراية بذلك؛ إذ إنه يتمتع بوضع فريد ليقارن بين حضارتين؛ لأن الناس العاديين في الإمبراطورية - كما يقول - يعتمدون على قادتهم، ولذلك خبت روح القتال لديهم. لكن القادة العسكريين الكبار جماعة من الجبناء لا نفع منهم، ولذلك فلا محيص لنا من أن نخسر الحروب. أما في السلم فنحن تحت رحمة محصّلي الضرائب والمجرمين. ولم يعد هناك عدالة؛ لأن الأغنياء يرشون القضاة ويفسدوهم، والفقراء يذبلون في السجون ويموتون، فإذا كنا نواجَه بقلة الكفاية والفساد والافتقار إلى الأمن والاضطهاد فلا عجب إن كانت الأمور أفضل حالاً هنا.

وتذكّروا أن بريسكوس موظف مدني شاغله تدوين تقرير رسمي، وأُذناه مفتوحتان لسماع النقد، لأنه ليس في وسع أحد أن ينكر أن الإمبراطورية ستذهب للكلاب للأسباب عينها التي عرضها هذا اليوناني الذي غدا من الهون، بيد أنه لن يبدو مناسباً من الناحية الرسمية ترك مثل هذا الأمر من دون أي اعتراض، ولذلك يدوّن رداً مفحماً.

فالذين وضعوا الدستور الروماني كانوا أناساً خيّرين ويتصفون بالحكمة، فقد قضوا بأن يكون للبلاد جنود وتدريب عسكري جيد، ونظام ضرائب عادل، وقضاة نزيهون، ومحامون ذوو رأي، واستقلال للدفاع عن حقوق المواطنين العاديين. فإذا دامت المحاكمات طويلاً فلأن القضاة يريدون التأكّد من وصولهم إلى النتائج السليمة والرأي الصائب. وكم يختلف الرومان عن البرابرة؛ فالرومان يعاملون ماالديهم من رقيق معاملة الآباء، ويعاقبونهم متى أخطؤوا كأنهم أبناؤهم، فيكون

العقاب عندئذ مانعاً لهم من سوء السلوك. وحتى في الموت يمكن أن يتوافر للروماني مزيد من الحرية؛ لأن الوصية ملزمة قانونياً. بل إن الإمبراطور ذاته ملزم بالامتثال للقانون/ وكان ذلك خطاباً مطوّلاً، قد يكون كله مقتطفات مباشرة إذا كانت الإغريقية القديمة تقبل ذلك. بيد أن النص يتضمن المقتطفات بترجمة بلوكلي، فماذا كانت محصلة هذه الخطبة الرنانة؟

«لقد بكى صاحبي وقال: إن القوانين كانت عادلة منصفة، والسياسة الرومانية صالحة».

ولكن لنكن منصفين، فهل بلغتكم خطبة مثل هذه حفلت بالمبالغات؟ فهذا الرجل الذي بقي مجهول الاسم، وكانت له زوجة، وتجارة، وبيت، إذ به يفقد هذا كله ويمرّ بأربعة حروب، ويعيد مسيرته الماضية في أرض غريبة، ثم ينشئ حياة من العدم، ثمّ يسمع منه عبارات أنيقة بليغة تصدر مباشرة من كتاب يعرض للخدمة المدنية. وآلية التصرف كأنه سقراط، ثم تكون النتيجة البكاء والنحيب؟

لقد أدلى كثيرون بتعليقاتهم بشأن نواقص بريسكوس المفترضة هنا، وفي هذا الصدد قال غيبون إن كلامه يتّصف بالضعف، لكنه مسهب، ويقول تومسون: لا يمكن الدفاع عنه... ويلقي ضوءاً كئيباً على قدراته في التسجيل، لكني أعتقد بأنه يعلم تماماً ما هو بصدد القيام به، فمن الوسائل الشائعة التي يتوسّل بها العالم أو موظف الخدمة المدنية الذي يرغب في الانتقاد: «هذه مجرد فرضية أو رأي قوم آخرين، وبالتأكيد فإنه لا يدعم أو يؤيد، وإذاً لا يعدّ خطأً مني إن أخذه القراء على محمل الجد. ولقد استخدم غاليليو هذه الحيلة في كتابة «المحاورة» الذي عرض فيه وجود نظام للكواكب يتمحور حول الشمس، وكذلك فعل لوثر [الإصلاحي البروتستاني، م] في كتابه «خمس وتسعون أطروحة» مفتتحاً بذلك عصر الإصلاح الديني. وهذا عين ما كان يفعله بريسكوس بطريقة متواضعة متوسّلاً هنا بلقاء بالمصادفة ليسرّب نقداً حاداً للمجتمع الروماني، ثم يجعل هذا النقد أكثر إقناعاً بالردّ عليه بما لا يزيد على طريقة تعليمية صامتة مزعجة. وفي ذلك سبب ليظل الرجل مجهولاً. لكن بريسكوس يضخم الحادثة، ولا يودّ كذلك أن يحرج مصدره أو يجازف في سماع دحض، كما ينبغي عدم الاستجابة لاعتراضه بالألم والدموع، بل بإيماءة بالرأس تنمّ عن المعرفة وكثيرٍ من الحصافة والذكاء.

وتفتح الأبواب على مصراعيها. وتمرّ رسالة، ويكون الرد عليها. ويبرز أونجيسيوس ويتلقى الهدايا، ثم يأتي لرؤية مكسيمنوس الذي يحثّه على زيارة روما في سفارة وعقد معاهدة سلام جديدة. فيتلقى أونيجيسيوس هذا الخطاب بترفع؛ فهو لن يفعل إلاّ ما يريد منه أتيلا، «أم إنّ

الرومان يعتقدون بأنهم قادرون على ممارسة ضغط شديد، وبذلك يفلحون في حملي على خيانة مولاي؟» ويقول: إن خدمة أتيلا لأَفضل له من الثراء بين الرومان! فالأجدر به أن يظلّ في موطنه.

وفي اليوم التالي وقع على بريسكوس أن يقوم باتصال مباشر مع أتيلا، فيقترب من سور القصر الخشبي، ويسمح له من ثمَّ بالدخول. وبات يرى الآن مقدار حجم المجمّع الخاص بأتيلا على حقيقته، إذ إنه يضمّ قصراً وقاعة طعام منفصلة ومجمعاً واسعاً من مبانٍ أخرى، وبعض ألواح الخشب المزينة بأشكال محفورة، وهناك ألواح من الخشب مزخرفة، وبعضها اقتصر العمل فيها على تجريدها من اللحاء وتسويتها بالمسحج، كما أن بعضها التي تخصّ إيريكان كبرى زوجات أتيلا كانت ألواحاً من الخشب تنتصب على أساس من الحجر. ولما كان بريسكوس قد أصبح معروفاً لدى المسؤولين الهون فقد شقّ طريقه بين حشد متراصّ الصفوف من الجنود والخدم ووفود من قبائل البرابرة والهون العاديين الذين وفدوا إلى أتيلا حاملين شكاواهم ليُصدر حكمه فيها. وكانت الأصوات تعلو بكل لسان من هون وقوط ولاتين، وكان هناك في مكان ما أعضاء السفارات الرومانية الأخرى الذين جاؤوا لحلّ الخلاف بشأن الأواني الذهبية. يدخل بريسكوس دار الملكة، ولعلّه خلع صندله ليتمكّن من المشي فوق السجّاد المصنوع من اللبّاد ليجد الملكة متكئة فوق أريكة على الطراز الروماني، محاطة بوصيفات يتّشحن بعباءات من الكتان المطرز. لكن لم يكن هناك مترجم، مما جعل بريسكوس يتقدّم بالهدايا ثم يستأذن ويغادر من جديد.

كان يقف وسط جموع الناس خارج قصر أتيلا حينما خرج أتيلا وأونيجيسيوس، وكان من عادة أتيلا إلقاء نظرة خاطفة عما حوله[1]. وبينما كان أصحاب الشكاوى يتقدمون بمطالبهم ويتلقون الأحكام جاء أعضاء سفارة الرومان الآخرون ليكتشفوا ما كان يجري في تلك الأثناء، فسألهم بريسكوس عن قضية الأواني الذهبية، بيد أن الأخبار لم تكن حسنة؛ لأن أتيلا كان يبدي إصراراً: فإما الأواني وإما الحرب. ويشرح رومولوس السبب، حيث كانت له خبرة طويلة بالسفارة ومهامها. فيقول إنه لم يعرف من قبل حاكماً حقّق مثل هذه الإنجازات في وقت قصير؛ فالقوة جعلته متعجرفاً، ويطمح إلى المزيد أيضاً، ويريد الهجوم على بلاد فارس.. فيصدر صوت من بين جموع الناس يعبر عن المفاجأة: بلاد فارس؟! ما يجعل رومولوس يروي قصة حرب عام 395، حين أغار الهون على القوقاز وعادوا من جهة الصخور المشتعلة على ساحل بحر قزوين: «نعم، لسوف يأتي دور الفرس قريباً.. والأفضل أن يكون الفرس، وليس نحن».

(1) وتلك من الحيل التي يتعلمها الساسة ويألفها الخطباء اليوم لتعينهم في شد انتباه الجميع والتأثير في الجماهير وإعطاء انطباع بوجود سلطة أمامهم.

«نعم، لكن ماذا بعد؟» كان المتحدّث أحد كبار المسؤولين الغربيين من بقعة من بانونيا، وهي الآن تحت حكم الهون. وقال: «لسوف يعود أتيلا قائداً مظفراً». ونحن نقول: إنه قائد فخري، حتى إن الضريبة التي نؤدّيها تبدو كأنها دفعات منتظمة، لكن إذا دحر الفرس فلن يعود مهتماً بالذهب الروماني، ولسوف يرغب بأن يخاطب بوصفه ملكاً، وعندئذٍ سيجعل الرومان خدماً له. إنه يقول: إن القادة الهون منذ الآن أنداد للقادة الرومان، و.... وفي هذه اللحظة يخرج أونيجيسيوس، وتنهال الأسئلة، وتنتهي مع استدعاء مكسيمنوس لمقابلة أتيلا.

وفي الداخل - كما يخبرنا لاحقاً - نال الغفران سريعاً؛ إذ يريد أتيلا سفراء له بهم معرفة من ذوي المراتب العالية، أمثال نوموس، أو أناطوليوس، أو أحد أعضاء مجلس الشيوخ، أي رجالاً عرفهم من قبل، فعندما قال مكسيمنوس: إن إيثار أتيلا لهم قد يجعل الإمبراطور يشتبه بالخيانة والغدر، جاء جواب أتيلا: عليكم أن تمتثلوا لما أريد، إلاّ إذا أردتم الحرب.

حين عاد إلى الخيمة - وبينما كان يتبصر في ما ينبغي عليه القيام به - بلغت الرومان دعوة للعشاء، وكانت هذه أول مناسبة لهم ليروا أتيلا يروّح عن نفسه، إن كان يرتاح على الإطلاق. ولما حان الوقت صعد الرومان إلى قاعة الطعام، حيث كان السقاة يقدمون أقداح النبيذ، وبذلك يمكن للضيوف تأدية ابتهالاتهم قبل أن يجلسوا إلى المائدة.

لاحظوا النبيذ، ذلك إن المشروب التقليدي للهون هو «القمز» المصنوع من حليب الفرس المخمّر والجعة من الشعير. والنبيذ إضافة جديدة إلى غذاء الهون، وكان هذا مادة هامة من المواد التجارية، وجزءاً يُرحّب به في المآدب الرسمية مثل هذه المأدبة.

هاكم أتيلا، مرتدياً الثياب التي يرتديها كل يوم، بل لقد خلت أنشوطة حذائه من التزيينات المألوفة عند الهون، والسيف إلى جانبه، وجالساً على أريكة على الطراز الروماني، والفتى إيلاك جالس على طرف الأريكة، وذراعه اليمنى المكسورة مضمّدة كما هو مفروض ومرفوعة إلى الأعلى. ولئن بات ملكاً الآن فإن مظهره الخارجي لا يوحي بذلك؛ فقد كانت عيناه مسدلتين خشية من والده، وكان شقيقه إرناك الأثير عند أتيلا يجلس على كرسيّ بجانبه. والواقع أن بريسكوس رأى الآن أن قاعة الطعام هي أيضاً غرفة نوم أتيلا الرسمية. وإلى جانب أتيلا هناك أريكة ثانية، وخلفها بضع درجات من سلم يؤدي إلى فراش تستره ستائر مزخرفة وملونة من الكتان والحرير.

كانت الكراسي مرصوفة إلى جدران القاعة، وإلى جانب كلّ كرسيّ ساقٍ يختصّ بخدمة صاحبه. ولم يقم بريسكوس بحساب عدد تلك الكراسي، بيد أني أحسب أنها كانت ثلاثين كرسياً

أو أربعين، كما يليق بمأدبة رسمية تضمّ سفارات من عواصم الشرق والغرب. كان أونيجيسيوس إلى اليمين من أتيلا، وهو جانب التشريف، مع الأعيان الآخرين من الهون الجالسين في صف يمتد على طول الجدار ذاته. أما الرومان فكانوا يجلسون إلى اليسار. ويقدم السقاة للضيوف الأقداح الذهبية والفضية، ويقدم أحد السقاة لأتيلا النبيذ في كأس من الخشب. ويقوم الملك بتحية الضيوف كلّ بدوره، ويقدّم لكل ضيف كأسه، فيرتشف منه رشفة ويعيده، وفي غضون ذلك يرتشف كل منهم من كأسه الخاصة. يسعى بريسكوس جاهداً إلى أن يصف لنا بالضبط كم استغرق هذا التعريف المطوّل، إنما يبدو كأنه جمع بين مجلس الشراب الروماني وطقس العشاء الرباني. ثم يتم إدخال الموائد، فيكون لكل مجموعة من ثلاثة ضيوف أو أربعة مائدة، بحيث يمكن لكل ضيف أن يتناول طعامه من دون أن يبرح مكانه. ثم يبدأ الطعام بالتوارد: لحوم من مختلف الأصناف وخبز، على صحون من الفضة لكل ضيف، إلاّ أتيلا الذي يظهر أصوله البدوية البسيطة بصدق باستخدامه صحناً وكأساً من الخشب.

ينتهي الدور الأول من الطعام، ويكون على الجميع الوقوف وتجرّع الكأس حتى آخر قطرة، وهم يتبادلون نخب أتيلا ويتمنّون له الصحة الجيدة. ثم جاء الدور الثاني من الطعام، وهنا لا يخبرنا بريسكوس ما قُدّم في تلك المأدبة من أصناف الطعام: لم يكن يهتم بالطعام، ثم إن نظره بات مشوّشاً والصور متداخلة، وما صارت العينان تلتقطانه كان عبارة عن كثير من أصناف المأكولات. ويقف الجميع، ويكون نخب ثانٍ، ومرة أخرى يفرغ الكأس مما فيه. وهنا تدخل المشاعل من شجر الصنوبر، وأخذت العتمة تعمّ، وحان وقت الترويح عن النفس، فأخذ مغنّيان يصدحان بأغانٍ من تأليفهما في التغنّي بانتصارات أتيلا وشجاعته. وكان لذلك أشد التأثير في الحضور. فأخذ بعض الشبان في أرجاء القاعة يستذكرون المعارك بهزّ رؤوسهم والابتسام، وقد أخذت عيون الشيوخ من الضيوف تغرورق بالدموع من شدة التأثر. والآن حان الوقت لظهور أحد الكوميديين، والحق أنه يشقّ على الروماني أن يتخيّل أي شيء أسوأ من رؤية مشهد كوميدي من أداء الهون، ويضيع على الرومان حتماً إدراك مغزى التمثيلية تماماً. ولقد انصرف بريسكوس عن هذا الكوميدي باعتباره شخصاً «مختلَّ العقل وغير مفهوم، وعباراته خرقاء». أما الهون فقد رأوا أنه جدير بمقابلته بالصياح والسخرية، وراحوا يتمايلون على الجانبين من شدة الضحك.

كان التالي أعظم؛ فهذه كانت اللحظة التي ينتظرونها، فها هو ذا زيركون القزم، الأخرق، والأجدع الأنف، والأحدب الذي كان قد وقع في أيديهم في ليبيا، وصار مهرج بليدا. وقصة هروبه

معروفة لدى الجميع، وكذلك الإمساك به وزواجه من بين حاشية مولاه. ثم كان أن اغتيل بليدا بعد سنة أو سنتين، وقام أتيلا بفصله عن زوجته، وسلمه لإيتيوس الذي أعاده إلى مولاه الأول اسبار. أي حياة غريبة عاشها زيركون! فقد انتشل من حياة التسول، ثم تداوله كبار القوم وقادة عسكريون، وانتقل على سبيل الهدية من الرومان إلى الهون فالرومان، وهاهو ذا يعود من جديد إلى الهون. كان إديكا زعيم السكيريين هو الذي تمكّن على نحو ما بفضل اتصالاته الدولية أن يعود به إلى بلاط أتيلا، بعد ما أقنعه بأن له الحق بالمطالبة بزوجته المفقودة. لكن أتيلا لم يكن سعيداً برؤية ما يذكّره ببليدا، فظلت الزوجة الضائعة مفقودة.

والآن يدخل زيركون، ولم يكن هذا بالغبي؛ وهو يعلم أن مصيره يعتمد على مدى إتقانه فن الترفيه؛ وإذاً فالأرجح أن تكون لديه تمثيلية، وخطاب ما، يلقيه بلثغته المعهودة، وبخليط متعمّد من العبارات باللغات الهونية والقوطية واللاتينية. وتلك فكرة مريعة بحسب المذاهب الحسية العصرية، بيد أنه من سوء الحظ أن الحساسية حيال التشويه أمر حديث جداً. ومعظم رواد المسرح كانوا حتى مطلع القرن العشرين يستحسنون هذا الفن، فضلاً عن مشهد النساء ذوات اللحى والأقزام والرجل الفيل.

وليتمكن المرء من أخذ فكرة عن مقدار انحطاط هذا المشهد حسبه أن يتخيل قزماً أسود كسيحاً يطلق عقيرته بأغنية من الأغاني التي تعرف بها صالات الموسيقى، بلكنة خليط من الفرنسية والجرمانية مع لثغة ولعثمة. والناظرون يسقطون على الجانبين وهم يشيرون بأيديهم إلى ذلك المشهد، ويضربون أفخاذهم ويضحكون حتى تنهمر الدموع من أعينهم. كان هذا سلوك الجميع، إلاّ أتيلا الذي جلس بوجه قاسي الملامح لا يتأثّر بما حوله؛ إذ إنه عرف زيركون في أحسن عروضه وأسوئها في السنوات السبع الماضية. وقد كفانا منه ما عرفنا، فهو لا يتجاوب مع من حوله إلاّ إذا حضر الفتى إرناك ووقف إلى جانبه؛ فإرناك عنده شاب أثير. وبينما كان أحد الهون الذين يتحدّثون اللاتينية يهمس في أذن بريسكوس أن الكهنة الشامان قد أخبروا أتيلا أن الهون سيسقطون، ثم يعيد إليهم إرناك مجدهم. كان أتيلا يعانق ولده ويلمس خدّه برقة، ويبتسم ابتسامة لطيفة، وزيركون ينهي عرضه الغريب.

يستغرق العمل الرسمي نحو خمسة أيام أخرى: رسائل دونت للإمبراطور، امرأة رومانية سجينة تفتدى بنحو 500 صوليدي، وجبة طعام أخرى باتت جاهزة، بتدبير إيريكان كبرى زوجات أتيلا، ثم هناك وجبة عشاء أخيرة مع أتيلا. ولسوف يغادر هؤلاء القوم، ويبقى أمر آخر معلقاً يتّصل

بقسطنطيوس الكاتب الذي أرسله إيتيوس إلى أتيلا. كان إيتيوس قد قطع عهداً لقسطنطيوس بأن يتدبّر له زوجة ثرية. وقد عثر الإمبراطور على المرأة المناسبة التي يتوافر لديها المطلوب؛ إلاّ أنّ السياسات الدائرة في البلاط حالت من دون تنفيذ هذا التدبير. لكنّ أتيلا أصرّ على أن ينال كاتبه الزوجة الموعودة بوصفه جزءاً من لعبة الرومان والهون بازدواج الحرب والدبلوماسية، وهذا ما تمّ الاتفاق عليه بين الطرفين، وإذاً، فليكن!

عندئذ يغادر أعضاء السفارة عائدين إلى الديار، لكنّ الرحلة لم تكن بالسعيدة، فيصادف القوم جاسوساً وقد أُقعدعلى خازوق؛ وتلك تذكرة كريهة بقسوة أتيلا والمهارات الرهيبة التي يتمتع بها الجلادون، كما صادفوا اثنين من الرقيق يموتان موتاً بطيئاً عقاباً على جريمة ارتكباها، حيث عُلّقا من رقبتيهما على أغصان بشكل حرف V. وبعد أن قطع أعضاء البعثة نصف الطريق تحوّل مرافقهم الأساسي الهوني إلى شخص كريهٍ حادّ المزاج وطالب باستعادة الحصان الذي كان قد قدم هدية.

وعلى الطريق من القسطنطينية حيث ليس هناك إلاّ طريق واحدة يلتقون بفيجيلاس وقد عاد ومعه صاحبه ايسلاس الهوني والخمسين رطلاً من الذهب التي أُحسن إخفاؤها، وكان يعتزم تقديمها إلى إديكا لتمويل عملية اغتيال أتيلا. ونظراً إلى أنه كان قد أرسل في مهمة لمناقشة أمر اللاجئين والمساجين فإنه موضوع عودته لم يعد بالسرّ العظيم. لقد عاد، لكن ليس بصحبته أيّ من اللاجئين الهون، لكن كان من المؤكّد أن معه رسالة أخرى من الإمبراطور بشأن هذا الأمر، وكان على رأس سفارة صغيرة من الرقيق والجياد، ويشعر بالابتهاج ولا يدري أنه سائر إلى فخ. وليس في مقدوره معرفة الحقيقة بالتاكيد؛ لأنه لا أحد يدري بها إلاّ إديكا وأتيلا، وإديكا لم يعد يظهر أو يسمع عنه أحد منذ حديثه الوجيز إلى فيجيلاس بُعيد حديثه مع أتيلا. ولا يبدو أنه خطر له ببال أن أحد الأركان الرئيسة في المؤامرة قد تهاوى؛ وهو وجود بعثة رومانية عالية المستوى في بلاد الهون عند اغتيال أتيلا على أيدي ضباطه أنفسهم. كانت ثقة فيجيلاس بالخطة كبيرة مما جعله مطمئناً إلى نجاحه إلى حدّ أنه اصطحب معه ولده.

ولسوف يعلم بريسكوس بعدئذ ما حدث؛ فعندما دخل فيجيلاس بلاد الهون كان رجال أتيلا في الانتظار، ويا لها من مفاجأة سارة أن توجد قوة مرافقة. لكن تلك المفاجأة تحوّلت إلى صدمة مزعجة، فقد تمّ اعتقاله، وجرى تفتيشه، وأُخذت منه حقيبة الذهب التي ترافقه، وجرّوه وولده ليمثلا أمام اتيلا.

ويسأل أتيلا، كأنما لا يدري الجواب؛ لكن ما هو الغرض من هذا الذهب كله؟ وعندي،

كما عند الآخرين، أن أتيلا ترك فيجيلاس يتعثر ويتمرّغ في مستنقع الخداع والغرور والعبارات الفارغة؛ إذ إنه أجاب: لئلا نقصّر عن بلوغ الغرض من السفارة بفقدان المؤن بسبب سوء الخيول والحيوانات التي تنقل الأمتعة، إذا ما أصابهم الإنهاك في هذه الرحلة الطويلة ودعت الضرورة لشراء المزيد. (وفي أي حالة ما الحاجة للذهب في بلاد الهون، بعدما غادرها الرومان؟)، ولفداء الأسرى، وكان كثيرون في المنطقة الرومانية يرجونه افتداء أقاربهم.

فماذا في وسع فيجيلاس أن يفعل لو كان واثقاً بنفسه فعلاً إلاّ الارتداد على أتيلا بالغضب والثورة لمثل هذه المعاملة السيئة، فقد قام باعتقال سفير وسلبه ما لديه! إنه لأمر لم يسمع به أحد من قبل! ولسوف يبلغ هذا الأمر الإمبراطور وإلخ... لكن بدلاً من ذلك، كان في وضع المدان بعباراته الناعمة ذاتها. صاح أتيلا: «ياللوحش التافه!»، وقد كان يعرف كيف يفيد من غضبه. وكانت عباراته هذه كما أوردها بريسكوس: «لن تفرّ بعد الآن من العدالة بخداعك، ولن تنجيك أعذارك من العقاب». وفي غضون ذلك كان فيجيلاس يعامل معاملة أيّ مجرم عادي، شانه شأن أي مجرم من الهون أنفسهم، وليس من الرومان كما هي حاله فعلاً، ناهيكم عن كونه دبلوماسياً. وأتيلا واثق أشد الثقة بثبات وضعه، ومن ثم تابع تعنيفه. فالمال الموجود كان أكثر مما تحتاج إليه أي سفارة لشراء المؤن والجياد والدواب التي تحمل الأمتعة وافتداء الأسرى. ولا ريب في أنّ فيجيلاس يتذكّر أن أتيلا قد رفض قبول الفدية عن الأسرى حين قدم مع مكسيمنوس لأول مرة.

وعند بلوغ هذه النقطة أومأ أتيلا لحراسه ليلقوا القبض على ابن فيجيلاس، وجُرد سيف من غمده. وقال أتيلا عندئذ متوعداً: كلمة واحدة مني تقتل ولدك فوراً.. والآن اصدقني القول!».

كانت تلك هي اللحظة التي ظلّ أتيلا ينتظرها منذ أن علم بالمؤامرة قبل قرابة ستة أسابيع. القبض على سفير روماني مشترك في الإعداد لعملية اغتيال، ويا لها من مؤامرة غبية أيضاً، أثمة ما يكشف خداع الرومان ويظهر تفوّق الهون أفضل من هذه؟

وينهار فيجيلاس وتنسكب الدموع من مآقيه، ويمضي متوسّلاً لأتيلا باسم العدالة أن يدع السيف يضرب عنقه هو، لا الفتى البريء الذي لا يعلم شيئاً عما كان يُدبر. وإذاً، فلتكن صادقاً ولتقل الحقيقة.

وهكذا خرجت الحقيقة كلها، الحقيقة كما كان أتيلا يعرفها طوال الوقت: كريسافيوس وإديكا، والاجتماعات في القصر في القسطنطينية، وموافقة الإمبراطور، والذهب، وكل التفاصيل..

كان يكفي هذا لإنقاذ الأرواح، فإذا كان أتيلا قادراً على الغضب، فإنه قادر أيضاً على إبداء الشهامة. لكن هنالك في هذا الوضع ما يمكن استخراجه بمزيد من الضغط. فيتمّ تقييد فيجيلاس بالسلاسل، وبذلك أصبح رهينة. ولسوف يكون هو من يجب دفع الفدية عنه، بعد أن كان قد جاء ليدفع الفدية عن الآخرين. أما ابنه فعليه الرجوع إلى بلده حاملاً معه الأنباء، ثم يعود ومعه الأرطال الخمسين من الذهب. والحقّ أن هذا الوضع كان ينطوي على شيء من الشعر، والخمسون رطلاً كانت مقدار الذهب المقترح لتمويل عملية اغتيال الملك. والآن ها هو أتيلا يطلب المقدار ذاته لافتداء سفير ليس إلاّ. ولسوف يخسر الإمبراطور عندئذ ضعف المبلغ الذي التزم به، ولن يجني إلاّ المهانة. ولسوف يجد كل من لديه ميل إلى المسرح هذا الانتقام ممتعاً، ولدى أتيلا الكثير منه!

لكن ليس لذلك من معنى إلاّ إذا استطاع التأكد من أن المهانة علنية، للإمبراطور والخصي الرهيب كريسافيوس معاً. فأرسل أوريستيس وإيسلاس مع الفتى، وكلاهما مشهود له بالنزاهة، وكانت مهمتهما وضع الملح على جرح الإمبراطور.

عندما حان موعد مقابلتهما ثيودوسيوس في القسطنطينية كان أوريستيس يحمل حول عنقه الحقيبة التي كان فيجيلاس يُخبّئ فيها الذهب، وكان كريسافيوس حاضراً، والكلمات في هذا المشهد كانت لأتيلا ويلقيها إيسلاس:

أيعرف الإمبراطور وكريسافيوس هذه الحقيبة؟! ويمر وقت لا بأس به من الصمت لاستيعاب الكلمات، ثم تأتي رسالة أتيلا:

«إن ثيودوسيوس ابن أب كريم المحتد، وكذلك أنا أتيلا، وأبي مندزوك ملك الهون. ولقد صنت هذه السلالة النبيلة، لكن ثيودوسيوس لم يحرص على ذلك، فمن هو الهمجي منا؟ ومن هو الأكثر تحضراً؟».

الجواب جليّ، والحقيبة هي برهان على قولي. فثيودسيوس بتآمره على اغتيال مولاه وسيده أتيلا إنما يتصرّف مثل عبد متمرد. وبالنتيجة يعلن أتيلا أنه لن يعفي ثيودوسيوس من الإثم ما لم يسلم الخصيّ لينال عقابه.

وكان هناك أمر آخر ينبغي حسمه أيضاً، ألا وهو قضية زوجة قسطنطيوس. كانت المعنية قد تزوجت من رجل آخر، ومعها بائنتها. لكن ثيودوسيوس كان عالماً بالأمر، وعليه أن يعيدها. أم تراه لا يملك سلطاناً على خَدَمه؟ وإذاً، فإنه مما يُسعد أتيلا أن يقدّم للرجل عرضاً لا يحسب أنه

سيرفضه.

هنالك طريقة وحيدة للخروج من هذه الورطة وصون حياة كريسافيوس؛ هي إيجاد امرأة أغنى وأرسخ مكانة من تلك المرأة التي وعد بها قسطنطيوس، وعندئذ يدفع ولا ينقطع عن الدفع. ويتمّ إعداد سفارة على رأسها رجال أعلى مكانة من مكسيمنوس، فمقابل أموال طائلة لم يسمع بمثلها من قبل يمكن حلّ كل أمر؛ حيث ينسحب أتيلا من المناطق جنوب الدانوب، تلك الأراضي التي كافح ليحتفظ بها على أي حال. ويحظى قسطنطيوس بزوجة ثرية هي أرملة ابن القائد والقنصل بلينثاس، ويطلق فيجيلاس، ويعاود كريسافيوس التآمر من جديد، ويطلق سراح أسرى الرومان، ويطوى أمر الهون اللاجئين على النحو الملائم.

ولأتيلا الحرية عندئذ لتوجيه اهتمامه إلى أهداف أكثر يسراً من القسطنطينية، ألا وهي إمبراطورية روما المتداعية ذاتها.

7

الهمجي والأميرة

كانت حدود أتيلا الجنوبية في عام 450 على امتداد الدانوب تنعم بالسلام، فقد تقدّم عبر الدانوب، وحلّ الخلافات بشأن المساجين والفارين، وأصبح الآن اللاعبون الشرقيون بين يديه يتحكّم بهم كما يشاء، وذلك بسبب مؤامراتهم الحمقاء. وقد وفّر له هذا كله المال والأمن اللذين يحتاج إليهما لرفعه من مستوى رئيس لجماعة من النهّابين والسلّابين إلى باني إمبراطورية، ولعل هذا قد جعله يتخذ طريقه إلى الاندماج والاستقرار.

لكن هذا لم يكن من طبيعته؛ لأن رئيس النهّابين واللصوص لا يمكنه مطلقاً أن يشعر بالاكتفاء من المال والأمان. ولا يكفي أن يثق المرء بحفاظ القسطنطينية على التزاماتها الجديدة طويلاً، فتحوّلت أنظاره نحو الغرب. والحقّ أنه كان هناك خمسة عشر عاماً من السلام بينه وبين روما اعتمدت في جذورها على التحالف بين الهون والرومان الذي عزّزه صديق الهون القديم إيتيوس. لكن أتيلا لم يكن بالرجل الذي يسمح للصداقة أن تكون حائلاً دون كسب المغانم. وما هي إلا سنة حتى كان أتباعه - وربما علية القوم - في حال من القلق، فكان لا بد من القيام بعمل ما.

كانت روما ذاتها صلبة لا تلين لها قناة، ويصعب تحدّيها بمواجهة - أيضاً - لكن مقاطعتها الشمالية - بلاد الغال - كانت هدفاً أيسر.

ظلّت بلاد الغال الممزّقة مرتعاً للبرابرة طوال قرابة خمسين عاماً، وكان البريطان قد هربوا من جزيرتهم المضطربة نحو المنطقة الشمالية الغربية، التي سيغدو اسمها بريتاني. وقد عبّر الوندال والآلان والسويفي نهر الراين سنة 406، واندفعوا إلى إسبانيا من خلال المنطقة الجنوبية الغربية؛ أما البورغونديون الذين طردهم من منطقة نهر الماين جيشٌ روماني - هوني مشترك ما بين عامي 435 - 437 فقد استقرّوا في منطقة سافوي، بينما مضى القوط الغربيون يجولون بين روما وإسبانيا حتى أكويتانيا، حيث اعترفت روما باستقلالهم سنة 439. وكانت عصابات جوالة من قطاع الطرق الباغودا تروّع الشمال، وكذلك هناك عشائر من الآلان تعيش قرب فلانس، إضافة إلى عدد أكبر منهم قرب أورليان.

يطيب للمؤرخين معاملة كيانات غير مترابطة مثل القبائل والعشائر والدول القومية، لكن في القرن الخامس أخذ أفراد من بلاد الغال وجيوش وقبائل يتدفّقون ويتبعثرون، ثم يتجمعون ويتفرقون باستمرار، حتى غدا من العسير تعيين الوحدات الأساسية، ناهيك عن نسج القصص والروايات عنها، فليس هناك من قوانين تخضع لها الجغرافيا أو تحكم السياسة طويلاً؛ لأن

قبائل البرابرة كانت تنزع إلى الترحال من الشرق إلى الغرب، ما عدا حين لا يفعلون ذلك، أو حين يستقرون في مكان معين؛ فقد كانت هذه العشائر عدوّة لروما، إلاّ إن شاؤوا غير ذلك، وقد حافظت هذه القبائل على هوياتها، إلا حين تشاء إنكارها.

ثمة حقيقة لا تُنكر مفادها أن بلاد الغال باتت الآن في وضع ضعيف على أطرافها، بما يتيح لأتيلا بعض الفرص الهامة.

تمكّن الفرنجة على الطرف الشمالي الشرقي من المحافظة على استقلال متين، وصار وصول الهون إليهم يسيراً بعد ما تمكنوا من إزاحة القبائل المتدخلة عن ضفاف الراين.

وفي المنطقة الشمالية الغربية - وهي منطقة مترامية الأطراف ترتكز على منطقة بريتاني - كان الباغودا في وضع قلق كما هو شأنهم دائماً، وقد علم أتيلا بأمرهم بفضل طبيب يوناني ثري اسمه أوديكسيوس، كان يعيش بينهم، وصادف بعض المتاعب معهم، وفُرض عليه أن يسارع إلى الفرار. ولما كان مرتداً في أعين الرومان فلم يعد في وسعه الذهاب إلى روما، لذلك هرب عوضاً عن ذلك إلى الهون.

كان القوط الغربيون بعد هجرتهم الطويلة في إسبانيا قد استقرّوا في أقصى المنطقة الجنوبية الغربية التي تُعرف اليوم باسم أكويتانيا. وقد عُرف القوط الغربيون بعدائهم القديم للرومان والهون معاً. وكان جيش من الهون بقيادة ليتوريوس النائب الأول لإيتيوس هو الذي طردهم من ناربون في عام 437، ثم كاد أن يمسح عاصمتهم تولوز عن وجه الأرض في العام التالي.

لكن ظلّ قلب بلاد الغال ينبض؛ لأن بلاد الغال - الرومان الريفيون في المناطق الوسطى والجنوبية الآمنة كانوا يتطلّعون إلى روما من أجل حمايتهم وثقافتهم. وقد أقامت هذه المنطقة في عام 418 إدارتها المحلية الخاصة، متمثّلة بمجلس المناطق السبع، مؤكّدة الطابع الروماني والمسيحية المستمدّين من عاصمتها الجديدة آرل[1] المهيمنة على دلتا الرون. وهنا أعلن إيتيوس نفسه حامياً للغال منذ عام 424 فصاعداً، مبدياً صموداً قوياً قدر ما أمكن في وجه القوط الغربيين أولاً، بل والجرمان على حدود الراين أيضاً. وقد استخدم في سبيل ذلك بعض الهمجيّين عينهم الذين كان يناهضهم، كما فعل في دعم قضيته هو ذاته؛ فإيتيوس حامي بلاد الغال تجاه الفرنجة والهون عندما أقالته من الخدمة غالا بلاسيديا الوصية على العرش في عام 432 قاد جيشاً ثائراً من

(1) وما زالت هذه المدينة غنية إلى اليوم بآثارها الرومانية.

المرتزقة الفرنجة والهون لفرض إعادته إلى منصبه. وفي عام 450 استمرّ إيتيوس في الاضطلاع بالدور ذاته، وامتدّ سلطانه على طول شبكة الطرق الرومانية لبلدات الحاميات مثل تراير التي تحمي وادي موزيل وأورليان، وبقي صامداً في اللوار أمام القوط الغربيين في الجنوب، والبريطان الهمج والباغودا في المنطقة الشمالية الغربية. وكانت هذه على كل حال منطقة في حالة تقهقر، لكنها تدافع عن قلبها وتحميه. كان للراين الذي يمثل الحدود القديمة صفٌّ من الحصون، إلاّ أنّها تقع وراء الآردين، ويصعب تعزيزها في حالات الطوارئ.

لم تشكل القوة العسكرية وإيتيوس إلاّ نصف المعادلة؛ أما النصف الآخر وهو الجانب الحضاري فلنا أن نلتفت إلى أفيتوس، وهو رجل دولة، ومحب للفنون، وقد غدا في ما بعد إمبراطوراً. كان موقعه يبعد 15 كيلومتراً جنوب غرب كليرمونت - فيراند، في التلال البركانية من سلسلة الجبال الوسطى، إلى جانب بحيرة تشكّلت حين أدى تدفق الحمم البركانية في حقبة ما قبل التاريخ إلى غمر نهر صغير. وقد أطلق الرومان على البحيرة اسم آيداكوم، وتعرف اليوم ببحيرة آيدات، ويبلغ عرضها كيلومترين، وهي الآن أصغر مما كانت عليه في أيام الرومان، إلاّ أنّ حدودها ما زالت حافلة بالأشجار والحقول الفسيحة. وهنا بنى أفيتوس دارة (فيلا) لإدارة شؤون أفيتاكوم، كما كان يدعوها. وجاء وصفها في رسالة كتبها صهره سيدونيوس، وكان أحد أشهر الشعراء في زمانه، وكفل لنفسه الشهرة بكتابة المدائح الموجّهة إلى أصحاب الثراء والسلطان[1].

كانت عبارة المديح المقصودة قد كتبت في وقت غير بعيد من تلك الأحداث التي دمغت عهد الإمبراطور أفيتوس القصير ما بين عامي 455 - 456 قبيل وفاته، عندما كان سيدونيوس في منتصف العشرينيات من عمره؛ لأنه كان في أشعاره ورسائله الحافلة بالصور الزاهية والخطب الرنانة - وكان يستحسن مثل هذه العبارات - يرسم صورة تبيّن ما يعنيه أن يكون المرء ريفياً رومانياً قبيل غزو الهون. والأمر أشبه بالنظر إلى الوراء إلى عطلة نهاية الأسبوع الإدواردية الطويلة، قبيل عام 1914 أو حياة الأنكلو - هنود ذوي الامتياز في عقد الثلاثينيات من القرن العشرين، أو الجنوب الأمريكي القديم كما يصوّره فيلم «ذهب مع الريح» قبيل الحرب الأهلية. فهناك إمبراطورية تنهار من كل جانب، ومع ذلك فإنّ أثرياء الريف يستمرّون في إقامة الحفلات الساهرة في القصور والحمامات، وولائم العشاء، والمباريات الرياضية، والمناقشات الأدبية

(1) الرسالة إلى صديق يدعى دوميتيوس، وكان أكاديمياً، (ويكتب في مكان آخر) شديد الصراحة، حتى قيل فيه: «حتى الرجل الذي يقولون إنه لم يضحك إلاّ مرة واحدة في حياته لم يكن انتقادياً على شاكلته». ولعل وصفه لأفيتاكوم كان القصد منه التخفيف من مزاج صديقه المتجهم.

المتكلفة، كأنه لن يحدث أي تغيير على الإطلاق.

كان أفيتوس في عام 450 أحد أبرز رجال عصره، والمعادل الفعلي عند الغال للملكية، ويعدّ الملاذ الذي تلجأ إليه المنطقة في الأوقات المضطربة لأنه كان رأس أسرة غنية ذات نفوذ، وقد تولى قيادة عسكرية تحت إمرة إيتيوس، وكوفئ نظير خدماته بمنحه مناصب عسكرية ومدنية عالية في بلاد الغال. وفي عام 439 وبعد ما فشل كثير من السفراء في مهمّتهم استطاع إقناع ثيودوريك ملك القوط الغربيين بتوقيع معاهدة سلام. وبحلول عام 450 صار أفيتوس من كبار الذين يُعنَون برعاية الفنون، ومضيفاً باذخاً، وهاوياً شديد الشغف باقتناء المخطوطات، ودبلوماسياً يحظى بالإعجاب في كافة أرجاء الإمبراطورية لمهاراته في هذا المجال.

وتحملنا رسالة سيدونيوس في جولة في رحاب بيت أفيتوس المنيف؛ فإلى الغرب منه يرتفع تل شاهق مع عدد من السلاسل الجبلية التي تمتدّ شمال وجنوب الدارة والحديقة المحيطة بها التي تبلغ مساحتها فدانين، أمّا البحيرة فتقع إلى الشرق. وأفيتاكوم أقرب إلى القرية منها إلى الدارة بالمعنى الحديث للكلمة، فهي تضم أبنية منفصلة للجهاز الإداري والمزارعين المستأجرين والرقيق. وهناك مجموعة هامة من الأبنية تعدّ التعبير الأساسيّ عن الثروة والثقافة والهوية، ألا وهي الحمامات التي تُحاذي أسفل أراضي الغابات شديدة الانحدار، بحيث إنه حين يقوم الحطابون بقطع الأشجار فإن هذه القطع تنزل أكواماً متراكمة كأنما تأخذ مجراها الطبيعي لتسقط في فتحة القمين. وإلى جانب القمين هناك الحمام الحار الذي يرد إليه الماء المغلي، وينفث بخاره من خلال أنبوب من الرصاص يمتدّ كالمتاهة. وبعيداً عن الغرفة الحارة هناك حجرة الدهن بالزيت، حيث يُظهر المدلّكون سحرهم بوساطة الزيوت العطرية، وغرفة التبريد. وفوق هذه الحجرات كلها سقف مخروطي الشكل، وتحيط بها أسوار من الأحجار البيضاء المسطحة مزينة ليس بالصور الجدارية المألوفة، بل ببعض أبيات الشعر المنقوشة بخط بسيط يدلّ على حسن الذوق. وتُفضي ثلاثة أقواس ذات أعمدة من الرخام السماقي إلى حوض سباحة بطول عشرين متراً، ومياهه مستمدة من جدول يجري أسفل التل ويصب في أنابيب تنتهي برؤوس ستة أسود يصدر منها الماء بصوتٍ عالٍ يَغرق فيه ما يدور من أحاديث. ويجاور المكان غرفة طعام السيدات، وغرفة المؤن، وحجرة النسّاجين. وهناك مقابل البحيرة رواق عظيم تحفّ به التماثيل ويؤدي إلى ساحة مكشوفة يجتمع فيها الأرقاء وعائلاتهم لتناول وجباتهم من الطعام.

هناك قرب ذلك الموقع - حيث يصبح من العسير تبيّن المخطط - غرفة الطعام الشتوية، وبها

موقد مقنطر، وغرفة طعام صيفية، وداخلها سلالم قصيرة تقود إلى شرفة تُشرف على البحيرة. هنا يستمتع الضيوف بمشاهدة الصيادين يرمون بشباكهم أو مجموعة من الخيوط تتدلى من فلين يطفو لاصطياد سمك السلمون المرقط في الليل. أما إذا ارتفعت الحرارة فتستطيع عندئذ أن تستلقي متى تشاء في الشمال مقابل غرفة الجلوس، وهو مكان جيد يخلد إليه المرء مع صوت زيز الحصاد، لكن للطبيعة فرقاً مرافقة أيضاً: الضفادع في الغسق، والأوزّ في العشية، والديكة قبل الفجر، وغراب القيظ عند الشروق، والعنادل في الأحراج، والسنونو في العوارض الخشبية في الدور. أما السير على المنحدرات المؤدية إلى البحيرة فيصل بك إلى غيضة تغطيها الأعشاب وتخيم عليها شجرتا ليمون حامض فارعتان، حيث أفراد الأسرة يلعبون مع ضيوفهم بالكرة أو النرد. أو يمكنك أن تقوم برحلة بمركب، وإذا تجنبت المستنقعات في الطرف الغربي، والمياه الراكدة ونبات الحلفاء (البردي) التي تنتشر فيها بصورة فظة، فإنك تستطيع عندئذ أن تمضي في التجذيف محاذياً الضفة الجنوبية المتعرّجة الحافلة بالأشجار، ثم تدور حول جزيرة صغيرة، وتنعطف عند عمود مسنّن بفعل مجاذيف المجذفين الذين كانوا يجذفون بجنون تحت تأثير العرق والضحك في أثناء إحدى السباقات السنوية. وفوق هذا كلّه يقف أفيتوس مراقباً؛ لأن المكتبة تشرف على الحمامات والمرج والبحيرة، ويطيب له في أثناء قيامه بإملاء رسائله والتباحث مع المدراء أن يتحقّق من استمتاع ضيوفه بهذا النعيم الروماني.

وماذا ترى يفعل الضيوف في هذه الأثناء غير ركوب القوارب والاستحمام وتناول الطعام؟! ويصف سيدونيوس في رسالة أخرى الأنشطة التي تقوم في بيت ريفي في قريتين قرب [بلدة] نيم، إلاّ أنَّ مثل هذه الأمور كانت هوايات شائعة بين الطبقات الاجتماعية العليا. وقد يمارس القوم يومئذ في الصباح رياضة كروية؛ بأن يضعوا خنزيراً صغيراً في الوسط، ومن حوله حلقة من اللاعبين يتقاذفونه بينما يحاول أحد اللاعبين اعتراضه، وفي الداخل ثمة آخرون يلعبون النرد، وفي أحد الجوانب هناك أكوام من المخطوطات كأنها صحف يوم العطلة الأسبوعية، أو مجلة «حياة الريف» وبعض أحدث الكتب المجلدة ذات الموضوعات الدينية للسيدات، وأعمال أدبية تتّسم بالبلاغة والأساليب الرفيعة للرجال. وبينما يتحدث الرجال في أمر إحدى أحدث الترجمات اللاتينية لأعمال كاتب إغريقي بارز يعلن كبير الخدم موعد الغداء وقد أشارت الساعة المائية إلى حلول الخامسة، حيث مُدّت أمام الضيوف أصناف اللحوم المقدّدة والمطبوخة، وإبان استمتاع الضيوف بهذه الأطعمة كانوا يُصغون إلى من يروي قصة قصيرة. وبعدئذ يمشون مشياً خفيفاً لتحريض الشهية للأكل بعد حمام بخاري (ساونا). وفي هذه البلدان التي لسوء حظها تفتقر

للحمامات البخارية يُضطر الخدم إلى حفر خندق وملئه بأحجار شديدة السخونة، ويوضع فوقها سقف من الأغصان المغطّاة بالسجاد، وحين يدخل الضيوف ويتجمعون هناك يصبّ الخدم المياه على الأحجار.

هنا كنا نُنفق الساعات، ولم نكن لنفتقر للحديث المرح ورواية الطرائف، وفي الوقت ذاته كان الضباب الخفيف يلفنا بإحكام، مما يؤدي إلى تعرق صحّي للبدن، فنندفع إلى الغطس في المياه الحارة. ويجعلنا الدفء اللطيف نسترخي ويحرّر الهضم من العوائق، وعندئذ ننعش أنفسنا بمياه النبع الباردة، أو نندفع إلى النهر المتدفق.

أخذنا نتذكر بينما كنّا نطوف في أرجاء الضيعة أنه على الرغم من كون هذه الدارة أفخم دارة ريفية، وذروة في رفعة الذوق والأناقة والبذخ، فثمة المئات من الدور الأصغر، وكلها نتاج مدن بلاد الغال التي تبلغ المئة ونيفاً، وبعضها عواصم إقليمية ضخمة مثل ناربون وليون، وأقلها شأناً تبزّ قرية أتيلا في المراعي الهنغارية. وقد يكون من الممكن أنّ أحد كتبة أتيلا الرومان قد سمع بأفيتاكوم وأخبر سيده بمباهجها، ومثل هؤلاء الناس يجعل منهم الترف المفسد أهدافاً يسهل ضربها.

وبعد: ألا تكون هذه بقعة رائعة يستريح فيها قائد عظيم من أعباء الحكم؛ أي منتجعاً ريفياً مثل: عش النسر[1]، أو تشيكرز[2]، أو كامب ديفيد[3]، حيث يمكن لإحدى الجميلات الرومانيات أن تضطلع بدور في الحضارة والترويح عن النفس، وتنتظر زيارة كريمة من مولاها بين الحين والآخر!

ما هي طريقة العمل التي ينبغي اتباعها؟ كانت المشكلة الرئيسة القيام بالمناورة مع الحرص على ألاّ تبدو تهديداً مباشراً للغال، وبالتالي تهديداً لروما؛ لأن الأمر سينطوي عندئذ على المجازفة بخسران صداقة إيتيوس حامي بلاد الغال. وبدا أن القوط الغربيين سيكونون المفتاح؛ لأنهم كانوا تقليدياً أعداء للرومان والهون معاً. وقد حاول أتيلا أن يكون دبلوماسياً، ولكن - لنقلها بصراحة - كان غِرّاً؛ فتوجه إلى روما بطرح خاص يقول إن أتباع الإقطاعيين لديه قد فرّوا من سيدهم الهوني ويجب إعادتهم إلى الحظيرة. وربما توسل يومئذ بغطاء دبلوماسي ما، زاعماً أنه

(1) استراحة هتلر، (المترجم).

(2) استراحة رئيس الوزراء البريطاني، (المترجم).

(3) استراحة رئيس الولايات المتحدة، (المترجم).

لما كان القوط الغربيون أعداء لروما فإنه إنّما يتصرّف بوصفه «راعياً لصداقة الرومان»، بحسب ما ورد في حوليّات المؤرّخ المعاصر بروسبير الأكويتاني. ولعلّه بخطوة مثل هذه يمكنه أن يكسب أصدقاء بين الرومان في أكويتانيا، حيث ربما يسعد ملاكي الأراضي أن يستعيدوا بعض المناطق التي كان القوط الغربيون قد استولوا عليها قبل جيل فحسب.

لكن من الطبيعي ألاّ يرحب القوط الغربيون بظهور أتيلا على حدودهم، ولذلك لا بد من تحييدهم أيضاً، فبعث أتيلا إلى ثيودوريك رسالة تنطوي على حجج شديدة الاختلاف، يحثّه فيها على أن يتذكّر أعداءه الحقيقيين - أي الرومان - ويعرض بكثير من الكلمات الوعود بتقديم العون. وكما ذكر يوردانس: «لقد كان تحت ضراوته العظيمة ماكراً»، ولو أنه لم يكن شديد البراعة. أفكان أتيلا في الواقع ساذجاً إلى درجة تجعله يعتقد بأنّ أعداءه يجهلون أين يكمن أعظم الخطر؟ إنني أعتقد بأنه كان كذلك.

ولقد تغذّت مطامحه من موقع آخر بعيد، هو مملكة همجية أخرى جديدة، هي مملكة الوندال في شمال أفريقيا. ويبيّن لنا يوردانس السبب في مثال يبعث على الدهشة، وتذهب الرواية إلى أنّ أميرة من القوط الغربيّين هي ابنة ثيودوريك قد تزوّجها أمير من الوندال اسمه هونريك، ابن الملك جيسريك. ولقد سارت الأمور بينهما في البداية بصورة حسنة، ورُزق الزوجان بأولاد. بيد أن هونريك أصبح بعد حين فظاً وحشي الطباع، وطغى عليه عندئذ «جنون العظمة» (بارانويا). وكان رجلاً قاسياً ظالماً حتى في معاملة أولاده، إلى درجة أنه بمجرد ارتيابه بأن زوجته تحاول دسّ السم له أمر بجدع أنفها، فذهب ذلك بجمالها الطبيعي، وأعادها إلى أبيها في بلاد الغال، حيث أصبحت هذه البائسة تمثل عرضاً دائماً للأذى الشنيع. وكان ذلك المشهد الدال على القسوة الذي يؤثّر على الغرباء قد شكل حافزاً قوياً يدفع والدها بقوة إلى العمل على الانتقام. وإذاً فقد كان لدى جيسريك سبب للضيق مما يمكن لثيودوريك أن يقوم به، ولذلك فإن ضربة رادعة من يد أتيلا قد تكون عندئذ مفيدة جداً.

وأيّ مستقبل ينتظر أتيلا إن بلغ هدفه! فإذا تمت له هزيمة القوط الغربيين فإنه سيحكم المنطقة من بحر قزوين حتى المحيط الأطلسي، وسيكون ذلك اجتياحاً واسعاً تعادل مساحته جزئي الإمبراطورية الرومانية معاً، مع خط إمداد يخترق بلاد الغال بين باجودا المتمردة في الشمال والفيالق الرومانية في الجنوب. ولا ريب في أنه سيكون من الممكن عندئذ إما كسر الباجودا وإمّا تجاهلهم ببساطة والمضي إلى بلاد الغال ذاتها. ولسوف يكون لأتيلا أن يحكم شمال

أوروبا بأكمله، فتنشأ عندئذ إمبراطورية دينامية جديدة توازن، ثم تهيمن، وفي النهاية تقضي على الإمبراطورية المتفسخة الفاسدة والمنقسمة على نفسها في الجنوب وتضمها إليها.. وما الذي يمنع؟!

تعدّ الإستراتيجية البعيدة المدى تلك أمراً من قبيل التخمين، لكن ثمة بعض الأدلة على أن أتيلا قد شرع في المضيّ على هذا الطريق؛ فقد بعث بمذكرة إلى فالنتينيان الثالث في روما يعرب له فيها عن نيّته الهجوم على القوط الغربيين، ويُطمئنه إلى أنه لا يحمل أيّ عداء للإمبراطورية الغربية. وكان هذا في ربيع عام 450، في الوقت الذي أخذ يتهيّأ فيه للمسيرة الطويلة نحو الغرب. ولربما أمكن أن تمضي الحملة وفق الخطة على أحسن ما يرام لولا أن حادثتين تدخّلتا فبدّلتا كل شيء، وهذا ما أغرى أتيلا للمضي بعيداً وتجاوز قدراته، وبذلك كفل لنفسه السقوط.

كان الإمبراطور فالنتينيان الثالث ما يزال في مطالع الثلاثين من عمره، وله شقيقة تدعى هونوريا، وكانت أمهما غالا بلاسيديا المرعبة ابنة ثيودوسيوس العظيم التي ترملت مرّتين. وتعد سيرة هذه المرأة مأساة مؤثرة؛ فقد حملها من روما زعيم عشيرة قوطية هو أتولف، وأعيدت إلى الرومان بعد اغتياله، ثم تزوجها ندّ أتولف على الطرف الروماني يدعى قسطنطيوس[1]، وما تلا ذلك الآن كان ميلودراما: قصة ابنتها الأميرة هونوريا، وكبرياؤها الجريح، وأثرها في تغيير مجرى التاريخ.

كانت الأسرة الإمبراطورية تقيم الآن في العاصمة المؤقّتة رافينا طوال الخمس والعشرين سنة الأخيرة منذ اندحار الطامع بالعرش جون (أو يوهانس). وقد عرف عن هونوريا أنها نشأت في وضع يجعلها ذات سلطة وامتياز، ومنحت لقباً فخرياً هو «أوغستا ذات الهيبة والجلال» منذ أن كانت يافعة. وكان لها مقر خاص بها في القصر هو مؤسسة يديرها وكيل يدعى يوجينيوس. كانت هونوريا شأنها شأن أمها تتّصف بالطموح، لكن بخلاف أمها كان لديها مخططات خاصة لأن تتولى الحكم بنفسها، كما أنها تمتلك الحصافة لتقوم بذلك على العكس من أخيها الأخرق والضعيف الإمبراطور فالنتينيان، وكل ما كانت تفتقر إليه هو الفرصة التي كان يمكن أن تحظى بها لو أن شقيقها لم ينجب من يرثه، ممّا يشكل تهديداً بأن ينتهي أمرها إلى صرف النظر عنها. لكن أحلام السلطة ظلّت تراودها، وللوصول إليها كانت في حاجة إلى رفيق. كان يوجينيوس بين يديها ليكون أولاً مشاركاً في المؤامرة، ثم أكثر من ذلك فيما بعد، وتلك قصة سيستحلبها غيبون:

---

(1) وهو غير قسطنطيوس كاتب أتيلا.

«ما إن بلغت هونوريا الجميلة السادسة عشرة من عمرها حتى كانت تشعر بالكره الشديد لتلك العظمة البغيضة التي تمنعها إلى الأبد من أطايب الحب المشرف، ووسط الأبهة الوهمية والعظمة الفارغة أطلقت هونوريا تنهّداتها، واستسلمت لنوازع الغريزة، وألقت بنفسها بين ذراعي حاجبها يوجينيوس».

بيد أن ما يفسد القصة قليلاً أن نعلم أنها لم تكن مراهقة ذات أهواء تعصف بها، بل كانت امرأة تجاوزت الثلاثين عاماً حين وقعت هذه الحادثة. يقول غيبون إنها أصبحت حامل، ونُقلت إلى منفى بعيد في القسطنطينية. وليس هناك من يذكر أمر الحمل والنفي إلاّ غيبون، وتفتقر روايته إلى سند، وعلى أي حال فقد تمت الفضيحة، وجرى إعدام بوجينيوس، وأعلنت خطبة هونوريا إلى قنصل غني ومأمون ليس لديه أي نزوع للتآمر.

ولما وجدت هونوريا نفسها تحت وطأة نوبات الغضب بسبب غياب عشيقها، وفشل مشاريعها، واحتمال زواجها من رجل مملّ كئيب، أخذت تعدّ لانتقام فظيع وحياة جديدة من السلطة لطالما كانت تتوق إليها. فقد علمت من الرسالة التي وردت مؤخراً إلى أخيها أنّ أتيلا أعظمَ ملك خارج الإمبراطورية يخطّط لمدّ حكمه إلى أرض القوط الغربيين، وربما انتهى ليكون حاكماً لبلاد الغال كلها.

وهاكم مخططها للانتقام من أخيها: فوفق هذا المخطط تصبح زوجة لأتيلا، وتغدو بعدئذ إمبراطورة بلاد الغال، إن لم تكن إمبراطورة روما.

تتصف رواية غيبون لمخططها بأنها خيالية محضة تليق بهوليوود، مع لمسة كلاسيكية، ومقدار لا بأس به من الخوف المرضي من الأجانب.

لقد حملها نفاد صبرها من التبتل الطويل الممضّ الذي لا يُرجى له نهاية لتتدبّر حلاً غريباً ويائساً... وفي سعيها للحب، أو بالأحرى إلى الانتقام، ضحّت ابنة بلاسيديا بكلّ واجب وأفكار مسبقة وتعصّب، وعرضت أن تبذل نفسها بين ذراعي همجي لا معرفة لها بلغته، وشكله الذي يكاد لا ينتمي إلى البشر، وهي تنفر من دينه وعاداته وأساليبه في الحياة.

وهناك ما يكفي في مصادر أخرى ليحملنا على الثقة بصدق الخطوط الرئيسة في القصة، فيذكر أن بين بطانتها خصياً مخلصاً لها يدعى هياسنثوس، جعلته مؤتَمناً على سرّها الدفين. وقد أعطت الخصيّ خاتماً ليسلمه للحاكم الهوني، وليكون دليلاً على ثقتها، وأرسلت هياسنثوس هذا إلى

أتيلا مع مناشدتها إياه تقديم العون. ومقابل مبلغ معين من المال كان على أتيلا أن يحضر وينقذها من زواج تمقته. وقد كان خاتمها يحمل معنى أنها ستغدو زوجة له مقابل إنقاذها.

كان لفالنتينيان عيونه وأرصاده، إلاّ أن هياسنثوس كان قد مضى في مهمته قبل أن يعلم الإمبراطور بما يُعّدّ بوقت طويل. ولما كانت أخبار هذه الفضيحة قد سرت في صفوف الطبقات العليا في المجتمع فقد كان لا بد من أن تبلغ أذني ثيودوسيوس في القسطنطينية. لم يشأ ثيودوسيوس الذي كان قد انتهى تواً من استرضاء أتيلا بعد انهيار مؤامرة الاغتيال أن يحصل ما يكدّر أتيلا، أو يُلحق الأذى بمعاهدة السلام المعقودة حديثاً، فنصح فالنتينيان أن يسلم هونوريا فوراً، حيث يمكن إرسالها عبر الدانوب، ويكون بذلك حسن الختام معها، لولا أن فالنتينيان لم يكن يرضى بهذا التحدّي لسلطته. ولا يذكر التاريخ كيف أنجز هياسنثوس مهمته؛ إذ لم يكن في مقرّ قيادة أتيلا مؤرّخ رسميّ ليدوِّنها. لكن لديّ شعور بأن أونيجيسيوس كان يميل في البداية إلى تفادي إزعاج مولاه بأمر هذا الموفد وعرضه الأخرق، لكن باتت الآن أفكار أخرى تراوده، ولعل كلاهما قد سمع بأمر هياسنثوس في نهاية المطاف؛ لأن أتيلا كان قد وضع الفكرة جانباً إلى أن حان الوقت الملائم له فأبرزها. وقد استغرق الأمر هذا كله أسابيع قليلة، ولما عاد هياسنثوس إلى مولاته ليخبرها بنجاح مهمته قام فالنتينيان باعتقاله وتعذيبه كي يصل منه إلى تفاصيل الواقعة، ومن ثم عمد إلى قطع رأسه.

ولا بد أنه جنح في لحظة إلى التخلص من أخته مثيرة المشكلات، لولا أن حالت دون ذلك أمها القوية غالا بلاسيديا، التي فرضت رعايتها لابنتها الضّالة فقام فالنتينيان بتسليمها للأم، وفي العام ذاته ماتت بلاسيديا، وفي هذه اللحظة تلاشت هونوريا من التاريخ لتدخل في زواجها الممضّ الكئيب، حيث تولّى زوجها إبعادها عن مزيد من الضرر.

لكن عقابيل أفعال هونوريا استمرت، وزاد منها الحدث الثاني غير المتوقع سنة 450؛ ذلك أنه بعدما عرضت هونوريا مشروعها الفذّ في الربيع سقط في 28 يوليو/ تموز إمبراطور المشرق ثيودوسيوس عن ظهر حصانه وكسر ظهره، ولقد مات بعد يومين من ذلك الحادث عن خمسين عاماً، مخلفاً ابنتين ولا ذكرَ يرث من بعده العرش ومعضلة. وإذا كان قد اعتلى العرش وهو طفل قبل ثلاثة وأربعين سنة فإنه لم يكن بالإمبراطور القوي، بل كانت القوة التي تقف وراء العرش شقيقته الكبرى بولكيريا التي لن تتخلّى عن العرش لمجرد أنّ شقيقها قد مات. وما هي إلاّ ثلاثة أسابيع حتى أصبحت زوجة لأحد أعضاء مجلس الشيوخ من تراقيا، ويدعى ماركيان، فكشف هذا

الأمر أمام البلاط الذي استولت عليه المفاجأة، لكن المنصاع أن ثيودوسيوس قد أوصى وهو على فراش الموت بأن يتولى ماركيان العرش. وكان هذا رجلاً لا يسترضي عدواً على حساب المبادئ الأخلاقية، وشأنه في ذلك شأن بولكيريا. وكانت هذه لحظة مناسبة ليبدي بعض الحزم، ويضع حداً لتدفّق الذهب شمالاً إلى أتيلا الذي كان في خضمّ التخطيط لتحرّكه غرباً، ولم يكن لديه الوقت ولا النزوع لتغيير وجهته، ولذلك كانت أولى أعمال ماركيان وقف دفع الأموال التي كان ثيودوسيوس قد تعهد بتأديتها لأتيلا.

كان أتيلا قد أخذ بحشد جيش لم يعرف الرومان مثله من قبل، وعبّأ في عداده كل قبائل إمبراطوريته، وأخذت القائمة تزداد ضخامة مع مرور الأعوام، حتى إن الإخباريين كانوا يدعمون هذه القوة بإضافة قبائل استدعوها من قلب الأسطورة، ويتحدّثون بيسر عن نصف مليون رجل. لكن الحق أن هذا الجيش ما كان في وسعه أن يكون نداً للقوة التي تتوافر لروما، لكن ربما بلغ تعداده بضعة عشرات الآلاف. كان من بين تلك القبائل الجيبيداي من تلال ترانسلفانيا [القلب التاريخي لرومانيا، م] بقيادة ملكهم أرداريك الذي حاز على شهرة واسعة - كما يقول يوردانس - لما عرف عنه من الولاء والحكمة؛ وثلاثة ألوية من القوط الشرقيين من موطنهم الجديد جنوب نهر الدانوب، الذين عادوا الآن تحت رعاية القسطنطينية، لكنهم كانوا يزوّدون الجانبين بالرجال، وهؤلاء بإمرة فالامير - الذي عرف بأنه كتوم زلق اللسان وخبيث ماكر - ونائبيه ثيودومير وفيديمير؛ والروجيين الذين ربما كان موطنهم بولونيا الشمالية، ثم سرعان ما استقروا في التلال شمال فيينا؛ والسكيريين الذين كان مشاتهم يشكّلون العمود الفقري لوحدات المشاة الهون منذ أيام روغا، وقد كان ملكهم السابق إديكا الذي يتردد اسمه في الكتب التي تتناول أتيلا، بعدما أثبت ولاءه في مهزلة الاغتيال؛ والأجاثيرس والهروليين من بحر آزوف قريباً من مواطن الهون؛ والآلان حملة الرماح، وقد جرى استيعاب بعضهم في الأيام الأولى من الغزو؛ ومن بلاد الراين ألوية الثورينجيين؛ وبقايا البورغونديين الذين ثبتوا هناك بينما هاجرت بقايا القبيلة غرباً؛ واللانغوبارديين ذوي اللحى الطويلة من مورافيا، وكان هؤلاء قد عاشوا في وقت مضى في منطقة نهر الإلب، ثم قدّر لهم أن يهاجروا بعد ذلك إلى إيطاليا، واستقروا هناك باسم اللومبارديين، وخلعوا اسمهم على موطنهم حول ميلانو.

أصبح أتيلا الآن في مأزق؛ فقد كانت لديه حملة جاهزة للانطلاق قوامها جيش يبلغ تعداده عشرات آلاف الرجال الذين يجب أن تتوافر لهم المؤن، في وقت انقطعت فيه الأموال من

القسطنطينية، وثمة احتمال حقيقي بأنّ خططه بعيدة المدى: القوط الغربيون أولاً، ثم بلاد الغال، فالإمبراطورية ذاتها.. قد يبتلعها جيش ماركيان، وليس هناك وقت لإضاعته، ولكن أين يتجه أولاً؟

أيكون ماركيان نمراً من ورق يتداعى عند أول لمسة قوية؟ إن الأمر بعيد عن ذلك، وقد جاء الردّ على طلب المعونة الذي قدّمته أول سفارة للهون مبتسراً، حيث تقول إحدى الروايات إن ماركيان ردّ على الطلب بأنّ الذهب مكرّس لأصدقائه والحديد لأعدائه!، وأقصى ما يمكن لأتيلا أن يأمل به هو «هدايا» إن لزم جانب السلم، أمّا إذا هدّد بالحرب فله أن يثق بأنه سيواجه قوة تفوق ما لديه. وعاد بصيص من الأمل يلوح حينما أوفد ماركيان في أواخر عام 450 سفيره المختار أبولونيوس، لكن حين علم أتيلا أنه لا يحمل معه الإتاوة المعيّنة ثارت ثائرته، ورفض لقاءه، وأرسل يقول له: إن في وسعه أن يترك ما لديه من الهدايا ويغادر، وإلاّ فإنه يعرّض نفسه للقتل. كان أبولونيوس هذا قائداً بارزاً وأحد أبرز الرجال الذين يمكن الاتكال عليهم في القيام بالمهام الصعبة، ولم يكن بالمرء الذي يمكن أن يستفز، فأجاب: ليس من الصواب أن يفرض أتيلا أمراً مثل هذا، ففي وُسعه السرقة والقتل بالتأكيد إن رغب في أن ينال هدايا الرومان من دون مفاوضات، أو إن شاء أن يتصرف مثل الدبلوماسي وينال الهدايا. وكان هذا عملاً جريئاً ومدروساً جيداً. ولقد استمر أتيلا على رفضه التفاوض، لكنه ترك أبولونيوس يمضي ومعه الهدايا التي حملها لأداء هذه المهمة.

كانت هناك فرصة وحيدة يمكن لأتيلا أن يفوز فيها من دون أن يشتبك في معركة واحدة، وذلك هو احتمال بعيد؛ لكنّه يظلّ جديراً بالاستقصاء. كان في يده خاتم هونوريا وكلماتها كما نقلها هياسينثوس، وهكذا فإنّ العمل الجنونيّ الذي أتت به امرأة استبدّ بها الحزن والشعور بالإحباط قد ألهمه القيام برد فعل جنوني مساوٍ له. لقد تضرعت أخت الإمبراطور ذاتها أن يأتي من ينقذها، ولا ريب في أنها عرضت نفسها لتكون زوجة له؛ ومن المؤكد أن الزوجة تأتي ببائنتها[1]، وفي هذه الحالة لم يكن للبائنة حدود إلاّ أحلام أتيلا. بيد أن الأمر كان ينطوي على مشكلتين: الأولى أنه كان لا بد من تحريرها، وإذا تم هذا كان عليها أن تبلغ ما كانت تتوق إليه دائماً وهو أن تحكم إلى جانب فالنتينيان. وقد افترض لنفسه الحق أن يحقق لها ذلك كله من حيث كونه زوجها.

يتابع بريسكوس القصة من هنا ويقول: «لقد أرسل الموفدين للمطالبة بعدم إلحاق أي أذى بهونوريا على الإطلاق، وأنه إن لم تتلقَّ صولجان الملكية فسيمضي للثأر لها.... فردّ الرومان أنه لا يمكن لهونوريا أن تكون زوجة له نظراً إلى أن رجلاً آخر قد عقد عليها، وليس لها حق

(1) البائنة: هي ما يخصص للبنت عند زواجها.

بصولجان؛ لأن حكم الدولة الرومانية يقتصر على الذكور دون الإناث».

كان ذلك جنوناً مطبقاً، ولا بد من أنّ أتيلا بدا للموظفين لدى فالنتينيان بعيداً عن الواقع بُعْدَ دكتاتور أوغندة المهرّج عيدي أمين عن مقر رئاسة الوزراء البريطانية في السبعينيات من القرن الماضي، يوم أعلن نفسه فاتح الإمبراطورية البريطانية! فلما ورد الردّ المؤكد كان أتيلا قد حزم أمره واتخذ قراره بأن يتّجه بقواته غرباً بأسرع ما يمكن لعرقلة ردّ ماركيان في القسطنطينية. واتّجه يومئذ إلى غضّ الطرف عن القوط الغربيين، والاتجاه إلى بلاد الغال مباشرة. وإذا انتصر هناك فسوف تخضع لسيطرته أوروبا الشمالية كلها، بل إن من شأن إمبراطورية متّحدة أن تذوي.

أولاً هناك موضوع بلوغ تلك المنطقة، وهو مما يتطلّب شن حملة حتى أتيلا لم يسبق له القيام بها من قبل. وقد كان يومئذ على وشك قطع جبال وأنهار وغابات، ومع أن هذا ما فعله حين تقدم في منطقة البلقان، إنما ليس حين يتعامل في الوقت ذاته مع مسافة كبيرة جداً، والحق أنه لم يواجه قطع مثل هذه المسافة الكبيرة على الإطلاق، والواقع أن السرعة كانت جوهر المشكلة، فما كان يحتاج إليه إنما يعادل حرباً صاعقة؛ اندفاع سريع نحو الموزيل، ثم انطلاقة في المنطقة تذهب بعقل الطرف الآخر، وتتفوّق على الخصم بالمناورة، وتقيم رأس جسر على المحيط الأطلسي. ومن أجل هذا فهو في حاجة إلى أن يلحق به الفرسان رماة السهام والمشاة، ويطهّروا المواقع المقاومة من ورائه. وكان قد اختار الحلّ الأفضل بالتخلي عن آلات القذف (المنجنيق) وأبراج الحصار التي بوساطتها استولى على نايسوس، إذ إن وجودها يجعل الجيش يسير بمعدل خمسة عشر كيلو متراً في اليوم، وتحتاج إلى بذل الجهد والتصميم. ولسوف يكون عليه أن يقطع في غضون شهر واحد مسافةً يبلغ طولها عرض فرنسا كله؛ أي ما يزيد على سبعمئة كيلومتر.

لكن هذا لا يمكن القيام به، فقد أوقع نفسه في فخّ المفارقة، لأنه كان في حاجة إلى السرعة، وكانت هناك بلدات لابدّ من تحييدها، وكان الفرسان رماة السهام الذين يمتازون بسرعة التنقل يحتاجون إلى الأرض المفتوحة للوقوف في وجه المشاة والفرسان الرومان المثقلين بالدروع، لكن ليس ثمة فائدة من تجاوز بلدات حصينة مثل ترابر وميتز، تاركين كتائبهم من دون مساسٍ للردّ في الوقت الملائم لهم. وكان لا بد له من أن يكون لديه بعض آلات الحصار في نهايةِ المطاف، مما يعني الحاجة إلى العربات. وعلى أي حال فلابد من وجود بعض العربات لتوفير السهام للرماة، لكن الآلات الثقيلة تتطلّب عربات متينة، مما يعني مجموعات من الثيران والعلف ومرافقين لمواكبة العربات، وهؤلاء يحتاجون أيضاً إلى الإطعام. وقد كان من الممكن الجمع

بين الفرسان رماة السهام وحرب الحصار قريباً من الوطن، لكن ذلك لن يحصل إن كنت تتحرك باستمرار بعيداً عنه.

كانت تلك مجازفة مخيفة، وكان يودّ لو أمكنه تفادي النزاع الذي لا ريب في أنه سيكون قاسياً. وعاد إلى موضوع هونوريا من جديد. ويبدو في هذا الوقت - وجيشه ملتزم بخوض الحرب كما كان حال الجيش الألماني في العام 1914 - أنه أقنع نفسه بأنّ لديه فعلاً قضية رابحة. ولقد رجع موفداه إلى روما حاملين معهم مطالب أشدّ من ذي قبل؛ فقد كانت هونوريا زوجته بحكم حقه الشخصي، حيث كان الوفد يحمل الخاتم بوصفه برهاناً على ذلك الحق، وكذلك فمن حقّه كل ما تملكه؛ لأنها ورثته عن أبيها وحرمها منه طمع أخيها.

فما الذي كان ملكاً لها على وجه الدقة؟ وما هو ملك له الآن؟ يعرض بريسكوس مطلب أتيلا على النحو التالي: يجب أن «يتخلّى فالنتينيان له عن نصف إمبراطوريته».

وقد كان ذلك مطلباً خيالياً؛ إذ إنه يطالب بكل بلاد الغال. ومرة ثانية جاء الرفض القاطع، فردّ أتيلا بمطالبه النهائية التي لا تقبل المساومة. ولابد من أن أتيلا كان في طريقه غرباً من خلال الغابات الجرمانية إلى منطقة الراين. وجاء سفير أتيلا ليقول لفالنيتينيان: «إن أتيلا مولاي ومولاك يأمرك بأن تقوم بتنفيذ ما أقوله لك، وأن تعدّ قصرك من أجله».

وأخيراً، استوعبت روما الرسالة، وعرفت ما ستواجهه، فما عاد خداع النفس يجري بأن الهدف هم القوط الغربيون، ولا عاد يفيد الاعتماد على الصداقة القائمة بين أتيلا وإيتيوس، ولا يمكن كسب الوقت بالمراسلات الدبلوماسية التي تحمل معها التفاؤل.. وإذا لم يكن ممكناً إيقافه فإنه سيمضي حتى تسقط روما ذاتها.

III

موت وتقمّص

8

النذر على بطاح كتالونيا

عند استعادتنا للأحداث نجد أنه حين علم الناس أيَّ خطر ينتظر أوروبا كلها أدركوا أنه كان ثمة علامات ونذراً وإشارات تنبئ بالخطر الآتي: هزة أرضية في إسبانيا، وخسوف للقمر، وأضواء شمالية تلقي ضوءها الغريب بعيداً جداً في الجنوب مثل أشباح مسلحة برماح ملتهبة تقاتل لكي تبتعد عن مناطق الصقيع. وفي يونيو/ حزيران من عام 457 ظهر المذنّب واضحاً في كبد السماء، وهو مذنب هالي كما نسميه اليوم، برأسه المتألق وذنبه الطويل، وكلاهما مخيف مثل صاروخ ملتهب أرسله منجنيق رباني. وبدا أن الخطر كان يتراكم على مدى خمسين عاماً، حيث سيطر القوط الغربيون على الأكويتانيين، والآلان والوندال، وتبعثر السويفيون على امتداد بلاد الغال الشمالية، والبورغونديون في سافوي، وانتشر الفرنجة على طول ضفاف نهر الميوز، وضاعت شمال أفريقيا، وكانت بريطانيا معزولة، أما مقاطعة بريتاني فإنها عالم قائم بذاته، وكانت عصابات قطّاع الطرق الباغودا منفلتة بلا قيد أو وازع.

لقد واجه الهون في أثناء قيامهم بغزو الغرب مشكلة شبيهة بما واجهه الألمان في إعدادهم لغزو فرنسا عام 1914، وعام 1939 كذلك؛ فقد كانت فرنسا تتمتّع من جهة نهر الراين بدفاعات طبيعية ممتازة تتمثل بجبال فوزج، وتفسح المجال لبلوغ إيفل والآردين في الشمال. وكان الطريق الوحيد المتاح عملياً لاختراق المنطقة أعلى الموزل عبر لكسمبورغ حالياً، ومن ثم الوصول إلى سهول شمبانيا. لكن لم يكن من المجدي الاندفاع عبر الجبال إلى قلب فرنسا (أو بلاد الغال) إذا أمكن تهديد الجيش من الشمال من بلجيكا أو - كما في هذه الحالة - المنطقة التي يحتلها الفرنجة.

كانت لأتيلا مشكلة مع الفرنجة؛ فقد مات ملكهم، وأخذ ولداه يتنازعان على خلافته. فطلب الابن البكر المساعدة من أتيلا، أما الأصغر الذي كان عمره لا يزيد على خمسة عشر أو ستة عشر عاماً فقد طلب المعونة من الرومان، ووجدها عند إيتيوس. وكان بريسكوس قد صادف هذا الفتى في روما أواخر عام 450م، فذهب جماله بلبّه حين وقعت عيناه عليه: «لم يكن شعر لحيته قد ظهر بعد، وكان شعره الطويل بلونه الأشقر الشاحب ينسدل على كتفيه»، وقد اتخذه إيتيوس ابناً له، وهذه حيله شائعة تكفل ولاء متيناً، فعاد الفتى محمّلاً بالهدايا والوعود. وكان جلياً أنه قد حائز حقاً على العون الذي ينشده ليكفل الجلوس على العرش، وهكذا يقع في أحضان روما.

ولم يكن ليكفي وجود تابع لروما في الجناح الأيمن أكثر مما كان يمكن لألمانيا في عام

1914 أن تدع بلجيكا الحيادية تسقط في معسكر الحلفاء، وكان على ألمانيا أن «تستولي على بلجيكا المسكينة الصغيرة» لكي تنجح في غزو فرنسا. أما لغزو بلاد الغال فكان على أتيلا أن يحيّد الفرنجة المساكين البسطاء.

في أوائل عام 451م تقدّمت القوة الأساسية من جيش أتيلا عبر الدانوب على طول الحدود، وانتشرت على جانبي النهر، وعبرت الروافد النهرية عند المخاضات أو على جسور من القوارب من قرم الخشب التي قطعت من أشجار الغابات في الجوار. ومال أحد أجنحة الجيش جنوباً ثم صعد ناحية الراين من خلال بازل، وستراسبورغ، وسبيار، وفورمز، وفرانكفورت، ومابنز، وعندئذ يتم الالتقاء بالقوة الأساسية التي تتابع السير بمحاذاة الحدود القديمة من الدانوب إلى الراين. ويرجّح أن يكون الهون قد عبروا النهر قرب كوبلنز، وقطعوا الأشجار على امتداد الضفة ليصنعوا أطوافاً وجسوراً عائمة لحمل عرباتهم.

ومن هناك كان على أتيلا أن يرسل في مارس/ آذار من عام 451 م قوة صغيرة لتحقق الفوز على الفرنجة الذين لم يقاتلوا حتى الآن مع الرومان. والشاهد على ذلك أن الابن الأكبر تشلدريك الذي اتصل بأتيلا برز لاحقاً بين الفرنجة بوصفه ملكاً ذا شأن. ومن المؤكد أن الفرنجة كانوا قد أسرعوا إلى تشكيل وحدة عسكرية في جيش أتيلا كما فعلوا مع روما، وينتظرون أن يوجّهوا ضربة إلى مؤخرة قوات أتيلا؛ وما كان هذا ليتمّ إن كانوا حلفاء كاملين لروما.

تتّصف الروايات التي تعرض لهذه الحملة بأنها مسيحية، نظراً إلى أنّ المسيحية حافظت على شعلة الحضارة مضيئة. وهذه الروايات كلها متأخرة، ومعظمها تواريخ قدسية لأساقفة قضوا شهداء، وكثير منها تلفيق ومن نسج الخيال، لكن فيها شيئاً من الحقيقة التاريخية أيضاً. لكن من الممكن مع ذلك وضع خريطة ترصد تقدّم مسيرة أتيلا. ولعلّ هذا الجيش الحاشد قد قام بعبور ثانوي آخر قرب ستراسبورغ، وواجه بعض المعارضة من البورغونديين، لكن الهجوم الرئيس وقع قرب ملتقى نهري الراين والموزل في كوبلنز. وفي ذلك الربيع اندفع الهون وحلفاؤهم من كل لون وطيف على جانبي نهر الموزل، مشكلين صفين على الطرق المتعرجة، ثم يتصل بعضها ببعض عند جسر ترابر الحجري ذي الأقواس التسعة.

والحق أنه لم يكن في مقدور الجنود أن يمضوا إلى أبعد من تلك النقطة؛ فقد كانت ترابر عاصمة روما شمال الألب حتى انتقلت الحكومة الإقليمية إلى آرل قبل خمسين عام، ولو أنها ظلت حصناً طوال ثلاثة قرون، وكانت أسوارها التي ترتفع سبعة أمتار تصل بين أربعة أبواب

ضخمة، مازال أحدها قائماً هناك، وقد أنقذه راهب يوناني اعتكف فيه في القرن الحادي عشر، وحماه وأحاطه بهالة من القداسة، ولما مرّ به الهون كان الباب الشمالي يشعّ بلون أصفر ناعم، إلاّ أنه اكتسب على مدى القرون لونه الأصفر المسودّ الذي يكسو كل الحجر الرملي بتأثير الزمان، فأصبح يدعى (Porta Nigra)؛ أي الباب الأسود. ولا شيء في بلاد الغال آنذاك أو اليوم يعبّر عن قوة روما أكثر من مخفر الحراسة هذا الحافل بذوي القامات الفارعة والعضلات الضخمة الشبيهين [بالممثل، م] شفارتزنيغر. يبلغ ارتفاع هذا المحرس ثلاثين متراً، وطوله ستة وثلاثين متراً، وعرضه اثنين وعشرين متراً. وقد بلغ وزن كل كتلة من حجارته ستة أطنان، وبعضها منقوش عليه أسماء بُناتها الفخورين وتواريخ البناء. كانت تلك الأحجار تُقطع بالبرونز، وتسقى بالماء من نهر الموزل، ولم تكن تلتحم معاً بالإسمنت، بل بكلابات حديدية، فتبنى ثلاث طبقات ومئة وأربع وأربعون نافذة مقوّسة وبرجان منخفضان، وهناك قوسان لكلّ منهما بوابة تحميها شعرية التحصين الحديدية، ومن خلال هذين القوسين يكون الدخول إلى المدينة القديمة وسكانها الثمانين ألفاً. وقد كانت هذه بمثابة روما مصغرة، أما قصرها المزيّن بالمرمر الذي شُيّد بناءً على أوامر قسطنطين في الأعوام 300 - 310 فقد استهلك مليوناً ونصف مليون قطعة مرمر وردت من جبال البيرينة وأفريقيا. وكان حمام المدينة أضخم حمام في الإمبراطورية، ولا يضارعه إلاّ الحمامات الديوكليتية وحمامات كاراكالا في روما ذاتها، ويضمّ غرفة للتدريب الرياضي، وأجنحة للاستحمام بالماء الحار، والبارد، والفاتر، وبيت نار (قمين) يعمل بالفحم الحجري، وأقبية في طابقين. ويتّسع الملعب لعشرين ألف مشاهد يستطيعون رؤية مباريات المصارعة، والمجرمين الذين يصبحون طعاماً للأسود، ومسرحيات على منصة تُدار من النظارة[1].

وهكذا فقد كان حرياً بمدينة ترابر أن توقف زحف الهون، لكن هؤلاء تجاوزوها من دون أن يتوقّفوا للراحة. وليست لدينا فكرة عما جرى في هذه المسيرة. ويوحي لنا افتقارنا إلى رواية لمجريات الأحداث أن حاميتها قد انكفأت على نفسها حين أفرغت المدينة بعدما أصبحت آرل عاصمة بلاد الغال، وتركت البرابرة يتدفّقون حولها. فقد تابع الهون طريقهم تاركين حراساً في المؤخرة ليسدّوا الوادي أعلى النهر في حال استعاد جنود ترابر قوتهم.

كانت المعلومات الوحيدة المتوفرة لنا تتّصل بالبلدة التالية على خط مسيرتهم: ميتز. وتذهب إحدى الروايات إلى أن الهون مضوا يدكّون أسوار ميتز بالمنجنيق، ثم تقدموا إلى حصن يقع في

(1) وهذه جميعها خراب اليوم.

أعلى النهر، حيث وردت إليهم الأخبار قُبيل عيد الفصح بأن أسوار ميتز التي كان بعضها ضعيفاً قد انهارت الآن، وسرعان ما امتطوا خيولهم وقادوها طوال الليل ليعودوا إلى أسفل النهر، فوصلوا مباشرة إلى مكان الشرخ، وسقطت المدينة يوم 8 أبريل/ نيسان، وأخذوا أحد الرهبان رهينة لديهم، بينما ذبحوا الباقين، ومات كثيرون في بيوتهم المحترقة.

ومن هناك مضوا نزولاً على المنحدارت الكلسية الناعمة المؤدية إلى سفوح تلال الآردين، وإلى امتدادات كامبي المستوية، تلك البطاح الواسعة التي منحت اسمها لكمبانيا، ثم أصبحت شمبانيا. كانت تعرف المنطقة يومئذ باسم سهول أو حقول كتالونيا، نسبة إلى الاسم اللاتيني لقبيلة محلية ما زالت تدعى باسم بلدة شالون الحالية. وهناك - على ما يبدو - تحويلة صغيرة شمال شالون تؤدّي إلى ريمز عاصمة بلاد الغال، ونقطة التقاء كلّ الطرق الرئيسة. كادت البلدة القديمة أن تكون خالية مع قوس النصر فيها الذي شيّده الإمبراطور أوغسطس، وساحتها؛ إذ إن أهلها انتقلوا إلى الغابات، لكن ظلّ فيها القليل منهم يكافحون في سبيل عيشهم، ومعهم كبير أساقفتها وبعض القساوسة. وتقول الأسطورة إن الأسقف نيكاسيوس كان يقرأ المزمور 119 حين دخل عليه الهون. ولعله أمل أن يوفر له أطول المزامير هذا بعض الأمن، فقد كان يتألف من 176 مزموراً. لكن ضاع أمله! إذ ما إن بلغ المزمور 25 الذي يقول: «لَصِقَتْ بالتراب نفسي فأَحْيني حَسب كلمتك»[1] حتى أطاح سيف هوني برأسه وقد طوِّب في ما بعد باسم القديس نيكائيسة.

كان موقع الضربة الرئيسة مع ذلك في الغرب، ناحية أورليان، حيث ألدّ أعداء أتيلا القدامى الآلان يستعدّون للهجوم، وكان الهون وعرباتهم يتحرّكون ببطء دون سرعة الحرب الصاعقة، ولا يقطعون أكثر من عشرين كيلومتراً في اليوم عبرَ ريف أفرغه الخوف، فكان أولئك الذين يملكون يدفنون مقتنياتهم في الأرض، وارتعدت فرائص الأغنياء يومئذ وهم في قصورهم المنيفة، أمّا الفقراء ففروا إلى الغابات والجبال.

ولقد أخذ هؤلاء بالفرار ملتجئين إلى بلدة صغيرة في الشمال، بعيداً عن خط سير الهون. ولم يكن الباريسيون يرغبون في أن يقعوا أسرى في جزيرتهم النهرية. ولا ريب في أنّ قديسة قد أيقظت فيهم التعقل، إذ إنّ جنفييف شأنها شأن عذراء أخرى من القديسات ظهرت في وقت لاحق كانت تقوم منذ نعومة أظفارها برعاية الغنم قبل أن ترتدي الحجاب، وتدخل في سلك الرهبنة، وتشتهر بحياة التقشف وشظف العيش والرؤى التي تزيّن الإقبال على الموت، والواحدة تؤدّي

(1) سفر المزامير؛ 119: 25، (المترجم).

إلى الأخرى. كانت جنفييف قادرة على الإتيان بعجائب العلاجات والتنبؤ بالمستقبل، وهاتان الموهبتان قد أفادتا عندما قام الهون بغزوهم، وقد رأت أنّ هذا من مشيئة الله الذي لا يمكن تهدئة غضبة إلاّ بالصلوات والتكفير عن السيئات. فتوجّهت إلى أهل بلدتها وناشدتهم ألاّ يهجروا بيوتهم، بل عليهم الاعتماد على الله للخلاص من مصابهم. لكنّ القوم أعرضوا عنها، ونددوا بها، وتابعوا فرارهم من البلد، لولا أن اعترضتهم نساؤهم مندّدات بجبنهم، عندئذ توقف ذلك النزوح. ولنمعن النظر الآن: فالهون لم يقتربوا من باريس على أي حال، ولم تكن لهم حاجة بها، لأنها لم تكن على طريقهم. لكن باريس تذكر تلك الفتاة الريفية البسيطة التي قلبت الذعر الذي كان يمكن أن يحوّل المدينة التي أصبحت لاحقاً عاصمة فرنسا إلى بلدة أشباح، وقد أصبحت جنفييف فيما بعد القديسة شفيعة باريس.

لكن السؤال الآن: أين الجيش الإمبراطوري؟ لأنه حين قام الهون بغزوهم لم يكن أحد يدري وجهتهم؛ فلعل إيطاليا كانت وجهتهم. وكان فالنتينيان قد أمر بأن يظلّ معظم الجيش ملازماً قواعده وثكناته. وأُرسل إيتيوس على سبيل الاحتياط مع قوة صغيرة إلى آرل، عند مصب نهر الرون، ولا ريب في أنه أخذ ينتظر على أحرّ من الجمر ورود أخبار التطوّرات.

كان الهون في غضون ذلك يتجهون ناحية الجنوب الغربي بهدف الانتقال إلى سهول شمبانيا الفسيحة عبر اللوار، فجنوباً نحو عاصمة القوط الغربيين تولوز. وكان من شأن هذا الوضع أن يبعدهم عن كتلة الجبال الوسطى، فإذا تحرّروا من غابات اللوار وأصبحوا في الأرض الفسيحة المكشوفة تركوا للفرسان العمل والإفادة من الوضع كل الفائدة، وعلى الطريق كانت هناك مدينتان رئيستان: تروا وأورليان.

تُعد أورليان المفتاح الأساسي للمنطقة، كما كان حالها طوال قرون، وكان اسمها الأصلي أو بالأحرى النسخة اللاتينية لاسمها الكلتي الأصلي غينابوم، نظراً إلى أنها كانت تستقرّ على «غينو»؛ أي ركبة نهر اللوار، حيث ينعطف النهر في أقصى شماله. وكان اللوار يتحول في الشتاء إلى تيار جارف، لكنه يصبح في الصيف «طريقاً نهرياً»، بل أفضل طريق للسفر عبر غابات السنديان الكثيفة إما إلى الساحل وإمّا إلى المرتفعات الداخلية، ومن ثم عبر نهر الرون إلى البحر الأبيض المتوسط. لكن هذه المنطقة كانت نقطة التقاء الطرق أيضاً، وأحد الطرق هذه يؤدّي إلى الجنوب عبر جسر حجري. وقصارى القول أن المدينة كانت البوابة التي تفضي إلى الشمال الغربي، وكان يوليوس قيصر قد أحرقها، ثم أعاد عمارتها ماركوس أوريليوس، وخلع عليها اسمه، فصارت

تعرف باسم أوريليانوم، ثم حرّف الاسم فأصبح أورليان. واشتهرت في القرن الخامس بالثراء والاتّساع والرقيّ، وتفوّقت على باريس الصغيرة، ولم يكن يضيرها وجود الغابات المحيطة بها التي تسكنها عشيرة من الآلان.

ولسوف يكون الهون في حاجة إلى ثلاثة أسابيع لقطع ثلاثمئة وثلاثين كيلومتراً من ميتز إلى أورليان، إذا كان الطريق خالياً. وبذلك يصلون إليها في أوائل مايو/ أيار، فأخذ المواطنون هناك يغلقون عليهم أسوارهم القوية، ويعدّون أنفسهم للحصار عند وقوعه. وفي غضون ذلك سارع القائد المسيحي أيانوس - الذي تم تطويبه فيما بعد، نظير خدماته الكنسية، باسم القديس إينان (أو أغنان) - إلى الاتصال بإيتيوس لتقويم الوضع وتقدير ما يلزم من المساعدة وموعد تقديمها. كان إيتيوس يومئذ في آرل عند مصبّ الرون، وهي على مسافة بعيدة عن أنيانوس، سواء سافر براً أم عن طريق النهر، أو ربما بالجمع بين الوسيلتين، بركوب أعلى النهر في تيار الربيع الذي يعرفه نهر اللوار على امتداد ثلاثمئة كيلومتر حيث يستمر أسبوعين، وعلى خط مجمّع الأمطار في سان ايتيان حتى الرون حيث يستمرّ يوماً واحداً، ثم السير أسفل النهر مئتي كيلومتر لمدة خمسة أيام أخرى. كان الأمر يستغرق المسافة ذاتها على الأقل ليتحرك إيتيوس شمالاً؛ ربما خمسة أسابيع على الجملة، وهذه رحلة يمكن الفوز فيها أو الخسارة، خاصة وأن الهون لم يكونوا الخطر الوحيد أمامهم، فقد تذكر الآلان فجأة أن أقاربهم كانوا أتباعاً للهون، واعتبروا أنفسهم جزءاً من الجيش الذي يقترب. وقد أرسل زعيمهم سنجيبانوس رسالة إلى أتيلا يعرض فيها المساعدة في الاستيلاء على أورليان لقاء معاملة عادلة.

وقد أدى الطريق الذي سلكه أتيلا عبر نهري الأوب والسين إلى تروا وما حولها؛ لأن جيشه كان ضخماً ويضم عربات ستَستخدم كل طريق ممكن. وكان من شأن أتيلا أن يلحظ المشهد شمال تروا التي هي اليوم ناحية أوب عند بطاح شمبانيا الكلسية، حيث يميل السين والأوب بعضها نحو بعض عبر سهول كتالونيا. كانت تروا بقعة جميلة، بيوتها من الخشب والقش، وفيها دارة أو دارتين مبنيتين بالحجارة، لكنها لا تتمتّع بأسوار، وهذا ما يجعلها فريسة يسهل على الهون المتقدمين اقتناصها. وكانت هناك كنيسة عامرة يقوم عليها الأسقف لوبوس الذي اشتهر بأنه شارك في وفد إلى بريطانيا بعد الحكم الروماني قبل عشرين عاماً، وتنتظره شهرة أوسع نتيجة وصول أتيلا، مع أنه نال سمعة سيئة لمدة قصيرة.

كان مقدّراً لقوات أتيلا أن تدخل تروا، فما كان يمكن تجاهلها وهي مصدر جيد للإمداد،

ولا ريب في أنّ النهب كان قد بدأ، مما أطلق أسطورة تداخل فيها الواقع والخيال، إنما غالباً ما كان يتم تداولها على أنها تاريخ. فتقول السيرة الرسمية للوبوس إنه أنقذ مدينته وقومه بأن واجه أتيلا، وكان ذلك لقاء جرى فيه أحد الأصول المفترضة لعبارة شهيرة..، لسنا ندري كيف قدّم لوبوس نفسه، بافتراض أن الاجتماع قد وقع، فقد أهمل تدوين وقائعه، إنما يفترض بأنه تضمن قولاً مثل: «أنا لوبوس من رجال الله»، وعندئذ تقدم أتيلا بقول حصيف وبلغة لاتينية متماسكة: «Ego sum Attila, flagellum Dei» - «أنا أتيلا؛ سوط الرب».

وكان ذلك بالتأكيد استكمالاً مسيحياً فرضته ضرورة تفسير النجاح الذي صادفه أتيلا، لأنه لم يكن من المعقول أن يتغلب وثني على إمبراطورية الله، خلافاً لإرادة الرب. ولذلك لا بد من أنّ الرجل، سواء أكان وثنياً أم لا، يحظى بتأييد من الله، والتفسير الممكن الوحيد لذلك أن المملكة المسيحية لم ترقَ للتوقّعات الإلهية، وما ينزل بها إنما هو عقاب لها على ما اقترفته من سقطات. وتروي الحكاية أنّ ناسكاً وقع في أيدي الهون، وتنبأ بشيوع الخراب والدمار، قائلاً: «أنتم سوط الله المسلط، ولو شاء لكسر أداته التي يحقق بها انتقامه. ولسوف تهزمون لتعلموا أن ليس لسلطانكم جذر في هذا العالم». وقد استخدم ايزادور الإشبيلي، وهو من الموسوعيين في القرنين السادس والسابع، هذه العبارة في وصف الهون. وما هما إلا قرنان حتى غدا هذا القول عبارة سارية، ولسوف نستعيدها في الفصل الثاني عشر.

ولقد استخدم هذه الحجة عينها قائد وثني فيما بعد في التعرّض لديانة توحيد أخرى، وذلك حين اجتاح جنكيز خان العالم الإسلامي في عام 1220، وينقل عنه قوله لأهالي بخارى: «إني عقاب الله، فلو لم ترتكبوا الكبائر لما أنزل الله بكم مثلي عقاباً لكم». وفي الحالتين كان المؤرخ الذي نقل عن ذلك القائد كلماته يؤدّي واجباً، وذلك تذكير للمؤمنين بضرورة التقوى. وهكذا تجعل الكنيسة القادة الوثنيين يؤدّون رسالة ربانية رغماً عنهم.

لقد كان الأسقف - كما تذهب الرواية - متضايقاً؛ نظراً إلى أن أتيلا قد كان عقاباً من الله على ما يبدو، ومن المناسب استرضاؤه بدلاً من مقابلته بالتحدّي. فجاء رده: «أي إنسان فانٍ يمكنه أن يقف في وجهه سوط الرب؟». وهكذا وجد كلّ واحد منهما في الآخر خيراً ومنفعة. ولقد قبل أتيلا بأن يُبقي على تروا حيث لم تُفقد حتى دجاجة واحدة، شريطة أن يظلّ لوبوس ملازماً له إلى أن يشاء أتيلا أن يتركه يغادر. ولقد أثبت الأسقف أنه يمكن أن يكون أداة جاهزة تُلزم الرعية على السكون إن راودتهم فكرة المقاومة، أو إن احتاج أتيلا في وقت ما إلى ورقة يستخدمها في

المساومة. كانت تلك صفقة جرّدت لوبوس من البريق، ونالت من سمعته. فهل يا تُرى كان رهينة كما ادّعى بلا ريب؟ أم كان أقرب إلى المرشد، وهو مثال مبكر لما يعرف الآن بـ «تناذر الرهينة»، حين يصبح الضحية من أجل حماية نفسه متواطئاً في الجريمة؟

في غضون ذلك كان أنيانوس يبذل قصارى جهده في آرل لإقناع إيتيوس بالتحرك، فقد كان في وسع أورليان أن تصمد شهراً لا أكثر. وحدّد لذلك موعداً بحسب ما يرد في سيرته: «وهكذا ستتحقق النبوءات بقوة الروح، ومفادها أن الوحش الضاري في اليوم الثامن [قبل] كاليندس (أي الأول من) يوليو/ تموز سيقرّر تمزيق القطيع شرَّ تمزيق، وإني أتضرّع أن يأتي الشريف الروماني لنجدتنا في اليوم المعين»، فإن تأخر قدومه إلى ما بعد منتصف يونيو/ حزيران ضاع كل شيء وانتهى.. وقد قطع إيتيوس على نفسه عهداً، وعندئذ قفل أنيانوس عائداً إلى مدينته.

واجه إيتيوس الآن المهمة المقيتة المتمثلة بالمضي إلى الحرب ضد قوم عرفهم منذ طفولته، واستخدم جنودهم مرتزقة لديه، ولم يسعَ معهم إلا للسلام طوال خمسة عشر عاماً، ومن أجل قتالهم كان عليه مصانعة أعداء أتيلا القوط الغربيين الأقوى بين البرابرة المنتشرين على امتداد بلاد الغال، وأعداء روما التقليديين.

كان ثيودوريك قد عزم على خوض الحرب ضد أتيلا، وقد اعتاد طوال السنوات العشرين ونيف الأخيرة على معاداة إيتيوس أيضاً، ولم يكن يراوده أي أمل بالحصول على مساعدة. لذلك كان يعد العدة للدفاع عن أرضه وقومه وعاصمته تولوز. ولم يكن ليخطر له ببال أن يحارب أتيلا من خلال بلاد الغال المعادية. وكان إيتيوس يعرف هذا كله، وكان حَمْلُ ثيودوريك على الانضمام إلى الركب يقتضي اعتماد دبلوماسية بالغة الحصافة، وعلى ذلك نال دعماً من الإمبراطور فالنتينيان شخصياً.

ولقد صادف أن كان هناك رجل يستطيع النهوض بهذه المهمة، ويقيم في موقع قريب في كليرمون - فران. وكان هذا الشخص هو أفيتوس: النبيل، والعالم، والدبلوماسي، والإمبراطور فيما بعد، وصديق ثيودوريك. وقد عاش بعد تقاعده من حياة الوظيفة العامة إحدى عشرة سنة مستمتعاً بحياة أرستقراطي ثريّ، مشرفاً على آفيتاكوم وملكيتها الهائلة بما حفلت به من أشجار صنوبر وشلالات مياه وبحيرة لطيفة، ولم يقتصر على الاستمتاع بمتع الحواس والعقل، بل وبمشروع سياسي وثقافي حافل. إذ إنه تعلم بحكم التجربة الشخصية أن القوة العسكرية لا يمكن لها وحدها أن تحفظ الإمبراطورية، ورأى البرابرة الجوّالين يستقرون ويتغيّرون. وكانت فكرته:

لسوف يتنامى السلام بوساطة الثقافة وتعلّم طرائق روما. ولعله اعتقد، كما عبر عن ذلك (أو. إم. دالتون) في كتابه الذي ضمّ رسائل سيدونيوس بقوله: إن «التفاهم السلميّ مع القوم الأكثر تحضراً بين البرابرة ربما ينقذ إمبراطورية تعجز إيطاليا عن قيادتها». فإذا كان الأمر كذلك وكتاباته الهامة اللاحقة التي بلغتنا تشير إلى أنها كذلك فإنه ربما كان يحكم بقيام أرستقراطية تيوتونية تشذبها باطّراد تأثيرات لاتينية، ومن شأنها أن تحمل إلى الرومان خصائص قوم أقل منهم رقياً، كما تحمل لمواطنيهم قبولاً أوسع للثقافة الإيطالية. وقد كان ثيودوريك وقومه القوط الغربيون البرهان على أن مثل هذا الهدف يمكن أن يحظى بالنجاح.

بعد أن قاد ثيودوريك قومه نحو الاستقرار أخذ يطمح الآن أن يكون نداً في فنون الحضارة، إن لم يكن لروما ذاتها فعلى الأقل للولايات التابعة لها. وقد أرضى غروره أنه حظي بصداقة رجل ينال الإعجاب حتى في روما. ومن ضيعته الواقعة على ضفاف بحيرة آيدات جلب أفيتوس لزعماء القبائل أتباع ثيودوريك الجهلة الذين يرتدون الفرو، وجلب لعاصمته تولوز[1] التي تبتعد مئتين وخمسين كيلومتراً إلى الجنوب الغربي ثقافةً راقية. فأصبح الفتية القوط يدرسون الآن الإنيادة والقانون الروماني. بل إن النبيل عرض تقديم مشورته الشخصية في تعليم أصغر وأذكى ثيودوريك آخر. وكان أفيتوس الوحيد دون نبلاء روما جميعاً الذي ينال حسن التكريم من ثيودوريك، فقد كانا صديقينِ وندّينِ تقريباً.

أصبح مصير بلاد الغال، وربما الإمبراطورية كلها، يعتمد الآن على العلاقات الشخصية بين ثلاثة رجال: القائد إيتيوس؛ والنبيل المسالم أفيتوس؛ وثيودوريك الملك الهمجي القوطي المنشغل بنوايا روما، والحريص على العناية بثقافة روما. وما إن مضى يومان على سفر أنيانوس حتى كان إيتيوس عند أفيتوس يعرض عليه قضيته. وأحسب أن الرجلين كانا في المكتبة الحافلة بلفائف المخطوطات والمطلّة على أشجار السرو وحمامات المياه الساخنة والجبال التي تحيط بها. ولم تكن تلك بالقضية اليسيرة؛ لأن إيتيوس أراد من أفيتوس أن يستخدم صلاته السلمية لإقناع ثيودوريك بضرورة الحرب، حيث لم يكن أتيلا مثل ثيودوريك. كان الحديث عن التسوية والسلام والتربية والتعليم أمراً غير ذي جدوى، وقد أشارت قصيدة سيدونيوس إلى ما قيل، وخلاصتها التالي: «أي أفيتوس! ليس شرفاً جديداً أن تدفعني إلى رجائك، فإن شئت جعلت الأعداء مسالمين، وإن شئت الحرب فرضتها، فالقوط يلزمون حدودهم كرمى لك، ولسوف

(1) كانت تسمى يومذاك تولوسا.

يبرزون للهجوم إن شئت لهم ذلك، فاحملهم على القتال الآن».

مضى أفيتوس حاملاً إلى ثيودوريك طلباً عاجلاً من الإمبراطور فالنتينيان ذاته، صاغه يوردانس بعبارات مدوّية، ولنا أن نفترض أن النبيل الشريف ألقاه بنفسه:

«يا أشجع الأمم! لسوف تزداد فضائلكم إن لزمتم الحكمة ووحّدتم القوى لمقارعة عدو روما الطاغية الذي يسعى إلى استعباد العالم كله، ولا يحتاج إلى سبب لشن الحرب، بل يعتقد بأن كل ما يفعله صواب. إنه يأخذ كل ما يمكن أن تمتدّ إليه يده، ويفخر بالسّفه، ويحتقر كل قانون إنساني ورباني، ويظهر نفسه عدواً لكل سجية، والحق يقال إنه عدوّ الجميع الذي يستحق كل الكراهية. أرجوكم أن تتذكّروا ما لا تقدرون حقاً أن تنسوه؛ وهو أن الهون لا ينالون الفوز عن طريق القتال في الحروب، ومشاركة الجميع في ما ينتج عنها، إنما - وهذا أكثر مدعاة للقلق - يفوزون بالخيانة والغدر. ولندع أنفسنا جانباً، لكن أيمكن لكبريائكم أن يتحمّل إفلاتهم من العقاب جزاء أفعالهم؟ ولما كنتم أقوياء بسلاحكم، سألتكم أن تتبيّنوا الخطر المحدق بكم، وتنضموا إلينا.

و ردّ ثيودوريك ردَّ البطل موجهاً خطابه إلى أفيتوس أمام كل الزعماء:

أيها الرومان! لسوف تنالون مبتغاكم، لقد جعلتم أتيلا عدونا أيضاً، ولسوف نتبعه أينما يذهب، ومهما انتفخت أوداجه بما تحقّق له من انتصارات على أقوام أقوياء فإنّ القوط يعرفون كيف يقاتلون وينتصرون على هؤلاء الأجلاف، وإنني لا أتفادى الحرب، ولا أعدّها عبئاً، إلاّ إذا كانت بلا مبرر، ولا بأس على من تجلّله الكرامة ولا خوف عليه.

وهكذا أتت الدبلوماسية والكياسة بما لا يمكن لأيّ حرب أن تحققه؛ إنها قوة تستطيع أن تواجه أعظم جيوش البرابرة التي تهدّد الإمبراطورية. ولقد علّق سيدونيوس صهرُ أفيتوس فيما بعدُ وشدّد على تغلّب التفاوض على استخدام القوة: «ترى أتصدق الأقوام والشعوب هذا الرأي ذات يوم؟»، «لقد أنهت غزواتُ البرابرة حروفاً خطَّها روماني!».

لقيت العبارات البطولية التي قابلها ثيودوريك جائزة مناسبة، فقد «هتف النبلاء وهلّلوا، وتبعهم الناس بكل سرور مرددين التهليل»، ولم يعد القوم يتخذون مواقف الدفاع، بل أصبحوا في مواقع الهجوم لمنع أتيلا من التقدم، وكان ثيودوريك يقود «جحافل لا عدَّ لها ولا حصر»، وعلى جناحيه اثنان من أبنائه، ثوريسموند وثيودوريك، وترك الأربعة الآخرين لحماية حدود بلادهم. وحول هذه الحال يعلق يوردانس، وهو ذاته من القوط: «يا له من جمع موفق، ويا لها من رفقة عذبة

أن يجد العون والعزاء من الذين اختارهم لمشاركته مواجهة الأخطار!».

أما الآن - ونظراً إلى ضيق الوقت - فقد أرسل إيتيوس الرسل إلى كل مدينة كبيرة وكل عشيرة من البرابرة وجدت أرضاً جديدة وحياة جديدة في بلاد الغال، وكان الخطر الأعظم يتمثّل في كسب الهون بقيادة أتيلا لحلفاء جدد؛ وهم سوابيو بايو وكاوتانس، وكليرمون، وفرنجة رينيه، وسرامطة بواتييه وأوتون، وساكسون، واللتيسيون، والبورغونديون، وعشائر أخرى لا يعرف عنهم إلاّ القليل؛ بل كان بين هؤلاء الباغودا الهمج من بريتاني، وكان لكثير منهم نظرات في تطوّر عمليات أتيلا؛ لأن كثيراً من التجار جلبوا الأخبار، فللعشائر البدائية أصدقاء وأقارب يقاتلون في صفوف جنود أتيلا. كانت الأخبار تتسرب جيئة وذهاباً، فلا عجبَ إذاً إن كان إيتيوس قد سمع بعرض سانجيبانوس بأن ينحاز إلى أتيلا في حصار أورليان لاحقاً.

بعد اتصال جيوش الرومان والبرابرة في مكان ما ليس ثمة إشارة إليه، مضت هذه الجيوش تسابق الهون إلى أورليان، سباقاً فاز فيه إيتيوس بفارق ضئيل، وربما بوقت كافٍ يسمح بانضمام زعيم الآلان المتردّد إلى جيشه و«إقامة تحصينات ترابية حول المدينة».

يقول بعضهم إن الهون كانوا أسبق إلى إقامة تلك الأعمال، لكن ذلك مستبعد، بل أضحت قصة عظيمة وأدّت إلى استمرار حكاية أنيانوس المثيرة، وقد عاد الآن إلى المدينة بعد رحلته المشهودة إلى آرل.

حين أصبح الهون على أبواب المدينة راح أهلها يسجدون ويصلون، ولا عجب في ذلك؛ فالرواية مسيحية، كما بعث أنيانوس أحد خدمه المخلصين مرتين إلى الحواجز المتقدمة للتأكد من وصول دعم للمؤازرة. وفي المرتين يبعث أنيانوس برسول إلى إيتيوس حين يأتي موفده بحركة تعجب من كتفيه: «اذهب إلى ابني إيتيوس وأخبره أنّ قدومه سيكون قد تأخر إن لم يأتِ اليوم». وأنيانوس يومئذ في شكّ من نفسه وعقيدته. ثم إذ بعاصفة - حمداً وشكراً - ترجئ الهجوم ثلاثة أيام، ويصحو الجو بعدئذ. والآن حلت النهاية فعلاً، وأخذت المدينة تستعد للاستسلام، ويرسلون عندئذ رسالة يطلبون فيها من أتيلا تعيين شروط الاستسلام. شروط؟! ليست هناك شروط، ثم يعيد الموفدين على أعقابهم. وتفتح الأبواب، وإذ بالهون في الداخل، وعندها تصدر من الحصن صيحة: سحابة من الغبار لا يزيد حجمها على قبضة يد، واستعاد النجدة القادمة من أجل القحط الذي ورد ذكره في سفر إيليا - الفرسان الرومان رايات النسر تخفق، تتسابق للنجدة. قال الأسقف متعجباً والجموع تردّد من بعده: إنه عون من الرب»! فتمّ استرداد الجسر، وتطهير ضفتي النهر، وطرد الغزاة

من المدينة وتطهيرها شارعاً شارعاً، وعندئذ يطلق أتيلا إشارات بالتراجع. وكان ذلك اليوم ذاته الذي حدده أنيانوس وإيتيوس موعداً نهائياً[1]، ويذكره الناس باسم الرابع عشر من يونيو/ حزيران.

يصلح مثل هذا الأمر المتلاحقة تفاصيله أن يكون دعاية مسيحية جيدة، وبالتالي لا يحبّذه المؤرخون كثيراً. لكن لعله يحتوي على شيء من الحقيقة، نظراً إلى أن سيدونيوس يعرض الواقعة وقد كان معاصراً لتلك الحقبة، إذ إنه حين كان يكتب إلى بروسبير خلف أنيانوس قرابة عام 478 يشير إلى وعدٍ كان الأسقف قد حمله على الوفاء به بأن يدوّن «قصة الحصار كله، والهجوم على أورليان حين تعرّضت المدينة للهجوم، إنما لم ينلها الهدم إطلاقاً». أما أن يكون الهون قد دخلوا المدينة وتجاوزوا الأسوار حين وصل إيتيوس وثيودوريك فلا مجال للشك في أنّ وصولهما قد أنقذ المدينة فعلاً. وظلّت هذه الحادثة ترد في صلوات المدينة طوال ألف عام، وظلّ الناس هناك يحيطون عظام القديس إينان بالتقديس حتى قام الهوغنوت (البروتستانت الفرنسيون) بإحراقها عام 1562، وحينها منحت المدينة حبها لقديستها الأشهر جان دارك؛ شفيعتها التي أنقذتها من الإنكليز في حصار آخر قبل قرون من الزمان.

لم يكن مهماً إن كان أتيلا قد هاجم المدينة فعلاً أم لا؛ لأنّ عيونه وأرصاده كانوا سينبّئونه بأمر التحصينات الدفاعية الجديدة والتعزيزات القادمة إليها. ولم يكن هناك عملية تجاوز لإيتيوس والقوط؛ وما من مجال لنصر سهل على هذه المدينة حسنة التحصين، وليس ثمة إغاثة، ولم يرد في النهاية غوث من سانجيبانوس، وليس أمامه إلاّ انسحاب إستراتيجي من غابات اللوار إلى الأراضي المفتوحة حيث يستطيع القتال وفق شروطه الخاصة.

عاد الهون ليقتربوا من تروا من جديد بعد أسبوع قطعوا فيه مئة وستين كيلو متراً، حيث العربات تمضي على الدروب المغبرة، والجنود المشاة يشكّلون ستارة تغطي الريف الفسيح، والفرسان رماة السهام يتحيّنون اللحظة المناسبة.

كان الوضع يفرض وقوع اشتباك، وربما فرض المكان حدوث مواجهة بين جماعتين من المرافقين للجيوش؛ الفرنجة المناصرين للرومان والجيبيداي المناصرين للهون الذين يرشدونهم في أثناء تراجعهم. ولقد التقى الجمعان، ووقعت بينهما مناوشات، ربما قرب قرية شاتر التي اتخذت لنفسها هذا الاسم عن كاسترا، وتعني باللاتينية معسكراً. تقع شاتر في السهول الكاتالونية،

(1) هذا التاريخ ليس دقيقاً؛ فقد ورد اليوم المذكور على النحو التالي: (Viiikal. Julii)، وهذا معناه 1 يوليو/ تموز ناقص ثمانية أيام؛ أي 23 يونيو/ حزيران.

وكبرى البلدات فيها شالون، وتعني باللاتينية دورو - كاتلاونوم؛ أي موطن الكتالوني السرمدي، وغالباً ما يشير المؤرّخون المتأخّرون إلى المعركة الحتميّة القادمة باسم معركة شالون. والواقع أن شالون تبعد خمسين كيلومتراً إلى الشمال، وتسميها المصادر التي ترقى إلى ذلك الوقت معركة تريكاسيس (تروا)، وتقع على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً جنوباً، ويقال إن الاشتباك دار في موقع ربما كان يطلق عليه اسم موررياكوم[1]، وهي اليوم ميرى، على نهر السين، وتبعد ثلاثة كيلومترات فقط عن شاتر.

وصل القوم الآن إلى لحظة اتخاذ القرار الحاسم؛ فقد كان أتيلا يومئذ في وضع دفاعي، وكان جيشه متعباً، وكان السؤال: أيهما أفضل؛ المجازفة بكل شيء في الصراع؟ أم متابعة التراجع والقتال في يوم آخر؟ لكن قد لا يكون هناك يوم آخر؛ فالجيش الذي يتراجع في أرض معادية إنما هو أشبه بقطيع مريض، أي يغدو صيداً سهلاً لمن يشاء. إلاّ أنّ فك الاشتباك والهرب إن كان ممكناً ليس بالأمر الحسن ليعيش معه المحارب، وبالتأكيد ليس بالطريق السليم الذي يسمح للقائد بأن يحافظ على سلطته. هل كانت هذه هي اللحظة الذي قالت النبوءة بأنها ستؤدّي إلى انهيار الجماعة، ومنها سينهض الشاب إرناك قائداً جديداً لقومه؟ ذلك أمر عِلْمه عند الكهنة الشامان، وقد ذبحت المواشي، وكشطت العظام، وفحصت الأحشاء، وجرى تحليل آثار الدم، وقد رويت أخبار كارثة لم تكن قد وقعت. كان لدى الشامان بعض الأخبار الطيّبة يروونها بين الأخبار السيئة، من ذلك أن قائداً من الأعداء سيسقط ميتاً.. وعند أتيلا هناك قائد معاد واحد ذو قيمة فحسب، ذلكم هو صديقه القديم وعدوه الجديد إيتيوس، وإذاً فإيتيوس ميت لا محالة، وذلك أمر طيب؛ «لأن موت إيتيوس كان عند أتيلا أمراً مرغوباً به، وإن كلّفة ذلك حياته؛ لأن إيتيوس كان عقبة أمام تحقيق خططه»، فكيف يمكن أن يموت إيتيوس إن تفادى أتيلا القتال؟

كان أتيلا قد اصطحب معه حشداً كبيراً من القوات شبه الموثوقة، وانتقى أفرادها من قبائل تابعة، وعربات ضخمة تصعب السيطرة عليها كانت مليئة بالمؤن والذخائر. ولديه كذلك سلاح ممتاز من أسلحة الهون؛ أي الفرسان رماة السهام. فإذا أمكن له أن يسرع بالضرب في آخر وقت ممكن من النهار فقد تتوافر له عند المغيب الفرصة لإعادة تجميع قواته والقتال في اليوم التالي.

كان ذلك يوم الحادي والعشرين من يونيو/ حزيران أو نحو ذلك، في الساعة الخامسة عشرة، وساحة المعركة يومئذ سهل ميري الفسيح الذي يمتد شرقاً وشمالاً. وقد تعيّن على الهون أن

---

(1) للكلمات تهجئات مختلفة.

يتفادوا الاضطرار للتوجه إلى اليسار كي لا يجدوا أنفسهم محاصرين بمثلث مائي حيث يلتقى نهرا الأوب والسين معاً. ولسوف يقاتلون كما قاتل القوط في أدريانوبل، والتشكيل الدفاعي من العربات يمثل حينئذ قاعدة التموين، والفرسان رماة السهام يشنّون هجماتهم الخاطفة على الخصوم المسلحين بالعتاد الثقيل. فاختار الهون مكانهم بأن تكون ظهورهم إلى النهر، وصاروا يواجهون الجيوش الرومانية التي تطاردهم وهم ينتشرون في السهل؛ واتخذ أتيلا موقعه في الوسط، بينما كان حلفاؤه الأساسيون (فلامير والقوط الشرقيون وارداريك والجيبيداي) على الميسرة والميمنة، وجمع من زعماء القبائل وراءهم ينتظرون إشارة منه.

وعلى الجانب الروماني شكل إيتيوس وقواته جناحاً، بينما شكل ثيودوريك والقوط الغربيون الجناح الآخر، وكان السانجيانيون في الوسط. وقد كانت التموّجات اللطيفة التي تغمر السهل على مشهد من الطرفين، وشهد كل منهما إستراتيجية الآخر، وكان أتيلا يأمل أن يتمكّن رماته من اختراق القلب الروماني. بينما عقد إيتيوس الآمال على أن يتمكّن جناحاه القويان من الالتفاف خلف الرماة، وبذلك يقطع عنهم سبيل الإمداد من عربات تموينهم.

برزت بجوار السهل إحدى الهضاب البسيطة التي كانت تمثل ميزة، ولم يلحظها أتيلا في الوقت المناسب، فلما لاحت لناظريه وأمر فرسانه بالاستيلاء عليها كان إيتيوس مستعدّاً؛ إذ إن إيتيوس كان الأقرب إليها، إمّا بالمصادفة وإمّا بفضل تخطيط دقيق. وقد كان القوط الغربيون، ومعهم الخيالة بقيادة ثوريسموند الابن البكر لثيودوريك أول من بلغ القمة، فاضطر الهون إلى التراجع على عجل من المنحدارت السفلى.

لقد فاز إيتيوس بالجولة الأولى، وكانت جولة سهلة لم تتطلب إلاّ هجوماً جبهياً، فأعاد أتيلا جمع قواته، ثم ألقى فيهم خطبة (بلغة الهون بالتأكيد) اقتطفها يوردانس، وهو من القوط، وعرضها باللاتينية بترجمة تكاد تكون حرفية، ولنا أن نخلص إلى أنّ الملك قال شيئاً، ولعلّ الناقل يذكر خطبته على وجه الإسهاب الذي طالعنا. ثم تسرّبت تلك الأقوال إلى الأدب الشعبي. لكن يوردانس كان يكتب بعد قرن من تلك الواقعة، ويومئذ كان قد مضى عهد طويل على غياب الهون، وإذاً فما قاله أتيلا فعلاً أمر من التخمين. فإذا كان أتيلا يذكر هنري الخامس هنا فإن هذه رواية شيكسبير وليس ما قاله فعلاً!.. وفيما يلي خلاصة ما قاله:

«بعد أن قهرتم أقواماً عدة؛ فإنّه من الحمق بل والجهل - من جانبي وأنا مليككم أن أحثكم بالكلمات.. ثم ماذا خبرتم إلاّ القتال؟ وما هو أحلى مذاقاً عند الشجعان من طلب الانتقام؟ عليكم

باحتقار هذا الجمع من الأقوام المتنافرة! انظروا إليهم وهم يصطفّون حاملين معهم دروعهم، وليس عليها أثر من الجروح، بل غبار المعركة.. فهيا إلى العراك! دعوا الشجاعة تتأجّج والغضب يتفجر! والآن أظهروا دهاءكم أيها الهون، وأعلنوا عالياً مآثر سلاحكم.. فلماذا نصرت السماء الهون على كثير من الأقوام إن لم يكن لتهيئتهم لهذا النزاع؟ ومن سواها كشف للأجداد الطريق عبر سبخات مايوتيك، ومن سواها جعل أصحاب السلاح يخضعون لرجال لم يحملوا سلاحهم بعدُ؟ إني سأدفع بأول رمح، وكل من يقف ليستريح وأتيلا يقاتل فإنّ الموت مآله!».

لا يمكن أن تكون هذه الكلمات حقيقية بالتأكيد، لقد كان يوردانس حريصاً على التقاط شيء من روح القتال حتى الموت ليبثّها في المحاربين من كل عمر؛ مثال ذلك صيحة الحرب عند قبائل الهنود الحمر السيو: «اليوم يوم المنية»!؛ وهوراتيوس في ملحمة ماكولي الفيكتورية: «كيف يمكن للرجل أن يلقى أفضل من الموت وهو يواجه أرهب الظروف؟» والعجوز الأنغلو - ساكسوني الذي أخذ يشجع رفاقه لقتال الفايكينغ في معركة مالدون سنة 991: «لسوف تشتد الشجاعة وتزداد الإرادة مضاءً والقلب يقوى بينما قلبنا يكفّ عن الخفقان»..

وماذا عن المعركة ذاتها؟ لقد نهض يوردانس بهذه المهمة بعبارات مفخمة يتردّد صداها في استحضار ذكر العديد من المعارك بلغات عديدة، وعند الترجمة تصبح بيُسر شعراً حراً:

كانوا يشتبكون في الصراع، والمعركة على أشدها

معركة حامية الوطيس، ويختلط المصارعون في قتال مذهل قاسٍ لا يلين

قتال ليس فيه تكافؤ في القدرات والقوة

ترويه حكايات الأزمنة الغابرة!

هكذا كانت الأحداث الماضية!

والأبطال الذين فاتتهم هذه الأعجوبة لن يكون في مقدورهم أن يحلموا برؤية مثلها ثانية..

لقد بلغتنا بعض التفاصيل التي لها رائحة الصدق، وصمدت أمام الزمان، وحفظها لنا الأدب الشعبي. كان ثمة جدول يجري عبر السهل، «فإن صدّقنا كبارنا» فإن الدماء سالت في مجراه حتى أصبح المحاربون العطاش يطفئون ظمأهم بالدماء المتدفّقة من جراحهم. وقد أصيب يومئذ ثيودوريك، واختفى في لجّة القتال، ومات تحت أقدام جماعته من القوط الغربيين أو - كما قال

بعضهم - ذبيحاً بضربة رمح من أنداغ، وهو من القوط مالشرقيين[1].

أخذت العتمة تزداد في ذلك المساء الذي ربما كان أطول يوم في ذلك العام. ولم يكن لتكتيات الزوبعة التي يعتمدها رماة السهام الهون ما يكفي من الوقع على خطوط الرومان والقوط الغربيين الذين اندفعوا إلى الأمام، وحطموا تشكيلات الفرسان الهون، وشقّوا طريقهم إلى خطوط جنود المؤخرة الذين يقومون بحماية العربات. وفي المقابل عمد أتيلا الذي يحيط به حرسه الشخصي للتراجع من بين الخطوط المضطربة إلى دائرة العربات التي شكّلت في المؤخرة حصناً ذا عجلات. ومن ورائه جاء ثوريسموند من خلال الفجوة، حيث كان قد ضاع وسط هذا الوضع الكئيب معتقداً حينذاك بأنه عائد إلى عرباته، حتى أصابته ضربة نزلت برأسه وأطاحت به عن ظهر حصانه، وكان سيلقى حتفه مثل أبيه لو لم يحمله أحد رجاله إلى بر الأمان.

ومع حلول الليل هدأت الفوضى، ووجد الجند عندئذ رفاقاً لهم، واستقرّ بهم الحال في معسكرات مبعثرة هنا وهناك. كان الجو في الليل رائعاً، ولو أن السماء أمطرت لكان يوردانس في ظني قد أورد خبرها، لكنّني أظنّ أن الغيوم ظهرت في السماء، وإلاّ لكان المشهد مؤثراً في النفس. فالقمر لم يكن بدراً بل هلالاً، كما علمنا من القوائم التي تبيّن تحولات القمر. وحسبكم أن ترجعوا إلى كتاب هيرمان غولد شتاين (الهلال والبدر من 1001 ق.م إلى 1651م)[2].

والمعلوم أن القمر الجديد قد غاب قبل أسبوع واحد من المعركة يوم 15 يونيو/ حزيران، وإذاً فلكم أن تتخيّلوا ليلة صيف عطرة، أكسبتها الغيوم ظلمة، وصار البشر أقرب إلى الأشباح، ولا يسمع سوى صوت صهيل الجياد، وصليل الدروع، وأنين الجرحى. كان الرجال راكبين ومشاة يطوفون في كلّ اتجاه بحثاً عن رفاقهم، لكنهم لا يستطيعون أن يتبيّنوا الصديق من العدو حتى يبدأ في الكلام أمامهم. كان إيتيوس ذاته ضائعاً بين الهون لا يتبيّنونه حتى وصل حصانه إلى معسكر للقوط، وقد تعثّر الحصان بالجثث الملقاة فنفر ومضى به إلى حيث النجاة. وخلف جدار من التروس، ربما سنحت له الفرصة ليغفو قرابة ساعتين في آخر الليل القصير.

(1) وهكذا فهو قريب بعيد من ضحيته القوطي الغربي؛ لكن لم يقتنع بزعمه ما يكفي من القوم ليتحول من شخصية هامشية إلى بطل.

(2) American philosophical Society, 1973

هناك أمر آخر لم يأت يوردانس على ذكره، فقد كان ينبغي أن يذكر ما رآه في فجر ذلك اليوم من مشهد رائع، وهو ظهور المذنّب هالي من جهة الشمال الشرقيّ في رقعة السماء، وذنبه في المقدمة أشبه بمشعل ينير السماء أمامه.. نعم لقد ظهر المذنب فعلاً! وقد عرف علماء الفلك في منتصف القرن التاسع عشر مَدار هالي وحدّدوه بدقّة. ومنذ ذلك الحين أصبحت تلك الحسابات أشد تشذيباً[1]، وقد لحظ علماء الفلك الصينيون ظهور المذنب يوم التاسع أو العاشر من يونيو/ حزيران، وغدا ظاهراً في أوروبا يوم الثامن عشر منه. ولا ريب في أنّ رؤية من هذا القبيل كانت تنطبع في عقول المحاربين بالقدر ذاته الذي يكون لنصل السهم؛ إذ ليس هناك من شيء أكثر منه يمكن أن يعيّن أهمية المناسبة، لكنّ هناك كثيراً من الظواهر الأخرى التي استأثرت بالملاحظة. كان علماء الفلك البابليون قد لحظوا في مدوناتهم أنّ ظهور المذنب في عام 164 ق.م وعام 87 ق.م كان مصادفاً لموت ملوك. وتمّ تدوين ظهور المذنّب ضمن زخارف سجاد بايو حين قام وليم الفاتح بغزو إنكلترا في عام 1066. وفي أوائل القرن الرابع عشر قام جيوتو برسم عودة المذنب سنة 1307 في لوحته «عبادة المجوس». ولا ريب في أنّ القوم كانوا سيُذهلون لو شاهدوه، ولعلهم يكتبون ويغنون.

لكن أولئك الناس لم يفعلوا ذلك، وكان الرجل الوحيد الذي ذكر المذنب بصورة عرضية فحسب الأسقف الاسباني والمؤرخ هيداتيوس، لكنه لم يأتِ على ذكر المعركة ذاتها بوصفها حدثاً ذا دلالة فلكية.

إنه لأمر خطير أن يصل المرء إلى استنتاجات من غياب دليل، لكن هذا الغياب إذا اجتمع مع غياب العاصفة والقمر يفيد بأنّ فجر اليوم التالي للمعركة حلّ، والأرض جافة وكئيبة وتخيم عليها الغيوم. وإذا كان الأمر كذلك فتخيلوا الرومان الذين ظلوا أحياء وهم يحدّقون فوق تروسهم في مشهد خراب مجلل بالغبار والتراب حيث الجثث في كل مكان، والخيول ليس على ظهورها فرسان، والهون يلجؤون إلى عرباتهم والصمت يجلّلهم، ومجرى نهر الأوب المحدّد بصف من الأشجار في السهول الجرداء يطوي طريقه ويمتزج بالغسق الرمادي.

كانت نتيجة المعركة التعادل، مع أفضلية للرومان؛ لأنهم كانوا على أرضهم على نحو ما، مما يتيح لهم استمرار تلقّيهم الإمدادات، ويوفر لهم التضييق على الهون لينال منهم الجوع الذي سيتولى إخراجهم وطردهم، مع أن ذلك سيستغرق وقتاً. ولم يُبدِ أتيلا أيَّ إشارة تنمّ عن اليأس

(1) لمزيد من المعلومات انظر: Gary Kromk Cometography, Vol. 1 (Cambridge, 1999)

والاستسلام، فتولّدت لدينا مما نطالعه عند يوردانس صورة بطل من الأبطال الذين يصوّرهم هوميروس: «كان أشبه بأسد مزّقته سهام الصيادين، ويمضي جيئة وذهاباً أمام ثغر عرينه ولا يجرؤ على القفز، لكنه توقف عن إخافة الجوار بزئيره، ومع ذلك فقد أثار هذا الملك الأبي المقاتل الخوف في نفوس أعدائه على الرغم من هذه الحالة من الضيق». قام الرومان والقوط بإعادة تشكيل قواتهم، وبدؤوا حصارهم، وفرضوا على الهون طأطأة رؤوسهم بإمطارهم بوابل من السهام.

ولقد رأى أتيلا الهزيمة تغلب على قواته، وكان الكهنة الشامان قد تنبؤوا بموت أحد القادة، فلربما لا يكون المقصود إيتيوس، بل أتيلا ذاته. فأعدّ العدة لإقامة جنازة حافلة تليق ببطل كأنما هو مقبل على دخول جنة الخلد الهونية، وهي مقرّ المحاربين الذين يُقتلون في المعارك. فأمر بإعداد حريق وجنازة من سروج الخيل[1]، وأن يكونوا مستعدّين لهجوم روماني ساحق، فليس لهم أن يأخذوه حياً، ولن يكون لهم أن يتغلبوا عليه ويقتلوه أو يرونه يموت مثخناً بجراحه.

بينما كانت الأمور تجري على هذا النحو فوجئ القوط الغربيون بألاّ يجدوا ملكهم يقود المحاصرين، والنصر يلوح عندئذ ناجزاً، فمضوا يبحثون عنه، فوجدوه جثة بين ركام من الجثث. فرفع ثوريسموند وأخوه الجثمان على خشبة، وحملوه - والحصار قائم - ليتمّ دفنه في طقوس تليق بمن يسقطون في ساحة القتال، وسط صيحات الناحبين المتنافرة كما يصفها يوردانس. ويبدو أنهم أقاموا جنازاتهم ببطء وعلى مرأى من الهون جميعهم، ليظهروا فخارهم بزعيمهم الراحل: «كان ذلك حقاً موتاً، لكن الهون شهود على أن ذلك كان موتاً مجيداً».

يقول يوردانس: إن مئة وخمسة وستين ألف جندي سقطوا في المعركة التي استمرّت يومين، وخمسة عشر ألفاً آخرين سقطوا في القتال الذي استعر بين الفرنجة والجيبيداي في الليلة السابقة؛ المجموع مئة وثمانون ألفاً! إنه عدد لا يصدّق، يوم كان سكان المدن يعدون ببضعة آلاف. وما كان في وسع الريف أن يمدّ مثل هذه الأعداد الضخمة بالغذاء. والواقع أنه ما كان لأحد أن يدري على وجه الدقة كم من الناس قتلوا في المعركة، لكن الخسائر تظل ضخمة، وإن لم تزد عن عُشر تلك الأعداد التي أوردها يوردانس. ولعل نسبة القتلى بلغت الثلث من جيوش بلغ تعداد أفراد كل منها خمسة وعشرين ألفاً، وهذا الثلث يعادل قرابة خمسة عشر ألفاً. كان بين هؤلاء كما تنبأ الشامان قائداً، وإن كان الطرفان إيتيوس وأتيلا قد سلما في المعركة ليقتلا في يوم آخر.

---

(1) وهذه إشارة إلى أن الهون كانوا يستخدمون سروجاً من الخشب شأنهم شأن المغول، وليس من الجلود.

إن محاولة تحديد ساحة المعركة كما عبّر مينيشن - هيلفين بتعالٍ وعجرفة «هواية أثيرة لدى المؤرّخين المحليين والمتقاعدين من الضباط القادة»، وكأنما مستوى المسألة أدنى من أن يوليه الأكاديميون عنايتهم. إلاّ أن هذه كانت نقطة تحوّل في التاريخ الأوروبي، وهي قضية ذات شأن، وإن كان اكتشاف هذا الموقع قد يتيح لعلماء الآثار العثور على دليل ما ينبئ بما حدث هنا فعلاً.

في أغسطس/ آب 1842 عثر أحد العمال على بعد أربعمئة متر شرق قرية بوان، وثلاثين كيلومتراً شمال تروا، وعلى عمق مقدار متر واحدٍ في أثناء استخراجه الحجارة من الرمال على هيكل عظمي مستلقٍ على ظهره، في قبر يبدو أنه حفر على عجل حتى أنه لم يسوَّ. كان الهيكل العظمي في وضع الاستلقاء على الظهر بانحناءة بسيطة كأنه في كرسيّ قابل للطيّ، وكان بجانبه سيفان نال منهما الصدأ، وبعض الحلي الذهبية، وخاتم نقش عليه أربعة حروف غامضة: (HEVA)، ولعل جان باتيست بوتا قد تستّر على اكتشاف هذه اللقى، أو لربما تخلص منها من دون إطلاع أحد عليها، لكن كان من حسن الحظّ أنه باع السيفين لمتحف تروا، على الرغم من أن المتحف لم يكن قادراً على توفير المبلغ الذي طلبه بوتا، وباع الأوسمة لصائغ محلّي، وقد باعها هذا عام 1858 لنابليون الثالث. فقامت الحكومة المحلية بتقديم هذين السيفين إلى الإمبراطور ليبقى الكنز تاماً. وقد لحظ نابليون الثالث الحكمة في العرض، ثم خطر له في نوبة من الكرم أن يعيدها، وكتب قائلاً: «إن الآثار الوطنية تنتمي إلى المنطقة التي تمّ اكتشافها فيها»، وأرسل المجوهرات لتكون إلى جانب السيفين، مجدِّداً بذلك النهج الذي جرى عليه متحف تروا. وهناك، في دور أرضي روماني، كنز بوان الذي له مكان الصدارة بين المكتشفات.

والواقع أنه ليس لهذا الاكتشاف مكونات كثيرة، حسبكم من ذلك: السيفان؛ وطوق معدني للعنق أو عقد؛ وإسورة؛ وحليتان معدنيتان؛ وبعض الصفائح المعدنية للتزيين؛ وخاتم.. وتلكم بعض القطع التي إنما صنعت لإبراز الثراء والمكانة. وهذه الأشياء ومقابض السيف مكسوة جميعها بأوراق الذهب، أما الجواهر فهي من العقيق. والسيف الأكبر ذو حدّ مزدوج، ويكاد يبلغ من الطول متراً، ومكون من ثلاث قطع من الفولاذ مخروطة ومطروقة وملحومة بالأسلوب المعروف بالدمشقي. ومع ذلك فهذا السيف خفيف الوزن بحيث تكفي يد واحدة لاستخدامه. ورمانة المقبض فريدة من حيث الشكل، وهي قطعة من الخشب بيضوية مطعمة بالعقيق. وأما السيف الثاني فكان قصيراً وله حدّ واحد.

في عام 1860 نشر أحد علماء الآثار المحليين، ويدعى أخيل بينيه ديلاكور النتائج التي

توصّل إليها بشأن الكنز، واستهل بحثه بقوله: «قد يكون لاكتشاف عارض نتائج غير متوقعة، ولعل هذا الاكتشاف يأتي بحلٍّ لقضايا تاريخية قديمة ما انقطعت تثير التساؤلات.. وهاكم مثالاً على هذا القول: فهل هذه اللقى بقايا أحد المقاتلين وقد سقط في النهر[1] وغرق في التيار الذي تغير مجراه في ما بعد؟» ويجيب بيينيه - ديلاكور بالنفي، إذ لا يمكن أن يكون ذلك؛ لأن التربة حيث وجدت هذه المواد تعود إلى عهد يسبق ظهور الإنسان على الأرض. ولقد طرح السيد كامو - شاردون فرضية أشد جرأة، إنما ليرفضها أيضاً. ويلتقطها بيينيه - ديلاكور، وتجري على النحو التالي: «لسوف أعلن أني أحد الذين يجرؤون وينسبون الهيكل العظمي والحلي مما عثر عليه في بوان إلى ثيودوريك، ملك القوط الغربيين، الذي قتل وهو يحارب أتيلا في عام 451.. ويقودنا هذا الاستنتاج إلى تعيين أرض المعركة في البقعة التي وجدت فيها تلك البقايا المستعادة».

يبدو أن جغرافية المكان تتفق كثيراً مع رواية يوردانس، فقد كانت الطرق الرومانية تمرّ بمدينة تروا، وتلتقي عندها. وكان أحد الطرق يمتدّ من أورليان - وقد زال الآن - ويتجاوز تروا بخمسة وعشرين كيلو متراً ناحية الشمال الغربي، ويمر بشارتر التي كانت تسمى قبل ذلك كاسترا؛ أي المعسكر، وفي هذه المنطقة كان يمكن أن تقع المناوشات بين الفرنجة والجيبيداي. وثمة طريق يمتد شمالاً من تروا في خط مستقيم، وهو الطريق N 77 الذي ما يزال موجوداً حتى الآن كما شقه الرومان في سهل مترامي الأطراف كأنه محيط، وهذا السهل مكرس للزراعة اليوم، ويشكل لوحة من درجات اللون البني والأخضر والأصفر، لكن قبل ألف وخمسمئة عام كانت تلك الأراضي مروجاً رائعة للجري. وهذه الأرض كان من شأنها أن تحملك في غضون عشر دقائق بالسيارة إلى فويه التي كانت تعرف أيام الرومان باسم فادوم، حيث تقع على جدول الباربوا، وضفافه منخفضة وثابتة، وليس فيها ما يعيق جري الحصان، أما العمق فلا يزيد على بضعة سنتيمترات، وهو يجري إلى اليسار من جهتك حتى يبلغ بوان، وليس وراءه إلاّ الأوب، وترتفع الأرض ارتفاعاً لطيفاً إلى الشرق من بوان. ويذهب بيينيه - ديلاكور إلى أنّ الرومان كانوا يتجمّعون ويحولون دون عبور الهون النهر.

لم تكن تراودني أي آمال كبيرة بأن الكثير سيتكشف لي في بوان؛ فهي تبدو على الخريطة مجرد قرية بين قرى مبعثرة منتشرة فوق السهول الكتالونية شمال تروا. وكنت قد قمت باستطلاع تلك المنطقة في مطلع فصل الربيع متوقعاً أن يكون المكان كئيباً وليست له أهمية، لكني وجدت

(1) هذا الكلام يقتطفه بيينيه ديلاكور من قول مؤرخ بارز يدعى السيد كامو شاردون.

نفسي مسحوراً بجمال الطبيعة هناك، حيث يجري نهر الباربوا فوق الحقول الحوارية، ويمضي متجاوزاً أشجاراً مرقشة بكرات الدابوق، ويسيل عبر القرية، وثمة طاحونة نصفها خشب، وكنيسة رمادية متينة، وبيوت ذات دعامات بارزة، وهناك ملعب مفتوح لكرة المضرب.. وبوان مكان مريح للقادمين إلى تروا، أو هكذا خيل إليّ، لأنه لم يكن هناك أحد لأتوجّه إليه بسؤال. كان موعد الإفطار قد حان، وبدا لي أنه ليس هناك ساحة عامة، وليس ثمة منطقة مركزية للتسوق، أو لتجمع البورجوازية. آه! ها قد وقعنا على مخبز. كان في المكان مناضد، وامرأة تعدّ الكراسي، ولوحة تشير إلى أنّ المخبز يقدم القهوة للروّاد.. لا، لقد كنت مبكراً في القدوم. وكان كل ما آمله حصولي على معلومات. ولقد أملت ألاّ أكلف المرأة ما يصرفها عن عملها.. لكن أتراها كانت لترد على السؤال: أيعلم القوم في هذه البقاع شيئاً عن أتيلا؟! نظرت إلي بتهذيب واستغراب. قلت مفسراً: «أتيلا، زعيم الهون، المعركة الكبرى التي وقعت قرب هذه النواحي قبل ألف وستمئة عام.. الرومان والهون، والكنز...؟».

- عفواً يا سيدي، إنني لا أعلم شيئاً.. هل قصدت دار البلدية للسؤال؟».

لكنّني كنت في عجلة من أمري، وما عاد في وسعي الانتظار حتى تفتح البلدية أبوابها، فاستدرت بالسيارة، وانتظرت برهة لأدرس الطريق على طول الباربوا. وأوقفت السيارة إلى جانب بيت نصفه من الخشب لأنظر في خريطتي، رأيت عندئذ امرأة تهرع نحوي، قالت وهي تلهث بسبب جريها من الفرن: «أتريد أخباراً عن أتيلا يا سيدي؟!» لقد أصبح سؤالي الغريب عن أتيلا فوراً مثار ثرثرة لا تنقطع.. وتابعت قائلة: «لزوجي معرفة بموضوع أتيلا.. والآن عفواً - يا بنيّ - ها قد جاءت الحافلة، إنما هذا بيتنا، فاذهب وسله الخبر».

كان ثمة مدخل يفضي إلى باحة، والبيت قائم على أحد الجانبين، والحظيرة على الجانب الآخر، ويحرسها ويا لدهشتي - أسد من الحجر الأبيض. ومن الحظيرة المعتمة خرج رجل نحيل يرتدي بنطال جينز وسترة خضراء اللون.. كان ثمة دليل، إنه إشارة عند الحظيرة تقول: «رينار جينيريه - نحّات». ومضينا عندئذ نتعارف. كان جينيريه يتعامل في الغالب مع المعادن لتخرج من بين يديه أعمال فنية ذات زوايا حادة تشبه الألعاب أو آلات الخيال العلمي، أو طواطم قبلية، لكن وجود الأسد أفاد بغلبة الاهتمامات التقليدية. وجدت الرجل يُعنى بالتاريخ، فكان أتيلا وإيتيوس من معارفه القدامى. كما كان يلمّ بكل ما يتصل بالكنز، بل إنه أجرى حفريات حول الموقع على أمل أن يعثر على المزيد. أتراه سيقبل بأن يصطحبني إلى ذلك الموقع؟ والواقع أني وجدته مبتهجاً

بذلك. سرنا في درب، وتخطينا حقلاً من القمح الشتوي إلى يميننا كانت أعواده تتلاطم مثل الموج في السهل الذي كان باتساع المحيط، ووصلنا إلى صليب، وهو أمر مستغرب أن يُعلّم على هذا النحو منتصف الحقل. وإلى اليسار منا صار المنحدر على نفس المستوى مع سهل قديم غمره الفيضان، وعبره ينفسح نهر الأوب، ويغيب عن النظر بعد كيلومتر واحد. والآن رأيت ما يضفي على قرية بوان ميزتها؛ فهي - إضافة إلى النهر الصغير الساحر الذي تتمتّع به - كانت تقع على مسافة متر حاسم أو اثنين بعيداً عن سهل أوب الذي يغمره الفيضان. كان حقل القمح المنحدر ذات يوم ضفة نهر لطيف، وذلك ما يفسّر دلالته الاقتصادية من حيث كونه مصدراً للرمل. فلطالما استخدمه البناؤون كما قال جينيريه، وما يزال هؤلاء يفيدون منه، كما تكشف ذلك بعض المرتفعات الصفراء الواقعة على امتداد المنحدر. وهذا ما يفسر وجود الصليب؛ إذ قبل عشرين عاماً كان أحد الحجارين يقوم بقطع الحجر من المقلع حين انهال عليه الرمل ومات مختنقاً تحته. وهناك في الأرض اليباب حيث تنتشر الأعشاب الجافة وأشجار القرانيا وُجد الكنز، وليس ثمة مجال للشك في أنّ هذا كان مدفن ثيودوريك، وهنا قاتل أتيلا إيتيوس، وهذا أمر يعلمه.الجميع.

لقد كان هذا - وهو أمر أعتقد بصحته - مكانَ مشهد تخيّله بيينيه - ديلاكور: نظرية مؤامرة وطموح ومكيدة وجريمة قتل. إذ إنه يتساءل في كتابه: إن لم يكن لثوريسموند المتلهف للفوز بالعرش أمام أخونه مصلحةٌ في اكتشاف جثة، أي جثة، يمكن القول إنها خطأ أم صواباً جثة أبيه ودفنها على عجل، والتظاهر بالحزن والإعلان فوراً عن تنصيب ثوريسموند ملكاً.. وإذاً أفيمكن أن يُترك حياً من قام بالدفن، خاصة وأن مصير المعركة تحيط به الشكوك، والقبر معروف مكانه؟ ويبدو أنّ هذا كله ضرب من المبالغة في الاحتراز، باعتبار أن عملية الدفن كلها تمّت على عجل، بل والمعركة مستعرة، وليس هناك تل مدفن لتعيين المكان. لكنّ الأمر ليس كله ثمرة مخيّلته، لأنه كانت هناك لقى أثرية أخرى في ناحية بوان وفيليت المجاورة التي تبعد قرابة الكيلومترين شرقاً، ومن ذلك: مزهريتان صغيرتان؛ وكأس؛ وإبريق برونزي مذهب؛ وثلاث شفرات؛ وزينة حصان، وكان هذا كله بالنسبة إلى جينيريه أرض المعركة، وموقع مدفن ثيودوريك.

ينزع العلماء الفرنسيون للموافقة. وهناك آخرون يشيرون من ناحية أخرى إلى الصفات المتشابهة وأدوات من حضارات أخرى في روسيا وعلى امتداد الدانوب، مما يضعف أيّ صلات قوطية غربية. وتتفاوت التواريخ المقدّرة من القرن الثالث حتى السابع. والأمر ملتبس مشوّش إلى حدّ يثير الضيق، وإن كان علماء الآثار منجذبون إلى رأي بيينيه - ديلاكور حين يحاولون بلوغ

درجة أعلى من الدقة، وهو أنه يعود إلى منتصف القرن الخامس ويخصّ قوطياً ثرياً، وفي النهاية يخصّ ثيودوريك!

لا ريب في أن الحروف (HEVA) المحفورة على الخاتم قادرة على حسم المسألة، وذلك إن كان لدى أحدهم فكرة عما تعني، والخاتم والخط رومانيان. اتفق العلماء على أنها مصادفة أن تكون كلمة (Heva) هي اللفظ الروماني الشائع لكلمة (Eve)؛ أي حواء، إلاّ إذا تبنّينا الفكرة الرومانسية، وهي أن هذا النبيل كان قد طلب أن يحفر على خاتمه اسم عشيقة رومانية. كان العلماء المختصون بالقوط قد طرحوا عدة احتمالات تدور حول كلمة (heiv) مثل (house) بيت، أو (عائلة) كما في عبارة (heiva-franja)؛ وتعني «رب الأسرة»، ولعلها تتصل بكلمة (hefjan) في اللغة الألمانية العليا القديمة، ويعني ينشئ أو يربّي أو يعلّم. وفي الساكسونية القديمة (hiwa)؛ وتعني زوج. أو لعلها تعني «اضرب»! وهي فعل الأمر من (heven)؛ وتعني «يضرب»..، وليس هناك من معنى في أي حلّ قوطي أو جرماني. لكن ربما أفادت اللاتينية في إيضاح معنى الكلمة؛ فالخط في النهاية لاتيني، وهذا يبرّر وضع بعض التخمينات. فلنفترض أن الخاتم ملكي وجاء نقشه على هذا الأساس، فما الذي كان ثيودوريك يودّ نقشه على الخاتم؟ تذكّروا أنه كان صديقاً لأفيتوس الذي كان أحد أبرز العلماء والسياسيين في بلاد الغال، وقد علم أن روما أعلنت سلطتها في أربعة حروف: (SPQR Senatus. Populusque. Romanus) أي مجلس الشيوخ الروماني والشعب، وإنني أميل للاعتقاد بأن (HEVA) عبارة مؤلفة من أربعة حروف، تذكر بالحروف الأولى لكلمات معينة، لكنه ليس خاتم السلطة الملكية، لأنه لم يؤخذ منه حين مات. هذه العبارة شخصية، شأنها في ذلك شأن سيفه. ربما أراد إعلان دعواه، ليس بمصطلحات الحكومة، بل بمصطلحات الإنجاز الشخصي، وفي هذا يناسب الوضع القول (HIC EST) (هذا هو)؛ و «لكن هذا» هو من أو ماذا؟ لدينا عدة حروف أولية محتملة منها: إيتيوس، أفيتوس، وأكويتانيا. وكان ثيودوريك قد قهر أكويتانيا. فماذا عن عبارات مثل (HIC EST VICTOR AQUITANIA) هذا هو المنتصر على أكويتانيا؟ أو لعله كان يحلو له النظر بعيداً إلى نجاح أعظم: هذا هو خاتم النصر؟ (HIC EST VICTORIAE ANULUS)، وهناك احتمال مختلف تماماً طالعنا به ديفيد هاوليت محرّر (معجم لاتينية العصور الوسطى) الصادر عن جامعة أكسفورد، فقد عُثر على حلية متدلّية أنغلو ساكسونية من الرصاص في قرية ويزنهام القديسين، بنورفولك، وعليها نقش يفيد بأن بعضهم في أوروبا يشاركون اليهود عنايتهم الصوفية بأسماء الله[1]، ولعل الحروف تلك إشارة إلى العبارة

(1) تورد اليزابيت أوكاشا وسوزان يونغس وصفاً لهذه اللقية في «Late Saxon Inscribed Pendant from Norfolk

(Ha’shem Elohim V’Adonai)؛ أي اسم الله «الرب»، وإذا صح القول فإنه يدعو للاستغراب. أليس عجباً أن ترد عبارة عبرية بحروف لاتينية؟ لكن لماذا وردت على هذا النحو؟ ومتى كان ذلك؟ إن الأسئلة لتوقّد المخيلة، أكانت هذه إذاً نصباً حربياً، أم هدية، أم مشتراة من جماعة من الرومان المقهورين، أم هي طلسم ذو معنى مخفيّ عن صاحبه الذي كان عنده أشبه بخاتم سحري يمنح قوة وسلطاناً، كما في رواية تولكينيه؟ حسناً، إن هذا كله من قبيل الأماني. لكنه يجعل الباب مفتوحاً دائماً أمام الأمل بأن يقع رينار جينيريه أو أحد الحجّارين في المستقبل على قطعة من درع أو النقود يحسم لنا الموضوع بأقصى قدر من الوضوح، كما لو كانت حُفرت على وجه ميدالية رومانية ثمينة: ثيودوريك تواجد هنا، وبالتالي: من هنا مر أتيلا.

أراد ثوريسموند الآن أن ينهي المهمة، لكن إيتيوس الذي كان أكبر سناً وأكثر حكمة كان يحمل إستراتيجية أبعد مدى، وتنطوي على القيام بعمل مذهل حقاً؛ لقد قرّر ترك الهون يفلتون من المواجهة!

أما السبب في اتخاذ هذا القرار فإنّ معرفته تقتضي جهداً وبعض المنطق الصارم. فقد كان القوط الغربيون العدو التقليدي لروما، ولم يستدرجوا إلى الحلف إلاّ لمواجهة خطر أعظم تمثل في شخص أتيلا. وإذا كان أتيلا قد غدا مغلوباً على أمره ومُسح الآن عن وجه الإمبراطورية فإن ذلك سيجعل القوط الغربيين قوة لا بأس بها، وفي موضع يشكل تهديداً شأنهم شأن الهون من قبل، بل أكثر من ذلك؛ لأنه يعتقد بأنه يعرف الهون، وفي مقدوره أن يتصدى لهم من جديد. وكان يعرف القوط الغربيين أيضاً، ولا يطمئن إليهم، ولا يوليهم الثقة، مهما وصف أفيتوس طموحاتهم بأنها حضارية في رأيه. كان إيتيوس يتقدّم وماضياً في نهجه، وهو واثق بأنّ القوط الغربيين سيظلّون أبداً تهديداً. وكان على الدوام يحتاج إلى العون من الهون لكبح جماحهم. لذلك فإن ميزان القوى الملتبس الآن أفضل من المجازفة بالتعرض لانهيار تام فيما بعد. كذلك فإن أتيلا يطالب بأكثر من نصف الإمبراطورية؛ أما القوط الغربيون فكانوا يرمون إلى الاستيلاء على كل ما يقع تحت أيديهم.

لم يكن في وسعه أن يطلع ثوريسموند على هذا كله، بل العكس من ذلك، فقد ذكّر الأمير القوطي الغربي بإخوته في الوطن. فإذا علم هؤلاء بموت أبيهم فأي منازعات حول الوراثة قد تندلع، إن لم يكن هناك ثوريسموند، وهو الابن الأكبر، ليطالب بالعرش؟ فالأفضل له أن يداري غضبه، وينهي ارتباطاته، ويمضي إلى بلاده ليضمن حصوله على خلافة أبيه. وعليه ألا يقلق؛

«Anglo – Saxon England Vol. 32 Dec. 2004». والتفسير المطروح يعود لـ (Howlett)

فالرومان سوف يتدبرون الهون منذ الآن.

«ولكن حين تلا غياب العدو صمت طويل، استنهضت همة الملك الجبار فكرة النصر، وتواردت إلى ذهنه النبوءات القديمة التي دارت حول مصيره»، فها هو ذا قائد يموت؛ وإذاً فقدر أتيلا بالتالي أن يعيش. لكن لم يكن هناك جدوى من متابعة القتال. ولمّا مُنحت عربات الهون حرية المرور بسلام مضت على امتداد الطرق متجاوزة تروا نحو نهر الموزيل والراين وهنغاريا البعيدة.

من الممكن أن يكون للوبوس يد في هرب أتيلا، إذ طوال هذه المدة كان الرجل رهينة ودليلاً، إنْ قسراً وإن طواعية، ولعله كان قد قدّم المشورة بشأن أرض المعركة، وهو بذلك كان يقدّم ضماناً لسلامته وبلدته. أمَا وقد نجا وظلّ على قيد الحياة فإنه صار يقدّم المشورة حول أفضل السبل للتراجع وسحب الهون المهزومين من تروا بأسرع ما يمكن. وإذا كان الأمر كذلك فإنه قد أفلح، لكن ذلك النجاح لم يكن لصالح لوبوس، إن صدقت سيرة حياته؛ لأنه تُرك ليعود ثانية إلى منطقة الراين كما كان الوعد، بعد أن أوصل أتيلا آمناً، ولو أن استقباله هناك كان أقل من فاتر.

لقد استقبله قومه بالإعراض على الرغم من الفوائد التي جلبها لهم؛ فبدلاً من ترحيب المواطنين به كما يستحق لأنه أنقذهم من العوز، وحفظ لهم حياتهم أيضاً، قابله قومه بالتحدي والنفور بعد أن رأوا كيف أرشد أتيلا إلى نهر الراين، وكأنهم رأوا فيه أتيلا ذاته، وهذا ما جعل القديس ينكفئ إلى جبل لاسوار قرب شاتيون على نهر السين.

وبعد أن تمت التوبة، عاد الرجل إلى تروا ليمضي من الحياة خمسة وعشرين عاماً أخرى، ويموت بعدئذ مغفوراً له، ومشهوراً ذائع الصيت، ومكرّماً، ثم تمّ تطويبه باسم القديس لوب، وتخلّدت بعد ذلك ذكراه بتسمية عشرات المدن وقمم الجبال والكنائس في طول فرنسا وعرضها باسمه.

لقد أُنقذت بلاد الغال..

وعاش أتيلا بعد ذلك ليقاتل في يوم آخر.

9

مدينة قصية

كثيراً ما تعتبر معركة سهول كتالونيا إحدى أعظم المعارك الحاسمة في تاريخ العالم، إنها المعركة التي أنقذت أوروبا الغربية من أتيلا، ولم تكن بالمعركة البسيطة، ولا هي مثل معركة ستالينغراد باعتبارها منعطفاً أوقف غازياً بربريا ومنع تقدمه؛ إنها أقرب إلى أن تكون انسحاباً هونياً يشبه دنكرك، وفيها هرب جيش عظيم ليتابع القتال. لقد كانت أورليان نقطة الانعطاف، كما رأى أتيلا حين تفادى الصدام والتفّ ودار وامتنع عن الاشتباك، إلاّ أنّ هذه الحركة لم تأتِ بنتيجة محدّدة، ولقد أمضى بعدئذ مدة أسبوعين ليحفظ لجيشه سلامته، وقد كانت معركة سهول كتالونيا عملاً جانبياً فُرض على أتيلا حين كان في تراجع أصلاً.

ماذا لو أنه كان هو المنتصر؟ لو صح ذلك لكان - بعد فقدانه المبادرة - أرسى رأس جسر في منطقة الغال في أحسن الأحوال، ولكانت حقول منطقة شمبانيا قد وفّرت عندئذ مرعى ثميناً ومنطقة مناسبة يمكن للفرسان رماة السهام استخدامها. ولا يفيده ذلك إلاّ إذا استطاع الاستيلاء على ميتز وترابر وممرّ الموزيل الذي يفضي إلى منطقة الراين، وكان هذا خط امداده والشريان الذي يغذّيه عند تقدّمه ذاتَ يوم في المستقبل ليستولي على بلاد الغال كلها، والتي تشكّل نصف الإمبراطورية التي ادّعى بصورةً حسنة في الظاهر أنها بائنة هونوريا. لكنّ هذا كلّه قد تلاشى في الوقت الراهن على الأقل، ولقد أمكن أن ينجو بجلده، وبالمصادفة لم يكن لديه أيّ وسيلة ليعلم أن إيتيوس قد عزم لأسباب سياسية على أن يدعه يغادر ويكتفي بموت ثيودوريك.

ما كان لأحد أن يولي المعركة في الأيام المضطربة هذه الأهمّية التي اكتسبتها فيما بعد، ففي ذلك العام كان في مارسيليا إخباري منكبٌّ على تدوين ما قد علم من تلك الأحداث. كان هذا الحكيم الذي عرف بالإشارة إليه بـ «إخباري عام 454» مسيحياً تقياً، هدفه أن يتابع التاريخ الذي دونه [القديس] جيروم، وينتهي في أواخر القرن الرابع. ومع ذلك فإنّ كل ما كتبه عن الأحداث التي عرضها في الفصل الأخير هو التالي: «غزا أتيلا بلاد الغال، وطالب بزوجة وكأنما كانت حقاً له. وهناك أنزل [بالقوم] هزيمة خطيرة، وتلقّى مثلها، وانسحب إلى بلده». ويعجب العلماء أن يكون قد علم بفضيحة هونوريا، والظاهر أنه لا يقابل الرواية بالشك. وقد أبدى هؤلاء العلماء عناية أيضاً بما لم يقل. وبما أن هذه ليست رواية تاريخية، بل جرداً تأريخياً، فيتحتم علينا أن نخمّن ما كان يميل إليه وما لا يقبله. وقد انتهى من كتابة روايته في عام 452، وإيتيوس ما زال يومئذ أحد أقوى رجال الإمبراطورية، (ولعله كان ما يزال يبغي العودة إلى آرل في أي وقت، وهي

تبعد مرحلة يوم واحد عن مارسيليا)، لكنه يمسك عن الإقرار بأنّ هذا كان نصراً مؤزّراً لإيتيوس العظيم، لأن إيتيوس لم يكن يُذكر كثيراً آنذاك بصورة المنقذ، «فقد كانت الدولة تبدو في هذا الحين بالغة البؤس، إذ لم تكن هناك حتى مقاطعة واحدة من دون مقيم من البرابرة، وقد ادعت الهرقطة الآريوسية[1] التي عقدت حلفاً مع الأمم الغربية، وتسرّبت إلى العالم كله، واختصت باسم الكثلكة». وفوق هذا كله كان أتيلا ما يزال حياً، بل في أفضل حال، وهذا نبأ كان سيئاً أشدّ السوء؛ لأنه كان في تلك اللحظة يعدّ لغزو آخر، وربما كان أسوأ. وخلاصة القول: إن العالم كان صائراً ليكون فريسة للكلاب، وكان هذا كله خطأ من إيتيوس.

كان أتيلا في خريف عام 451 في مقرّ قيادته الهنغارية، وقصره المشيد بالخشب، وبيوته المحصّنة، وحمام أونجيسيوس، والخيام والعربات التي تطوّق المكان. أفتراه كان يُسعده الجلوس هناك مستمتعاً بالغنائم التي ترد من الحملات في بلاد الغال؟ كان هذا يصدق على شخص آخر سواه. فلربما تعلّم درسه واستقرّ لتدعيم إمبراطورية إن تمّت رعايتها لأنشأت نظيراً متيناً لروما والقسطنطينية، ولأقام مع كليهما تجارة. لكنّ أتيلا لم يكن على شاكلة جنكيز خان الذي كان مستعداً للتخطيط للاستقرار وفرض رؤاه على أعوانه وأتباعه، فقد كان يومئذ محاصراً بظروفه، فما كان له أن يتمتّع بكثير من الحرير والنبيذ والرقيق والذهب بعد أسابيع من التراجع المشين الذي أُجبر عليه، ولو فعل لوجد كبار أعوانه - وهم من كبار رجال القبائل - قد اضطربت أحوالهم وضاقوا بمثل هذا النهج.

ما من أحد دوَّن ما قام به في فصل الشتاء ذاك، لكن يمكننا أنْ نخلص إلى أنه لم يكن بالشتاء الطيب. وفي صيف عام 451 دعا الإمبراطور ماركيان الأساقفة الخمسمئة والعشرين لديه للاجتماع في نيقيا في الخريف لتدبّر مسألة طبيعة المسيح، وهي مسألة شائكة محيّرة، قائلاً: إنه «يأمل بأن ينضمّ إليهم بشخصه، إلاّ إذا حالت دون ذلك قضية ملحّة من قضايا الدولة»، وهذا ما حدث في الواقع، والقضية المعنية هي قضية تراقيا، فقد حمله أمر طارئ إلى حدود الدانوب، وفُرض عليه أمر آخر هو تغيير مكان اجتماع المجلس المسكوني الرابع من نيقيا إلى خلقدونيا، ما عدا الجانب الآخر للهيلسبونت من القسطنطينية. ولقد حدث أمر حال دون ذهاب الأساقفة من طرف حدود الدانوب إلى خلقدونيا. وإذا كان هذا الأمر أتيلا، وقد عاد خائباً من حملته الفاشلة في بلاد الغال لما كان ذلك كافياً ليستمرّ تدفق الأموال، فهذه المناطق ذاتها قد نهبها الهون مراراً

(1) نسبة إلى كاهن إسكندري قال إن الابن (المسيح) غير مساوٍ للأب (الله) في الجوهر. (المترجم).

وتكراراً، حتى جفّ ضرعها.

كان أتيلا قد عرف الآن أنّ لعدوّه الرئيس روما حليفاً في القوط الغربيين لا يوثق به، إذ إن روما والقوط الغربيين لن يتم الاتحاد بينهما إلاّ في حال الدفاع عن بلاد الغال، فإذا كان يضمن أن تكون روما وحدها عدوّه فإن النصر سيكون حليفه، كما سيكون عليه الحال في أورليان لو لا تدخل أفيتوس وثيودوريك والقوط الغربيين. ولا بد من أنه أدرك - شانه شأن كل الطغاة - أنّ الاتحاد الهشّ الذي أنشأه لا يمكن أن يكون متماسكاً إلاّ برؤى أعظم ومع انتصارات أعظم مما تحقق من قبل. فأيّ مطمح أعظم من روما ذاتها القابلة للعطب كما يعلم الجميع، لأنها وقعت في قبضة البرابرة؛ أي القوط الغربيين، قبل أربعين سنة؟

ولكن كانت هناك مطامح مغرية أخرى غير ذلك، خصوصاً البلدة حسنة الحراسة التي تحمي الطريق الرئيس من بانونيا التي يحتلها الهون والمفضية إلى إيطاليا. كانت أولى الجوائز المتواضعة بلدة ليوبليانا السلوفينية[1] التي ما إن تم الاستيلاء عليها حتى فتحت الطريق إلى نهر إيسونزو الصغير والهامّ أيضاً، إذ إنه يرسم حدود إيطاليا التقليدية[2]، وكان ذلك الموقع في جنوب نهر الإيسونزو هو ما أثار اهتمام الهون.

كانت بلدة أكويليا الحصينة ذات تاريخ مشهود في الدفاع عن الطرف الشمالي الشرقي من الوطن؛ فقبل قرنين من الزمن كان نساؤها قد انضممن إلى القتال لردّ متمرّد هو مكسيمن، بتقديم شعورهن ليجعلوا منها حبالاً لآلية الدفاع عن المدينة، وبُني معبد كُرّس لفينوس الصلعاء تكريماً لهن. وقد شُيّدت هذه المدينة وهي إحدى أغنى المدن الواقعة على البحر الأدرياتيكي وأقواها وأكثرها ازدحاماً بالسكان لتكون بوابة الشرق، وعقدة تصل الطرق البرية من روما بالجنوب وممرّ الألب بالشمال مع الطرق البحرية من البحر الأدرياتيكي.

كانت هذه المدينة أكثر من قاعدة عسكرية فحسب، وتدين بحياتها التجارية النشطة لوجود طائفة كبيرة من اليهود الذين تعرّفهم المصادر اللاتينية بـ«الشرقيين»، ولعلهم كانوا أول من استوطن هذه المنطقة، وأدخلوا نسج الحرير والصباغة وصناعة الزجاج على وجه الخصوص الذي يعود تاريخ صناعته في الشرق الأوسط إلى ألفي عام. وقد كان هؤلاء مَنْ أوحى بشقّ قناة بطول خمسة كيلومترات من البحر عبر ثغر سبخة إيسونزو. وقد تمّ تحليل النتيجة في بحث قدّمه صاموئيل

(1) كانت تعرف في أيام الرومان باسم ايمونا.

(2) لهذا السبب كان الموقع ساحة لما لا يقلّ عن اثنتي عشرة معركة في الحرب العالمية الثانية.

كورينسكي[1]، وهو رجل أعمال يهودي، وصاحب مشروعات خيرية، وباحث يُعنى بتاريخ صناعة الزجاج.. وقد كتب: «ربما تكون الطائفة اليهودية إحدى أوسع طوائف الاغتراب نفوذاً من الناحية الاقتصادية وأشدّها تأثيراً، ولا يفوقها إلاّ الطوائف اليهودية في روما والإسكندرية. وقد عانى اليهود الاضطهاد مع غلبة الأكثرية الرومانية وازدياد انتشار المسيحية في المدينة، وخاصة أيام الأسقف كروماتزو في أواخر القرن الرابع؛ إذ إنه على ما يبدو أجاز إحراق الكنيس في عام 388، ونال العفو من القديس أمبروز على أسلوب مناهضة السامية، باعتبار ذلك «عملاً من أعمال إرادة الله». ومع الزمن أصبحت الأبنية المسيحية تحلّ محلّ اليهودية، كما كشفت تنقيبات علماء الآثار منذ أربعينيات القرن العشرين فصاعداً عن بعض تلك العمائر التي كثيراً ما كانت تصنّف تحت عنوان «المتحجّرات المسيحية» أو «الوثنية» على الرغم من طريقة الرسم والتصوير اليهودية التي تظهر فيها. ومن بين المكتشفات عدة أرضيات غنيّة بالفسيفساء، إحداها تقع تحت برج الجرس لكنيسة مسيحية متأخّرة مستطيلة تسمى «الباسيليقا»، وأخرى ضخمة تزيد مساحتها عن 80 متراً مربّعاً، ما يجعلها الأكبر التي بلغتنا من أيامها، وتقع تحت الباسيليقا ذاتها. وإلى جانبها هناك ميكفاه[2] مثمّن يغذّيه نبع، وله ست درجات كما تنصّ الشرعة اليهودية.

يستحقّ صناع الزجاج في أكويليا الالتفات إليهم برهة، تحت توجيه كورينسكي. وكان فن صنع الزجاج ما يزال سراً عند الأوروبيين حين وصل اليهود إلى الخلجان الواقعة على ساحل الأدرياتيك، فكانت بضاعتهم تحظى بالإقبال في رقعة واسعة، مما كان يثير حفيظة بعض المسيحيين. ومن ذلك ما جعل القديس جيروم الذي نزل مدة في أكويليا يشكو من أن صناعة الزجاج غدت إحدى المهن التي «أمكن للساميين الاستيلاء بها على العالم الروماني». ولقد أثارت اللّقى التي كُشفت حديثاً دهشة الخبراء، وكانت بعض أقدم ما أنتج من الزجاج في أوروبا. وتتالت المفاجآت، وبعضها ما يزال يحفظ أسماء صنّاعها، ويشهد بزهوّهم بأعمالهم، وبعضهم كان من الرقيق، ومنهم على الأقل امراة واحدة. وبرز من بين هؤلاء الزجّاجين اثنان في لينتز على نهر الدانوب، على طريق التجارة الرومانية، عبر جبال الدولوميت[3]. وتشمل القوالب الجاهزة عبارة «Sentia رقم 2 يصنع زجاج أكويليني».

(1) Samuel Kurinsky, "The Jews of Aquileia: A Judaic Community Lost to History, Hebrew History Federation (WWW.hebrewhistory.org/factpapers/aquileia. 28. html)

(2) مغطس شعائري.

(3) تقع في النمسا اليوم على نهر الدانوب، (المترجم).

كثيراً ما كانت أسوار هذه المدينة الغنيّة القوية تقع تحت الحصار، إلاّ أنّها لم تؤخذ عنوة قط إلّا مرة واحدة عندما قاد ألاريك القوط الغربيين نحو روما في عام 401. فإذا كان ألاريك قادراً على هذا الأمر، فإن أتيلا يقدر عليه أيضاً. وكان إيتيوس على يقين أنّه رد الهون إلى قفصهم، فلم يأمر البلدة بالإعداد للحرب.

ولقد جاء العمل في أواخر يونيو/ حزيران من عام 452، ولنا أن نخلص إلى ذلك بفضل البابا وبعض الطيور، وإن كان البابا ليو الأول الذي كتب رسائل في مايو/ أيار ويونيو/ حزيران لم يأت على ذكر أيّ غزو لإيطاليا، وبالتالي ليس من المرجّح أن يكون الغزو قد بدأ في وقت أبكر، ولابد من أنّ حصار أتيلا لم يبدأ في وقت متأخر جداً بحسب ما جاء به مصدر غريب هو طيور اللقلق التي تبني أعشاشها على سطوح المنازل في أكويليا.

تدخل طيور اللقلق القصة لأن هذا ليس بالحصار السريع، ولم يكن مواطنو أكويليا في حاجة إلى أوامر من إيتيوس، فهؤلاء كانوا يعرفون كيف يقاومون هجوماً متى وقع، وهم متمكّنون من الوصول إلى البحر عن طريق النهر. ولا بد من أنّ أتيلا قد بدأ يسمع تمتمات التبرّم من القادة لديه بعد مرور قرابة الشهرين من الانتظار؛ فكم من الوقت عليهم الانتظار على هذه الحال؟ فقد كان في وسع كروم العنب وبساتين الفاكهة والحقول الغنية بالحبوب أن تقوم بأودهم حتى أواخر الصيف، إنما المشكلة في الغنائم، فأين هي؟ يعرض بريسكوس القصة ويرويها يوردانس على لسانه:

كان الجيش قد بدأ يضيق بالحال، ويريد الانسحاب من مواقعه حين جاء أتيلا وأخذ يطوف بالأسوار، ويقلّب في ذهنه الأفكار، وما إذا كان الأفضل أن يفضّ المعسكر أو يطيل المقام أكثر، فلاحظ بعض طيور اللقلق البيضاء التي تبني أعشاشها فوق سطوح المنازل وهي تطير بفراخها بعيداً عن المدينة إلى الريف على عكس عادتها. ولما كان أتيلا نبيهاً حصيفاً جداً فقد وجد نفسه تحت وطأة هاجس يلحّ عليه، فقال لرجاله: «انظروا إلى الطيور، إنها تتنبّأ بما سيأتي، إذ إنّها تترك المدينة المقدَّر عليها الفناء، وتهجر مواقعها المهدّدة التي على وشك الانهيار.. ولا تحسبوا أن هذا أمر يخلو من الدلالة، إنه قدر مؤكد؛ إذ تعلم الطيور ما سيحدث، والخوف مما يأتي يغيّر من عاداتها».

وقد وصف غيبون المشهد، وهو أول حكيم جدير باقتطاف أقواله على النحو التالي:

«لاحظ [أتيلا] إحدى إناث طيور اللقلق تتهيّأ لمغادرة عشّها في أحد الأبراج والطيران بفراخها باتجاه الريف، فاسترعت هذه الحادثة البسيطة انتباهه فوراً، كما هي شيمة رجل الدولة الحصيف،

وهذا ما أفسح المجال للتطيّر، فصاح بصوت عالٍ ونبرة مبتهجة قائلاً: «إن طيراً أليفاً لطالما كان ينجذب إلى المجتمع الإنساني ما كان له أن يهجر مقارّه القديمة إلاّ إذا كانت هذه الأبراج قد شيّدت ليهيمن عليها الخراب والوحدة».

ترى هل في هذه الحكاية الطريفة أيّ قدر من الحقيقة؟ هذا محتمل؛ لأنّ الهون لا بد من أنهم قد أرادوا معرفة النذر وهم يقدّرون أمرها، طبيعية كانت أم من صنع الإنسان (مثل الفأل الذي يقرأ في خطوط الدم قبل المعركة التي دارت في سهول كتالونيا)؛ لأن الرومان والبرابرة سواء بسواء يعتبرون الطيور مخلوقاتٍ ناطقةً بنبوءات، وخاصة الغربان والبوم واللقلق، كما هو العقعق عندنا: «واحد يعني حزناً، واثنان فرح وابتهاج».. لكن لنلتفت إلى اللقالق؛ فهذه حقاً مخلوقات تسيّرها العادة، وأتيلا لابد من أنه أدرى بها من غيبون، وكذلك هو شأننا اليوم، إذ بفضل قرنين ونصف من تاريخ علم الطيور نعرف أن اللقالق على العموم ليس لها اعتياد على الأماكن القديمة، على العكس من أنثى اللقلق الوحيدة في إخلاصها المؤثّر الفريد التي حدّثنا عنها غيبون. فهذه الطيور تهاجر جنوباً لقضاء الشتاء، وطيور اللقلق الأبيض المعروفة باسم سيكونيا تغادر أعشاشها الصيفية في أوروبا بين منتصف أغسطس/ آب وأوائل سبتمبر/ أيلول متّجهة نحو البرّ الأفريقي. وتكون الصغار أوائل الطيور المهاجرة، ومن ثمّ يلحق بها الأبوان. واللقالق التي تسكن الغرب تتخذ طريقاً واحداً في طيرانها، بينما تتّخذ لقالق الشرق خطاً آخر، وتدور هذه الطيور حول البحر الأبيض المتوسط، ثم تنقسم هاتان المجموعتان بدقّة عظيمة عند خط العرض 11° E، على بعد مئتي كيلومتر فقط غرب أكويليا؛ فتحلق الطيور الغربية فوق إسبانيا، أما الشرقية ومنها طيور أكويليا فتطير فوق تركيا والبحر الميت حتى وادي النيل، وتتّجه جنوباً. وحريّ بأتيلا وهو يأتي من هنغاريا أن يكون قد ألف عادات اللقلق الأبيض، وكذلك هو شأن الكهنة الشامان لديه الذين قدموا كما نعلم من السهول الكتالونية برفقة بطانته، وربما كان هناك شامان حصيف يبحث عن إشارة يعتدّ بها وتدعم ما يجول في ذهن أتيلا وتكون تأييداً لخواطره، لكن يبدو مُستبعَداً أن تكون اللقالق تحيط أكثر من سواها بالمداخل والمخارج في حرب الحصار، بيد أنه ربما كان من الممكن في ما أحسب أن ما دفع باللقالق بعيداً مبكّراً كان الدخان وانهيار الأماكن التي تعشّش فيها، وصادف أن كان ذلك في أثناء حصار أكويليا، وبالدقة التي تتّسم بها هجرة اللقلق قبلّ أيام قليلة من منتصف أغسطس/ آب. وليس من قبيل المبالغة تخيّل أن يخرج أحد الشامانات وهو يعرف آمال أتيلا ليتابع الحصار بهذه الملاحظة، وأي حجة لحيازة الثقة أقوى من التلويح بحلول النصر الموعود؟ وأي سند أفضل من قوى الطبيعة وإعلان سقوط المدينة بالقدر ذاته من الثقة التي تبديها الفئران

عند الإعلان عن غرق السفينة؟

وبصرف النظر عن الحجج والادعاءات التي دارت فإنّ المرجوَّ قد تمّ، وقد استعاد الهون معنوياتهم، ممّا حفّزهم على الحنين إلى التكتيكات التي اتُّبعت في الاستيلاء على بايسوس في عام 447، أي قبل خمسة أعوام فقط، وكان تعليق يوردانس على الواقعة قوله: «هل هناك حاجة إلى المزيد ليُقال؟ لقد أوقد قلوب الجنود، وبثّ فيهم الحماسة لتجديد الهجوم على أكويليا». وقام عندئذ خط للحصار: مقاليع لرمي الحجارة؛ و«عقارب»[1]؛ وآلة الكبش لدكّ أسوار المدينة التي تتأرجح تحت التروس، وقد اخترقت هذه التجهيزات أسوار أكويليا في وقت قصير جداً، وكان لها أسوأ النتائج على المدينة، «لقد عملوا فيها تخريباً، ومزّقوها شرَّ تمزيق، وجعلوها أثراً بعد عين»، لكن في هذا القول مبالغة سنعود إليها لاحقاً.

ما الذي قام به إيتيوس والرومان في أثناء تقدّم أتيلا؟ الواقع أنهم لم يفعلوا الكثير مما يمكن أن يقال، بحسب ما ينبّئنا مصدرنا بروسبير، الإخباري والعالم اللاهوتي من أكويتانيا، والذي أصبح أحد كبار رجال الدين وأعلام الأدب في روما، ولعلّه كان أحد المسؤولين في بلاط البابا ليو الأول، وذا آراء جازمة بالغة الاقتضاب، وكان يعدّ إيتيوس شخصاً متبطّلاً وجباناً، إذ إنه لم يتّخذ تدابير احتياطية، ولم يكن يهتمّ بالدّفاعات في منطقة الألب. ومن شأنه أن يهرع إلى ملازمة الإمبراطور طلباً للأمان في الشدائد، إن لم يكن في ذلك ما يضرّ بسمعته. ومع ذلك لم يكن هذا ليلزمه بسلوك معين، كما لو كان قانوناً مقدّساً. وكان لبروسبير أمر يلتزم به، وهو أن يحطّ من شأن إيتيوس ليضع سيده البابا في بؤرة الضوء، فيكون في وسط المسرح، ويجعله يداً بيد مع الرب، في الأحداث اللاحقة. والواقع أن الإمبراطورية لم تتصدّ يوماً للدّفاع عن ممرّ جبال الألب، لأنّه أوسع من أن ينهض طرف للدفاع عنه. ويذكر أنه جرى غزو إيطاليا ستّ مرات إبان القرن الخامس من دون أن يتمّ اعتراض الغزاة مرة واحدة، حتى بلغوا وادي ايسونزو وأكويليا.

والحقيقة أن ما حدث فعلاً بعد سقوط أكويليا غامض؛ فأتيلا قد أغار كما يبدو على بضع مدن في الجوار أصغر حجماً منها كونكورديا وآلتينوم، ولم يتّجه إلى مقرّ حكومة الإمبراطورية في رافينا. ولعله قدّر أنّ هذا الموقع هدف أصعب من أن يناله، أو ربما علم أنّ الإمبراطور ليس في مقره، بل في روما، وعلى أي حال فإنه ثابر على خط سيره نحو الشمال، ملتزماً بحافة وادي البو. وخشية من أن تعاني المصير الذي أصاب أكويليا قامت المدن التالية بفتح بواباتها: بادوا، وفيتشنزا،

(1) هي أقواس ثقيلة لرمي سهام بطول متر.

وفيرونا، وبريشيا، وبيرغامو، وأخيراً ميلانو. وهناك انشغل الهون كثيراً بالنهب والحرق، فتوافر الوقت للمواطنين للهرب. وتذكر إحدى الروايات أنّ أتيلا اتّخذ القصر الملكي سكناً له، ورأى هناك لوحة تصوّر السكيثيين جاثين أمام الإمبراطورين الرومانيين، إمبراطور الشرق وإمبراطور الغرب. وقد استهوته الفكرة، وإن نفر من الموضوع، فأمر عندئذ فناناً من أهل المنطقة برسم مشهد مماثل يصوّره جالساً على عرش والإمبراطورين يهيلان على قدمية ذهباً.

أخذ تقدّم قوات أتيلا يتداعى الآن، والحق أنّ الغازي كان سيتّجه جنوباً عبر جبال الأبنين نحو روما مكتسحاً أمامه كلّ ما يواجهه. ويقول بريسكوس: إن أتيلا كان يتبع خطوات ألاريك عن كثب، ولديه النوايا ذاتها التي كان هذا الأخير يحملها، وقد حذّره الشامان من أنه قد يصيبه القدر ذاته إن هو استولى على روما؛ أي سيحيق به الموت فوراً بعد النصر. والحقّ أن الموت كان يشيع في الجو بسبب الحرّ ونقص الغذاء والأمراض. وعلى الرغم من أن قيظ الصيف قد انتهى فإن شهر سبتمبر/ أيلول يكون ثقيل الوطأة في سهول الشمال في إيطاليا، وكانت المنطقة يومئذ موطناً للبعوض الناقل للملاريا. وقد عانى آخرون مثل هذه المعاناة في وقت آخر، ففي عام 540 «تفشى الزحار والإسهال الشديد بين الفرنجة، ولم يتمكّن الناس يومئذ من التخلّص من هذه الأمراض بسبب افتقارهم للغذاء السليم. والواقع أنّهم يقولون إن «ثلث جيش الفرنجة فَنِيَ وهو في الطريق»، ثم عانى جيش آخر من الفرنجة في عام 553 من العلل ذاتها.

ولعلّ جيشاً على رأسه إيتيوس قد يلقى المصير ذاته لولا جملة قصيرة تثير الالتباس وردت بقلم الإخباري هيداتيوس الإسباني الذي كان يدوّن أخباره في عام 470 مؤيداً هذا الرأي، فعوضاً عن استجابة روما بردّ عسكري شامل، اختارت ردّ الفعل الدبلوماسيّ الذي كتبه بروسبير الذي حرص على تسجيل الدور الذي اضطلع به البابا ليو الأول.

الحقّ أن ليو كان شخصية ذات شأن، وأبرزه بروسبير بما يعتبر اليوم لغة جناح يميني مخيفة. كان انتخاب ليو قد تأخّر بسبب غيابه في عام 440، إذ كان يترقب «بهدوء وصبر عظيمين»، فقد اجتثّ الهرطقة بهمّة تدعو للإعجاب، وأحرق كتباً كما ينبغي له وهو القديس الملهم. كذلك برز وفرض إرادته بوصفه بابا قوياً لحظة اغتيال أيتلا أخاه بليدا وتولّيه السلطة المطلقة في ما وراء الدانوب. كان الزعماء الدنيويّون أمثال إيتيوس أنموذجاً للتيه والطمع والظلم والإلحاد والضلال، وتلك صفات كان ليو منها براء بالمقارنة مع سواه. بل إنه عارض إمبراطور الشرق ثيودوسيوس الثاني الذي أجاز القول في مجمع إفسوس الثاني في عام 449 أنّ المسيح لا يشارك أمّه بالطبيعة

البشرية، وما صلته بالبشريّ إلاّ في الظاهر. ولما مات ثيودوسيوس في عام 450 جاءت أخت ثيودوسيوس بماركيان لينقذ الأورثوذوكسية؛ أي أورثوذوكسية ليو، ومن هنا كان انعقاد المجمع الرابع في عام 451 في خلقدونيا. كان بروسبير يعتبر النساء مخلوقات لا شأن لهن، ولا أثر لهنّ في حساباته وتقديره، ومنهن بولكيريا زوجة ماركيان التي يدين لها بالتاج؛ وغالا بلاسيديا والدة الإمبراطور فالنتينيان؛ وهونوريا الضالة التي كانت احدى أقوى النساء في عصرها.. تلكم نساء لا يأتي على أيّ ذكر لهن. وغني عن القول أن إيتيوس بات أسوأ من متبطّل الآن، وقد أصبح أتيلا يهدّد قلب الإمبراطورية، وانتهى كل أمر إلى ليو.

وبينما كان إيتيوس يعتمد على تقديره، كان ليو يعتمد على الرب. وكان تكليفه بالسفارة إلى أتيلا قد صدر عن مجلس الشيوخ وفالنتينيان الثالث. «كان إيفاده في سفارة إلى الملك الرهيب واستجداء السلام منه أفضل ما يمكن القيام به» فاصطحب معه تريتيوس الذي كان خبيراً مثالياً، وسبق أن خاض مفاوضات مع جيسريك الوندالي في إفريقيا؛ والقنصل السابق أفيتوس، وهو الآن أحد أقوى أعضاء مجلس الشيوخ في روما. وقد يكون الدور الرئيس الذي اضطلع به ليو التفاوض في فدية الأسرى، وهذه مهمة يضطلع بها كبار السفراء حقاً. ومع ذلك فقد كان بروسبير يرى أن ليو والرب قد أنقذا روما فعلاً. ونتيجة هذا الأمر أن الروايات اللاحقة أبرزت الاثنين الآخرين أو جعلت منهما شخصيتين مختلفتين كل الاختلاف عما ورد قبل ذلك.

كان أتيلا على ما يبدو مستعداً للقاء الموفدين الثلاثة، ربما لأنه رأى فيهم انعكاساً لصورة الصفوة لديه، حيث رأس الوفد الروماني الكاهن الأكبر. ويصف بروسبير اللقاء على النحو التالي: «استقبل الملك الوفد كلّه بمنتهى الحفاوة، وقد سرّه أيّما سرور أن يكون الراهب الأكبر قد أصدر أمره بإيقاف الأعمال العدائية، ووعد بالتزام السلام والعودة إلى ما وراء نهر الدانوب».

هكذا في منتهى السهولة.. كان سحراً! والسبب في ذلك أنّ ليو كان في نظر بروسبير تجسيداً للمسيح في تجلّياته البشرية، فقد قال: «المختار يتلقى النعمة»، وقال في مجال آخر: «لا أسمح لهم بالعيش بلا عمل أو تحريرهم من هجمات العدو، وإنما أمكنهم من إتقان العمل وقهر العدو».

وما حدث في ذلك الاجتماع حقاً لايعلم سرّه أحد، ولعل الواقعة تمت كما تذكر بعض المصادر على ضفة بحيرة غاردا «عند المخاضة المطروقة في نهر« مينسيوس»[1]، ولا أتخيل إن كان يجدر بأتيلا السفر قبل ذلك شرقاً لغزو روما، فقد كان ينبغي خوض بعض المفاوضات

(1) يعرف اليوم باسم «مينسيو» الذي ينبع من بحيرة غاردا عند بيسكيرا.

العسيرة. ومن المرجح أن يكون أتيلا قد هدّد إيطاليا بمصير مريع ينتظرها كما قال يوردانس، إلاّ إذا بعثوا إليه «هونوريا مع نصيبها القانوني من الثروة الملكية». وكان من شأن هذا الطلب أن يفسح الطريق لعرض آخر بالمقابل: يُسقط مطالبته بهونوريا إمّا لأنه تمّ تزويجها وباتت في أمان وإمّا لأنها أصبحت «ملتزمة بحياة من التبتل»؛ ولعل الأمرين سيان، نظراً لثورة هونوريا ورفضها لزوجها. أما فيما يتعلّق بمسألة الثروة الملكية فهناك كثير مما يمكن القيام به، من ذلك إطلاق سراح المساجين؛ ودفع المال؛ وتلبية دواعي الشرف.

سرعان ما انتشرت الحكايات عن وقوع معجزة بسبب من عدم توافر معلومات عن هذا الأمر، ولسوف يكون عرض القضية في شرعة الهنغار التي تعود إلى القرن الثالث عشر (Gesta Hungarorum)[1]، وفيها يبدو أتيلا قد وصل به الخوف إلى أن جعله يمتثل بسبب رؤيته لملاك غاضب مسلح، وهذه إحدى القضايا العديدة التي سيتناولها الفصل الثاني عشر. ولا جدال في أن أتيلا لم يكن بالرجل الذي يقيم اعتباراً كبيراً للباباوات. والحق أن لديه كثيراً من المشكلات التي تمنعه من التقدم، كالمرض والجوع، ولا ريب في أنّه أدرك فجأة ما كان ينتظره في زحفه، وأنه قضم أكثر مما يستطيع أن يمضغ. فضلاً عن ذلك أنه بات الآن مكشوفاً إلى حدّ خطير، وهو متوغل عميقاً في إيطاليا، وغدا الآن نصف روما الآخر؛ أي القسطنطينية، أقرب منه إلى هنغاريا.

توجّه أتيلا بحصانه نحو موطنه هنغاريا، وعبر إيسونزو، وقفل راجعاً إلى بلده.

بينما كان الجليد يعود إلى سطح الدانوب في خريف عام 452 عاد يرسل مزيداً من السفراء إلى ماركيان مهدّداً متوعّداً إياه بالخراب والدمار؛ «لأنّ شيئاً مما وعد به ثيودوسيوس لم يتحقّق، وأنه سيُبدي لخصومه من القسوة ما لم يشهدوا مثله من قبل قط».

لكنّ ذلك كان من قبيل التهديد والوعيد، فقد خسر آلاف القتلى فوق سهول كتالونيا، فضلاً عن آلاف الموتى نتيجة إصابتهم بالمرض والأوبئة في إيطاليا. ولقد قصر عن العودة إلى بلاده في الوقت المناسب لينال حصّته من أعشاب مراعي الصيف. كانت خسارته عظيمة، حتى وإن أفادته الحملة الإيطالية بالفدية التي دفعها ليو، إذ لم يكن ماركيان في سبيله لبذل شيء، ثم ها هو ذا الآن على رأس جيش منهك من جديد، وقادة يتوقّعون أن يأتيهم بالعوائد التي من شأنها أن تسعد قلوبهم، كذلك انقطعت السفارات. وفي ذلك الشتاء حلّ على حدود الدانوب صمت كئيب، تاركاً ماركيان في حال من «القلق والانزعاج» وهو يترقّب ما يدبر له أتيلا.. ها قد أتى الربيع ولا بد من

(1) أو تاريخ الهنغار الأوائل الموسوم بـ«مآثر الهنغار»، (المترجم).

أمر يُدبر.

وفي العودة إلى إيطاليا ثانية نجد أن عشرات البلدات عانت من هجوم الهون، أو هكذا ادّعوا لاحقاً، ولم يكن هناك على ما يبدو من أمر سيّئ قدر المصير الذي آلت إليه أكويليا؛ فقد أصبحت عبارات يوردانس تتواتر عبر العصور، كما نقلها المؤرخ غيبون: «يكاد الجيل التالي يكون عاجزاً عن تبيّن آثار أكويليا من خرائبها»، وهناك كتاب آخرون لم يمحّصوا الواقعة كما ينبغي، بل زعموا أن المدينة عانت خراباً شاملاً ودماراً ما بعده دمار.

والحق أن هذا القول ضرب من المبالغة، وقد يمكن تقدير الحقيقة؛ لأنه تمت معرفة بعض الأمور عن أكويليا ما بعد أتيلا.

ما إن مضت ستة أعوام حتى كانت المدينة التي قيل إنها سوّيت بالأرض ولم يعد المرء يتبين حتى خرائبها، قد بعثت من جديد. كانت هناك طائفة جيدة من المسيحيين، وأسقف اسمه نيكيتاس، وقد كتب إلى ليو رسالة في مارس/ آذار 458، وتم حفظ ردّه عليها ضمن مجموعة رسائله. وكان نيكيتاس يحاول التكيف مع أزمة لم يكن سببها الدمار والخراب فحسب، بل الأعمال التي اقتضاها إعادة التعمير، فقد كان الأمر رهيباً على الجملة: أسر انهارت، ورجال وقعوا أسرى، ونساء هجّرن..؛ أما الآن فقد تحسّنت الأمور بعون الله، فعلى الأقل عاد الرجال إلى المدينة. وإذاً فقد أخلى أتيلا سبيل الأسرى بفضل الفدية التي يقال إن البابا ليو قد دفعها لتحريرهم، ولكن كم من أولئك الأسرى مات ولم يتم افتداؤه؟ ثم ماذا حدث لأولئك الذين بقوا أحياء لكن لم تُدفع فديتُهم؟ إنهم إمّا بقوا مستعبدين وإمّا ماتوا وإمّا ظلّوا يعملون في خدمة أحد قادة الهون في هنغاريا.

كان لدى نيكيتاس مشكلتان؛ المشكلة الأولى جرت كالتالي: تزوجت بعض النساء ثانية، وهن يعتقدن أن أزواجهن قد ماتوا. فما هو وضعهن كزوجات الآن؟! الحق أن هذا كان سؤالاً رهيباً تصعب الإجابة عليه، لأن من شأن القرار فيه أن يطيح بمئات الأسر واستقرارها. لكنّ ليو لم يكن على كل حال بالبابا الذي يجنح إلى الشك؛ فقد كان قراره أن الزواج الثاني واجب الإلغاء، والزواج الأول ثابت. وبالمناسبة فإنّ القرار لم يأتِ على ذكر «النساء» اللواتي اتخذهن الهون لأنفسهم، لقد فُقدن إلى الأبد، ولم يشكّلن أيَّ مشكلة دينية.

أمّا الموضوع الثاني فكان يتّصل بوضع العائدين من حيث مسيحيّتهم، فقد أُجبر بعضهم على ما يبدو إبّان سجنهم على الأخذ ببعض طرائق الهرطقة، أو المشاركة في العشاء الرباني على طرائق

الهرطقة، أو التعميد على أيدي هراطقة إن كانوا صغاراً. والحقّ أنّ وصف الهون بالهراطقة يبدو مستغرباً حقاً. والواقع أن المشكلة شاهد على أنّ جيش أتيلا كان خليطاً من الديانات والمذاهب، ويضمّ القوط الذين تحوّلوا إلى الآريوسية قبل قرن. ولعلّ نيكيتاس لم يكن يستطيع التميز بين القوطي والهون، لكن الهرطقة كانت تستفزّ من يتبع البابا. ولقد قضى البابا بأن التحول عن الدين بالإكراه لا يفرض العقيدة الجديدة على المرء، ونص القرار عندئذ على القبول بالعودة إلى أحضان الكنيسة وعقيدتها، ومنحهم الغفران، وضمهم إلى أهل العقيدة الأولى.

وفي نهاية المطاف فرضت المآسي المحلية نفسها، وسرعان ما عادت البلدة التي بُعثت مجدداً غنية بما يتيح للطائفة المسيحية فيها بناء باسيليقا على أنقاض الكنيس اليهودي هناك، إذ يبدو أن اليهود كانوا قد غادروا البلد قبل زمن. والحق أن البلدة كانت سائرة إلى الانحدار. وبعد قرن أدّى هجوم همجي آخر على يد اللومبارديين إلى إبراز انحدارها، واختار كثير من سكانها المضي غرباً حيث أقاموا مستوطنة جديدة في بحيرات وجزر اللاغونا فنيتا، وكانت تلك منطقة غير واعدة إنما آمنة.

ولقد غدت هذه الصلة للكثيرين مجرد بيان يفيد بهرب الناجين من سكان أكويليا من الهون ليؤسّسوا مدينة البندقية التي من المفترض أنها توفر الملجأ الآمن لعدم تجرّؤ الهون على الخوض بخيولهم في منطقة الغمر حولها. وقد يكون يهود أكويليا قد قادوهم إلى تلك المنطقة، إلاّ أنّ الغالبية المسيحية منهم كانوا قد انتشروا أبعد من ذلك. ولم يحمل أسقف أكويليا بولص حلّة المنصب حتى عام 569 إلى بورغرادو التي تقع على مسافة 10 كيلومترات جنوب أكويليا، بعد غزوة أخرى قام بها البرابرة، وبعيداً قدر ما يستطيع المرء التوغل في البحر الأدرياتيكي، من دون أن تغامر بالغرق. ومن هناك انتقلت السلطة بعد قرن آخر من المنافسة إلى البندقية. وفي القرن التاسع أخذت البندقية بتحويل القنوات إلى أقنية، وتصل بين الجزر بجسور، وتنشئ وضعاً جديداً وضخماً يلهم الكتّاب اللاحقين إلى إحالة ما هو مثقل على النفس ومزعج في الواقع التاريخي إلى أقاصيص شعبية مختصرة ذات دلالة ومغزى.

وما تزال البندقية تحافظ على صلتها بالجذور الأكويلية وتقاليدها، وتفيد منها صناعة السياحة، وما يزال القوم على الجزيرتين مورانو وبورانو القريبتين يعملون في صناعة الزجاج بفضل الجارية سنيثيا وشركائها في أكويليا قبل أن يقلب عليهم أتيلا عالي عالمهم سافله.

10

موت مفاجئ وقبر سري

قلّما حظيت فتاة بشهرة كبيرة من دون قيامها بأيّ عمل، ولقد عرفت باليونانية واللاتينية باسم إلديكو، وهو عند المؤرخين يماثل هيلديكو بالألمانية. ربما كانت أميرة جرمانية أرسلها أحد التابعين البعيدين ليضمن نيل البركة من أتيلا. كان لأتيلا يومئذ زوجات كثيرات، ولم يكن ذلك لأنه ذو طاقة جنسية هائلة، بل لأن تقديم النساء ذوات العراقة كان ضرباً من التعبير عن الإجلال والإكرام، وحيازتهن وسيلة لتأكيد الهيمنة على الأتباع البعيدين الذين لا يُطمَأنّ إلى ولائهم. وقد نقل إلينا يوردانس وهو يقتطف نصاً ضاع لبريسكوس أن إلديكو كانت فتاة فائقة الجمال. ولا نجد مصدراً آخر يذكرها. وقد كانت هذه - على أي حال - آخر زوجات أتيلا، وتم اختيارها أو إرسالها إلى أتيلا في ربيع عام 453.

وما حدث ليلة زفاق أتيلا على إلديكو يخبرنا به بريسكوس الذي كان قد رافق أتيلا طوال أربع سنوات قبل ذلك. ولعل تلك الأحداث شغلته بسبب شغفٍ استبدّ به يومذاك، وكان الرجل يرافق قائده القديم مكسيمنوس في أعلى النيل وهو يتدبّر فصلاً فرعياً آخر في الخلاف القديم حول الإلهي والإنساني في المسيح. وقد بُعث هذا الجدل مجدداً في عام 448 حين قال قسّ عجوز يدعى أوتيخا بالطبيعة الواحدة للمسيح، وأنها إلهية، وليست من البشرية في شيء. ولقد احتدمت الخلافات أشد الاحتدام، وتداخلت فيها من جديد السلطة في كل من روما والقسطنطينية. ومن ثم حاول المجمع المسكوني الذي عُقد في خلقدونيا في عام 451 أن ينهي هذا الجدل بالقول بأن المسيح إنسان يجمع في شخصه «طبيعتين»، فيكون بفضل اصطلاحات مثيرة للحيرة «إنساناً وإلهاً» في آن واحد. لكن المجمع أعلن بالمحصلة مساواة روما بالقسطنطينية التي يكون لها السلطة على منطقة البلقان وكافة مناطق الشرق. ولقد ثارت ثائرة روما، وكذلك كان حال القائلين بالطبيعة الواحدة في مصر، وهم الذين التزموا بالفكرة القائلة إن للمسيح طبيعة واحدة فحسب. وبينما كان بريسكوس ومكسيمنوس يفاوضان جماعتين منشقتين من المصريين مات مكسيمنوس. وفي أوائل عام 453 كان بريسكوس قد عاد لتوّه إلى القسطنطينية ليجد المدينة ما تزال في فوضى عارمة أثارتها المجادلات الدينية. وقد قيل إنه أشار على الحاكم العسكري في المدينة بأفضل الإجراءات للسيطرة على الاضطرابات التي عمّت المدينة. ويبدو أنه كانت ثمة صلات جيدة بين اليونان والهون بفضل أحد الوسطاء القوط من الذين يُجيدون اللغات، وهو الذي حمل الأخبار المروعة من هنغاريا.

لقد ضاع النصّ الأصلي الذي وضعه بريسكوس، لكن يوردانس كان قد نقله، وفيما يلي رواية يوردانس لما جرى بعد العرس حين اختلى أتيلا بعروسه الشابة الجديدة:

اعتاد أتيلا أن يستغرق في القصف الصاخب واللهو والملذّات.. وكان ثملاً، فاستلقى في الفراش على ظهره، واستغرق في النوم. فأصابه عندئذ نزف شديد، والدم الذي يكون الخلاص منه يسيراً عادة عن طريق الأنف لم يعد يجري في مجراه المعتاد، وإنما صار يتدفق إلى حلقه حتى كتم أنفاسه وقضى عليه. وهكذا أتى الشراب للملك بنهاية يندى لها الجبين، بعد أن كان يفوز بالأمجاد في الحرب. وفي اليوم التالي، وبعد أن مضى من النهار معظمه، أخذ أعوان الملك وقد راودهم شعور بأن وراء الأكمة ما وراءها بالصياح عالياً أولاً، ثم اقتحموا الأبواب، فوجدوا أتيلا سليماً من كلّ جرح، وميتاً بسبب النزف، والفتاة تبكي وقد جلّل الانكسار وجهها الذي كان تحت غطاء الرأس.

تتصف التفاصيل هنا بأنها مقنعة؛ فها هي ذي: فتاة صغيرة السن، وشراب كثير، وما من إشارة تدلّ على المرض، وليلة حمراء، وجثة هامدة، وفتاة تبكي وتنوح، وغطاء ساتر، فما الذي حدث؟! لقد اشتغلت الذاكرة، وأُثقلت بالعمل في موضوع إلديكو: أميرة نالها الضيم وأصبح الانتقام شاغلها، خنجر مخفي، سم، ومن يدري أيّ تدبير آخر سيشغل الذهن؟! ولقد دارت مثل هذه الروايات عقب موت جنكيزخان، وذهبت إلى أنه قتل في مكيدة دبرتها زوجته الأخيرة للانتقام منه. أما البشر العاديون فيكرهون ملوكهم ويتمنّون لهم الموت؛ والأمر يتطلّب ظهور شهب ونذر ومأساة قاسية. لكن ما كان يُفتقد يومئذ إشارة إلى الوقت الذي تقع فيه المأساة، والصدمة التي أصابت إلديكو تناقض هذا المذهب. والأرجح أن أتيلا وهو في منتصف الخمسينات كان يعاني يومئذ من تدهور كبير في صحته. لكن الإجابة ما هذا التدهور؟ أعتقد بأنه يمكن الإجابة عن هذا السؤال بالاستعانة ببعض التفصيلات الطبية.

لقد تحدث التقرير عن نزيف دم من الأنف والفم، وحسبنا من ذلك إيحاء مؤثراً أنّ الملك توفي وهو - إذا جاز التعبير - في كامل طاقته الخلّاقة، أو بعبارة أخرى، بنوبة قلبية، نوبة كان الجنس السبب فيها. لكن النوبة القلبية لا تحدث نزفاً خارجياً. والنزف لا يكون إلاّ عن عضو ذي صلة بالفم: الرئتان، أو المعدة، أو المري. أمّا الرئتان فليستا عرضة للنزف فجأة، ويكون النزف عندئذ بطيئاً بعد سنوات من معاناة مرض عضال، مثل السل، ويبقى بعد ذلك المعدة والمري.

لنأخذ المعدة أولاً؛ فقد يكون الرجل قد اختنق بالقيء، لكنّ موضوع القيء لم يرد على لسان

أحد، بل إن ما استولى على انتباه حجّابه كان الدم. وهناك عندئذ احتمال بأن يكون مصدر الدم قرحة المعدة وقد استفحل أمرها منذ حين، من دون أن تظهر أعراضها، فالقرحات ليست مؤلمة دوماً، ويذكر أن التوتر من أسباب نموّ القرحة، وكان نصيب أتيلا منه أكثر من سواه. ولعل ما خلّفته السنون من الحملات القاسية قد زاد منها شعور أليم بأنه قد بذل كل ما لديه، وأنه ما كانت لتوجد إمبراطورية للهون عظيمة من سكان بلاد الغال والهون، ناهيك عن الممالك الشرقية والغربية التابعة للقسطنطينية وروما [لولا هذا الجهد الذي نهض به]. ولو أنه كان يعتقد بأن القدر (السماء الزرقاء؛ أو إله الحرب؛ أو أي رب يعبده شاماناته) قد شاء أن يحكم العالم لعلم اليوم أنه حتم عليه أن يتنازل فيقبل ما هو أقل من ذلك الذي صورته له مطامحه. والواقع أن هذه كانت نهاية المطاف، وإذاً فلعلّ ما حدث هو أن القرحة أفلتت من عقالها، ما أدى إلى التقيؤ، وهذا يؤدي عادة إلى الاستيقاظ من النوم، لولا أن استغراقه في النوم كان بتأثير الشراب والإرهاق.

وهناك احتمال آخر أعتقد بأنه أكثر إقناعاً من سابقه؛ فلقد عُرف عن الهون شدة إقبالهم على الخمر، ولا يقتصر ذلك على شرابهم الخاص من جعة الشعير فحسب، بل كانوا يقبلون على النبيذ الذي يستوردونه من روما، وكان النبيذ هو ما ذكره بريسكوس في أثناء العشاء مع أتيلا. وقد ظل أتيلا يستهلك الكحول طوال عشرين سنة مضت، وربما كان يستهلك منه كميات كبيرة[1]. وهناك حالة يسبّبها إدمان الشراب تعرف بارتفاع ضغط الدم، وتؤدي إلى دوالي المري. ومؤدّى العبارة ببساطة توسّع أوردة المري، ومن شأن هذه الحالة أن تؤدي إلى تمزق الأوردة دونما إنذار، ويؤدي ذلك إلى تدفق الدم على نحو مفاجئ، وحين يكون الرجل مخموراً ومستلقياً على ظهره فإنّ الدم يصل إلى الرئة مباشرة، فإذا كان مستيقظاً أو صاحياً واستقام جالساً ونزف فإنه في الأرجح سيتعافى، لكن الشراب والتوتر وضعف العروق في حلقه اجتمعت على الأرجح وأدّت إلى موته، فأصبح غارقاً في دمائه.

وهكذا استيقظت إلديكو البريئة المسكينة لتكون بجانب جثة هامدة، وليس لها إلاّ أن تبكي وقد نالت منها الصدمة، وباتت تخشى طلب العون أو حتى فتح الباب عندما جاء الحجاب والحاشية بعد أن لاحظوا الصمت الغريب وراحوا يصيحون ويصرخون.

ويتابع يوردانس الرواية، ويخبرنا أن النبأ شاع وانتشر، وأخذت الحاشية تتنادى، واجتمع القوم وقد ران عليهم الذهول، فقد فاجأتهم الحقيقة الرهيبة، وأخذوا عندئذ بمراسم الحداد التقليدية التي

(1) تذكّروا عادة الهون بإفراغ الكأس في كل نخب.

يعبر فيها الناس من كل مذهب ولون عن طرائقهم في الحداد والحزن. وراح القوم في هذه الحالة بعينها يسحبون السكاكين ليقطّعوا خصلات من شعورهم، وتلكم هي عادة ربما لازمتهم على مدى القرون الثلاثة الماضية منذ أيام الهيونغنو الذين وجد علماء الآثار في قبور ملوكهم والأمراء ضفائر شعر اجتثت من جذورها. كذلك أخذ الرجال يجرحون وجناتهم، وذلك فعل يفسّر وجود الندوب في وجوههم، وهو ما ورد في وصف عدد من الكتاب للهون. وكما كتب يوردانس عنهم فإنهم «كانوا يعمدون إلى تشويه وجوههم المخيفة أصلاً بجروح عميقة تعبيراً عن الحزن الذي يشيّعون به المحارب البارز، لا بالدموع والعويل مثل النساء، بل بدماء الرجال الزكية». كان هذا الطقس شائعاً لدى قبائل عديدة من منطقة البلقان على امتداد آسيا الوسطى، وأصبح الآن معروفاً جداً في الغرب. ويستذكره سيدونيوس في مديح بطله أفيتوس: «إنك في احتمالك الجراح تتفوّق على من يعني النواح لديهم إحداث الجروح بأنفسهم، وشقّ الخدين بالحديد، وتقوير آثار الندوب الحمراء على ملامح الوجه الرهيبة».

ولقد سُجّي جثمان أتيلا على بساط العشب في خيمة حريرية على مشهد من الناس الحزانى لموته، وحول تلك الخيمة تحلق جماعة من الفرسان، «على النحو المعروف في تشكيلات ميادين الخيل، بينما ألقى أحد كبار أعوانه مرثيّة في تأبينه، ويبدو أنها تكرّرت بالكلمة والحرف لدى بريسكوس، وإن كانت قد تُرجمت حرفياً من لغة الهون إلى القوطية فالإغريقية، ومنها قدم يوردانس نسخة باللغة اللاتينية، ومنها بلغنا في النهاية النص التالي:

«إن سيد الهون الملك أتيلا بن مندزوك سيد أشجع القبائل قد ملك وحده بقوة لم تجتمع لأحد من قبل مملكتي سكيثيا وجرمانيا، ولمّا استولى على مدنهما أثار الهلع في كلا الإمبراطوريتين الرومانيتين، وراحتا تتوسّلان إليه بالصلوات ودفع الإتاوة سنوياً إرضاء له ليحمي بقاياهما من النهب، فلما وفق مسعاه بإنجاز ذلك كله لم تنل منه ضربة من عدو ولا خيانة، بل ظل آمناً بين قومه، سعيداً مبتهجاً لا يصيبه ألم. فمن يخطر بباله أن يكون هذا موته، وهو يرى أنه ليس هناك من أحد ينادي بالانتقام؟».

لطالما حثت هذه الكلمات العلماء على بذل الجهود في تحليلها، بل لقد جرت بعض المحاولات الشجاعة لتقديم نسخة منها بلغة القوط، لكن من دون جدوى، لأنه لا يمكن البرهان على أنّ المصدر هوني حقاً، ناهيك عن أنه يستحيل البرهان على أنّ النص قد حمل شيئاً من الأصل. لكن ما لا ريب فيه أن بريسكوس كان يعتقد بأن هذا النصّ أمين ومطابق تماماً للخطاب

الذي ألقي، وإلا فلماذا أخذ منه تلك المقتطفات بهذه الدرجة من الدقة، لربما كان متلهفاً وهو يأخذ تلك المقتطفات ليقدم تقريراً يكون دقيقاً في تصوير الحزن الذي أصاب الهون، وإن لم يكن قد عُرف عن الهون تمتّعهم بالمقدرة الشعرية. وجلّ ما في وسع قوم أتيلا قوله عنه أنه كان ذا ذراع طويلة في النهب، ومات من دون أن يدع لهم ذريعة ليقتلوا أحداً في الثأر له. وكما قال مينيشين - هيلفين: إن الخطبة كانت أشبه بخطاب في نعي رجل عصابات أمريكي».

ويستمر وصف النواح الطقسي، والسهر قرب جثة الميت، واستعراض حزين، واحتفال بحياة عاشها صاحبها على أفضل نحو"[1].

وحين حلّ الليل تمّ إعداد الجثمان للدفن، وقد قام الهون بأمرٍ ما سنعود إليه بعد قليل، «أولاً بالذهب، وثانياً بالفضة، وثالثاً بصلابة الحديد. ويقول بريسكوس من خلال يوردانس: إن المعادن كانت رموزاً؛ فالحديد إشارة إلى إخضاعه الأمم، والذهب والفضة يعنيان الكنوز التي نهبها. وبعدئذ «أضافوا الأسلحة التي غنموها من الأعداء في الحرب، والحلي والتزويقات التي تزين الخيل وتستخدم فيها مختلف أشكال وأنواع الأحجار الكريمة، وهي علامات تشير إلى أمجاد الملوك».

فماذا كانت وظيفة هذه المعادن؟ تفيد معظم الترجمات أن «توابيته» كانت تثبت بها، وعنها تروى حكاية مضحكة ما انقطعت تُردّد وتقول: إن أتيلا دفن في ثلاثة توابيت حملت جثمانه، واحد من الذهب؛ وآخر من الفضة؛ وثالث من الحديد. ويسلم غيبون بالأسطورة باعتبارها واقعة، ويوردها بلا تعليق، وكان من نتيجة هذه الأسطورة أنّ أجيالاً من الباحثين عن الكنوز نشؤوا على أمل العثور على قبر ملكي يضمّ هذه الكنوز.

تلقى هذه الفكرة قبولاً واسعاً في هنغاريا، بل إنها دخلت مناهج التعليم في المدارس باعتبارها واقعة تاريخية لا يأتيها الباطل من أي جانب، ويعود الفضل في رواج هذه الفكرة رواية غيزا غاردونيه «الرجل الخفي» التي تصوّر أتيلا وهو مسجى، بينما يضحّي كبير الشامان بحصان

---

(1) يقول يوردانس أو بريسكوس: إن الهون كانوا يسمون هذا الطقس «سترافا»، وهي الكلمة الوحيدة الباقية منذ ذلك الوقت ويمكن اعتبارها هونية، وغدت معقد آمال عظيمة أن تكشف المزيد من مفردات هذه اللغة. وقد اتفق العلماء الذين ظلوا يتجادلون طوال ما يزيد على القرن على أمر واحد هو أن الكلمة لا تنتمي إلى التركية، مما يعني بما يقرب الجزم أنها ليست في النهاية هونية. وهناك عدة خبراء يقولون إنها كلمة تشيكية وبولونية من القرون الوسطى المتأخرة، وتعني «الطعام»، وبمعنى ما «مأدبة الجنازة»، وإن يكن من التخمين القول إن كان الهون قد استعاروا الكلمة قبل ألف عام، أو أن محدث بريسكوس قد استخدمها عرضاً.

أسود خلف النعش، والكاما الأعمى يستفتي أرواح الهون الأموات في النهج الذي ينبغي أن يكون عليه الدفن.

وجاء الجواب «ادفنوه في ثلاثة توابيت. وليكن الأول من الذهب، مثل أشعة الشمس، لأنه شمس الهون؛ والثاني من الفضة، مثل آخر المذنّب، فقد كان أتيلا مذنّب العالم. ولتكن مادة الثالث من الفولاذ، فقد كان قوياً مثل الفولاذ».

وهذا هراء، إن مُحصت تلك الأقوال فكم من الذهب يحتاج صنع هذا التابوت؟ حسناً، فإني مخبركم: قرابة ستين ألف سنتمتر مكعب، وقيمته خمسة عشر مليون دولار اليوم، وهذا ليس بالأمر الضخم بمعايير اليوم؛ أي طن من الذهب، ولا يكلف كثيراً من حيث إنتاج الإمبراطورية السنوي، إنما يظل يعادل الإتاوة السنوية التي تدفعها القسطنطينية، لكن تذكّروا أنّ مصادرها جفّت قبل وقت طويل، فلو كان الهون يملكون هذا القدر من الذهب لما اضطر أتيلا لغزو الغرب، ولكان لديه الآن ما هو أفخم كثيراً من قصر من الخشب وحمام واحد من الحجر. ولو كان لديهم هذا المقدار من الذهب فهل يعقل أن يبلغ بهم الغباء عندئذ حدّ دفنه تحت التراب؟

وما يزال لديهم بعد تابوتان آخران، كلاهما أضخم من ذاك التابوت الأول. والحجم هنا مئتا ألف سنتمتر مكعب من المعدن! والحق أنه ليس هناك من إمبراطور دُفن مع ثروة بهذه الضخامة. زد على ذلك أن إذابة هذا المقدار من المعادن وطرقها وتشكيلها يستغرق شهوراً، ولسوف يزيد وزن المعدن على ثلاثة أطنان. أمّا معالجة هذه الأطنان ونقلها فعملية ضخمة، ويتطلب حملها ستين رجلاً وعربة هائلة ومجموعة من الثيران، وكان هذا طقساً يفترض بأن يتم سراً في هزيع متأخر من الليل. والأمر كله ضرب من الجنون المطبق، ولا يحتاج إلى مزيد من الإسهاب.

ولقد تم نبذ القصة ليس على يدي غارودنيه، بل تدبّره وتفحّصه ومحّصه حتى أدق تفاصيله مدير متحف تسيغيد، وهو شخصية بارزة، حتى إن المتحف صار يسمى باسمه (متحف مورا فيرنيك)، فمضى يتقصّى أصل الرواية إلى كاتب في القرن التاسع عشر، يدعى مور جوكاي، وقد حملها بدوره من الراهب آرنولد ايبولي الذي زعم في عام 1840 أنه نقلها عن يوردانس في وقت كان من لهم صلة بيوردانس قلة قليلة حقاً. لكنّ الأرجح أنه عرف بها عن طريق رواية غيبون. وعلى أي حال، فإن إيبولي قصّر عن فهم الرواية أو تعمّد اختلاقها لمجرد عرض رواية ممتعة.

ولو أنكم نظرتم في ما كتبه يوردانس حقاً لما صادفتكم توابيت معدنية، وذلك أن اللاتينية تأتينا بحلّ أقرب إلى الواقع: (Coopercula ... Communiunt)؛ وترجمتها: «قووا الأغطية»،

لكن ليست هناك إشارة لكلمة (arcae) (توابيت)، وإن استخدمت الكلمة في صيغة الفعل لاحقاً في الرواية. والآن بدأت القصة تصبح مفهومة، فقد نكون - في أفضل الأحوال - نتحدث عن تابوت خشبي، يتم فيه وضع بعض الأشياء الثمينة، مثل بعض الشرائح الذهبية المستخدمة لتزيين الأقواس. أما الغطاء فيغلق بملاقط صغيرة رمزية ذهبية وفضية وحديدية. ولقد صادف أن تمّ العثور على مثل هذه التوابيت بالضبط بين آثار الهيونغنو التي اكتشفت في نوين أولا في منغوليا.

أين هي إذاً الكنوز التي يفترض بأنها دفنت مع جثمان الميت؟! لقد كتب بيتر تومكا يقول: «كان جثمان الميت مسجى في تابوته وهو يرتدي ملابس رسمية. ولا بد من أنه تم تقديم هدايا من الطعام والشراب، وأحياناً أدوات بسيطة مثل السكاكين أو الملاقط». لكن لا يضع القوم أشياء غالية الثمن في التابوت ذاته. وإذا كان يمكن اعتبار كنز البابونهالما يتألف من أشياء ذات رمزية دينية مزينة بقشور الذهب، لكن ليس بينها البدن، بل مجرد أشياء يهتدي بها، إذ يُدفن البدن والممتلكات الثمينة لدى الملك منفصلين بعضهما عن بعض، فما ينشده المنقبون عن الكنوز وعلماء الآثار فهو جثة محفوظة في صندوق من الخشب يرجّح أن يكون قد تلاشت الآن في السهل الذي يغمره فيضان نهر تيسا، ومجموعة من الممتلكات الشخصية الصغيرة الأثيرة لدى الملك.

تشعر في متحف تسيغيد بقربك من أتيلا بقدر ما أمكنك الاقتراب منه، خاصة وأنت في صحبة المدير الحالي بيلا كرتي الذي يتولّى أمور الأشياء التي قد يكون أتيلا ذاته قد استخدمها. ويفسر كرتي، وهو رجل ذو بدن ضخم ولحية وخطها الشيب كيف وصلت هذه الأشياء إلى المتحف:

بطل هذه القصة رجل في الثمانينيات من العمر، يعيش في ضيعة في سهل الغمر في تيسا، تبعد اثني عشر كيلومتراً جنوب غرب تسيغيد. وقد اشتهر بالينت يوزيف (وإذا شئت «جوزيف بالينت») الذي كان يعمل سابقاً في مزرعة، بفضل ما وقع عليه حين كان في الخامسة من عمره. فالمكان أصغر من أن يُلحظ على الخريطة، إنما هناك بحيرة تحمل الاسم ذاته: ناريساكيشوش (هكذا تلفظ). كان يوماً رائقاً في أوائل صيف 1926 حين كان يوزيف الصغير قد خرج مع أسرته حيث أخذ يلعب، بينما راح أفراد الأسرة يزرعون القرع. شاهد الطفل عندئذ شيئاً يبرز من التربة التي تمّت فلاحتها قريباً، فراح الطفل ينبش في التراب، فخرجت بيده آنية معدنية غريبة الشكل، بدا أنها مليئة بالثقوب، وقد بلغ عددها 39 فجوةً انتظمت في ثلاثة صفوف، فعرضها الطفل لأمه. كانت هذه اللقية كآنية غير ذات نفع كلياً، فهي قذرة وممتلئة بالثقوب. فالتقطت الأم مطرقة ومضت تسوّي الآنية حتى أصبحت مستديرة وأشبه بالتاج. قالت الأم عندئذ لطفلها: «ستصبح الآن ملكاً»،

فأمسك الطفل بالآنية وأخذ يلعب بها في زريبة الخنازير. لقد كانت ثقيلة، فلم يكن في وسعه أن يحملها فوق جسمه، فراح يدحرجها مثل الإطار في وسط المزرعة، ثم أضاعها ونسي أمرها تماماً.

بعد ستة أشهر عثر أحد عمال المزرعة على هذه الآنية من جديد، وخطر لأحد أفراد هذه الأسرة أنه ربما كان لها أهمية، فقام بتنظيفها، ودهش حين وجد أنها من الذهب، فقسمها إلى ثلاثة قطع، وحملها إلى صائغ في تسيغيد ليثمّنها، ولخوف هذا من خرق القانون أبلغ الشرطة عن هذه اللقية، فقام هؤلاء بدورهم بتقديمها إلى متحف تسيغيد. وعندئذ صارت إلى يدي مدير المتحف مورا فيرينك، وقد مضى مورا فوراً إلى المزرعة ليتحادث بلطف ويوزيف الصغير الذي أشار إلى المكان الذي اكتشفت فيه هذه الآنية. ظهرت بعدئذ القطعتان الباقيتان من هذه الآنية. وبعدئذ جاء طلب رسمي بالسماح لعلماء الآثار في المتحف بالتنقيب في حقل اليقطين الذي يملكه بالينت، ولقد استنكر بالينت الأب هذا الطلب!.

مضت ثمانية أعوام، ومات مورا، وأتى خليفته الذي كان رجلاً أشدّ تصميماً، وعاد إلى ناراساكيشوش، وأصدر أمراً بالتنقيب هناك على الرغم من اعتراض السيد بالينت، وعندئذ تم اكتشاف أعظم كنز خلّفه الهون على الإطلاق، كانت محصلته 126 قطعة: (إبزيم نطاق، وحلقات عنق، وقطع زينة من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة، ولجامات أحصنة، وتزيينات سروج خيل، ومشابك صنادل، وقطع من سيوف، وخناجر مزخرفة، ومماسك أدوات خشبية، وقطع من سروج الخيل والسياط، وأوان، وقدور). وهناك قطع أخرى عثر عليها فبلغ مجموع اللقى 200 قطعة، معظمها صغير يبلغ حتى الكيلوغرام من الذهب. وقد استنتج علماء الآثار من مشابك الأحذية أن هذه اللقى كانت تخصّ واحداً من نخبة الهون، وربما أكثر من واحد. ويتفق الخبراء أمثال اشتيفان بونا وبيتر تومكا على أن القطع المكتشفة كانت من المواد التي تُقدّم في الجنائز، وليست - وهذه ملاحظة بالغة الأهمية - جزءاً من عملية الدفن، ولم يُعثر على عظام في مزرعة بالينت، ولا كان هناك رماد، ولا أثر للتل الذي كان مدفناً وزال.

أما الإناء فإنه بالمناسبة - قد رُمّم الآن وعاد إلى حاله الأصلي، ومكانه بارز في المتحف الوطني ببودابست ضمن الكنز الذي يعدّ كوري خبيراً ومرجعاً فيه، وهناك نسخة مقلدة عن الآنية في متحف تسيغيد. وثمّة عدد من اللقى في بلاد فارس تظهر أنّ الفجوات كانت تضمّ تزيينات من الزجاج أو الأحجار شبه الكريمة، مما يعني أنها ربما كانت تستخدم في شرب الأنخاب في مآدب العشاء الرسمية، كالمأدبة التي وصفها بريسكوس، وهذه صراحة قطعة خشنة بدائية من الأشغال.

لكن المرء يفاجأ بوصول هذا العمل إلينا من ذلك الموقع، ومن ذلك الإنسان، وتلك اللحظة، حين كان أتيلا في ذروة مجده، قبل أربع سنوات فحسب لتصبح الآنية تقدمة في جنازة.

كان مقرراً أن تقام جنازة حزينة ودفن سري «في الأرض» وليس هناك من إشارة إلى مقبرة وتل. وإذا كان الدفن يتفق وتقاليد الدفن الملكية لدى الهيونغنو لوجدنا عندئذ حفرة عميقة فيها حجرة وقبر خشبيان حيث يوضع التابوت، ويُعاد بعدئذ ردم الحفرة.

تتصف عبارة «سرّي» بأنّها هامة، فقد دفن جنكيزخان سرّاً، وكذلك خلفاؤه. وللسرية غرض مزدوج، الظاهر منه تضليل لصوص المقابر (وكلاهما عارف بالأخطار، المغول من [لصوص، م] مقابر النوين أولاً في تلال أوطانهم، والهون من اهتمامات أسقف مرغوس قبل سنوات قليلة من موت أتيلا)، والثاني الحفاظ على حرمة الموقع، وبالتالي حماية هالة القداسة التي تحيط بالإمبراطور. أما في حالة الحكام المغول فقد عانت حاشياتهم مشكلة، حيث كان الجميع يعلمون تقريباً موقع المدافن، وهو جبل برخان خلدون المقدّس، ويعرف اليوم باسم خان خنتي في شمال منغوليا. وقد لجأ المغول في تمويه القبور إلى استخدام الخيول في خضّ التربة، كما كانوا يطوّقون المنطقة كلها بالحراس، ثم يتركون الحشائش والأعشاب تنمو، وبذلك تسهم في تمويه المنطقة. وبعد جيل لا يعود في وسع المرء أن يتبيّن المواضع والمواقع التي ما تزال خفية حتى يومنا هذا.

أما حالة أتيلا فكانت قضية مختلفة، لأن ثمة طقوساً تقليدية على ما يبدو كان القوم يؤدونها لتكريم ذكرى رحيل رئيس إحدى القبائل البدوية الدائبة الترحال. لكن الهون الذين أقلعوا عن حياة الترحال لم تتجاوز إقامتهم في هنغاريا إلاّ جيلين، وبالتالي ليس ثمة موقع تقليدي مقدّس يصلح ليكون مقبرة لزعماء الهون، حتى إن كان لديهم ذكريات بعيدة (لم يثبت ذلك) عن أجدادهم الهيونغنو، فليس في جوارهم منطقة جبلية يمكن أن تكون بمثابة جسر يصل بين الأرض والسماء. وليس ثمة كثير من الخيارات إلاّ مقبرة بسيطة في السهل.

ذلكم ما يعتقده الهنغار، مع إضافة بسيطة من غاردونيه. فأين يدفن الملك؟!

أجاب العجوز كاما متبعاً نصيحة المشورة الإلهية: «إنّ نهر تيسا يحفل بالجزر الصغيرة، فأبعد المياه عن الفرع الأضيق بينها في أحد مواقع النهر حيث ينشطر، واحفر هناك قبراً شديد العمق في سرير النهر المكشوف، ثم اعمد إلى توسيع الحوض حتى تزداد الفجوة سعة والقاع عمقاً.. وبعد دفن الملك دع المياه تتدفق من جديد».

ونتيجة لذلك وجدنا أن كثيراً من الهنغار في يومنا هذا، والدولة إلى جانبهم في الواقع، يؤمنون بأن أتيلا دفن في نهر تيسا حقيقة.

وكيفما تم الدفن فلا بد من أن تجري طقوسه سراً، وهذا الأمر ينطوي على مشكلة في سهل هنغاريا الكبير الواسع والمنبسط. ويخبرنا يوردانس نقلاً عن بريسكوس كيف جرى هذا:

«فلكي تتمّ المحافظة على هذه الثروات العظيمة من تجاوزات المتطفّلين عمدوا إلى ذبح أولئك الذين كُلّفوا بالعمل، وذلك جزاء رهيب! حيث جمع الموت المفاجئ بين أولئك الذين قاموا بعملية الدفن والمدفون على حد سواء».

إن هذا جدير بنظرة متفحصة، فقد كان تقليداً شائعاً في كل أنحاء أوراسيا عند موت الملك أن يتم ذبح الحيوانات والأرقاء، وفي أنيانغ في الصين يمكن للسياح أن يشاهدوا موقع دفن رهيب، حيث دفن جيش صغير إلى جانب قائده الملك، إذ توجد هياكل عظمية لبشر وأحصنة وعدد كبير من العربات. وليس الأمر أنّ المشهد يصوّر عرفاً شائعاً؛ لأن العبيد والجند كانوا يُعَدُّون موجودات ثمينة، لذلك صاروا يستخدمون مع مرور الأيام نماذج بدلاً من الكائنات الحية، وهكذا وجدنا أنموذج جيش إخيانا الشهير من الصلصال المشوي.

ننتقل الآن إلى موضوع قتل حفاري القبور حرصاً على السرية؛ فقد كان يوردانس بقدر ما أعلم أولَ من ذكر ذلك لعلاقته بهذه القضية، وقد لا يكون هذا مفاجئاً باعتبار أن أمر دفن ملك عظيم كان يقتضي تكريس نصب تذكاري في شكل تل للدفن، وهناك المئات من هذه التلال في هنغاريا وأوكرانيا وجنوب روسيا، حتى آسيا، وصولاً إلى القبور الملكية للهيونغنو في منغوليا. ويذكر أن السرية لم تكن أمراً ذا أهمية، لكن مسألة السرية إنما برزت من جديد مع دفن جنكيز خان، وليس مصادفة انتشار فكرة مماثلة هي «الحرص على أن يكون موت الخان العظيم سراً، واقتضى ذلك قتل كل الحاشية المرافقة للجنازة على امتداد الطريق». وقد رويت هذه القصة لماركو بولو عن حفيد جنكيز خان مونك، ثم صدقت القصة على حاشية جنكيز خان ذاته. وتبدو الرواية غير ذات فائدة عملية حين تتعلق بالمغول، وليس هناك ما يفيد في إيضاح طريق الحاشية من خط من جثث الموتى والأسر الحزانى.

أما في حالة أتيلا فلربما كان الأمر مختلفاً، فذلك ظرف فريد؛ لأن هذا الحاكم الهمجي حقق من الأعمال ما لم يبلغه أحد سواه، وليس هناك سابقة لا مثيل لها. فدفن في الليل من دون مصطبة أمر يبدو لي واقعياً، فإذا كان بريسكوس قد اختلق القصة كلها، أو أنه لم يستجب إلاّ للنماذج

الكلاسيكية الأثيرة لديه فإنه ينتقل عندئذ للحديث عن الندب وموت الضحايا وتلال الدفن.

فكيف تحفظ سراً؟ يتناول مينيشين هيلفين من جديد الفكرة بشيء من التعالي، فيقول إن قتل العمال الذين تولّوا دفن الملك لا يحول دون نهب القبر؛ لأن الآلاف ربما شهدوا عملية الدفن ذاتها. وبعدُ، فمن يا ترى قتل القتلة بعدئذ؟ الحق أنه لا يمكن للمرء أن يحدّد هؤلاء بثقة، فليس من العسير تنظيم العملية طالما كان لدى الهون قوة عاملة من القبائل الجرمانية والبلقان وبلاد الغال ومن إيطاليا يمكن الزجّ بهم في حملات. ولقد شاهد بريسكوس بعضهم في هذه الرحلة، ومضى يقارن بين التاجر اليوناني الناجح والمساجين ذوي الوجوه المتجهّمة والمكتئبين المستخدمين في مقر أتيلا.. لم يكونوا الهون ليتورعوا عن القتل[1]. إنه لمن اليسير قتل رجل كما النعاج، بل إنه لا يسرّ في الواقع، لأنه لك حين تتناول الخروف أن تقلق قليلاً بشأن نوعية اللحم، فليس من الضروري أن تقفز قفزة واسعة من الجروح التي تنزلها بنفسك إلى ذبح خدم البيت.

بوسعي أن أتخيل جمعاً من المساجين - وليكن عددهم خمسين - يساقون لحفر قبور، وهم لا يدرون ما هو مصيرهم لأن معرفة الأمر تقتصر على قلة من علية القوم؛ ثم يتقدم الموكب وآلاف الهون يبكون؛ ويقوم صفوة القوم بتوجيههم للعودة إلى بيوتهم في جماعات صغيرة؛ ويكون التقدم بطيئاً؛ وعدد الحراس يصل إلى الخمسين أو نحو ذلك من الجنود الهون وحملة أغطية النعوش؛ والندب؛ والعمل البطيء في ملء القبر وتمويه الموقع بعناية؛ وتجريف البقعة؛ أو حتى منطقة يغمرها عما قريب فيضان الربيع الذي يجود به نهر تيسا؛ ومن ثم يصطفّ المساجين، ويستمر المسير في غمرة الظلام؛ وحين بلوغ الفجر في السماء الشرقية يتم توزيع المساجين في جماعات، ويتمّ قطع الرقاب بسرعة، وينفّذ كل حارس من الهون عملية إعدام أو اثنتين في دقيقة واحدة أو تزيد.. وغنيّ عن القول أنّ هناك من الهون من كان يعلم بالسرّ، لكنّ هؤلاء سيكونون حراساً على وديعة مقدسة، وأمناء على السرّ حتى تموّه الفصول وفيضانات نهر تيسا البقعة وتغمرها إلى الأبد..

---

(1) تذكروا الأميرين اللاجئين اللذين حكم عليهما بالموت على الخازوق!

11

آثار قوم بادوا

سرعان ما باتت في مهبّ الريح تلك الإمبراطورية التي كانت تبدو في منتهى العظمة، إذ إن أتيلا الذي كان أعظم قائد برز من السهوب حتى ظهور جنكيز [خان، م] لم يتّخذ الترتيبات الملائمة لخلافته. وقد رآه بريسكوس يغدق الحب والحنان على ابنه الأصغر إرناك، ويلقي المسؤوليات على ابنه الأكبر إيلاك. إلاّ أن الحفاظ على وحدة الإمبراطورية يتطلّب أكثر من التمنيات. وكان جنكيز قد قام بما هو صائب، فقبل وفاته بثمانية أعوام أسّس جهازاً إدارياً، ووضع قوانين مكتوبة، وبياناً رسمياً بشأن من ينبغي أن يتولّى مقاليد الحكم عند وفاته. أما أتيلا فكان أشبه بالأب الذي يرحل من دون أن يخلّف وراءه وصية، ممّا أدى إلى نشوء نزاع بين أبنائه الذين كان عددهم ومعهم زوجاته جميعهن من الكثرة بحيث كادوا يشكلون عشيرة فرعية، فقد تشاجروا حتى على الأجزاء الصغيرة من ميراثه، وراح كل واحد منهم يطالب بنصيبه زاعماً بأنه حتى الأعوان يجب أن يوزّعوا بالتساوي بينهم؛ وكأن هؤلاء يعملون خدماً لدى هذه الأسرة.

كان المغول يمتلكون حكايات عن قادة، بينهم جنكيز وسواه بالتأكيد، بيّنوا لأولادهم أنه بينما يكون من اليسير كسر سهم واحد، فإن حزمة من السهام تكون عصية على الكسر؛ أي إن الوحدة قوة، أمّا أتيلا وأسرته فلم تكن لديهم حصافة من هذا القبيل. وعلى حد قول يوردانس: «نشب النزاع على المنصب الأسمى بين خلفاء أتيلا؛ لأن الطموح إلى السلطة كان يثير عقول الشبان، وفي خضمّ اندفاعهم الطائش لتولّي الحكم أنزلوا جميعاً الخراب والدمار بإمبراطوريته».

وإذا كانت المصادر عما حدث عندما كان أتيلا في السلطة هزيلة، فإن الصلات بالعالم الخارجي أصبحت الآن شبه مقطوعة. ولا يتوافر لدينا بخصوص ذلك إلا أشد العموميات بساطة. إذ ينبغي ألا يعامل زعماء قبائل كانت تتمتع بالاستقلال ذات يوم معاملة الخدم، فما كان منهم إلاّ أن ثاروا غاضبين، ولربما كان القوط الشرقيون أول الثائرين. بيد أن التمرد الرئيس قاده أرداريك زعيم الجيبيداي، وهو أبرز حلفاء أتيلا، وكان قد دعم سيده في حملة البلقان في عام 447، وشكّل الجناح الأيمن في السهول الكتالونية، آما الآن فقد شكل تحالفاً ليسترجع حرية القبائل الجرمانية من حكامهم الهون.

ووفقاً إلى يوردانس اندلعت في عام 454 معركة عظيمة لا نعلم شيئاً عن تفاصيلها؛ ولا نملك إلاّ اسم نهر نيداو في بانونيا، مع أنه لم يأت أي مصدر آخر على ذكر نهر نيداو، حيث اختفى الاسم والموقع من الذاكرة منذ ذلك الحين، حتى إن مينيشين – هيلفين أشدّ المختصين بالهون

حماسة لهم لا يملك إلاّ القول إنه ربما كان رافداً لنهر سافا الذي يصبّ في نهر تيسا عند بلغراد. وعلى أي حال فقد تكلّلت المعركة بانتصار كبير لأرداريك الذي قيل إنه قتل ثلاثين ألفاً من الهون وحلفائهم، وهو عدد ينبغي اختزاله إلى العشر كالعادة إذا أردنا أن يكون قريباً من الواقع. وقد كان من بين القتلى إيلاك ابن أتيلا الأكبر.. «وهكذا انهار الهون، أولئك القوم الذين اعتقد البشر أن العالم بأسره لا بد من أن يخضع لهم».

وعلى هذا النحو استولى تحالف الجيبيداي على الأراضي التي كانت خاضعة للهون وعلى علاقتهم المتوترة بالإمبراطورية، وتم إيفاد السفراء إلى القسطنطينية، فاستقبلهم بحفاوةٍ ماركيان الذي وقف بالمرصاد لأتيلا مترقباً بقلق خطوته التالية. ولا ريب في أنه شعر بارتياح كبير حين علم بالأحداث التي جرت ما وراء الدانوب، ومنح أرداريك عن طيب خاطر مساعدة بلغت مئة رطل من الذهب سنوياً؛ أي ما يعادل جزءاً من عشرين من مجموع المبلغ الذي كان سلفه قد دفعه لأتيلا.

وما إن رحل أتيلا حتى أصبح العالم الإمبراطوري مكاناً أفضل إلى حد ما، وأدى انقسام البرابرة إلى جعل التعامل معهم أيسر. وجرت عملية إعادة توطين واسعة النطاق للقبائل الصغيرة: فمنح القوط الشرقيون أرضاً في بانونيا؛ وانقسم الهون الباقون إلى مجموعتين، إحداهما على شاطئ البحر الأسود، والأخرى انتشرت على طول ما يعرف اليوم بالحدود الصربية البلغارية؛ واستمرت الصراعات الأصغر وخاصة بين الهون الغربيين وأعدائهم القدامى القوط الشرقيين. ويذكر يوردانس معركة قام الهون فيها «باعتبار القوط خارجين عن حكمهم، وأخذوا بملاحقتهم كأنهم عبيد هاربون»، وقد تلقَّوا ضربة شديدة، وبرز قائد هوني جديد يدعى تولديلا، حيث يذكره سيدونيوس في إحدى قصائده التي نظمها عام 458 في مديح الإمبراطور ماجوريان والتذلل له: «قوم أنكروا طاعتك فحسب، قوم قاموا مؤخراً - وكانوا في مزاج أشد وحشية مما هم عليه عادة - بسحب مضيفهم الفظ من الدانوب، بسبب فقدانهم قائدهم في الحرب، وأثار تولديلا في هذا الحشد الجامح شهوة جنونية للقتال».

ولقد أعادوا الكرة عامي 465 - 466 حين انضمّ دنجزيش أحد أبناء أتيلا - وكانت لديه قاعدة على السافا في بقعة تبعد مسافة خمسة وسبعين كيلومتراً إلى الغرب من بلغراد - بالانضمام إلى إرناك الأثير لدى أتيلا عندما كان ما يزال حياً. وأوفد سفيراً إلى القسطنطينية ملتمساً من الإمبراطور ليو الأول[1] أن يعيد إقامة السوق على ضفاف نهر الدانوب، لكن ليو رفض ذلك.

(1) تولى الحكم ما بين عامي (457 - 474)، وهو ليس البابا ليو الأول (440-461)، وكان كل من البابا والإمبراطور

وقد اندلع القتال آخر مرة عندما قام دنجزيش وآخر الهون الأوروبيين بعبور الدانوب المتجمد في عام 467 فارضاً نفسه على جماعة من القوط في محاولة يائسة لإعادة ترتيب المنطقة. وقد بعث دنجزيش رسالة إلى القائد الإمبراطوري المحلّي أناغاستس يبيّن فيها استعداد رجاله للاستسلام، شريطة أن يكون لديهم مكان يدّعون أنه حق لهم، وأردف قائلاً بأنهم في حاجة إلى جواب على جناح السرعة لأنهم «يتضوّرون جوعاً ولا يمكنهم الانتظار أكثر من ذلك»، وقد جاء جواب الإمبراطور محابياً للهون مما أثار غضب القوط، فراحوا يهاجمونهم بضراوة. ودافع الهون عن أنفسهم، وتدخل الرومان، مما شكّل عبئاً ضخماً أثقل كاهل الهون في أوروبا، فاستماتوا في القتال حتى النهاية بعد عامين؛ أي في عام 469 كما أشار إلى ذلك مصدر موجز يعود إلى مطلع القرن السابع وهو («الحوليات التاريخية الشرقية») ولقى دنجزيش حتفه على يد أناغاستس، وجُلب رأسه إلى القسطنطينية فحُمل في موكب اخترق الشارع الرئيس، وثُبت فوق سارية على الصليب الخشبي حيث يمكن للمدينة بأكملها أن تشاهده»، ولا يعلم أحد مصير إرناك.

تمكّن قلة من الهون من النجاة، واندمجوا مع قبائل أخرى أو تفرق جمعهم ببطء نحو الشرق، وتبدّد شملهم أشبه بالغبار بعد الانفجار، وغرقوا عائدين إلى عالم الأحلام الذي انبثقوا منه قبل قرن من الزمان.

ومثلما تلاشت بقايا إمبراطورية أتيلا في الشرق تلاشت بقايا إمبراطورية روما في الغرب، ويعدّ المؤرخون أن انهيار هذه الإمبراطورية أمر اتّسم بالفوضى؛ فطوال أعوام لم يكن في الجيش الروماني أيّ من الرومان الأقحاح. ولربما أطلق على إيتيوس لقب «آخر الرومان»، بيد أن جيشه المرابط في السهول الكتالونية لم يكن له شأن يذكر لولا القوط الغربيين، والفرنجة، والبورغونديون من جملة أقوام أخرى. وحدها الآلهة كانت تعلم ماذا بإمكانه أن يفعل. لقد أزال اختفاء أتيلا تهديداً كبيراً، إلا أنه خلّف وراءه كثيرين سواه يتصارعون فيما بينهم على جسد روما المتعفن، ومع ذلك فإن أتيلا لم يختفِ تماماً، بل امتد تأثيره ليتجاوز القبر الذي يضمّ رفاته، وظل اسمه عالياً خفاقاً من خلال الأحداث والشخصيات، بينما كان الشطر الغربي للإمبراطورية الرومانية يهدر مندفعاً في طريقه إلى الفناء.

كان بعضهم طوال عدة أعوام يعدّ إيتيوس منقذ روما وحصنها المنيع في وجه البرابرة، إلى أن اضمحلّت جهوده كافة بفعل نهاية مثيرة تبعث على الدهشة؛ فق وقع ذلك في روما، حيث كان

يدعى باسم ليو الأول طوال أربعة أعوام (457 – 461).

الإمبراطور البائس فالنتينيان يؤسّس بلاطه من جديد. فمنذ رحيل أمه وملاذه غالا بلاسيديا في سنة 450 لم يجد فالنتينيان أحداً يأخذ بيده ويرشده إلى جادة الصواب. وعلى حد قول غيبون: «بلغ عمره خمسة وثلاثين عاماً من دون أن يصل إلى سنّ الرشد أو يتحلّى بالشجاعة». وكان يعير أُذنه للإصغاء إلى ضروب الهراء كافة، ولا سيما ما كان يهمسه في أذنه السناتور البارز والقنصل مرتين بترونيوس مكسيموس. كان سيدونيوس ذو الإنتاج الغزير قد وصف بترونيوس البالغ من العمر ستين عاماً بأنه «أحد قادة روما، ويمتلك طموحاً لا يمكن إشباعه، وأن أسلوبه في الحياة ينافي الذوق السليم، شأنه في ذلك شأن ما كان يقيمه من مآدب، وتبذيره، وحاشيته، وأنشطته الأدبية، وممتلكاته، ورعايته للآداب والفنون». وكان أيضاً شديد الارتياب بإيتيوس الشهير، وثروته، وأصدقائه أصحاب المناصب العليا، وجيشه الخاص من البرابرة. وقد جعله هذا كله المسؤول الأشد سطوة في الإمبراطورية الغربية. وألمح بترونيوس إلى الإمبراطور من خلال خصيه ومستشاره المقرّب منه هيراكليوس بأن إيتيوس ربما أوشك على القيام بانقلاب. ولعله كان يعتزم تأسيس سلالة حاكمة جديدة، إذ إن ولده غودينتيوس قد خطب يودوسيا بنة فالنتينيان، وأشار إلى أن الأمر بيد فالنتينيان، فيبادر بالهجوم، أو يُهاجَم.

في أحد أيام سبتمبر/ أيلول من عام 454 حينما كان إيتيوس يعقد اجتماعاً مع الإمبراطور وبجانبه الخصيّ هيراكليوس، شرع القائد بمناقشة موضوع الإسراع بزواج ولديهما. ولعله كان ملحاً جداً، ولربما بدا ذلك دليلاً على خطة يبيّتها للاستيلاء على السلطة. ومهما يكن من أمر، وسواء كان فالنتينيان في لحظة غضب مفاجئ أم أن الهجوم مدبَّر، فقد قفز فالنتينيان من فوق عرشه واتّهم إيتيوس بالخيانة، واستلّ سيفه «وكان هذا أول سيف يجرّده من غمده في حياته» وفق عبارات غيبون المشحونة. وعند هذه اللحظة استلّ هيراكليوس سيفه، وحذا حذوه حراس آخرون، وتحت هذا العدد الكبير من السيوف سقط إيتيوس الأعزل جثة هامدة.

وبمصرعه سقطت روما ذاتها على نحو أسرع، ويفترض أن رومانياً قال لفالنتينيان معقباً على هذه الحادثة: «لقد تصرّفت مثل رجل قطع يده اليمنى بيده اليسرى!» وكان إيتيوس بوصفه صديقاً للهون، وربما لأتيلا، ومن ثم عدواً لهم، قد أقام جسراً بين عالمي الرومان والبرابرة، وحافظ على التوازن المتقلقل بينهما، وبناءً على ذلك لم ولن يحلّ محله أحد على الإطلاق.

كانت الأمور تسير على خير ما يرام حتى الآن مع بترونيوس، وعلى نحو سيء جداً مع روما، وقد كان ينتظرها ما هو أسوأ، إذ إن هيراكليوس الخصيّ الذي يعيره الإمبراطور أذناً مصغية قد

حثّ سيّده على أن يتجنّب استبدال بشخص طموح (إيتيوس) شخصاً آخر (بترونيوس)، ولم يحظ بترونيوس بأيّ شكر أو مكافأة على المكيدة التي دبّرها. ولدى غيبون حكاية عن اغتصاب الإمبراطور لزوجة بترونيوس لا داعي لتكرارها؛ لأنّ غيبون لا يكشف عن مصدره، وكان لدى بترونيوس ما يكفي من الأسباب التي تدفعه للانتقام من فالنتينيان.

تملّك بترونيوس شعور بالسخط، فراح يدبر مكيدة أخرى، فتقرّب من اثنين من الحراس البرابرة، هما: أوبتيلا وثراوستيلا اللذين سبق لهما أن عملا في خدمة إيتيوس، ويعملان الآن في خدمة قاتله فالنتينيان، بيد أن ذلك لم يكن له أهمية تذكر بما يتصل بما كان يتّخذه الإمبراطور من إجراءات للتقويم. وبعد مرور ستة أشهر على مقتل إيتيوس توجّه فالنتينيان في ربيع عام 455 إلى كامبوس مارتوس، ميدان مارس، الذي كان ذات يوم أراضيَ مستنقعية تقع شمال المدينة عند منعطف نهر التيبر، لكنه الآن جافّ، وانتشر البناء على معظم أراضيه. كان الإمبراطور متوجّهاً لممارسة الرماية برفقة وحدة عسكرية صغيرة، وبعدما ترجل عن صهوة جواده اتّجه نحو المكان المقصود ومعه هيراكليوس وهذان الحارسان البربريان. وبينما كان يتهيّأ لإطلاق سهامه ضربه أوبتيلا على صدغه، وحين استدار عاجله ثراوستيلا بضربة أخرى - أعتقد بقضيب شائك - فأردته قتيلاً. وصرعت ضربة أخرى هيراكليوس. ويبدو أن الإمبراطور الضعيف والجبان قاتلَ نجم روما إيتيوس كان مكروهاً جداً، حتى إن الحرس الإمبراطوري لم يحرّك ساكناً للدفاع عنه، ثم قفز القاتلان إلى ظهر جواديهما وسابقا الريح متجهين إلى بترونيوس للحصول على مكافأتهما.

لم يترك فالنتينيان وريثاً، وبرحيله اضمحلّت سلالته الحاكمة، ومات كذلك الأساس الأخير لانتقال السلطة، فبايع مجلس الشيوخ بترونيوس إمبراطوراً. إلاّ أنّه بعدما بلغ القمة لم يجد إلاّ اليأس. فقد وجد نفسه على حين غرة وحيداً، وبلا حقّ شرعي بالعرش، ولا يحظى بشعبية، وضعيفاً في وجه أحداث خارجة عن سيطرته.

كان الإمبراطور الوندالي جيسريك يراقب مجريات الأحداث عبر البحر الأبيض المتوسط، إذ هاجر أسلاف جيسريك في حركة انتقال كبير من شمال الألب عبر إسبانيا إلى أفريقيا. ويُعِدّ الآن لإكمال الدائرة من خلال اجتياحه إيطاليا بحراً من الجنوب. ولطالما كان لدى جيسريك اهتمام شديد بما يجري على البرّ الرئيس، لأنكم ستتذكرون، بأن ولده كان قد أثار عداوة ملك القوط الغربيين ثيودوريك باقترافه ذلك الفعل الشنيع بحق ابنته. كان جيسريك قد أمل بأن يكون أتيلا قادراً على معاملة كلٍّ من القوط الغربيين والرومان. بيد أن أمله هذا تبدّد على سهول كتالونيا. أما

الآن، وبعد رحيل إيتيوس وفالنتينيان، وعرش قاتلهما بدأ يتزعزع، لاحت الفرصة أمام جيسريك؛ فبعد مرور ثلاثة أشهر على تنصيب بترونيوس مكسيموس إمبراطوراً رسا أسطول وندالي ضخم عند مصب نهر التيبر.

كم هو مسكين بترونيوس! فقد كان لقبه «الأوفر حظاً» أو «المحظوظ» بسبب ما حققه من نجاح، لكن بعد مضيّ عشرة أعوام كتب سيدونيوس عن حسن طالعه المفترض قائلاً: إنني شخصياً سأرفض على الدوام أن أدعو ذلك الرجل الذي يعمل على حفظ توازنه وهو يحتل موقعاً يتسم بالتحدر والانزلاق بلقب «المحظوظ»، لقد تحقق لبترونيوس كل ما تمناه، ولكن الآن، وبعدما علا شأنه قض الدوار مضجعه. «وعندما حمله الجهد العظيم إلى مقام الإمبراطور وهو فاغر فاهه من ذهوله أخذ رأسه يدور تحت ثقل التاج لمرأى هذه السلطة الهائلة، فهذا الرجل الذي لم يكن يطيق أن يكون له سيد، لم يقوَ على أن يكون سيداً». ومن دون حق شرعي في تولي العرش ومعارضة رجال الإدارة له، شعر بأنه سجين في قصره، «وندم على نجاحه حتى قبل أن يحلّ أول مساء». كان إنجازه الوحيد إعادة تعيين أفيتوس حاكماً فعلياً لبلاد الغال يحدوه الأمل بأن يستخدم مهارته الدبلوماسية في بسط هيمنته على ستّ من قبائل البرابرة. وفي الوطن كان بترونيوس عديم الجدوى، فحتى لو علم باقتراب الأسطول الوندالي فإنه لم يكن ليفعل شيئاً تجاهه. وعندما رسا في أواخر مايو/ أيار رأى الهزيمة تلوح أمامه.

لقد تملّكه شعور بالذعر، وفرّ هارباً من القصر لتتلقّفه فوراً أيدي الرعاع الذين كان عجزه وجبنه يثيران سخطهم، فراحوا يرجمونه بالحجارة ويطعنونه حتى الموت، ثم مزقوه إرباً إرباً، ورموا أشلاءه في التيبر.

ترى من الذي سيحاول إنقاذ المدينة؟! إنه ذلك الرجل الذي كان خبير روما في التعامل مع أولئك البرابرة؛ أي البابا ليو الذي خرج للقاء أتيلا قبل أربعة أعوام. لكنه في هذه المرة لم يصادف النجاح المرجوّ، إذ لم يتعرّض جيسريك للناس بأذى، لكنه في عملية استغرقت أسبوعين جرّد المدينة من ثرواتها، بما في ذلك سقف الكابيتول البرونزي المطلي بالذهب، والشمعدانات والمنضدة المصنوعة من الذهب التي تم الاستيلاء عليها أصلاً من القدس في سنة 70 م، ورياش القصر، والمجوهرات الإمبراطورية، ومئات السجناء، ومن بينهم الإمبراطورة ذاتها وابنتاها وابن إيتيوس.

وبعد بضعة أيام بلغت أنباء تلك الفاجعة أفيتوس الذي كان حينها في تولوز مع أصدقائه أفراد

العائلة الملكية القوطية الغربية، بغياب ثيودوريك الأكبر الذي سقط في سهول كتالونيا، وكذلك من دون ولده ثوريسموند الذي عاد إلى الوطن بإصرار من إيتيوس ليضمن حقّه في وراثة العرش. كان كل شيء يسير على ما يرام طوال ثلاثة أعوام، على الرغم من وجود بعض أولئك الذين لم يتقبّلوه. ومن ثم اعتلّت صحة ثوريسموند فحاد الحظ عنه، ومال إلى جانب أعدائه؛ فقد أخذ الدم ينزف من أحد عروقه وهو جالس على كرسي بلا مسند، فقام خادم خائن بإرسال خبر مفاده أنه وحيد وأعزل، فاقتحم القتلة المكان، ورفع ثوريسموند كرسيه - وفقاً لرواية يوردانس - وضرب به بعض مهاجميه قبل أن يردوه قتيلاً. وتسلم زمام الحكم شقيقه ثيودوريك الأصغر الذي يُعتقد أنه كان العقل المدبر لتلك الجريمة. إذاً، فقد كان ثيودوريك هذا يرأس بلاط القوط الغربيين عندما وصلت أخبار الاستيلاء الثاني لقبائل البرابرة على روما، حيث تمّ الاستيلاء الأول على يد ألاريك جدّ ثيودوريك إبان زحف القوط الغربيين نحو الغرب قبل نصف قرن من الزمان.

من الجلي أن أفيتوس كان كلفاً بهذا الشاب الرياضي، لأن صهره سيدونيوس قد وصفه على نحو متملّق، فجعله أشبه بالنجم الساطع. كانت قامته أميل إلى الطول، وذا بنية قوية، وشعر متموج طويل يتدلّى فوق أذنيه، وله حاجبان كثيفان، ورموش طويلة، وأنف معقوف، وعضلات مفتولة، وفخذان أشبه بالقرن القاسي، وخصر نحيل، وكان يعتني بنفسه على نحو جيد، فقد اعتاد أن يحلق له الحلاق ذقنه كل يوم، ويشذب شعيرات أنفه كذلك!. وكان إدارياً جيداً، يبدأ يومه بالصلاة حيث كان يعتنق الآريوسية شأنه في ذلك شأن معظم القوط الغربيين، لكن ربما لم يكن يأخذ ذلك على محمل الجد، ثم يُجري لقاءات رسمية مع من يلتمسون أن ينصفهم، ويستقبل الموفدين الأجانب. أما منتصف النهار فكان الوقت المخصص لممارسته الصيد والرماية. ويقدم طعام الغداء له ببساطة دون التباهي بعرض الأطباق الفضية لتطغى على المحادثة. وكان يتبادل عدداً قليلاً من الأنخاب، ولم يعرف عنه أنه قد ثمل. وبعد ذلك، يأخذ قيلولة قصيرة، ثم يتلهّى بلعبة الضامة التي تجمع بين ضبط النفس والصحبة الجيدة. وعلى العشاء قد يكون هناك بعض وسائل التسلية: ليس بالاستماع إلى الموسيقيين أو المغنين إذ لم يكن ثيودوريك ميالاً إلى الموسيقا على الإطلاق، بل كان يكتفي بمشاهدة فنان إيمائي من دون أن يرافق ذلك ما هو ساخر أو مؤذٍ. ثم يتلقى مزيداً من الالتماسات، وبعدها يخلد إلى النوم بحماية حراس مسلحين. وقد برزت في بلاط البرابرة الراقي هذا، على نحو ما، فكرة مفادها أن ثمة إمبراطوراً جديداً محتملاً بين ظهرانيهم في تولوز، ويصف سيدونيوس المشهد في قصيدة مديح وتذلل:

اجتمع زعماء القوط، وكانوا حشداً أشعث، يرتدون ثياباً كتانية فضفاضة ملطخة ببقع الدهن، وعباءات جلدية، ونعالاً مصنوعة من جلد الحصان، فكان مظهرهم على النقيض من مظهر أميرهم الأنيق. وقد توجه إليهم أفيتوس بالخطاب، حاثاً ثيودوريك الأصغر على تجديد الالتزام بالسلام: «إنك - كما يشهد الشيوخ هنا - من حملته هاتان اليدان وأنت تبكي، وضمتاك إلى هذا الصدر، إذا اتفق أن حاولت المرضعة أن تحملك وأنت غير راغب في ذلك». من يا ترى يمكنه أن يقاوم؟ والجميع يلحّون على قضية السلام، وقد أقسم ثيودوريك - الذي كان أفيتوس قد قام بتهذيب أسلوبه الخشن في طفولته بنفسه - بأن يصلح الأخطاء القديمة من خلال الانتقام من هجوم الوندال على روما، وذلك - وهناك يكمن بيت القصيد - «إذا قمت أنت فحسب، أيها القائد الشهير، بإطلاق اسم أوغسطس على نفسك».

أطرق أفيتوس رأسه إلى الأسفل متظاهراً بتواضعه وعدم جدارته بهذا التكريم.

سأله ثيودوريك «لماذا تشيح بوجهك؟ ثم تابع مستطرداً: «إن ممانعتك لتزيدك ألقاً... وإذا امتلكت الآن زمام القيادة وجدتني صديقاً لروما».

واستجمع بعدَ شهر أقطابُ بلاد الغال قواهم من أجل هذه القضية. وقد كان أفيتوس في سبتمبر/ أيلول في روما، وفاز بدعم شحيح من أعضاء مجلس الشيوخ المتشكّكين. وألقى سيدونيوس قصيدة مديح في تمجيد الإمبراطور الجديد مشدّداً فيها على ما حقّقه من نجاحات في ما مضى، وشرعيته الحالية، ومستقبله المجيد حتماً.

لكن في هذه المملكة الممزقة الأوصال لا يضفي النجاح السابق أيّ شرعية حالية، ولا يقدم أي ضمانة لمستقبل مجيد. فقد سقط معظم بلاد الغال بأيدي الفرنجة والبورغونديين وقطاع الطرق الباغودا، واستولى القوط الغربيون على المنطقة الجنوبية الغربية، وسرعان ما سيستولون على معظم أراضي إسبانيا، وتولى الجرمان على اختلاف قبائلهم الحكم في أراضي الراين، ووقع شمال أفريقيا في أيدي الوندال، وهيمن القوط الشرقيون على الدانوب. لذا لم يبق الكثير، اللهم إلا إيطاليا ذاتها فحسب. بيد أن السلطة لم تكن الآن بأيدي الإمبراطور أو مجلس الشيوخ بل بيد الجيش، فهو المدافع الوحيد في وجه أي هجوم. وكما بيّن إيتيوس فإنّ من يحكم الجيش يحكم الإمبراطورية الغربية (التي أخذ يتسرب إليها الوهن). وبرحيل إيتيوس أسند أفيتوس منصب القائد العام إلى شخص من غير الرومان هو رسمر الذي كانت والدته من القوط الغربيين ووالده من السويفيين. وقد استطاع رسمر إنقاذ إيطاليا من هجوم بحريّ آخر قام به الوندال في عام 456،

وهكذا أثبت نفسه أنه القوة الحقيقية في الأراضي تلك ولو مؤقتاً.

لم يحظَ بشعبيةٍ في روما أفيتوس الذي كان من نبلاء الغال ولديه جيش خاص من البرابرة، إذ سرعان ما فقد عزّه. وفي عام 456 كان المحصول سيئاً، وهددت المجاعة البلاد، فرأى أفيتوس أن خير وسيلة للتقليل من عدد الأفواه الجائعة تكون في حلّ جيشه الخاص، إلاّ أنه قام بصهر بعض التماثيل البرونزية التي لم يستولِ عليها الوندال لكي يدفع لهم كامل مستحقاتهم. فخرجت الحشود إلى الشوارع احتجاجاً على ذلك، ولم يحرّك رسمر وجيشه ساكناً لحماية إمبراطورهم. فما كان من أفيتوس إلاّ أن فرّ هارباً وعاد إلى آرل. ثم أعاد جمع وحداته العسكرية، لكنه مُني بالهزيمة على يد رسمر قرب بياشينزا. وقد كان رسمر المنتصر شهماً، حيث ترك أفيتوس يتراجع على نحو لائق، لكنه توفي في طريق عودته إلى موطنه.

لقد ضاع أثر أتيلا موضوع بحثنا هذا في السنوات العشرين التي تلت انهيار روما. فقد تخلل ذلك تعاقب سبعة أباطرة على الحكم، وخلوّ العرش لمدة من الزمن، واغتيالات واغتصاب للعرش في روما، وجرائم وصراع بين ممالك البرابرة، ويستلزم هذا كله وضع كتاب لسرد ما جرى على نحو مفصل، وقد أدى ذلك كله إلى ما يشبه نهاية الإمبراطورية الغربية في عام 476 عندما قام أحد البرابرة ويدعى أودواكر بخلع رومولوس آخر الأباطرة الرومان.

لم تكن تلك بالنهاية المشرفة، مما مردّه إلى أن البرابرة كانوا قد تمركزوا لمدة طويلة أمام أبواب المدينة وداخلها، بحيث إن التغيير في رأس الحكم من روماني إلى بربري كان انتقالاً رمزياً أكثر منه كونه عملياً. وفجأة أصبح من اليسير أن نرى من جديد تأثير أتيلا وقد فعل فعله؛ لأنّ كلاً من رومولوس آخر الأباطرة الرومان وأودواكر أول الأباطرة البرابرة كان يدين بحياته لأتيلا. ففي مصادفة غريبة كان والداهما أوريستيس وإديكا على التوالي مسؤولَيْن في بلاط أتيلا وزميليْن في عام 449 في السفارة المشؤومة التي وصفها بريسكوس، وقد علم رومولوس بهذا كله من والده أوريستيس التابع الروماني الأمين لأتيلا، وكذلك علم بذلك أودواكر من والده إديكا السكيري الذي حاول كريسافيوس على نحو كارثي تجنيده ليقتل أتيلا.

ترى كيف حصل هذا كله؟! عاد أوريستيس إلى ملكيته في بانونيا بعد وفاة أتيلا، حيث وقع عليه الاختيار ليقود جيشاً لمواجهة القوط الذين كانوا الآن يعدّون العدة للحرب من جديد. وأصبح أوريستيس ومن ورائه الجيش صانعاً للملوك، وبعدما نصّب بعضهم قام في عام 475 بتنصيب آخرهم، وهو ولده رومولوس الصغير الذي لم يطلق عليه لقب أوغسطس، وإنما أوغسطولوس؛

أي أوغسطوس الصغير من باب التصغير.

أصبح الجيش ذاته الآن مفكّكاً على نحو مهلك؛ إذ غدا بلا إمبراطورية بعيدة وبجهاز إداري آخذ بالانهيار، وقد جفت مصادر الضرائب، وتوقف دفع الرواتب، وفي نهاية المطاف فاض الكيل بقوات البرابرة. وقد كان أودواكر بفضل والده قائداً للسكيريين الذين قاموا بعد موت أتيلا بالعمل في خدمة روما، فساندوا في البداية أوريستيس الذي وعد بالدفع لهم نقداً، ثم بمنحهم الأراضي، لكن السيولة النقدية كانت شحيحة، ولم تكن هناك أي أراضٍ ليمنحها لهم. فما كان من أودواكر والسكيريين في النهاية إلاّ أن ثاروا على رمز السلطة الرومانية، وأحلوا ابن أحد قادة أتيلا العسكريين محلّ ابن ساعده الأيمن.

لقد أصبح الآن ثلث الإمبراطورية الغربية بأيدي البرابرة، وتولى زمام الحكم فيها أحد البرابرة. أكان هذا أمراً يبعث على الأسى؟! إنه كذلك بالتأكيد عند المحافظين، لكن أوروبا جديدة ستنبثق على المدى البعيد، أوروبا ذات تنوع جديد من الثقافات والشعوب. وقد صمدت روما نفسها بوسائل عديدة، بما في ذلك مؤسساتها، وثقافتها، وتقاليدها، وديانتها المسيحية. بينما في بريطانيا وحدها نسي الغزاة البرابرة روما، فكانوا يرون في مبانيها وأسوارها وطرقاتها أشياء غريبة من صنع البشر وما يؤكد أصولهم الوثنية. وعلى البرّ الرئيس نظر الحكام البرابرة إلى أنفسهم على أنهم ورثة يمتلئون زهواً وفخراً لسلطة موغلة في القدم. ولم يقدّموا لسيدهم الأسمي في القسطنطينية إلاّ اهتماماً ظاهرياً. أما في بلاد الغال فقد استولى غير الرومان على الدور (الفيلات) العائدة للرومان، وتعلموا اللاتينية، واعتنقوا المسيحية، وحافظت المدن الرومانية العظيمة على عظمتها. وبقيت اللاتينية لغة التواصل المشتركة الأولى بين المثقفين الأوروبيين طوال ألف وخمسمئة عام، وهو تقليد يتردّد صداه ويتجلّى على نحو باهت في يومنا هذا في المناسبات الرسمية التي تقيمها الجامعات الأوروبية العريقة، وعبر العالم المسيحي الذي فيه العبارة اللاتينية: "anna domini" (AD)؛ أي العام الذي ولد فيه المسيح ما تزال تقسم التاريخ إلى قسمين.

وماذا عن أتيلا نفسه؟! لقد ظلّ واحداً من الرجالات العظام الذين لا بد أن يخلّدهم التاريخ، فلو أنه اعتمد على الدبلوماسية أكثر، ولو أنه كان لديه مزيد من العقلانية، وأقل ميلاً إلى الحرب، وأظهر التزاماً بإدارة الحكومة، لكان في مقدوره أن يفعل الكثير، إذ كان في استطاعته أن يستولي على أوروبا الشمالية برمّتها، ويقترن بهونوريا، ويكوّن سلالة حاكمة يمتدّ حكمها من الأطلسي إلى الأورال، ومن الألب إلى البلطيق. وربما في عالم موازٍ، كان يمكن لبريطانيا أن تقع في أيدي الهون

بدلاً من أن تقع في أيدي الأنغل والساكسون. ولكان تشوسر وشكسبير وضعا أعمالهما باللغة الهونية، ولانتهى المطاف بنا إلى عبادة السماء الزرقاء الشامانية بدلاً من الربّ المسيحي. ولمّا كان الحال غير ذلك فقد ظلّ إسهام أتيلا في التاريخ الأوروبي مقيداً بهجرة البرابرة والانهيار الروماني، وهاتان صيرورتان واقعتان - على أي حال - وقد أثار أتيلا الاضطراب في كل منهما؛ إذ قام في صعوده بقيادة القبائل باتجاه الغرب على نحو أسرع مما لو كانوا يرتحلون لوحدهم، وعندما أصبح في السلطة همّش القبائل البعيدة عنه، وعمد إلى إبطاء حركته ذاتها. وبالمعايير السياسية والتاريخية لم يقم أتيلا بما هو أكثر من إضافة بضع صدمات سريعة في مسار تاريخ أوروبا، مفسحاً المجال واسعاً أمام تسارع هنا وتباطؤ هناك. وكانت محصلة ذلك توازناً تاماً بين الإيجابيات والسلبيات لم تكن له أي دلالة.

لقد كان هناك على امتداد هذا المسار كثير من الصخب والغضب، لكن هذا أيضاً لم تكن له أي دلالة. ويلخص تومبسون حياة أتيلا على نحو بليغ بقوله: «ألم يكن للهون إسهام مباشر في تقدم أوروبا؟! ألم يكن لديهم ما يقدّموه غير الرعب الذي اقتلع الشعب الجرماني من جذوره وجعل أبناءه يفرّون هاربين إلى الإمبراطورية الرومانية؟! الجواب هو: لا، لم يقدموا شيئاً.. لقد كانوا مجرد سلّابين نهّابين وقطّاع طرق».

أهذا هو الأمر إذاً؟! لا ليس كذلك تماماً، فثمة جوانب أخرى لشخصية أتيلا غير السلب والنهب والغزو، لأنّ اسمه ما زال يتردّد بوصفه أنموذجاً لنوع معيّن من السلطة، وإن كان تأثيره لا يظهر في إنجازاته العلمية، بل يدغدغ مخيلة الناس. لقد حطم الحقيقة التاريخية، ودخل في الأسطورة، ولسوف يكون هذا التحول موضوع الفصل الأخير.

12

ذكرى أتيلا: الهوني الصالح والطالح والهمجي

كان أتيلا في حياته ظالماً وبطلاً في آن معاً، ورمزاً للوثنية وأداة للرب سواء بسواء. وذلك الأمر يختلف باختلاف الزاوية التي يُنظر إليه منها. وفي السنين التي أعقبت وفاته اكتست الحقيقة لبوس الدعاية، والأسطورة، والخرافة، والهراء الخالص، وتدفقت من خلال سيل من الأدب الشعبي (الفلكلور) الذي انقسم إلى ثلاثة تيارات: الغرب المسيحي، والمناطق الحدودية الجرمانية والاسكندنافية، وهنغاريا.

لقد كان معظم ضحايا أتيلا وجلّ الذين كتبوا عنه من المسيحيين، وكان لدى هؤلاء منهاج عمل رسمي يقوم على إظهار أنه على الرغم من أن الوجود عبارة عن ساحة صراع بين الخير والشر، وبين الربّ والشيطان، فلسوف تكون النتيجة النهائية انتصار الرب، وبناء عليه فإن التاريخ البشري إنما هو تعاقب متقلّب للأحداث نحو ظهور المسيح في مجيئه الثاني، وكل حدث تاريخي يجب أن يُختبر بوصفه برهاناً على قدرة الرب وحكمته. ومهمة المؤرخ المسيحي تبين الحقيقة الضمنية من خلال تدفّق للأحداث يشوبه الضباب. فالفضل في تقدّم أتيلا الشرس عبر أوروبا لا يعزى له؛ لأنه كان أداة للرب على نحو غير متعمّد، وسوطاً ألهب به الرب ظهور المسيحيين عقاباً لهم على ما ارتكبوه من خطايا فيما مضى، أو بتعبيرات مجازية أخرى: عصارة انتقام الرب، والفرن المستخدم لصهر ذهبه وتنقيته وإخراج الشوائب منه، ومناسبة لإظهار قوة الرب، ليس بصورة مباشرة، بل من خلال ممثّليه الذين كلما علت مكانتهم كان ذلك أفضل، وتتراوح مكانه هؤلاء من الرهبان والراهبات العاديين إلى الأساقفة والبابا، إلى جانب ضحايا لم يتمّ اعتبارهم أشخاصاً مخفقين بل شهداء. وفي هذا الطوفان لا بد من أن نرى اضمحلال عالم روما الوثنية، وانبلاج فجر عصر جديد هو عصر النهضة المسيحية التي ينتظرها مجد أعظم.

إذاً فثمة منطق معيّن للطريقة التي تمت بوساطتها المبالغة في تشويه صورة الهون. وقد منح الوندال اسمهم لنوع من المغيرين السلّابين النهّابين؛ ونفخ القوطيون الروح في القوطية التي كانت أصلاً مصطلحاً يُستخدم للدلالة على الاضطهاد الثقافي قبل أن يضفى عليه معنى ينطوي على المجاملة، لكن الهون كانوا على الدوام خارج الحدود. وبالرجوع إلى الحوليّات التاريخية الموضوعة في السنوات الثلاثمئة التي تلت رحيل أتيلا ستخال أنه لم يخلّف شيئاً قائماً وراءه في بلاد الغال وإيطاليا، حتى قيل إنه أنزل الخراب بفلورنسة، وقتل خمسة آلاف شخص، مع أن الهون لم يعبروا أبداً نهر البو الذي يبعد مسافة مئة كيلو متر عن فلورنسة. وقد جاء في كتاب «سيرة

القديس لوبوس»: «لم تستطع أيّ مدينة أو قلعة أو مدينة محصّنة في أي بقعة كانت أن تصون دفاعاتها». ولم يترك أتيلا خلفه شيئاً غير أراضٍ قاحلة. لقد كان تجسيداً للنبوءة التي نطالعها في سفر رؤيا يوحنا: «ثم متى تمّت الألف السنة، يحلّ الشيطان من سجنه، ويخرج ليُضلّ الأمم» [سفر الرؤيا 20: 7 – 8، م]. وكلما كانت صورة الدمار أسوأ كان تأثير أولئك الذين تصدّوا له بنجاح أعظم. وقد حرص سيدونيوس الكاتب الأكثر مدعاة للإعجاب في عصره على أن يوجه الثناء والمديح في المقام الأول وبصورة رئيسة إلى أولئك الذين يحظون بتأييد رباني، وذلك هو ما قام به. إذ كان لديه أصدقاء يشغلون مواقع رفيعة في الإكليروس المسيحي على نحو ما تظهره رسائله التي بلغتنا. ومن هؤلاء الأصدقاء: لوبوس، رجل الدين الأبرز في بلاد الغال؛ وأفيتوس الإمبراطور المقبل، وحمو سيدونيوس؛ وبروسبير، خليفة أنيانوس في منصب أسقف أورليان الذي كان أعظم الأساقفة وأكثرهم مثالية؛ واثنا عشر أسقفاً سواه. وقد أصبح هو ذاته أسقفاً لكيرمونت – فيرانت حينما بلغ من العمر أربعين عاماً. تُرى من الذي أنقذ تروا وأورليان وروما حقاً؟! لم يكن ذلك إيتيوس وجيشه، بل ثلاثة رجال أتقياء: هم لوبوس، وأنيانوس، والبابا ليو، والحقّ أنهم أربعة إذا أضفنا إليهم أفيتوس الذي مكّنه التزامه المسيحي بالسلام من إقناع أصدقائه القوط الغربيين بالانضمام إلى إيتيوس.

كانت نتيجة منهاج العمل ذاك أن الأشخاص والأحداث الحقيقيين سرعان ما تواروا خلف الدعاية والرموز. وأضحى لوبوس والبقية مثالاً للورع، وأتيلا القائد القادم من الجحيم، كما ورد ذلك حرفياً في بعض اللوحات التي تظهره ذا قرنين شيطانيين وأذنين بارزتين.

تلكم هي سيرورة تنطوي على المكر والخداع؛ لأن المؤرّخين – ولا سيما أولئك الساعين مثلي إلى كتابة التاريخ بأسلوب السرد الروائي – يُغريهم المزج بين الأساطير والتاريخ لمجرد أنه ينتج عنهما قصة جيدة. وقد قمت بذلك في وقت سابق حينما عرضت لإنقاذ القديس إينان لمدينة أورليان. ودعونا نرَ ماذا كان من أمر انسحاب أتيلا من إيطاليا بعد لقائه البابا ليو، مفترضين أن هذه الواقعة قد حدثت بالفعل، وقد أصبحت بحلول القرن الثامن معجزة.

كان الشماس بول – وهو إيطالي معاصر لأتيلا ووضع تاريخاً للومبارديين – قد أورد التعليق التالي على لسان أتيلا: «آه! لم يكن ذلك الذي جاء (أي: ليو) هو من أرغمني على الرحيل، بل شخصاً آخر يقف وراءه والسيف في يده ويهدّدني بالموت إن لم أطع أوامره». وبعد ذلك قام الجميع تقريباً بترديد هذه القصة بأشكال مختلفة وذات خيال واسع على نحو مطرد. وأضحت

رافينا، وهي المقرّ المؤقت للإدارة الإمبراطورية، المسرح المألوف الذي دارت فيه الأحداث على الرغم من أن أتيلا لم يقترب منها على الإطلاق. وفي إحدى النسخ يتساءل أتيلا عمّن يقترب؟ فقيل له إن البابا قادم «ليتشفع لديك عن أبنائه مواطني رافينا». ويعدّ أتيلا ذلك من قبيل الدعاية، فيقول: «كيف يمكن لرجل واحد أن ينجب مثل هذا العدد الكبير من الأبناء؟!».

لقد وقع ذلك في القرن التاسع، ولكن بعد أربعمئة عام، وفي هنغاريا التي تحولت إلى المسيحية، نطالع في (شرعة الهنغار) أن أتيلا أخذ البابا أسيراً إلى أن أدخلت الرؤيا الفزع في نفسه، وذلك حينما رفع الملك بصره إلى الأعلى فشاهد رجلاً يحلّق في الهواء حاملاً سيفاً بيده، ويصرّ بأسنانه، ويهدّد بقطع رأسه، فما كان من أتيلا إلاّ الانصياع لطلب الرومان وإطلاق سراح خليفة بولص الرسول. وقد حول آخرون الرؤيا إلى إله الحرب مارس، أو القديس بطرس، أو حوّلوا اثنين من رفاق البابا إلى قديسين حاملين للسيف هما بطرس وبولص، وهي رواية مصوّرة في لوحة جدارية بريشة رفائيل رسمها في عام 1514 من أجل البابا ليو العاشر حين سُمّي البابا ليو، علاوة على ذلك فإن هذه اللوحة التي يحمل فيها ليو العاشر ملامح ليو الأول أطلقت عليها تسمية «عودة أتيلا الهوني من روما»، وليس من رافينا، وهو أمر نرجو التنبّه إليه. وهكذا فقد أصبحت أسطورة في غضون ألف عام، وتم تلقّفها بعد مرور ثلاثمئة عام على تلك الواقعة حقيقة مقبولة، وما تزال كذلك حتى يومنا هذا في أوساط معيّنة. ويذهب أحد المواقع المسيحية على الشبكة العنكبوتية للمعلومات (الإنترنيت) إلى القول بثقة عفوية: «الشكل الأشبه بالبشر الذي رآه أتيلا في الهواء حاملاً سيفاً بيده ربما كان ملاكاً، على نحو ما نطالعه في روايات مماثلة في الكتاب المقدس (الإنجيل)».

لقد حصل الأمر ذاته مع لقب «سوط الرب»، وكانت أول إشارة في المصادر إلى هذا اللقب قد وردت في كتاب «سيرة القديس لوبوس» الموضوع في القرن الثامن أو التاسع، لكن من المرجح أنه قد تمّ تداوله شفهياً قبل ذلك بزمن طويل. وتطالعنا في وقت لاحق نسخ عديدة لهذه القصة، وهاكم إحداها:

كانت تروا مدينة محصّنة تحصيناً جيداً بالأسوار والجند الذين كانوا بإمرة الأسقف، وبينما كان لوبوس متيقّظاً كان أتيلا الممتلئ زهواً وخيلاء يقترب على صهوة جواده ويضرب بعنف باب المدينة، فيسأله لوبوس من الأعلى: «من أنت يا من تشتّت شمل الشعوب، وتفرق جمعهم، وتجعلهم كالهشيم الذي تذروه الرياح، وتحطم العروش تحت حوافر جيادك؟! فيأتي الجواب:

«أنا أتيلا، ملك الهون، وسوط الرب». وكان رد الأسقف غير المتوقع: «آه! لقد حللت أهلاً، ووطئت سهلاً»، وأردف قائلاً: «سوط الرب الذي أنا خادمه! إنَّ أمر إيقافك لا يعود إليّ». وينزل ليفتح الباب بنفسه، وأمسك بلجام حصان أتيلا وقاده إلى داخل المدينة وهو يقول: «ادخل يا سوط ربي، واذهب أنّى تشاء».

يدخل أتيلا وجنده ويتجولون في الشوارع، ويمرّون من أمام الكنائس والقصور، لكنهم لا يرون شيئاً؛ لأنّ غيمة حجبت أبصارهم. وحين أصابهم العمى قادوهم في المدينة، وما إن خرجوا منها حتى استعادوا بصرهم على نحو عجائبي.. وهكذا روض خادم الرب ذلك الوحش.

لقد نجحت.. وينسلّ التاريخ بعيداً، وتبقى الأسطورة. وفي يومنا هذا يشير بعض المؤرخين ببساطة إلى أتيلا بوصفه «سوط الرب» كأنه كان يُعرف بهذا اللقب في ذلك الزمان، حتى إنك قد تطالع التعبير التافه بأنّ أتيلا ذاته قد تبنّى هذه العبارة كأنه كان ينطق باللاتينية واضطلع بدور السوط الإلهي عن وعي.

هناك العديد من البقاع في أوروبا الغربية التي لديها حكايات زائفة تماماً عن أتيلا والهون، وبعيدة كل البعد عن الحقيقة، بحيث يجب أن توضع الأسماء بين علامات الاقتباس. ففي منطقة فريولي شمال شرق إيطاليا حَرّفت حكايات التراث الشعبي الاسم الجرماني لأتيلا وهو إيتزل فجعلته إيزل، وخلطت بينه وبين إزلينو الحاكم الطاغية الذي عاش في القرن الثاني عشر: «قالوا إنه كان ابن الشيطان أو الكلب، ولديه شعر أسود فوق أنفه يقف حين يكون غاضباً، ويستهلّ كلامه بالنباح». وفي ميتز حظيت كنيسة صغيرة بتحصينات مبنيّة من حجر الغرانيت كسرت سيوف الهون. وفي ديو (في لورين، شرق فرنسا) أصيب الهون بالعمى لأنهم أسروا أسقفاً، وما إن أطلقوا سراحه حتى استردوا بصرهم، ولدى مودينا في إيطاليا نسخة خاصة بها عن القديس لوبوس. وفي ريمز فتح الشيطان بنفسه أبواب المدينة للهون.

وتضم كولونيا رفات أشهر ضحايا الهون، وهن القدِيسة أورسولا وعذراواتها الكثيرات اللواتي سأزودكم بعددهن عما قريب، ويمكنكم رؤية عظامهن حتى يومنا هذا في كاتدرائية كولونيا، لكنها لا تعود إليهن بالتأكيد؛ لأن الحكاية برمّتها إنما هي خرافة انبثقت عنها كتلة متشابكة من الأشكال المختلفة لهذه الحكاية. والبذرة غير المرجحة لهذه الحكايات إنما هي عبارة عن نقش يعود إلى القرن الرابع أو الخامس، وما يزال ماثلاً للعيان في كنيسة القديسة أورسولا، ووفقاً لهذا النقش فإن المدعو كليماتيوس أحد أعضاء مجلس الشيوخ قد انتابته رؤى حملته على إعادة بناء باسيليقا

في هذه البقعة إكراماً لبعض العذراوات الشهيدات، وليس ثمة ما يشير إلى عدد العذراوات، ولا ذكر للهون. وعلى مرّ الأعوام صار للضحايا قصة جمعت في عام 1275، وقام وليام كاكستون بطباعتها لأول مرة في عام 1483، وتتعلّق هذه الحكاية بأميرة راح ملك وثني يخطب ودّها، وهي تُدعى أورسولا، إما من بريطانيا أو بريتاني، وذلك تبعاً للنسخة التي تروي الحكاية، لكنها رفضت الزواج منه، وكرّست نفسها للعذرية الأبديّة، وطالبت بأن ترافقها عشر فتيات عذراوات في رحلة حجها. وتصبح الحكاية معقّدة على نحو لا رجاء منه، مع رحلة عبر الراين إلى روما ونشوب نزاعات بين أساقفة متنافسين. وقد كانت النتيجة أن أورسولا وعذراواتها في طريق عودتهن بلغن كولونيا فوجدنها محاصرة على يد الهون، فقام هؤلاء بضرب أعناقهن تنفيذاً لأوامر أميرهم الذي لم يُكشف عن اسمه.

ولا تعدو هذه الحالة أن تكون إلاّ أسطورة، سرعان ما أضحت مضحكة؛ لأن نسخة مبكرة لهذه الحكاية سجّلت عدد الشهيدات الإحدى عشرة باستخدام الترقيم اللاتيني «XI M»، حيث يرمز حرف (M) لكلمة شهداء، ولكنّ حرف (M) في اللاتينية يستخدم أيضاً للدلالة على العدد 1000، وذلك هو ما فهمه بعض الناسخين غير المعروفين آنذاك. وفجأة أصبح العدد الآن أحد عشر ألف عذراء، لكن ذلك غير معقول؛ لأن أورسولا كانت واحدة من أصل إحدى عشرة، وبالتالي فإن العدد أحد عشر ألف عذراء سيشتمل على ألف أورسولا. لكن لا بأس، فقد ازدهرت الأسطورة، وألهمت طائفة دينية وأشكالاً مختلفة لهذه الأسطورة ولوحات، كلّها تتفرع بعضها من بعض، أشبه بنصّ خياليّ متشعب. وفي إحدى النسخ يتقدم أتيلا للزواج من أورسولا، متيحاً المجال أمامها لتأكيد قداسة عذريتها، فتقول له: «اغرب عن وجهي! فإنني ما ترفّعت عن قبول قيصر زوجاً لي لأصبح ملكاً لشخص ملعون مثلك». وفي عام 1143 تم إرسال العظام التي يفترض أنها عائدة لبعض العذراوات الشهيدات منذ زمن بعيد إلى دير راينلاند في ديزيبودنبرغ، فألهمت المتصوّفة والمفكرة هيلديغارد في بينجين لتأليف أغنية «يا إكليزيا» حيث ترفض فيها الزواج الدنيوي من أجل محبة الرب. وكثيراً ما كانت تظهر أورسولا وحكايتها وفي وقت لاحق في القرنين الخامس عشر والسادس عشر في صور بريشة أستاذين مجهولين أحدهما هولندي والآخر ألماني، وبريشة كارافاجيو، كذلك فإن كاراباجيو صوّر حياتها في ثمانية أحداث قصصية مظهراً الهون يرتدون الزي الفلورنسي. وفي القرن السادس عشر استمدّ لوكاس كراناخ الأكبر من هذه القصة موضوع تمثال نحته خلف مذبح كنيسة في دريسون، حيث لم يركّز فيه على الضحايا، بل على الأمير الهوني الهادئ المتّكئ على سيفه. وفي عام 1998 استخدم الكاتب المسرحي

البريطاني هوارد باركر هذه الأسطورة ليتقصّى معنى الالتزام بالعذرية (الضحايا) وطبيعة اللامبالاة الأخلاقية (الأمير) التي يبدو أنها تذكّر بتلك التي لدى ضباط قوات الأمن الخاصة للنظام النازي. وفي غضون ذلك تمخضت الأسطورة عن عالم آخر، بعدما ألهمت الراهبة الإيطالية القديسة أنجيلا التي عاشت في القرن السادس عشر، حيث وضعت نظام الراهبات الأورسوليات اللواتي أصبح لهن بحلول عام 1700 ثلاثمئة وخمسين مؤسّسة في فرنسا وحدها، تم إغلاق العديد منها عنوة إبان الثورة الفرنسية. وفي فالينسيان أعدمت بالمقصلة إحدى عشرة راهبة أورسولية لقيامهن بتعليم الكاثولوكية. وهذا ما أفسح المجال لأولئك الذين يهوون عقد المقارنات التاريخية أن ينظروا إلى الثوريين الإلحاديّين على أنّهم من الهون. وهكذا استمرّت بكثرة وعلى نحو لا نهاية له القصص، واللوحات، والمسرحيات، والموسيقا، والرهبانيات النسوية، والمدارس، والكليات. ونتيجة للطائفة الدينية الفرعية التي أسّستها هيلديغارد، إضافة إلى ازدهار الأناشيد الدينية القروسطية قام رباعي موسيقي بتسجيل النشيد الديني «11000 عذراء: تراتيل للاحتفال بعيد القديسة أورسولا».

نكتفي الآن بهذا القدر.. إن كنت تبحث عن الهون الحقيقيين فإن ذلك مفيد بقدر فائدة استخدام مسرحية هاملت للبحث في تاريخ الدانمارك في العصور الوسطى.

لقد تجذّرت وازدهرت ضروب أخرى من التحدار الشفهي في الإمبراطورية الرومانية السابقة، ربما كان أشدّها غرابة حكايات «أتيلا الصالح»، فمن الجليّ أن المدن الباحثة عن أصولها رأت في أتيلا قوة للتجديد، على نحو ما نطالعه في القصة الخرافية التالية:

يُحكى أنّ أتيلا كان في مدينة بادوا حين جاء شاعر يحمل قصيدة من نظمه في مديح هذا القائد العظيم، وقد راح أعيان بادوا يعدّون العدة لإقامة حفل استعراضي، فقام الشاعر وفق ما تقتضيه الأعراف الأدبية بإسباغ أصول إلهية على أتيلا، فقاطعه بطلنا قائلاً: «ما معنى هذا؟! أيمكن أن تقارن رجلاً فانياً بآلهة خالدة؟! لا شأن لي بمثل هذا العقوق!» ويصدر أوامره بإحراق هذا الرجل المسكين فوراً ومعه أشعاره. وعندما أضحت المحرقة جاهزة والشاعر مقيداً في الأعلى دنا أتيلا قائلاً: «كفى.. كل ما أردته أن ألقّن هذا المتملق درساً فحسب، فلنتجنب إخافة الشعراء الذين يتوسّلون بالحقيقة ليتغنوا بتمجيدنا».

ربما توافرت هنا مادة كافية لظهور بعض الملاحم الشعرية العظيمة في عصر ما بعد الرومان بإحدى اللغتين الفرنسية أو الإيطالية. وما من كاتب أفلح في قبول هذا التحدي، بيد أنّنا نصادف

منذ ذلك الحين بضعة أشخاص مخفقين حاولوا جميعاً على نحو لا طائل منه القيام بتحوير التاريخ من أجل إنجاز عمل جديد بالاهتمام. وفي عام 1667 قُدّم للجمهور العمل المسرحي (أتيلا) لمؤلفه بيار كورني الذي عُرض عشرين مرة، ومن ثم خمد ذكره وأصبح في غياهب النسيان الجدير به. أما العمل المسرحي الميلودرامي الألماني الرديء الذي عُرض على خشبة المسرح في فيينا بضعة مرات في عام 1808 لمؤلفه زكارياس فرنر، وهو محام، وفيلسوف، وقس، وكاتب مسرحي، فينتهي بمقتل أتيلا على يد الأميرة الرومانية هونوريا، وليس الأميرة الجرمانية إلديكو، كما أنها ليست ميتةً طبيعية كما ذكر التاريخ. وثمة نسخة إنكليزية عُرضت على خشبة المسرح في لندن في عام 1832 تُختتم بقول بليدا شقيق أتيلا الذي قتله أتيلا، لكنه ما يزال حياً هنا على نحو ما: «ها! أهو ميت؟ أمات الطاغية؟ ها! ها! (ضاحكاً على نحو هستيري) ».

كان هذا الابتكار الكئيب هو الأساس للعمل الأوبرالي الذي وضعه فيردي عام 1846 بعنوان (أتيلا)، ولما كان فيردي قد ألّف هذه الأوبرا حين كان الصراع من أجل توحيد إيطاليا (ريسورجيمنتو)[1] محتدماً على أشده، فقد جاءت الأوبرا حافلة بالتعابير الحماسية للوطنية الإيطالية المستلهمة من الطموحات المهلكة لبطلها، إذ يغوص المشهد الأول في الفكرة الرئيسة للعمل حينما تظهر عذراوات أكويليا وهن أحياء خلافاً لأمر أتيلا الواضح، ويسأل أتيلا عبده البريتوني أولدينو قائلاً: «من ذا الذي تجرّأ على مخالفة تحريمي إنقاذهن؟» فيرد أولدينو بأنهنّ تقدمة وتعبير عن الثناء الجدير بأتيلا: «إنهن مقاتلات خارقات للطبيعة، لقد قمن بالدفاع عن إخوتهن...».

ويقاطعه الملك قائلاً: «ما هذا الذي أسمعه؟».

ويضيف: «من الذي أثار الشجاعة لدى نساء لسن مولعات بالحرب؟».

فتجيب أودابيلا التي هي أميرة أكويليا، وابنة أبيها الذبيح بحيوية، مردّدة بصيحة مدوية: «إنه الحب المقدس الذي نُكنّه لبلادنا!»

ويتضمن أحد الأبيات التماساً من إيتيوس إلى أتيلا بصوت إيزيو الباريتون (الجهير الأول) سرعان ما أصبح شعاراً سياسياً:

Avari tu l'universo،

(1) حركة النهضة والوحدة الإيطالية في القرن التاسع عشر، (المترجم).

Resti l'Italia a me

لعلك تمتلك العالم بأسره

ولكن دع إيطاليا لي

يعد موضوع القصة هراء ما بعده هراء، إذ يلقى أتيلا حتفه طعناً على يد أودابيلا المعدّة لتكون زوجة له، لكن مناشدة إيزيو العاطفية من أجل بعث روما (من القمم الخالدة) صادفت نجاحاً فورياً، وكان للعاطفة التي تولّدها الموسيقا عشاقُها، ولهذا السبب ما زال هذا العمل الأوبرالي يقدم من حين إلى آخر[1].

ما يزال في إمكانك في بضعة أماكن أن تسمع الضجّة التي أحدثها موت أتيلا يتردّد صداها على نحو خافت. ويقال في أودين التي لا تبعد كثيراً عن أكويليا إن الحصن المقام أعلى التل الذي يتحكم بمدينتهم قد شيّدته الحشود الخاضعة لأمر أتيلا، حيث راحوا يستخدمون خوذاتهم لتحلّ محلّ الدلاء، كي يستطيع قائدهم الاستمتاع بمشهد أكويليا وهي تحترق. وثمة اسم يستخدم بمثابة ذكرى: إنه هونفريدوس، وتكوينه الأساسي اسم مركب من كلمتين هما «هون» و «سلام» للدلالة على الشخص الذي يستطيع أن يعقد صلحاً مع الهون. وكان الاسم هونفرو كما ورد باللغة الفرنسية القديمة قد أدخله النورمان أو النورمانديون إلى إنكلترا، حيث أصبح همفري، وفي إيطاليا أصبح أمبيرتو. وقرب شالون عند الحافة الشمالية لسهول كتالونيا ثمة شاخصة تشير إلى الجهة الشمالية الشرقية نحو «معسكر أتيلا»، الذي تبيّن أن لا وجود له أصلاً. وهذه الرابية التي تغطيها الأشجار عبارة عن حصن مقام على قمة هضبة يعود بناؤه إلى القرن الأول الميلادي، وقد اقترن اسمه بأتيلا لا لشيء إلاّ أنّ وصول الهون إليه كان الحدث الأبرز الذي وقع في ذلك الحين تقريباً. ولو أنّ تلاميذ المدارس الفرنسية يعلمون أيّ شيء عن الهون فلا بد أنها عبارة التفاخر التي يزعمون أن أتيلا أطلقها: «أينما يمرّ جوادي، فسوف لا ينبت العشب». وأخيراً أبقته شهرته حياً أيضاً في الأفلام التي كان أولها من إخراج فريتزلانغ بعنوان «انتقام كريمهيلد» في عام 1924، ومؤخراً في عملين أعيد إنتاجهما، ويتعين ألاّ نأتي على ذكرهما إلاّ في الهامش[2].

---

(1) قدم هذا العمل على خشبة مسرح دار الأوبرا الملكية في لندن في عام 2002.

(2) أتيلا الهوني (العنوان الأصلي Attilo Flagello di Dio) 1954، من بطولة أنتوني كوين وصوفيا لورين؛ والثاني (أتيلا) أنتج للتلفاز الأمريكي وصور في ليتوانيا في عام 2001، من بطولة جيرارد بتلر بدور أتيلا، وبورز بوث بدور إيتيوس، وسيان فيليبس بدور جدة أتيلا، وستيفن بيركوف بدور روا (روغا).

كان الجرمان؛ أي القبائل الجرمانية، ينظرون إلى الأمور على نحوٍ مختلف نوعاً ما؛ لأنهم كانوا يشكّلون جزءاً من إمبراطورية أتيلا، وبناء عليه فهم يتذكّرونه باحترام أكبر. وكان الشعراء الملحميون والشعراء يتنقّلون بين الجماعات الناطقة بالجرمانية في أوروبا القديمة وهم يتغنّون بالأمجاد الغابرة، ويحملون إبداعاتهم من بلاط إلى آخر. فيرتحلون من لومبارديا في شمال إيطاليا إلى تولوز عاصمة القوط والمناطق الجرمانية المعزولة في فرنسا، والأراضي الناطقة بالجرمانية الناشئة شرق نهر الراين، وكافة البقاع الواقعة شمالاً. وهكذا أضحى أتيلا شخصية شهيرة في الحكمة الجرمانية القديمة التي تعني الحكمة الإنكليزية المبكرة. وقد أُلمح إليه في أقدم قصيدة إنكليزية «ويدسيث» التي من المحتمل أنها نظمت في مرسيا[1] في القرن السابع. لقد سرقت هذه الأساطير جميعها كل شيء من التاريخ، وحرّفته حتى ضاعت ملامحه وحولته إلى مجموعة مهملات من الأبطال والعجائب والآلهة والموتيفات الأدبية.

أضحى أتيلا بحلول القرن التاسع جزءاً من القصص البطولية الإسكندنافية والجرمانية كذلك، وذلك أمر غريب في بابه؛ لأنّ إمبراطوريته قصيرة الأجل لم تكد تبلغ بحر البلطيق، ومع ذلك فإن إمبراطورية الهون حتى وإن لم تكن جرمانية فإنها تبدو قوية بما يكفي لتستولي على ذاكرة التراث الشعبي والمخيلة الشعبية. كان عامة الناس في شمال ألمانيا حتى القرن المنصرم يطلقون على العمارة الجنائزية القائمة على التلال الركامية والقبور تحت الأرض تسمية «أسرة الهون» (HunnenbeHe Hun beds). وهكذا فإن أتيلا لدى النرويجيين والدانماركيين انضمّ إلى الملك القوطي الشرقي إرماناريك وغونديكاريوس (غونداهار أوغونثر) البورغوندي في القصص التي نُسجت عنهم جميعاً وتحمل موضوعات كبيرة تتّصل بالشرف، والعدالة، والانتقام، وتصاريف القدر. ولقد حمل الفايكنغ اسم أتيلا معهم إلى آيسلندا في القرن العاشر، ومن ثم إلى بقاع أبعد منها، إلى غرينلاند التي هي مصدر الحماسة الشعرية التي تعود إلى القرن العاشر والموسومة بـ «أنشودة أتيلا الغرينلاندية». حتى إنّ اسمه مضى إلى بقاع أبعد، فبلغ العالم الجديد مع ثورفين كارلسيني وبرفقته مئة من رجاله الفايكنغ، وقام في عام 1018 بتأسيس مستعمرة لم تعمّر طويلاً على ساحل نيوفاوندلاند، ويمكنني أن أتخيّلهم يتحلّقون حول النار في بيوتهم المكسوّة بالأعشاب وهم يُنصتون إلى شاعرهم الملحمي. ولم يكن ليسمع باسم أي من السكان الأصليين للأمريكتين (وهي التسمية التي أطلقها الرجال النورويجيون[2] على الهنود الحمر وشعب الإسكيمو)، لكنها

(1) هي إحدى ممالك إنكلترا الأنغلوساكسونية السبعة، (المترجم).

(2) إسكندينافيا وما حولها

فكرة غريبة أنّ أحد الأعمال الشعرية والموسيقية الأولى التي سمعت في العالم الجديد كانت تروي حكاية أتيلا والهون وحروبهم مع البورغونديين.

ذلكم كان جوهر الأساطير؛ إنه حدث ثانوي في المصادر المكتوبة، لكن حضوره قوي في الذاكرة الشعبية، ممّا مرده على الأرجح إلى أنه كان بمثابة عداء عائلي. ولم يبقَ سوى بضع شذرات بلغتنا ولا تشير إلى شعبيتها: ملحمة لاتينية تعود إلى القرن التاسع، ونسختان جرمانية وإنكليزية للقصة ذاتها، وبضع قصص بطولية إسكندنافية. أما البطل الرئيس فيها فهو المدعو وولثر الذي كان رهينة في بلاط أتيلا، ومقرّباً من الملك، وقد فرّ هارباً مع أميرة تدعى هيلديكو[1]، وكانا يمتلكان كنزاً، فيقوم البطل هاغن الذي ربما كان بورغونديًاً أو هونياً بمطاردتهما بصحبة ملك البورغونديين غونثر، وتنشب معركة كبيرة تنجلي عن قيام مصالحة بين الأبطال الثلاثة. وفي النسخة الإنكليزية التي بلغنا جزء منها والمعنونة بـ «ولدر» تحثّ هيلديكو وولثر على محاربة غونثر:

يا صاحب أتيلا

لا تدع - حتى في هذه الساعة -

شجاعتك تخذلك، ولا كرامتك أيضاً..

وتتداخل هذه الحكاية مع مجموعة أخرى من الأساطير عن البورغونديين أنفسهم المعروفون كذلك باسم (النيبلونجس) أو (النيفلونجس). وكما هو عليه الحال في جدائل أخرى من الحكايات فقد تناول الشعراء هنا عناصر الحكاية بوصفها مقوّمات ملحمة يمكنك أن تؤلّفها بنفسك، إذ يمكنك أن تجعل سيغفريد[2] يغري أتيلا بالدخول إلى الحجرة التي تحتوي على كنزه حيث يلقى أتيلا حتفه، أو أن يقوم أتيلا بإهداء هاغن فتاة عذراء تنجب له ألدريان الذي يقوم بإغراء أتيلا. وفي حكايات أخرى يقوم هاغن أيضاً بإنجاب نيفلونغ الذي أطلق اسمه على مجموعة بأكملها من القصص البطولية التي ما من رابط يجمع بينها.

وهاكم إحدى تلك النسخ:

يمتلك غونثر البورغوندي[3] كنزاً، ولديه شقيقة تدعى غودرون متزوجة من أتيلا. فبدافع من

---

(1) الاسم الألماني الأصلي لإلديكو.

(2) أو (سيغورد) باللغة النرويجية.

(3) وهو الذي كان قد لقي مصرعه في الحقيقة على يد الهون السابقين لأتيلا قرابة عام 437.

رغبة أتيلا في أن ينتزع من غونثر اسم المكان الذي كان الكنز مخبأ فيه يقوم بقتل غونثر بإلقائه في جحر للأفاعي، ومن ثم تنتقم غودرون على نحو رهيب. ففي أعظم النسخ التي بلغتنا لهذه الأسطورة والموسومة بـ«فولسونغ ساغا»[1] تقيم غودرون مأدبة ضخمة قائلة: إنها لإظهار قبولها بقَدَرها، وبعيداً عن ذلك تقوم بقتل ولديها من أتيلا. ثم في أثناء المأدبة «يسألها الملك عن مكان ولديه، فتجيب غودرون: «سأخبرك وأدخل البهجة إلى قلبك. لقد سبّبت لي حزناً هائلاً عندما قتلت شقيقي. والآن، عليك أن تنصت لما سأقوله لك، لقد فقدت ولديك، وعلى المائدة تجد جمجمتيهما تُستخدمان بدلاً من قدحين للشراب، وقد احتسيت بنفسك دماءهما ممزوجة مع النبيذ.. وقد انتزعت قلبيهما وقمت بشيهما على السفود وقد تناولتهما».

وتتقمص غودرون دور إلديكو القاتلة، وتقتل أتيلا في أثناء نومه، وتضرم النار بقصر الهون النيام.

وفي مقدورك أن تضيف إلى هذا قصة داعمة عن برون هيلدا التي فاز بها غونثر بمساعدة البطل وقاتل التنين سيغفريد، الذي سبق له الزواج من غودرون قبل زواجها من أتيلا. ويقوم غونثر بقتل سيغفريد ويستولي على كنزه، ومن أجل الحصول على هذا الكنز قضى أتيلا على حياة غونثر.

يواصل أتيلا حتى النهاية الاضطلاع بالدور المحوري في العديد من هذه الحكايات عن الجشع والانتقام. فقد يكون منافساً من أجل كنز نيبلونغن، أو إنه بسبب أصله الدخيل غير الجرماني قد يضطلع بالدور غير المحتمل لحاكم قوي عطوف يضحّى به. وتلكم هي الطريقة التي يصوَّر بها في أشهر الملاحم الجرمانية القروسطية النيبلونغن التي نظمها قرابة عام 1200 شاعر مجهول شبيه بهوميروس بالاعتماد على العديد من الحكايات الشائعة، لكن يبدو أتيلا في النيبلونغن ذا شخصية ضعيفة على نحو غريب؛ ففي سياق زمان الملحمة يجسّد أسمى فضيلتين لدى الملوك: الوفاء ورقّة الحاشية، وهذا ما يجعله يكاد يكون عديم الفائدة بالمعنى الدرامي، إذ إنه يظهر كأنه جاهل بكل الأمور المهمة، فهو لا يعلم أن زوجته كريمهيلد كانت تلبس ثياب الحداد على زوجها السابق سيغفريد، ولا يملك أي فكرة عن التوتّرات الواقعة بين ضيوفه البورغونديين وقومه الهون، ولا يتطرّق إليه الشك إطلاقاً حتى عندما يحضر البورغونديون إلى الكنيسة بكامل دروعهم. إذ إن كريمهيلد هي التي تصدر الأوامر بما يجب القيام به، تاركة إياه في الظلام. وذلك يناقض تماماً شخصية أتيلا التاريخية، فهو أتيلا الماكر الذي أحرجت سجلاته الدقيقة بريسكوس وبعثته

(1) النسخة الآيسلندية للملحمة البطولية الجرمانية النيبلونغن، (المترجم).

الدبلوماسية، وهو أتيلا الذي أنشأ أمة، وبنى إمبراطورية، وتحدى كلاً من القسطنطينية وروما.

لا يعدّ الوفاء ورقة الحاشية من الشيم الحميدة التي يتّصف بها الأبطال ذوو الدم الأزرق، وكانت هذه جزءاً من المشكلة التي واجهت في القرن التاسع عشر الكتاب الألمان الذين كافحوا من أجل تكييف هذه الثروة الوطنية. ورأى الفيلسوف جورج هيغل أنه يتعيّن إسقاط الأمر برمّته باعتباره رجعياً، ولا صلة له بالموضوع، وتافهاً ومبتذلاً، وأنّ من الأفضل للكتاب الذين هم في حاجة إلى المصادر أن يركّزوا على الجذور الحقيقية لألمانيا؛ أي المسيحية والإمبراطورية الرومانية.. لكنّ الكتاب لم يعيروا ذلك أي اهتمام..

إضافة إلى العمل الدرامي البائس الذي وضعه فيرنر كانت هناك خمس مسرحيات أخرى عن أتيلا باللغة الألمانية في القرن التاسع عشر، تلتها أربع مسرحيات أخرى في القرن العشرين. وقد حاول الكاتب المسرحي فريدريش هيبل التوسّل بالديالكتيك الهيغلي في عملية بناء مسرحيته الثلاثية «نيبلونغ» التي عُرضت على الجمهور في عام 1861، وجعل شخصية أتيلا مليئة بالفضائل المسيحية، بحيث أن موت أتيلا أدّى إلى قيام عالم مسيحي جديد شجاع.

كان فاغنر هو من أدرك كيفية التعامل مع أتيلا على أفضل نحو. وفي عمله الأوبرالي الذي يقع في أربعة أجزاء «دورة خاتم [النيبلونغ] قام بما يقوم به الشاعر الملحمي الجيد، إذ انتخب بعناية ما يلائمه على أفضل نحو من الأساطير الجرمانية والإسكندينافية. وقد رفض التاريخ وأسقط أتيلا تماماً بإيثاره إلى حدّ بعيد الميثولوجيا الإسكندينافية التي فيها: ذخيرة من الذهب، وخاتم القوة، وخوذة الإخفاء، وآلهة، وعمالقة، وتنين، وعذراوات مقاتلات سحريات..

ولعل الذكريات الشعبية كانت ستطوى لولا انحدار أوروبا إلى أشكال جديدة من البربرية في أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وبتوافر الظروف الملائمة أضحى الازدراء والتحامل رمزاً جاهزاً. وكانت هذه قد نشأت أول مرة إبان الحرب الفرنسية الألمانية في عام 1870[1].

قام الألمان في صيف عام 1870 بقتل سبعة عشر ألف جندي فرنسي، وأسروا مئة ألف آخرين في سيدان، ومن ثم يمّموا وجههم شطر الجنوب نحو شالون وسهول كتالونيا للأسباب الجيوإستراتيجية ذاتها التي كانت لدى أتيلا؛ أي الفضاءات المفتوحة والتقدم السريع، إلاّ أنّ

(1) عادة ما يطلق عليها المؤرخون البريطانيون تسمية الحرب الفرنسية-البروسية، إلاّ أن بروسيا كانت آنذاك ألمانيا، وبالتالي لا فرق بينهما.

هدفهم هنا كان باريس. وفي أكتوبر/ تشرين الأول من ذلك العام ظهرت مقالة في إحدى الصحف الأوسع انتشاراً ساوى فيها صاحبها بين الغزاة الألمان والهون، وعقد مقارنة بين القيصر فيلهيلم الأول وأتيلا، وذكّر بقصة إنقاذ القديسة جنفييف لباريس. والآن - كما في الماضي - يُعين الرب أولئك الذين يُعينون أنفسهم، ويبدو أن ذلك ما قام به بجلاء. فبعدما أعاقهم الأسرى تحت وطأة ما حقّقوه من نجاح، ومن ثم تباطؤوا بفعل حرب العصابات التي شنّها عليهم المسلحون الفرنسيون، تعثّر تقدّم الجيش البروسي واضطرّ إلى التوقف. وما يبعث على العجب أن أورليان كانت الحدّ الغربي لتقدّمهم، وهي المكان ذاته الذي قفل منه أتيلا عائداً أدراجه، وقد ثبّتت الهدنة التي أعقبت ذلك صورة ألمانيا في الخيال الفرنسي على أنها تمثّل الهون الجدد في أوروبا في ذلك العصر.

أخذت القوى العظمى تنظر بعضها إلى بعض على مدى السنوات الأربعين التالية من زاوية ضيّقة، فلم ترَ كلٌّ منها في الأخرى غير الغدر والهمجية، وكان الفرنسيون على وجه الخصوص يكظمون في صدورهم الغيظ من جراء شعورهم بالذلّ والعجز، فراحوا يتحيّنون الفرصة للانتقام من أولئك الذين يجسّدون الهون من جديد.

والواقع أن الألمان رحّبوا بهذه المقارنة، فعندما أرسلت ألمانيا قوات إلى الصين لمواجهة حركة الملاكمين «البوكسر»[1] خاطب القيصر فيلهيلم الثاني جنوده قائلاً: «اجعلوا جميع أولئك الذين يقعون في قبضتكم تحت رحمتكم.. ومثلما اكتسب الهون منذ ألف سنة بزعامة أتيلا سمعةً جعلتهم أحياء في التحدار التاريخي، كذلك فقد يصبح اسم ألمانيا معروفاً بالطريقة ذاتها في الصين، حيث لن يجرؤ أيّ صيني مرة أخرى حتى على أن ينظر شزراً إلى أيّ ألماني».

سارت النزعة القومية الألمانية جنباً إلى جنب مع الإمبريالية الألمانية. ولمّا رأت ألمانيا الإمبرياليين المنافسين من حولها فرنسا وروسيا وبريطانيا قامت بالاستيلاء على مستعمرات جديدة، وأسّست أسطولاً يضارع أسطول بريطانيا القوة العظمى في العالم، لذلك شعرت الطبقة الحاكمة في بريطانيا على نحو شديد بما يشكّله التوسع الألماني من تهديد. وكان من بين هؤلاء الوصيّ الأدبي للإمبراطورية والوضعية الإنكليزية روديارد كبلينغ.

ويعدّ كبلينغ أول من عرّف قراء الإنكليزية على مساواة الفرنسيين بين الألمان والهون، ففي عام 1902 ألهمه حادث طواه النسيان منذ أمد بعيد، حين اقترحت ألمانيا القيام باستعراض قوة بحرية مشتركة لتحصيل الديون من فنزويلا. وحين شعر كبلينغ بالسخط على فكرة التعاون مع

---

(1) حركة القبضات المتآلفة، وهم المتمردون القرويون الذين حاولوا في عام 1900 طرد الأجانب جميعاً من الصين.

ألمانيا راح يصبّ جام غضبه بلسان المجذّفين الذين يرمزون إلى أولئك الذين يكدحون بجدارة من أجل الملك والإمبراطورية:

وأخبرونا الآن بالقسم السري

الذي قطعتموه لعدوّكم المعلن!

يبدو المجذفون الآن مهووسين، ويكتنفهم الغموض، ومتظاهرين بالورع، ومتباهين بقوميّتهم، وهاكم قولاً يعبّر عن السخط والنقمة من كولونيل (مقدم) حادّ الطبع:

على مشهد من السلام

من البحار الضيقة

يجوبون نصف العالم

مع بحارة مخدوعين، ليقيموا تحالفاً جديداً

مع القوط والهون الفاجرين

وبعد اثنى عشر عاماً تحقّقت مخاوف كبلينغ من دون أي اعتراف منه بأن الإمبريالية البريطانية والألمانية ما هما إلاّ وجهان لعملة واحدة. ومع ذلك فقد واجهت ألمانيا مشكلة فريدة هي حتميّة اندلاع حرب على جبهتيها مع كل من فرنسا وروسيا. وقد كان مفتاح النصر يتمثل بالغزو السريع لفرنسا، وهو ما يعني تقدماً سريعاً عبر بلجيكا المحايدة، وأن يجري التعامل مع أي إشارة إلى المقاومة أو التأخير بمنتهى القسوة. وهكذا كان لا بد في حالة ألمانيا من أن تنطوي الحرب على القيام بغزو غير مبرّر لبلد محايد، واستعداد لاستخدام الترويع. وكان من المحتّم فعلياً أن تصبح النظرية ممارسة عملية، وهذا ما حدث بعد أيام قليلة من زحف الألمان داخل بلجيكا في أغسطس/ آب من عام 1914. ففي مدينة لوفين (لوفان) التي تستمد شهرتها من شهرة جامعتها، أدى وجود بعض القناصة البلجيك إلى إثارة ردّ فعل مبالغ فيه [لدى الألمان، م] أوقع الرعب والهلع في النفوس، وكان بمثابة هدية دعائية قُدّمت لمناوئي ألمانيا. فقد قتل المئات، وسجن الآلاف، وأحرق ألف مبنى، بما في ذلك المكتبة القديمة وما تضمّه من كتب بلغ عددها مئتين وثلاثين ألف كتاب. وفي 29 أغسطس/ آب استنكرت التايمز خسارة جامعة لوفان البلجيكية التي شبّهتها بجامعة أوكسفورد على يد الهون، وقد حثّ كبلينغ ذاته بريطانيا على الدخول في الحرب:

مهما كان شأننا بالأمس وحالنا الآن

مهما يكن مصير أطفالنا

انهضوا الآن واندفعوا إلى الحرب

فالهون على الباب!

لم يقتصر رد الفعل هذا على البريطانيين، فقد أصبحت «نيران لوفان» ترمز لمصير «بلجيكا الصغيرة المسكينة»، وأدخل الرعب إلى نفوس الدول التي لم تنخرط في الحرب بعد. وفي أنحاء أوروبا كافة برز الغضب والتحامل والتظاهر بالورع. ومن سويسرا بعث الكاتب الفرنسي الذي سينال لاحقاً جائزة نوبل «رومان رولان» وقد سبق له أن كان مؤيداً للألمان إلى حدٍّ ما برسالة احتجاج موجّهة إلى الأديب الألماني وحامل جائزة نوبل لعام 1912 غيرهارد هوبتمان، مبرزاً فيها التشابه بين الألمان والهون، ومتسائلاً عما حلّ بتراث غوته؟ فأجاب هوبتمان بنزق، وكان قد سبق له انتقاد النزعة القومية البروسية، بأن الألمان يُعدُّون في الوقت الراهن أبناء أتيلا أكثر من كونهم أبناء غوته. وكان ذلك جيشاناً عاطفياً كُوفئ عليه بمنحه وساماً في إنعامات عيد ميلاد القيصر.

وفي غضون شهرين من الزمان انحلت الشبكة الدقيقة للمعاهدات بأكملها، وسار الألمان من جديد على خطى أتيلا، وزحف جيشهم في سهول كتالونيا، وقصّروا من جديد عن تحقيق النصر الفوري الذي كانوا ينشدونه. وفي هذه المرة كان البريطانيون حلفاء لفرنسا، وسرعان ما تبنّوا تشبيه الفرنسيين وكبلينغ المهين، فضلاً عن اللقب الأقل إهانة «البوش»[1].

أضحت المعادلة المرتجلة التي وضعها كبلينغ (ألماني = هوني) ملحوظة عامة، وغالباً ما تطلق بصيغة المفرد المعمّم على (الهوني)، ونستطيع الحصول على مئات الأمثلة بمجرد إجراء بحث سريع على الشبكة العنكبوتية العالمية (الإنترنيت). وتطالعنا مجلة (War Illustrated) في عددها الصادر في ديسمبر/ كانون الأول من عام 1917 بمقالة تحمل عنوان «آثار أقدام الهون». وكان روبيرت ليندساي ماكاي من الكتيبة الحادية عشرة من [فوج، م] مرتفعات أرجيل وسوذرلاند [للمشاة] قد كتب في مذكراته قائلاً: «قد كان جلياً من نواحٍ عديدة أنّ الهوني كان

(1) كلمة مجهولة الأصل، وأحد اشتقاقاتها من كلمة (ألبوش) (Alboche)، ويفترض أنها مزيج من كلمتي (Allemand): ألماني، و(Caboche) وهي كلمة عامية تعني رأس. لكنها تستخدم أيضاً للدلالة على نوع من المطارق وجزء من نبات التبغ.

يعتزم التمسك بخطه الثالث، إلاّ أنّ زحفنا المبكّر حيث اقتحمنا صفوفه وقمنا بحركة التفاف حول أجنحة جيشه أنزلت الهزيمة به».

بيد أن هناك أمراً غريباً يتعلّق بهذا المصطلح، إذ لم يسبق أن تحدّث أحد عن قوم أتيلا الهون باعتبارهم «الهون». ومع ذلك فإنه إذا كنت تعتمد على المصادر الأدبية فإن الناطقين بالإنكليزية حيثما وجدوا يعتبرون أن كلمة «هوني» ترمز إلى ألمانيا والألمان والهمجية الألمانية، فقد كانت شيئاً اختصّ به الإنكليز دون سواهم. إذ لم يتحدث الفرنسيون عن «الهوني» على الرغم من أنهم كانوا أول من حدّد أوجه الشبه بين الهون والألمان؛ لأن كلمة البوش بصيغة الجمع (Les Boches')، أو المفرد (le Boche) تفي بالغرض، وتبدو إلى حدّ ما أكثر إنسانية، وتماشياً مع التعبير الألماني تومي (Tommy) المستخدم للدلالة على الجندي الإنكليزي، ويقابله بالإنكليزية فريتز وجيري. ولا تحتوي أي من اللغتين الفرنسية والألمانية على تعبير ذي دلالات شيطانية يطلق على «الهوني».

وقد تخال أنّ استخدام كلمة «الهوني» كان دارجاً في اللغة الإنكليزية، ومن المؤكّد أنّ الظروف كانت سيئة بما يكفي لتبرير انتشارها. وحينما انتهى وضع الجبهة الغربية إلى حرب خنادق دخل الجنود في كابوس بدا فيه ارتكاب أيّ عمل مشين أمراً محتملاً، وباتت الشائعة تعدّ حقيقة. فقد علم الجنود العاديون بأنّ الألمان قد غلوا الجثث لصنع الشحم، وصلبوا السجناء في المنطقة الحرام، وقاتلوا بحراب مسنّنة تعدّ الأفضل لبقر بطون الإنكليز. وكما كتب بول فوسيل في كتابه «الحرب العظمى والذاكرة الحديثة» قائلاً: «إن تلك الرغبة في استخدام الحراب ينبئ عما تنطوي عليه الشخصية الألمانية من شر، بحيث تستمر إلى يومنا هذا الشائعة التي مفادها أنها كانت أداة محدّدة توسل بها «الهوني» الشرير».

ومع هذا لم يتم إدراك ذلك في الخطوط الأمامية، فقد شعر «تومي» بشيء من الألفة مع «البوش» زارفات ووحدانا، ووقع فريتز وجيري شأنهما شأن تومي في جوّ من الرعب أملاه كبار ضباط الجيش. وفي بعض الأحيان كان تومي يشير إلى صاحبه القديم جيري، أو حتى صاحبنا القديم المسكين، وتدلّ عبارة صاحبنا القديم على الحميمية بل المودة أيضاً، ولم يتحدث المقاتلون عن «الهوني» لأنّهم لا يكنّون مشاعر الكراهية، بخلاف ما كان يتمناه أولئك الذين في الوطن.

ففي مسرحية «نهاية الرحلة» لمؤلفها الجندي السابق آر. سي. شيريف يتحدّث الرجال

في الخنادق عن «البوش» لا عن «الهوني». والواقع أنّ أحد الشخصيات يعلّق قائلاً: «الألمان محترمون حقاً، أليس كذلك؟! أعني، خارج الصحف».

وأما خارج الصحف فقد كان مصطلح «الهوني» يخصّ أولئك الذين في أرض الوطن ويعنون بإثارة البغضاء مثل كبلينغ، ومروجي الدعاية الرسميين، والمنهضين للألمان من كتّاب العناوين الرئيسة في الصحف. وتستعاد ذكرى إي. إيه. ماكنتوش الذي قتل في معركة كامبراي في نوفمبر/ تشرين الثاني من عام 1917 حين كان في الرابعة والعشرين من عمره، فيقول في القصيدة المعونة بـ «التجنيد»:

أيها الفتيان: أناديكم، فهبوا لمدّ يد العون

وعلى جدار عربة القطار

ألصقوا الإعلان، وتذكّرت عندئذ

تلك الأيدي التي خطت هذا النداء

المدنيّون البدينون يتمنون لو

استطاعوا الانطلاق وقتال الهوني

ألا ترونهم يشكرون الرب

لأنهم تجاوزوا الحادية والأربعين عاماً؟

في يوم الأحد 10 نوفمبر/ تشرين الثاني من عام 1918؛ أي قبل يوم من توقيع الهدنة، أعلنت صحيفة أخبار العالم أن الحرب قد وضعت أوزارها باستسلام الهوني.

كان مصطلح الهوني مناسباً في ذلك العصر، بيد أن زمانه ولّى. وبحلول بدايات الثلاثينيات من القرن العشرين بدأ بالاندثار، وراح يُستخدم في الخطاب الإمبريالي المفتعل، مفسحاً المجال أمام مصدر رعب أكبر؛ أي «النازيين». فقد أطلقت معاداة هتلر للسامية العنان لشرّ أضمحلت أمامه وحشية «الهوني». وقد تمثلت المحاولتان الأخيرتان [للتعريف بالهون ورصد تاريخهم] بصدور كتابين في الأربعينيات من القرن العشرين هما «الهوني في أفريقيا» و«غزو الهوني»، وفي يومنا هذا أصبح المصطلح مهجوراً وعفّى عليه الزمن، ولا يستخدم إلاّ لاستحضار لحظة في الزمان وما تنطوي عليه من تحاملات قديمة.

بدأ نجم أتيلا بالصعود في موطنه هنغاريا على أثر وصول الهنغار؛ أي المجر في عام 896. وفي الجزء الأكبر من ذلك القرن سلك أولئك المحاربون البدو مسلك الهون المتأخّرين، فراحوا يُغيرون على بلغاريا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا إلى أن وضع الإمبراطور أوتو الأول حداً لأساليبهم في اللصوصية، وقطع الطريق على ضفاف نهر ليتش في عام 955. واستقروا بعد ذلك، إذ لم يعد لديهم مكان يهاجرون إليه، وما من قوم أشدّ ضعفاً منهم ليغيروا عليه. وفي السبعينيات من القرن العاشر قام زعيمهم آنذاك بإبرام اتفاق مع الإمبراطور أوتو الثاني والبابا، نصّ على أن يصار إلى تعميد غيزا وتحرير جميع العبيد المسيحيين في مقابل الاعتراف به ملكاً. وللتصديق على هذا الاتفاق، تمّت خطوبة ولده فايك Vaik، الذي دُعي لاحقاً إستفان (ستيفن) إلى جيزيلا ابنة ملك بافاريا، وهو أحد الملوك التابعين للإمبراطور أوتو الثاني. إلاّ أن تلك الفقرة المتعلّقة بتحرير العبيد المسيحيين لم تحظَ بالشعبية لدى النبلاء الهنغار، وكانت تلك البقعة تموج بالغضب حينما توفي غيزا في عام 997. وقد كان الشاب ستيفن البالغ من العمر اثنين وعشرين عاماً هو من أكد أخيراً السلطة الملكية، وتوَّج نفسه ملكاً في عام 1001. وإيذاناً بانطلاق الاحتفال بهذه المناسبة أرسل البابا سلفستر الثاني إلى ستيفن تاجاً وضعه الملوك الهنغار جميعاً طوال الأعوام التالية وفق ما تقضي به التقاليد، ويمكن رؤيته[1] اليوم في المتحف الوطني الهنغاري رمزاً متألّقاً لثبات هنغاري مسيحي في قلب أوروبا الوسطى. ومضى ستيفن قُدُماً ليؤسّس عشر أبرشيات برعاية اثنين من رؤساء الأساقفة، واضطلع بدور الراعي للعديد من الأديرة. وقد طوب قديساً في عام 1038 بعد مضيّ خمسين عاماً على رحيله.

تُرى ما هو المغزى من هذا كلّه؟! ربما كان نبيل هنغاري مسيحي من مُلّاك الأراضي (لنقل) في عام 1020 يتحدّر من وثني سلّاب نهّاب، وأسلافه من البدو الأميين.. وليس ثمة هوية واضحة هنا، ولا جذور عميقة، ولا حقّ تاريخي بهذه الأرض. أما اليوم فإن أولئك الذين يفتقرون إلى مثل هذه الأمور يرغبون بالحصول عليها كيفما اتفق. وذلك ما قام به الهنغار الذين يستعيدون الماضي بارتياح، ويستذكرون الشعب والقائد الذي بدا نجاحه رائعاً على نحو يُنبئ بنجاحهم.

وسرعان ما قدّمت الحكاياتُ الشعبية التي تغنّى بها شعراء البطولة ثلاثةَ أبطال عظام، هم: أتيلا، وأرباد، وستيفن. وقد كان ربط ستيفن بأرباد أمراً يسيراً؛ إذ لم يكن يفصل بينهما إلاّ قرن من الزمان. لكن ثمة فجوة تمتدّ أربعة قرون من الزمان بين أرباد وأتيلا، وتباعد بينهما مسافة ألف ميل

(1) أو نسخة طبق الأصل عنه؛ إذ إن صحته ما تزال مثاراً للجدال..

لم يشر إليها أحد. ومع ذلك فقد كانت مثل هذه الفجوة بمثابة هدية للشعراء، وسرعان ما أضحت زاخرة بقصص على غرار ما يلي:

خلف الملك أتيلا وراءه يوم مات ولدين؛ أولهما دنجزيش الذي لقي حتفه في الحرب، وثانيهما إرناك، وعرف بـ (كسابا) أو تشابا[1] وقد كان هذا ابن الأميرة الرومانية هونوريا التي تزوّجها أتيلا بطريقة لا نملك تفسيراً لها. وقد عاد تشابا إلى آسيا مخلّفاً وراءه ثلاثة آلاف محارب يعرفون باسم السيزيكيلي (Szeklers) [بالإنكليزية] و(Szekely) [بالهنغارية]؛ أي حراس الحدود. وكان تشابا قد تضرع إلى الطبيعة أن تخبره كلما وجد قومه أنفسهم في ضيق ليعود ويتولى حمايتهم. وهذا ما حدث في مناسبتين، فكان يعود بسرعة لإنقاذهم. ومرت السنون، ورحل تشابا عن الحياة. وفي النهاية قام أعداء أقوياء وراحوا يهدّدون حراس الحدود السيزيكيلي. ولقد عاد تشابا مرة أخيرة على رأس جيش جرار غطى السماوات المرصعة بالنجوم، وراح يفرّق جمع الأعداء ويشتّت شملهم. وأضحى الدرب الذي سلكه الجيش المتألق الخيالي طريقاً في السماوات، ولذلك يطلق الهنغار على درب التبانة تسمية «درب الأرواح»، ويستذكرون تشابا وأباه البطل أتيلا. ومن تشابا تحدّرت تلك الأجيال، ومن خلالها انضمّ الهون بيُسر إلى المجر، ومن بينهم: أوجك وإيلود، ومن ثم آلموس الذي نشأت سلسلة من الملاحم المكرّسة لذكراه؛ لأنه قاد قومه على غرار النبي موسى عائداً إلى جبال الكاربات، حيث لقي حتفه، وخلفه في النهاية أرباد. ولقد عاد المجر آنذاك واستقروا في موطنهم، حيث تحالفوا مع السيزيكيلي الذين تمسّكوا بأداء واجباتهم بوصفهم حراساً للحدود، ولذلك ظلّوا إلى يومنا هذا يشكّلون في وسط رومانيا أقلية كبيرة ناطقة باللغة الهنغارية، وما زالوا يدّعون أنهم يتحدّرون من أتيلا.

وقد تغنّى بهذه الحكايات شعراء البطولة الوثنيون الذين ليس لهم موطن، وراحوا يُنشدونها في بلد مسيحي لديه جحافل من الرهبان المثقفين. ولما انتهى التحدار الشفهي حلّ محله الأدب المكتوب، فاستولى أصحابه على هذه الحكايات القديمة، وهم يحافظون على منهاج عملهم ذي النزعة القومية. وفي القرن الثالث عشر ردَّد قسّ مجهول الاسم من طائفة البنديكيتين في «شرعة الهنغار» الزعم بأن أتيلا جدّ أرباد المباشر، وما غزوه بلاد المجر عبر جبال الكاربات في عام 896 إلاّ عودته إلى بلاد كانت ملكاً له على كل حال، والفضل في ذلك يعود إلى أتيلا[2]. وعلى أثر وضع هذا الكتاب عانى الهون من نكسة عارضة باعتبارهم أبطالاً؛ لأن الهنغار جعلوهم على

(1) كلمة تعني: «راعي»؛ أي راعي قومه.

(2) يستند هذا المقطع إلى كتابات باومل وبرنباوم؛ وثيري وكوردت ودايم.

قدم المساواة مع المغول الذين اجتاحوا البلاد في عامي 1241، 1242. ولقد استعاد أتيلا سمعته على يد إخباريّ يدعى سيمون كيزاي الذي صوّر بطله وقد أحاطت به مظاهر الثراء، وقد كانت ثروته عظيمة حتى إن اصطبلات خيوله كانت مكسوة بالمخمل القرمزي. ومنذ ذلك الحين ظلّ أتيلا يعدّ الجدّ والملك البطل، بل كان يُعتقد بأن سيف أتيلا، وهو سيف الإله مارس، بقي مملوكاً من ملوك الهنغار إلى أن تم إهداؤه إلى دوق جرماني في عام 1063 حيث قام بدوره بإهدائه إلى إمبراطوره هنري الرابع الذي...

وهكذا فإن الأساطير قد تتوالى عن أساطير ولن تنقطع إن تركنا الأمر على الغارب، ومع أواخر القرن الخامس عشر وجدنا أتيلا قد أضحى أشبه بشارلمان هنغاري، وسلف أرباد وستيفن، بل خليفتهما ماتياس كورفينوس أعظم ملوك هنغاريا الذي امتدحه رجال البلاط بوصفه «أتيلا الثاني»؛ لأنه أعاد هنغاريا إلى مواقع القوّة والمجد، من حيث هي ملكية مركزية قوية، ولقد أدخلت هذه المقارنة الحبور إلى نفس ماتياس. وقد أضفى مؤرّخه الأثير إلى نفسه الإيطالي أنطونيو بونفيني على أتيلا صورة الروماني، وجعله شخصيه تحمل الإرهاصات الأولى لعصر النهضة، وابتدع له خُطَباً عظيمة في معرض إشارته إلى مقتل بليدا ومعركة سهول كتالونيا. وعلى كل حال فإن المقارنة بأتيلا لم تكن تدعو إلى الزهو دوماً، إذ إنّ أحد نقاد ماتياس، وهو كالماخوس، وكان إيطالياً أرستقراطياً شديد الشغف بالملكية البولونية، رأى فيه تهديداً للسلام في أوروبا، وهاجم في كتاب تناول فيه سيرة الهون ماتياس في صورة أتيلا، وقدم فيه أتيلا بوصفه رجلاً غدّاراً يطعن في الظهر، وطاغية يستولي على الأراضي. لكنه لم ينكر أنه كان هنغارياً في الصميم، وتلك أسطورة كانت تطيب للأرستقراطية الهنغارية، بل حتى للملك أيضاً. وفي القرن الثامن عشر وجدنا أسرة الإسترهيزي[1] يسوقون سلسلة نسبهم الباعث على الفخر، إنما الملفق، إلى أتيلا مباشرة.

ولا عجب إذاً إن كان الهنغار اليوم يختلفون في نظرتهم إلى أتيلا عن نظرة الأوربيين الغربيين. وهذه ليست بالفكرة غير الصالحة؛ فقد كان أتيلا في نهاية المطاف سلّاباً نهّاباً أكثر منه إمبراطوراً، غير أنه لم يكن ليفوق في نهجه هذا معظم القادة في زمانه لو أنّ الظروف أتاحت لهم فرصة لكسب ما أمكنهم من ضحاياهم وأعدائهم. فالنصر والترف وحدهما يتيحان للزمن إبراز فضائل أكثر تحضراً، ولم يكن أتيلا ناجحاً بما يكفي ليبسّر السبيل إلى ظهور تلك الفضائل، فقد كان يستطيع أن يقيم إمبرطورية تمتدّ من المحيط الأطلسي حتى بحر قزوين، وأن ينازع روما وهي في ذروة

(1) وهم من أمراء الإمبرطورية الرومانية المقدسة، ورعاة الموسيقار هايدن وأصحاب القلعة التي اشتهرت باسم فرساي الهنغارية.

مجدها، كما كان يمكن لورثة إمبراطوريته أن يستولوا على روما ذاتها، ثم ينقضّوا على القسطنطينية ويُعيدوا توجيه مجرى التاريخ وجهة مختلفة. ولو التقط هذه الرؤية ولو بنظرة خاطفة لما استطاع أن يركّز فكره عليها، ناهيك عن تحقيقها؛ لأنه لم تكن له السيطرة على صنيعته أخيراً، بل كانت هي التي تتحكّم به، وقادته إلى الموت، وسارت بنفسها إلى نهاية متعجلة. لقد كان الإرث الذي خلّفه يتجسّد باسمه، وصورته، واللّغز الذي يكتنف ما كان يمكن أن تؤول إليه الأمور.

المحتويات

أتيلا الهوني

ملك البرابرة وسقوط روما

يعد كتاب (أتيلا الهوني - ملك البرابرة وسقوط روما) لمؤلفه جون مان واحداً من أهم الكتب التاريخية، التي تناولت تاريخ قبيلة الهون على مدى عدة قرون، حيث كانت تقيم في إقليم منغوليا في الصين.

ربما كانت قبيلة الهون واحدة من قبائل البرابرة المزعجة التي صعدت ثم سقطت، لولا أنموذج أصلي لأتيلا يتسم بالقوة إلى حد استثنائي ويدعى (موتون)، وقد صعد نجمه في عام 209 ق.م.

كان موتون قد قدّمه والده طومان رهينة إلى إحدى القبائل؛ ليتخلص منه، لكن موتون استطاع أن ينجو وينتقم من أبيه ويقتله، كما قتل كثيرين، واتخذ من جمجمة أحد الحكام المجاورين كأساً له والتي أصبحت ترمز للقوة المعتادة للحكام من البدو الرّحّل.

وبعد ذلك بنى موتون إمبراطورية تمتد على مساحات شاسعة، وكان الهون يوسعون إمبراطوريتهم على مر العصور بالاستيلاء على مناطق جديدة، حتى جاء دور روما التي تحالفت مع القوط لمواجهة جحافل البرابرة من آسيا الداخلية، بيد أنه لا سبيل لمقاومة الهون الزاحفين حتى قرعوا أسوار روما في منتصف القرن الخامس ميلادي على يد ملكهم أتيلا الشجاع الذي اعتاد أن يستغرق في اللهو والملذات وكثرة الشرب التي قضت على حياته بعد أن كان يخوض أعتى المعارك، ويخرج منها منتصراً.

السعر: 75 درهماً


9 789948 172406



